التلخيص

في علوم البلاغة

للإمام جلال الدين محمد بن عبد الرحمن
القزويني الخطيب

ضبط وشرح
الأديب الكبير الأستاذ
عبد الرحمن البرقوقي
منشىء البيان والمدرس بمجلس النواب

دار الفكر العربي

مقدمة الشارح للطبعة الأولى

التى طبعت سنة ١٩٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

(الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله)

حياطة الدين مِلاك الخير ، والتفقه فيه قِوام السعادة ؛ وإنما السبيل إلى هذا معرفة اللغة التى جاء بها ذلك الدين ، ومِسَاك اللغة علم البيان ، الذى لولاه لم تر براعة كاتب ، وخلابة شاعر ، وذرابة خطيب ، وما كنت تسمع نظماً أنيق الظاهر ، عميق الباطن ، بل المعانى السوقية ، والألفاظ المبتذلة التى تعافها الطباع ، وتمجها الأسماع ؛ والذى لولاه لاستسر إعجاز القرآن[1] ، ولاستمر به يدَ الدهر[2] السَّرار ، فينجزم إذ ذاك حبل الدين ، وتنهار — معاذ الله — دعائم اليقين .

وهذا ما حدا إمام اللغة فى عصره : الشيخ عبد القاهر الجرجانى إلى وضع كتابين فى هذا العلم ، دار لها فلك الفصاحة ، وبرقت أسارير البيان ، سمى أحدهما أسرار البلاغة ؛ والآخر دلائل الإعجاز .

---

(١) استسر : من قولهم : استسر القمر ، أى خفى ليلة السرار ، والسرار : آخر ليلة من الشهر .

(٢) يد الدهر : أبد الدهر .

كتب فى هذا الفن قبل الإمام عبد القاهر : جماعة من البلغاء ، مثل : الجاحظ وقدامة الكاتب وابن دريد ، بَيدَ أن ذلك الإمام هو الذى أخذ بِضَبْعَيْهِ[1] ، وأناف به على اليفاع[2] فهو الذى عين له رسوماً يُعرِّجُ عليها ، وسن له قوانين يُعْمَدُ إليها ، وأبرز ذلك فى كلام لايقوم بفصاحته لسان ، ولا يَطَّلِعُ فَجَّهُ إنسان[3]

قام بعد هؤلاء أبو يعقوب يوسف السكاكى : إمامٌ فَتَّ فى عضده حب الفلسفة[4] ، فعمَدَ إلى هذا العلم ، وقبَعَ فى كِسْرِ بيته[5] ، لا يرى إلا نفسه ، ولا يسمع إلا حسه ، ووضع ما وضع مما نهج فيه أهل النظر من الحكماء ، لامنهج المطبوعين من البلغاء ، وهو وإن فاق عبد القاهر فى التقسيم والتبويب وتقريب الأحكام ؛ فلم يدرك شأوه فى لطف الحس ، وصفاء الديباجة ، وبراعة الكلام ؛ فكان وسطاً بين عبد القاهر وأضرابه من المتقدمين ، وبين عبد الحكيم وأترابه من المتأخرين .

---

(١) الضبع : العضد .

(٢) اليفاع : ما ارتفع من الأرض ، وأناف به على اليفاع ، وأخذ بضبعيه : يريد أنعشه ونوه به وسما .

(٣) اطلع الأرض : بلغها ، والفج : الطريق الواسع بين جبلين فى قبل من أحدهما .

(٤) يقال : فت هذا الشىء فى عضده : إذا كسر قوته ، والمراد بلغت منه واستولت عليه .

(٥) قبع القنفذ : أدخل رأسه فى جلده ، وكذلك الرجل إذا أدخل رأسه فى قميصه ؛ وكسر البيت : جانب الخباء .

نهض بعد ذلك جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزوينى الخطيب ، فهذب ماوضعه السكاكى ، وضم إليه نتفاً مما وضعه عبد القاهر ، وأخرج للناس كتاباً هشت له النفوس ، وأصاب منها مواقع الماء من ذى الغُلَّة الصادى .

ظهر حوالىْ ذلك قوم درجوا من عش الفلسفة ، فوضعوا على هذا الكتاب الشروح والحواشى ، وسلكوا بهذا العلم مسلكاً تنكره اللغة ، ويستهجنه البلغاء ، فأغمضوا عن أسرار البلاغة ، وتشبثوا بالفلسفة ، وحمى بينهم وطيس المناظرة ، حتى أتوا على الذَّماء الباقى من هذا العلم ، وحتى أضحى وقد انهالت دعائمه ، وتنكرت معالمه :

كأن لم يكن بين الحَجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

أتى على ذلك حين من الدهر بلغ من هذا العلم نَسِيسَهُ[1] ، حتى أتيح له فى هذا العصر إمام[2] تولى الله تأديبه ، وأرضعه أفاويق حكمته ، وأوحى إليه صالح العلم ، وأيده بآيات الحق : إمام أرسله الله رحمة للغة والدين ، رحمة للغة بما يدبجه يراعه ، وما يحييه من آثار المتقدمين ، ورحمة للدين بما يبين من صحيحه ، ويكشف عن صريحه .

فبينا تراه فى جَحْفل من البلاغة والبيان ، ينافح كتائب العىّ بعَضْب يمان ، ويفرى أحشاء الفهاهة بيراع أحد من السنان[3] ، إذا هو فوق منبر

---

(١) النسيس : بقية الروح ، ويقال : بلغ منه نسيسه : إذا أشرف على التلف .

(٢) هو أستاذنا الإمام الشيخ محمد عبده .

(٣) الجحفل : الجيش ، وينافح : يضارب أشد المضاربة ، والكتائب جمع كتيبة : وهى الجيش أيضاً ، والعضب : السيف القاطع ، استعير هنا للسان ، ويفرى : يقطع ، والمراد ظاهر .

التذكير ، يسوق للناس الرشد فى نوابغ الكلم ، وروائع الحكم ، فلا يلبث أن يقوم من أود المائل ، ويجتث من النفوس جذور الباطل(١) ، وبينا تراه ينقب فى مناجم العلم ، ليلتقط من آثار الآباء ، ما تكون فيه عبرة الأبناء ، إذا هو يخرج للناس من منجم علمه ، جواهر تزرى بتلك الجواهر ، ويبز بها شأو الأوائل والأواخر .

كان من بين ماقرأناه عليه حفظه الله : كتابا أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لذلك الإمام ، فما هو إلا أن سطع فينا نور هذين الكوكبين ، حتى استبان لنا سوء ما كنا نعتسف فيه(٢) ، ورحمنا أنفسنا وأنصبناها فى غير طائل ، ومطايا من العمر أنضيناها فى سبيل الباطل ، وحتى علمنا أن مالدينا من هذا العلم لم يكن إلا صبابة لا تنقع غلة(٣) ، ولا تغنى عن رواد البلاغة .

وهذا ما حرك النفس إلى شرح ذلك الكتاب ، الذى هو عمدة طلاب البلاغة فى هذا العصر ، وقبلتهم التى يحجون إليها ، لولا ما يعترض سبيلهم من اختصار ألجأ المؤلِّفَ إليه رغبةٌ أن تكون قواعد هذا العلم على طرف الثمام(٤) ، والذى عقد عليه أولئك القوم سحباً من الألفاظ حجبت معانيه دون الطالب لتلك الأسرار ، كما تحجب الغيوم صفحة البدر دون الأنظار ، ولم نزل رَدَحاً من

---

(١) الأود : الاعوجاج ، ويجتث : يقتلع .

(٢) الركاب يعتسفن الطريق : يخبطنه على غير هداية .

(٣) نقع الماء العطاش : سكنه ، وهذا الشىء لايغنى عنك : لا ينفعك .

(٤) الثمام : نبت ضعيف لايطول ، ويقال : هو لك على طرف الثمام : أى هين المتناول .

الزمن نستخير الله فى أن نلج هذا المأزق المتلاحم ، حتى حار لنا سبحانه ولدينا من الصبر درع مسردة لا تنفذ فيها السهام[١] ، ومن الثقة بالله قَبَسٌ[٢] يضىء لنا دُجُنَّات الظلام .

أسلفنا أن ثمرة هـذا النوع من العلم هى إدراك إعجاز القرآن ، والوقوف على الأسرار التى بها يرتفع شأن الكلام ، و يفضل بعضه بعضاً . لكن لابد للمرء قبل ذلك أن يحظى برَسٍّ[٣] من اللغة ، و يصيب ذرواً من النحو ، و يرشف الضرَب من لسان العرب[٤] ، و يكون له مع ذلك خاطر كدم فى مكدم ، وذهن إذا لاقى الضريبة صمم[٥] .

أما النحو : فهو معيار لا يتبين نقصان كلام ورجحانه ، حتى يعرض عليه ، ومقياس لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه ، ومن شذ فيه فقد خمش وجه الكلام ، وجعل نفسه غرضاً لسهام الملام : انظر كيف نعى على أبى نواس حين غلط فى قوله يصف الخمر[٦] :

---

(١) الردح : المدة ، والمأزق : المضيق . ويقال : سرد الدرع : نسجها ، وهو تداخل الحلق بعضها فى بعض .

(٢) القبس : جذوة من نار ، والدجنة : الظلمة .

(٣) يقال : بلغنى رس من خبر وذرو من قول : أى شىء منه .

(٤) الرشف : المص ، والضرب : العسل الأبيض الغليظ والمعنى ظاهر .

(٥) كدم فى مكدم : طمع فى مطمع ، وقوله وذهن إذا لاقى الضريبة صمم ، فالضريبة : المضروب بالسيف وإنما دخلته الهاء — وإن كان بمعنى مفعول — لأنه صار فى عداد الأسماء كالنطيحة ، يشبه الذهن بالسيف فى المضاء .

(٦) لأن فعلى أفعل لا يجوز حذف الألف واللام فيها ، وإنما يجوز

كأن صغرى وكبرى من فواقعها حصباء در على أرض من الذهب

وكيف سلقه الناس بألسنتهم ، حين قال فى الأمين محمد[1] :

ياخير من كان ومن يكون إلا النبى الطاهر المأمون

وقل لى بعيشك : هل يمكن الجاهل به أن يذود عن القرآن فيما عساه أن يخفى من وجوه الإعراب ، فيدرك ماقاله العلماء مثلا فى قول الله جل شأنه : «إن الذين آمنوا و الذين هادوا والصابئون[2]» وما استشهدوا به من قول الشاعر :

وإلا فاعلموا أنا وأنتم بغاة ما بقينا فى شقاق

وأما اللغة و الأدب فهما مسرح الفصاحة ، ومعنى البلاغة ، نعم ، وهل يتسنى للقائل أن يعمد إلى ما كان من الكلمات عذب النطق ، سهل اللفظ ، غير حوشى مهجور ، ولا سوقى مردود ، وما كان من التراكيب جيد السبك ، محكم الرصف ، غير مستكره فج ، ولا متكلف وخم ، وما كان من التشبيه و المجاز و الكناية قد أصاب المحز ، ووضع فيه الهناء مواضع النقب ،

حذفهما من فعلى التى لا أفعل لها نحو : حبلى ، إلا أن تكون فعلى أفعل مضافة ، وههنا عريت عن الإضافة .

(١) فإنه رفع الاستثناء من الموجب .

(٢) سيمر بك فى الشرح أن « الصابئون » مرفوع على الابتداء وخبره محذوف والنية به التأخير عما فى حيز إن من اسمها وخبرها ، كأنه قيل : إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى ، حكمهم كذا ، والصابئون كذلك ، وإن فائدة التقديم التنبيه على أن الصابئين مع كونهم أبين المذكورين ضلالا وأشدهم غيا ، يتاب عليهم إن صح منهم الإيمان والعمل الصالح فما الظن بغيرهم .

إلا إذا ضرب فى اللغة بسهم ، وجرى فى أساليبها على عِرْق[1] ، وهل يتأتى للرجل أن يدرك إعجاز القرآن ، وتبرزه على سائر الكلام ، حتى يلم بجميع ضروبه ، ويسبر سائر أساليبه .

ولقد أفضى الجمود بقوم إلى أن بخسوا الأدب حقه ، ولم يوفوه من الإعظام قسطه ، حتى صوّحت لديهم زهرته ، وذَوَتْ بينهم نَضرته[2] ، وصار من يحاول العلم منهم ، فإنما يرتوى من آجن ، ويكتنز من غير طائل ، ألم يعلموا أن العلوم عيال عليه ، وأن الشريعة مفتقرة إليه ، وأن مثلها ومثله قول أبى الأسود الدؤلى :

فإلاَّ يَكُنْها أَوْ تَكُنْهُ فإنَّهُ أَخُوها غَذَتْهُ أمه بِلِبانِهَا

وهل بلغ أئمة الدين هذه المنزلة : فَهْم أغراض القرآن ، ومعرفة أسرار الشريعة ، إلا بعد أن قبضوا على خزائم الأدب ، وألقيت إليهم مقاليد اللغة ، ألم يكن مما نجم عنه تعدد الآراء بينهم ، أن كان أحدهم يروى من كلام العرب ما يروى الآخر غيره ؟ هذا لفظ القرء مثلا ، ذهب مالك رحمه الله إلى أنه الطهر ، وحجته فى ذلك قول الأعشى :

أَفِى كلِّ عامٍ أَنْتَ جاشِمُ غَزْوَةٍ تَشُدُّ لأَقْصاهَا عَزِيمَ عَزائِكا

---

(١) يقال : فلان يصيبُ بكلامه المحز ، ويضع الهناء مواضع النقب : إذا كان ماهراً مصيباً . والهناء : القطران ، والنقب جمع نقبة : وهى أول مايبدو من الجرب قطعاً متفرقة . والعرق : الأصل ، والمعنى ظاهر .

(٢) صوحت الزهرة : يبست ، وذوى البقل : ذبل .

مُوَرَّثَةً مالاً وَفِي الْحَيِّ رِفْعَةً   لِمَا ضَاعَ فِيهَا مِنْ قُرُوءِ نِسَائِكَا

وذهب أبو حنيفة رحمه الله إلى أنه الحيض ، ومستنده قول الراجز :

يَا رُبَّ ذِي ضِغْنٍ عَلَيَّ فَارِضِ   يُرَى له قَرْءٌ كَقَرْءِ الْحَائِضِ

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : قصوا الشارب وأعفوا اللحى ، قال قوم معناه : وفروا وكثروا ، وقال آخرون : قصروا ونقصوا ؛ حجة من ذهب إلى التكثير قول جرير :

ولكنا نُعِضُّ السيف منها   بِأَسْؤُقِ عَافِيَاتِ اللَّحْمِ كُومِ(١)

وحجة من ذهب إلى التقصير : قول زهير .

تَحَمَّلَ أَهْلُهَا منها فبانوا   عَلَى آثارِ مَنْ ذَهَبَ العَفَاءُ

ومثل هذا كثير : لايكاد يحصيه الاستقصاء ، حتى لقد اختصه العلماء بالتأليف ، وأفردوه بالكتاب ؛ اللهم إنَّ الصادَّ عن معرفة اللغة وأسرار العربية صاد عن تعرف كتابك ، وأسرار شريعتك ، فسواء من أعدم الناس الدواء الذى يشفى من الداء ، وتستبقى به حشاشة الأنفس ، ومن أعدمهم العلم بأن فيه شفاء ، وأن لهم فيه استبقاء .

أين أنت أيها الفاروق الذى قلت حين تلوت قول الله جل شأنه : «أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لايشعرون أو يأخذهم على تخوف» ثم قلت لإخوتك المؤمنين :

---

(١) منها : أى من النوق ، والأسؤق : جمع ساق ، والكوم : جمع كوماء : وهى الناقة العظيمة السنام . يقول إنه يعقر النوق العظيمة بالسيوف .

ما تقولون فيها ، فنهض ذلك الهذلى وقال : هذه لغتنا . التخوف : التنقص ، وأنشد قول أبى كبير يصف ناقته :

تَخَوَّفَ الرَّحلُ منها تامِكا قَرِدًا كما تخوف عودَ النَّبعة السَّفَنُ(١)

فقلت عليكم بديوان العرب ، فإن فيه تفسير كتابكم .

من لى بك لتنظر حال القائمين بأمر الدين الآن ، وازدراءهم للغة القرآن ، حتى بلغ بهم الأمر أنهم يرمون البلغاء بالسخف ، ويتهمونهم بالزيغ عن الجادة ، اللهم إن هذا خذلان فأدركنا برحمتك ، وهيء لنا من أمرنا رشدا .

إلى هنا علمت أن البلاغة لا يسلس قيادها ، إلا لمن شدا فى الأدب وعلوم النحو والصرف واللغة ، وهذا النوع من العلم علم أسرار البلاغة ، ولطائف الفصاحة ، المسمى بعضه : علم المعانى ، وبعضه الآخر : علم البيان ، ومن ثم قال البيانيون : إن البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته ، إذ لا يكون ذلك إلا بوساطة هذه العلوم ، كما ستعرف .

وحيث انتهى بنا الحديث إلى هذ الموضع ، وجب علينا أن نوفى القول فى الفصاحة والبلاغة حقه من البيان .

ولع الناس قديماً بأمر الألفاظ ولوعاً صرفهم عن جادة الاعتدال ، وجار بهم عن قصد السبيل ، فعكفوا على العبارات المزخرفة ، والألفاظ المفوفة ، والتراكيب الضخمة ، والجمل الفخمة ، وكادوا يقصرون الفصاحة على هذا

(١) تامكاً : سناماً عظيما ، والقرد : الذى أكله القراد ، والسفن : الحديد الذى ينحت به وهو المبرد ، يقول : إن الرحل أثر فى سنام الناقة وتنقص منها كما ينقص السفن من العود .

النوع من الحسن ، ويذهبون إلى أن ذلك هو الذى يرتفع به شان الكلام ويفضل بعضه بعضاً ، ويبعد الشأن فى ذلك حتى ينتهى الأمر إلى الإعجاز ، وإلى أن يخرج من طوق البشر جميعاً ، فانبرى لهم الشيخ عبد القاهر رحمه الله ، وأرهف عليهم لساناً أخرس الشقاشق[١] ، وأعدم نطق الناطق ، وأسال الوادى عليهم عجزا ، وأخذ منافذ القول عليهم أخذا ، فنادى بفساد مذهبهم هذا ، وإنه قد يفضى إلى إنكار إعجاز القرآن ، وإن ذلك وحده لا تثبت به فضيلة ، ولا يشف عن براعة خاطر ، وإنما الذى يدل على بعد الغور ، ودقة الفكر ، ويرتقى به الكلام حتى ينتهى إلى حيث تنقطع الأطماع ، وتحسر الظنون ، وتستوى الأقدام فى العجز ، هو تلك الأسرار والدقائق التى وضع لها كتابيه : أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز .

ذهب هذا الإمام إلى أن معترك البلاغة الذى تُظْهِر فيه الخواطر براعتها ، والبلغاء مُنَّتها[٢] ، هو عند توخى تلك الأسرار والمعانى فيما بين الكلم على حسب الأغراض التى يصاغ لها الكلام . فالبليغ هو الذى يضع كلامه الوضع الذى تقتضيه تلك المعانى ولا يخل بشىء منها . فينظر مثلا إلى الوجوه التى تراها فى قولك : زيد منطلق ، وزيد ينطلق ، وينطلق زيد ، ومنطلق زيد ، وزيد المنطلق ، والمنطلق زيد ، وزيد هو المنطلق ، وفى الشرط والجزاء إلى

---

(١) الشقاشق : جمع شقشقة وهى شىء كالرئة يخرجه البعير من فيه إذا هاج ، ويقال للفصيح : هدرت شقاشقه ، يريدون قوة البيان ، ويقال : فى خلاف ذلك : خرست الشقاشق .

(٢) المنة : القوة .

الوجوه التي تراها فى قولك : إن تخرج أخرج ، وإن خرجتَ خرجتُ ، وإن تخرج فأنا خارج ، وأنا خارج إن خرجتَ ، وأنا إن خرجتَ خارج ؛ وفى الحال إلى الوجوه التي تراها فى قولك : جاءنى زيد مسرعاً ، وجاءنى يسرع ، وجاءنى وهو مسرع ، أو هو يسرع ، وجاءنى قد أسرع وجاءنى وقد أسرع ، فيعرف لكل من ذلك موضعه ، ويجىء بهحيث ينبغى له ، وينظر فى الحروف التى تشترك فى معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية فى ذلك المعنى ، فيضع كلا من ذلك فى حاقّ معناه ، نحو أن يجىء بما فى نفى الحال و بلا إذا أراد الاستقبال ، و بأن فيما يترجح بين أن يكون وأن لايكون ، وبإذا فيما علم أنه كائن ، وينظر فى الجمل التى تسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل ، ثم يعرف فيما حقه موضع الواو من موضع الفاء ، وموضع الفاء من موضع ثم ، وموضع أو من موضع أم ، وموضع لكن من موضع بل ؛ وينظر فى التعريف والتنكير والتقديم والتأخير فى الكلام كله ، وفى الحذف والتكرار والإضمار والإظهار ، فيصيب بكل من ذلك مكانه ، ويستعمله على وجهه ؛ ثم إنه ليست المزية بواجبة لهذه المعانى فى أنفسها ، ومن حيث هى على الإطلاق ، ولكن تعرض بحسب الأغراض التى يصاغ لها الكلام ، ثم بحسب موقع بعضها من بعض ، فليس إذا راقك التنكير مثلا فى سؤدد من قول البحترى :

تَنقلَ فى خُلُقَىْ سُؤْدَدٍ سماحاً مُرَجى و بأساً مهيبا

وجب أن يروقك أبداً وفى كل شىء ؛ بل ليس من فضل ومزية إلا بحسب الموضع ، و بحسب المعنى الذى تريد ؛ و إنما سبيل هذه المعانى : سبيل الأصباغ

التى تعمل منها الصور والنقوش ، فكما أنك ترى الرجل قد تهدّى فى الأصباغ التى عمل منها الصور والنقش فى ثوبه الذى نسج إلى ضرب من التخير والتدبر فى أنفس الأصباغ وفى مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجه لها وترتيبه إياها : إلى مالم يهتد إليه صاحبه ، فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب ، وصورته أغرب ؛ كذلك حال الشاعر والشاعر فى توخيهما معانى النحو ووجوهه .

وزبدة القول : إن الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة ، وكل ماشاكل ذلك مما يعبر به عن فضل بعض القائلين عن بعض ، من حيث راموا أن يعلموا السامعين ما فى نفوسهم ، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم ، إنما هى ألفاظ مترادفة لامعنى لها غير وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما لو كانت دلالة ، ثم تبرجها فى صورة هى أبهى وأزين ، وآنق وأعجب ، وأحق بأن تستولى على هوى النفس ، وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب ، وأولى بأن تطلق لسان الحامد ، وتطيل رغم الحاسد ، ولاجهة لاستعمال هذه الخصال غير أن يؤتى المعنى من الجهة التى هى أصح لتأديته ، ويختار له اللفظ الذى هو أخص به ، وأكشف عنه وأتم له ، وأحرى بأن يكسوه فضلا ويكسبه نبلا ، وإذن فمرجعها النظم والكلام ، دون الألفاظ المجردة والكلمات المفردة .

وقد استظهر عبد القاهر لهذا بعدة أمور ، منها : أنك تؤنسك فى موضع ، ثم تراها بعينها تثقل عليك فى موضع آخر ، كلفظ الأخدع فى بيت الحماسة :

تلفتُّ نحو الحىّ حتى وجدتنى   وجعت من الإصغاء ليتاً وأخدعا

وبيت البحترى :

وإنى وإن بلَّغتنى شَرَفَ الغِنى   وأعتقت من رق المطامع أحدعى

فإن لها فى هذين المكانين مالا يخفى من الحسن : ثم إنك تتأملها فى بيت أبى تمام :

يادهر قوّم من أخدعيك فقد   أضججت هذا الأنام من خرقك (١)

فتجد لها من الثقل على النفس . ومن التنغيص والتكدير : أضعاف ماوجدت هناك من الروح والخفة ، والإيناس والبهجة : وهذا باب واسع . فإنك تجد الرجلين قد استعملا كلما بأعيانها ، ثم ترى هذا قد فرع السماك ، فإنك وترى ذاك قد لصق بالحضيض . ولو كانت الكلمة إذا حسنت . حسنت من حيث هى لفظ ، وإذا استحقت المزية والشرف ، استحقت فى ذاتها وعلى انفرادها دون أن يكون السبب فى ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها فى النظم لما اختلف بها الحال ، ولكانت إما أن تحسن أبدا ، أولا تحسن أبدا .

ومنها أنك لاتشك إذا فكرت فى قوله تعالى : « وقيل ياأرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين » فتجلى لك منها الإعجاز ، ويبهرك الذى ترى وتسمع . إنك لم تجد ماوجدت من المزية الظاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها

(١) الخرق بالضم : العنف ، وكذلك الحمق والجهل ، وضم الراء للشعر ، ويريدون بتقويم الأخدعين — وهما عرقان فى صفحتى العنق كالليتين : إزالة الكبر والعنف .

ببعض . وإن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة ، وهكذا إلى أن نستقر بها إلى آخرها ، وأن الفضل تناتج ما بينها ، وحصل من مجموعها ؛ وكذلك إذا نظرت إلى قول ابن المعتز :

سالَتْ عليه شِعابُ الْحَيِّ حين دعا أنصارَهُ بِوُجُوهٍ كَالدَّنانيرِ

فإنك ترى هذه الاستعارة على لطفها وغرابتها ، إنما تم لها الحسن ، وانتهى إلى حيث انتهى بما توخى فى وضع الكلام من التقديم والتأخير ، وتجدها ملحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها ، وإن شككت فانظر إلى الجارين والظرف ، فأزل كلا منهما عن مكانه الذى وضعه الشاعر فيه ، فقل سالت شعاب الحى بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره . ثم انظر : كيف يكون الحال وكيف يذهب الحسن والحلاوة ، وكيف تعدم أريحيتك التى كانت ، والنشوة التى كنت تجدها ؟

ومنها غير ذلك مما أثبتناه فى غير هذا الموضع من الكتاب .

أما المتأخرون كالسكاكى والخطيب وابن الأثير فهُمْ — إذا ألطفت النظر وأنعمت الفكر — ممن سلكوا طريقة عبد القاهر وَقَفَوْا إثره ، ذاك لأنهم لم يقصروا الفضيلة على هذا النوع من الحسن : تلاؤم الحروف وسلاسة الألفاظ بل جعلوا ذلك وجهاً من وجوه الفضيلة ، وداخلا فى عداد مايفاضل به بين كلام وكلام ، وبينوا أن قوام الشرف والنبل هو تطبيق الكلام على مقتضى الحال ، الذى عبر عنه الشيخ : بتوخى معانى النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التى يصاغ لها الكلام . بَيْدَ أنهم عمدوا إلى الفصاحة وأخرجوها

من حيز البلاغة ، وجعلوها : اسماً لما كان بنجوة من تنافر الحروف ، وغرابة الألفاظ ، ومخالفة ما ثبت عن الواضع ، وتنافر الكلمات ، والتعقيد في النظم والمعنى ، ومخالفة القانون النحوى ؛ وجعلوا البلاغة اسماً لما كان مطابقاً لمقتضى الحال مع فصاحته ؛ وهذا غير قادح فيما ذهب إليه الشيخ .

هذا وما كلف الشيخ رحمه الله بشأن النظم ، والتنويه بتلك الأسرار . حتى طال بكلامه الأمد ، وحتى كاد يتجاوز غاية الإفصاح إلى نهاية الإملال ، إلا لما عنى به ووضع لأجله كتابه دلائل الإعجاز من إزالة ما كان يعلق بالأذهان كافة فى عصره من الخطأ فى وجه إعجاز القرآن .

﴿ و بعد ﴾ فمن المعروف أن القرآن تحدى العرب إلى معارضته ، وأخذهم بالإتيان بمثل أقصر سورة منه ، فما كان إلا أن استولى عليهم العجز ، وبلغ منهم العى ، وخرست ألسنتهم فما تحير مقالا ، وخلدت قرومهم فما تستطيع صيالا : وآية ذلك فرارهم إلى شبا الأسنة ، واقتحامهم غمرات الموت ، ولو كان لهم عنها محيص لابتغوا إليه سبيلا ؛ بيد أن للعلماء فى وجه الإعجاز مذاهب لاتتعدى أربعا : فذهب بعض إلى أن الله سبحانه ما أنزل القرآن ليكون حجة للنبوة . بل هو كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام ، والعرب إنما لم يعارضوه لأن الله تعالى صرفهم عن ذلك وسلب علومهم به : وذهب فريق إلى أن إعجازه فى أن له أسلوباً يختص به ، ويتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد ، وذلك أن الطرق التى يتقيد بها الكلام المنظوم ، تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه ، وإلى الكلام الموزون المسجع ، وإلى مايرسل إرسالا ، وأسلوب القرآن

مباين لهذه الطرق . خارج عن هذه الوجوه : لا سيما فى مقاطع الآيات ، مثل يعلمون ويؤمنون . وذهب ثالث إلى أن إعجازه فى أن اشتمل على الغيوب ومالم تلم به علوم الناس : من أخبار من مضى ، وأحوال مستقبل الأيام .

وذهب آخرون إلى أنه معجز بفصاحته ، ووافقهم على ذلك الشيخ عبد القاهر إلا أنه خالفهم فيما ذهبوا إليه من تفسير الفصاحة بالمزايا اللفظية التى تتعاور الكلام : كالتشبيهات ، والاستعارات ، والكنايات ، وإرسال المثل ، والجناس . والتورية ، وكل أنواع الصناعة اللفظية : وفسرها هو بتوخى معانى النحو ، وأسرار التراكيب . وترتيب الكلام حسبما تقتضيه المقاصد والأغراض. وقال : إن هذا هو وجه الإعجاز فى القرآن ، وهذه هى المزية التى امتاز بها عن سائر الكلام . فأما التشبيهات والاستعارات وأخواتها ، فمزايا يشاركه فيها كل كلام العرب . وما سمع عن أحد من العرب ممن عجب بفصاحة القرآن أنه طرب لتشبيه ، أو دهش لتمثيل . أو عجب لجناس أو تورية ، أو صعق لسماع مثل غريب ونكتة بديعة : وما كان يروعهم ويملك عليهم مشاعرهم : غير تلك الأسرار والمعانى التى سلك فيها القرآن مسلكا خرج عن طوق البشر ، فما عارضه معارض ، ولا حدث نفسه محدث ، بل ظلوا حيارى هائمين ، يقولون : سحر ! نعم إنه السحر الذى يأخذ بمجامع القلوب ، ويملك الحواس ، ويختلب الألباب : ولعل الإفاضة فى هذا البحث ، وإيفاءه حقه من البيان ، يخرج بنا عن موضوع هذه المقدمة : فلنمسك بعنان القلم ، ونكله إلى كتبه الخاصة به ، فهناك البيان الواسع . والإفاضة الوافية ، والله ولى التوفيق .

عبد الرحمن البرقوقي

تقريظ

أستاذنا الامام المغفور له الشيخ محمد عبده

ليست البلاغة في الحقيقة الا ملكة البيان وقوة التمكن على حسن التعبير
عما تريد ان تعبر عنه من المعنى لتبلغ من نفس مخاطبك ما تريد من التأثير في وجدانه بجميل
رأيك [illegible] الرغبة فيما [illegible] عنه او النفرة مما كان يميل اليه او تمكين ميل له
مرغوب او دفع [illegible] تكرهه او تحويل في اعتقاد او تغيير لعادة او ما يشبه
ذلك مما تقصد اليه بكلامك [illegible] وقوة النفس [illegible]
[illegible] تسمعه [illegible] صدق البلاغة في
حقيقة الامر

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

ليست البلاغة فى الحقيقة إلا ملكة البيان ، وقوة النفس على حسن التعبير عما تريد من المعنى ، لتبلغ من مخاطبها ما تريد من أثر فى وجدانه يميل به إلى الرغبة فيما رغب عنه ، أو النفرة مما كان يميل إليه ، أو تمكين ميل إلى مرغوب ، أو تقرير نفرة من مكروه ، أو تحويل فى اعتقاد ، أو تغيير لعادة ، أو ما يشبه ذلك مما يقصد بالخطاب ، وذوق النفس كذلك لمحاسن ما تسمعه ، أو وجوه النقد فيما يلقى إليها : هذه هى البلاغة فى حقيقة الأمر .

وضعوا علوماً ليصل محصلها إلى امتلاك تلك الملكة ، أحكم قواعدها عبد القاهر الجرجانى ، وتبعه من جاء بعده على نوع من التحرير والتنقيح . وجاء صاحب التلخيص تجمل ما ينبغى تنبيه النفس إليه ، من أسرار تأليف الألفاظ ، ليكون المحصل لذلك المجمل على بصيرة من وجوه التعبير .

شرحه كثير من الناظرين فى الفن ، وتعلق الأغلب بلفظه ، ولم ينظروا الغاية من وضعه ، فصرفوا الوقت فيه ، وفاتتهم البلاغة نفسها بجميع مقاصدها ، فلا هم يحسنون إذا كتبوا ، ولا هم يقنعون إذا خطبوا ، ولا هم يحسنون الاستماع إذا خوطبوا ، كما هو معروف لأنفسهم ، ولكل من يعرفهم .

شرحه الشيخ عبد الرحمن البرقوقى ، واطلعت على نموذج من شرحه ، فوجدته كافياً فى تبيين معنى ما فى الكتاب ، موجهاً نظر الناظر فيه إلى ما قصد منه : ولا حاجة بالسائر إلى الغاية من الفن إلى ما هو أكثر مما جاء فيه ،

وإنما الواجب عليه تحصيل الملكة بالعمل ، ومزاولة كلام البلغاء ، وكسب أساليب الفصحاء ، حتى يتم له من شأنه مايريد ، ويشهد له كلامه قبل أن يشهد هو لنفسه ؛ وليس لكلامه أن يشهد حتى يروق العلم وأهله ، وعدوه وخله ؛ وأسأل الله أن ينتفع بهذا الشرح مطالعه ، ويستفيد منه مراجعه ؟

محمد عبده

فاتحة التلخيص

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ على ما أنعم ، وعلَّمَ من البيانِ ما لم نَعلم . والصلاة والسلامُ على سيدنا محمد ، خير من نطقَ بالصواب ، وأفضل من أوتى الحكمة[1] وفصلَ الخطَاب . وعلى آله الأطهار ، وصحابته الأخيار .

« أما بعدُ » فلمَّا كانَ علمُ البلاغةِ وتوابعِها من أجلِّ العلومِ قدرا ، وأدقِّها سرًّا ، إذ به تُعْرفُ دقائقُ العربيةِ وأسرارُها ، وتُكشف عن وجوه الإعجاز فى نظم القرآن أستارها ؛ وكان القسم الثالث من مفتاح العلوم الذى صنفه الفاضل العلامة أبو يعقوبَ يوسفُ السكَّاكىُّ : أعظم ما صنف فيه من الكتب المشهورة نفعا ، لكونه أحسنها ترتيبا ، وأتمها تحريرا ، وأكثرها للأصول جمعا ؛ ولكن كان غير مصون عن الحشو والتطويل والتعقيد ، قابلا للاختصار ، مفتقراً إلى الإيضاح والتجريد[2] : ألَّفتُ مُختصراً يتضمن مافيه

(١) الحكمة : كمال العلم وإتقان العمل . وفصل الخطاب : الكلام البين الذى ينبه المخاطب إلى المقصود من غير التباس . أو الخطاب الذى يفصل بين الحق والباطل .

(٢) أى تجريده عما فيه من الحشو

مقدمة الشارح

للطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

« وسلام على عباده الذين اصطفى »

« وأما بعد » فإني أحمدُ الله سبحانه أنْ حاط هذا الشرح بالقبول، وكتب له البقاء والخلود، حتى رأيته يطبع للمرة الثانية، بعد أن مضى على طبعته الأولى نحو من ثمان وعشرين حجة، و بعد أن رأيتُ « نعَام القلوب اليه زَفَّافة، ورياح الآمال حَوْله هَفَّافة، وعيون الأفاضل نحوه روامِق، وألسنتهم بتمنّيه نواطق »

والكتاب فيما أظن ويظن معي أفاضلنا، أكان المتن أم الشرح: يستحق هذا القبول، وطول الإفادة منه، فإن المتن رضي الله عن صاحبه أَجْمَعُ كُنَّاشَةٍ لعلوم البلاغة، على صغر حجمه، ووجازة كلمه؛ والشرح من أوسط الشروح وأجملها، جَلَوْت فيه هذا العلم كما تجْلَى العروس.

على أن هذه الطبعة الثانية تمتاز عن الأولى بالكثير الكثير، من الضبط والزيادة والتحوير.

وإلى الله أضرع أن يديم الانتفاع به، ويجعله بسبب من مرضاته. إنه سميع الدعاء.

عبد الرحمن البرقوقي

٢١ شعبان سنة ١٣٥٠ هـ الموافق أول يناير سنة ١٩٣٢

من القواعد ، وَيَشْتَمِلُ على ما يُحتاج إليه مِنَ الْأَمْثِلَةِ والشواهد ، ولم آلُ جَهْداً[1] فى تحقيقِهِ وتهذيبه ؛ ورَتَّبْتُهُ ترتيباً أقربَ تناوُلا من ترتيبه ، ولم أبالغ فى اختصارِ لفظه تقريباً لتعاطيهِ ، وطلباً لتسهيل فَهْمِهِ على طالبيه ؛ وأَضَفْتُ إلى ذلك فوائدَ عَثَرْتُ فى بعض كتب القوم عليها ، وزوائدَ لم أظْفَرْ فى كلام أحدٍ بالتصريح بها ولا الإشارةِ إليها ، وسميتُهُ « تلخيص المفتاح » .

وأنا أسألُ اللهَ تعالى من فضله : أن ينفع به ، كما نَفَعَ بأصله ؛ إنهُ وَلِيُّ ذَلِكَ ، وَهُوَ حَسْبى وَنِعْمَ الوكيل .

---

(١) الألو : التقصير ، وأصله : أن يعدى بالحرف ، بيد أنه ضمن معنى المنع ، فصار المعنى : لم أمنعك اجتهاداً .

مقدمة

﴿ الفصاحةُ ﴾ يُوصَفُ بها المفردُ والكلامُ والمتكلِّمُ .

« وَالْبَلَاغَةُ » يُوصَفُ بها الأَخيرَانِ فَقَطْ .

فالْفَصَاحَةُ فِي الْمُفْرَدِ : خُلُوصُهُ مِنْ تَنَافُرِ الْحُرُوفِ ، وَالغَرَابَةِ ، وَمُخَالَفَةِ الْقِيَاسِ . فالتنافرُ نحوُ :

* غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إلى الْعُلَى *

(الفصاحة) إن للبيانين فى الفصاحة والبلاغة أقوالا مضطربة ، وآراء متباينة ، وهذا حديث فيهما يثلج الصدر إن شاء الله .

الفصاحة وضعها العرب لمعان تشف عن الظهور والإبانة ، يقولون : فصح اللبن وأفصح : إذا أخذت رغوته ، وأفصح الصبح : إذا بدا ضوؤه . ومنه المثل : أفصح الصبح لذى عينين ، وأفصح الأعجمى بالعربية ، وفصح لسانه بها : خلصت لغته من اللكنة ، وهذا يوم مفصح وفصح : لا غيم فيه ولا قر .

ومن هنا أطبق علماء البيان على أن الكلام الفصيح ما كان سهل اللفظ ، واضح المعنى ، جيد السبك ، متلائم الحروف ، غير مستكره فج ، ولا متكلف وخم ، ولا مما نبذته العرب ، وعدلت عن ألفاظه البلغاء ، أو ما كان بنجوة من تنافر الحروف ، وغرابة الألفاظ ، ومخالفة ماثبت عن الواضع ، وتنافر الكلمات ، والتعقيد فى النظم والمعنى ، ومخالفة القانون النحوى .

أما تنافر الحروف : فهو وصف فى الكلمة ينجم عنه ثقل محملها على اللسان ، والحكم فى ذلك هو الإحساس الروحانى ، والذوق السليم الذى يثمره التحفظ

وَالغرابةُ نحوُ : * وفاحِمًا وَمَرْسِناً مُسَرَّجا * أَىْ كَالسَّيْفِ السُّرَيْجِىِّ فِى ٱلدِّقَّةِ وَٱلِاسْتِوَاءِ ، أَوكالسِّرَاجِ فى البَرِيقِ وَاللَّمَعَانِ ؛ وَالمخالفةُ نحوُ : * الحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلْعَلِيِّ الأَجْلَلِ * قيل : وَمِنَ الكَرَاهَةِ فى السمع نحو :

لكلام العرب ، ومزاولة أساليب البلغاء . وبما جاء متنافراً كلمة : مستشزرات ، فى قول امرىء القيس :

غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إِلى ٱلْعُلَا تَضِلُّ ٱلعِقَاصُ فِى مُثَنًّى وَمُرْسَلِ

الغدائر : الذوائب ، والضمير يرتبط بفرع فى قوله :

وَفَرْعٍ يَزِينُ المتنَ أَسْوَدَ فَاحِمٍ أَثِيثٍ كَقِنْوِ النَّخْلَةِ المتعَثْكِلِ

والاستشزار : الارتفاع والرفع جميعاً ، فيكون الفعل منه تارة لازماً إن كسرت زايه ، ومتعدياً إن فتحتها . والعلا : جمع علياء : تأنيث الأعلى ، وأراد الجهات العلا ، والعقاص جمع عقيصة : الخصلة من الشعر تأخذها المرأة فتلويها ثم تعقدها حتى يبقى فيها التواء ثم تجعلها وسط رأسها كالرمانه وهى الغديرة يقول : إن غدائره مشدودة على الرأس وأن مجموع الشعر منه عقاص أو غدائر ومنه مثنى ـ مفتول ، ومنه مرسل ، وأن العقاص تغيب فى الأخيرين والمراد أن وفور شعرها وجمال وضعه .

والغرابة : أن يكون اللفظ حوشياً غير مألوف الاستعمال ولا ظاهر المعنى ، وذلك نوعان حسن لايعاب استعماله على العربى القح ، وهو فى النظم أحسن منه فى النثر ، وذلك مثل مشمخر : فإنها فى قول البحترى يصف إيوان كسرى :

مُشْمَخِرٌّ تَعْلُو لَهُ شُرُفَاتٌ رُفِعَتْ فِى رُؤُوسِ رَضْوَى وَقُدْسِ

لا بأس بها ، وقبيح حاس يعاب استعماله على سائر الفصحاء وهو أن يكون مع

* كريم الجِرِشَّى شريفُ النسبْ * وفيه نظر .

وفى الكلامِ : خُلوصُهُ مِنْ ضَعْفِ التأليفِ ، وتَنافُرِ الكلماتِ ، والتعقيدِ ، مع فصاحتِها ؛ فالضعفُ نحوُ : ضَرَبَ غُلامُهُ زَيْدًا . والتنافرُ كقوله : * وَليسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ *

ذلك كزاً غليظاً ، مثل جحيش فى قول تأبط شراً :

يَظَلُّ بِمَوْماةٍ وَيُمْسِي بِغَيْرِهَا جُحَيْشاً وَيَعْرَوْرِى ظُهورَ المَهالِكِ(١)

ومثل اطلخم فى قول أبى تمام :

قَدْ قُلْتُ لَمَّا اطْلَخَمَّ الأَمْرُ وَانْبَعَثَتْ عَشْوَاءُ تَالِيَةً غُبْسًا دَهَارِيسَا(٢)

ومثل جفخ فى قول المتنبى :

جَفَخَتْ وَهُمْ لَا يَجْفَخُونَ بِهَا بِهِمْ شِيَمٌ عَلَى الْحَسَبِ الْأَغَرِّ دَلَائِلُ(٣)

ومن هنا كان قول بعضهم : إن الكلام الفصيح ما كان فى ألفاظه عنجهية الغرابة ، يبعد عن الافئدة الإحاطة بمعناه ، وعز على الأفهام إدراكه : جهلا بمحاسن الفصاحه وأوضاع البلاغة . قال الجاحظ — وهو من هو — : رأيت الناس يديرون فى كتبهم أن امرأة خاصمت زوجها إلى يحي بن يعمر ، فانتهرها

---

(١) الموماة : المفازة الواسعة : ويقال للرجل . إذا كان يستبد برأيه : جحيش وحده ؛ وهو ذم ، ويقال : اعرورى الفرس ركبها عريانا وهو أفعوعل ، مستعار هنا للمهلكة .

(٢) اطلخم الأمر : اشتد ، والدهاريس : الدواهى .

(٣) جفخ : فخر وتكبر ، وشيم : فاعل ، والأغر : الشريف ، يقول جفخت وفخرت بهم شيم ، وهم لا يفخرون بها ، وهذه الشيم دلائل على حسبهم الأغر

وقوله :

كَرِيمٌ مَتى أَمْدَحْهُ أَمْدَحْهُ وَالْوَرَى مَعِى وَإِذَا مَا لُمْتُهُ لُمْتُهُ وَحْدِى

والتعقيدُ : أن لا يكونَ الكلامُ ظاهِرَ الدَّلالَةِ عَلَى الُمرَادِ لِخَلَلٍ

مراراً ، فقال له يحيى : أإن سألتك ثمن شكرها وشبرك أنشأت تطلها وتضهلها(١) ؛ ثم قال : فإن كانوا قد رووا هذا الكلام لكى يدل على فصاحة ، فقد باعده الله من صفة الفصاحة .

هذا ، ومن الغريب الحوشى ما يحتاج إلى أن يخرج له وجه بعيد ، مثل : مسرجا ، فى قول رؤبة بن العجاج :

أَيَّامَ أَبْدَتْ وَاضِحًا مُفَلَّجَا أَغَرَّ بَرَّاقًا وَطَرْفًا أَبْلَجَا

وَمُقْلَةً وَحَاجِبا مُزَجَّجَا وَفَاحِمًا وَمَرْسِنًا مُسَرَّجَا

المرسن : الأنف . فلا يعلم ما أراد بقوله : مسرجا ، حتى اختلف فى تخريجه ، فقيل : من قولهم للسيوف سريجية أى منسوبة إلى قين يقال له سريج ، يريد : أنه فى الاستواء والدقة كالسيف السريجى ، وقيل : من السراج ، يريد : أنه فى البريق كالسراج ، وهذا يقرب من قولهم : سرج وجهه بكسر الراء : أى حسن ، وسرج الله وجهه : أى بهجه وحسنه .

« هذا » ، وكما أن تهذيب الكلام من الغرابة شرط فى الفصاحة . كذلك تهذيبه من الابتذال . فينبغى للفصيح أن يجتنب السوقى المبتذل الذى أبلاه التكرار ، وتدلى باستعمال العامة إلى الحضيض .

ومخالفة ماثبت عن الواضع ، مثل : الأجالل ، فى قول أبى النجم :

« الحمد لله العلى الأجلل »

---

(١) الشكر بالفتح ويكسر : الفرج ، وضهل فلاناً حقه ، كمنع : نقصه إياه وأبطله عليه ، وتطلها كتمدها : تمطلها ، والشبر : حق النكاح أو النكاح نفسه .

إمَّا فى النَّظْمِ ، كقولِ الفرَزْدَقِ فِي خَالِ هِشَامٍ :

وَمَا مِثْلُهُ فى النَّاسِ إِلَّا مُمَلَّكاً أبو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهْ

القياس : الأجل بالإدغام ، ومثله قول المتنبى :

فلا يُبْرَمُ الأَمْرُ الَّذِى هُوَ حَالِلٌ وَلَا يُحْلَلُ الْأَمْرُ الَّذِى هُوَ يُبْرِمُ

ومخالفة القانون النحوى ، مثل : ضرب غلامه زيداً ، فإن رجوع الضمير إلى المفعول المتأخر لفظاً ممتنع عند الجمهور ، لئلا يلزم رجوعه إلى ما هو متأخر لفظاً ورتبة ، ومثل ذلك قوله :

كَسَا حِلْمُهُ ذَا الحِلْمِ أَثْوَابَ سُودَدٍ ورَقّى نَدَاهُ ذَا النَّدَى فى ذُرَى الَمجْدِ

وتنافر الكلمات ما كان مثل قول القائل (١) :

وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرُ وليس قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

وقول ابن بشير يرثى أحمد بن يوسف :

لَا أُذِيلُ الآمَالَ بَعْدَكَ إِنِّى بَعْدَهَا بالآمَالِ جِدُّ بَخِيلِ

كَمْ لَهَا مَوْقِفٌ بِبَابِ صَدِيقٍ رَجَعَتْ مِنْ نَدَاهُ بالتَّعْطِيلِ

لَمْ يَضِرْهَا وَالحَمْدُ للهِ شَيْءٌ وَانْثَنَتْ نحوَ عَزْفِ نفسٍ ذَهُولِ

فتفقد النصف الأخير من البيت الثالث ، فإنك ستجد بعض ألفاظه تتبرأ من بعض . ومن ذلك — بيد أنه أخف مما قبله — قول أبى تمام :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معى وإذا ما لمته لمته وحدى

وقد أنشد خلف الأحمر فى هذا المعنى :

---

(١) زعموا أن قائل هذا البيت جنى صاح على حرب بن أمية فمات فى فلاة ، ويسمى هذا النوع من الجن هاتفاً .

أى : لَيْسَ مِثْلُهُ فى النَّاسِ حَىٌّ يُقَارِبُهُ ، إِلَّا مُمَلَّكاً أَبُو أُمِّهِ أَبُوهُ ؛ وَإِمَّا فى الِانْتِقَالِ ، كَقَوْلِ الآخر :

وَبَعْضُ قَرِيضِ القومِ أَوْلادُ عِلَّةٍ   يَكُدُّ لِسَانَ الناطق المتحفظ

وأجود الكلام ما رأيته متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج ، فكأنه أفرغ إفراغاً واحداً ، فهو يجرى على اللسان ، كما يجرى الدهان : ومثله قول أبى حية النميرى :

رَمَتْنِي وَسِتْرُ اللهِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا   عَشِيَّةَ آرَامِ الْكِنَاسِ رَمِيمُ
رَمِيمُ الَّتِي قالت لجارَاتِ بيتها   ضَمِنْتُ لكم أَنْ لَا يَزَالَ يَهِيمُ
أَلَا رُبَّ يَوْمٍ لَوْ رَمَتْنِي رَمَيْتُهَا   وَلَكِنَّ عَهْدِى بالنضَالِ قَدِيمُ

يقول : رمتنى بطرفها وأصابتنى بمحاسنها ، ولو كنت شاباً لرميت كما رميت ، وفتنت كما فتنت ، ولكن قد تطاول عهدى بالشباب .. فأنت إذا عمدت إلى مثل هذا : وجدت له اهتزازاً فى نفسك وأريحية فى فؤادك .

والتعقيد أن يشيك المتكلم طريقك إلى المعنى ، ويوعر مذهبك نحوه ، حتى يقسم فكرك ويشعب قلبك ، فلا تدرى من أين تتوصل ، وأى طريق تسلك إلى معناه ، مثال ذلك قول الفرزدق :

إِلَى مَلِكٍ مَا أُمُّهُ مِنْ مُحَارِبٍ   أَبُوهُ وَلَا كَانَتْ كُلَيْبٌ تُصَاهِرُهُ

يريد إلى ملك أبوه ما أمه من محارب . وقوله أيضاً يمدح إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومى خال هشام بن عبد الملك بن مروان :

وما مثله فى الناس إلا مملكا   أبو أمه حى أبوه يقاربه

يريد : وما مثله فى الناس حى يقاربه إلا مملكا أبو أمه أبوه ، يعنى : وما مثله

سَأَطْلُبُ بُعْدَ الدَّارِ عنكمْ لتقْرَبُوا وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ الدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا

فإنَّ الانْتِقَالَ مِنْ جُمُودِ الْعَيْنِ إِلَى بُخْلِهَا بِالدُّمُوعِ ، لا إِلَى مَاقَصَدَهُ مِنَ

فى الناس أحد يشبهه فى الفضائل إلا هشاماً ، فهو كما تراه فى غاية التعقيد ، حتى كأنه لم يجتمع فى صدر رجل واحد مع قوله حيث يقول :

وَالشَّيْبُ يَنْهَضُ فِى السَّوَادِ كَأَنَّهُ لَيْلٌ يَصِيحُ بِجَانِبَيْهِ نَهَارُ(١)

ومثله قول المتنبى .

وَفَاؤُكُمَا كَالرَّبْعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهْ بِأَنْ تُسْعِدَا وَالدَّمْعُ أَشفاهُ سَاجِمُه

يريد : وفاؤكما بأن تسعدا كالربع أشجاه طاسمه . يخاطب صاحبيه بأن عدم وفائهما له بالمساعدة على البكاء ، مما يزيد فى حزنه . كالربع كلما درست معالمه كان ذلك أدعى لحزنه : ثم اعتذر بأن الدمع يشفى الباكى ، لأن من حزن قلبه استراح بالبكاء . وهذا الضرب من التعقيد يرجع إلى اللفظ ، لأن منشأه فساد النظم بما صنعه الشاعر من التقديم والتأخير وغيرهما مما ليس له أن يصنعه ، ولا يسوغ أن يقدم عليه . وثمت ضرب آخر يرجع إلى المعنى ، وهو أن لا يكون انتقال الذهن من المعنى الأول المفهوم بحسب اللغة إلى المعنى الثانى الذى هو لازمه والمراد به ظاهراً ، كقول العباس بن الأحنف :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

بدأ فدل بسكب الدموع على مايوجبه الفراق من الحزن والكمد ، فأحسن وأصاب ، لأن من شأن البكاء أبداً أن يكون أمارة للحزن ، وأن يجعل كناية عنه كقولهم : أبكانى وأضحكنى . على معنى : ساءنى وسرنى .

(١) يصيح : يظهر .

السُّرورِ . قِيلَ : وَمِنْ كَثْرَةِ التِّكْرَارِ وَتَتَابُعِ الإضَافاتِ ، كقولِهِ :

ثم ساق هذا القياس إلى نقيضه ، فالتمس أن يدل على ما يوجبه دوام التلاق من السرور بقوله : لتجمدا ، لظنه أن الجمود خلو العين من البكاء من غير اعتبار شيء آخر ، وغلط فيما ظن ، لأن الجمود خلو العين من البكاء ، مع أن الحال حال بكاء ، ومع أنه يراد منها أن تبكى فلا يكون كناية عن السرور ، وإنما يكون كناية عن البخل كما قال الشاعر :

أَلَا إِنَّ عَيناً لم تَجُدْ يَوْمَ واسِطٍ عَلَيْكَ بِجَارِي دَمْعِهَا لَجَمُودُ

ولو كان الجمود يصلح أن يراد به عدم البكاء فى حال السرور ، لجاز أن يدعى به الرجل ، فيقال : لازالت عينك جامدة ، كما يقال : لاأبكى الله عينك ، وذلك مما لايشك فى بطلانه ، وعلى ذلك قول أهل اللغة : سنة جماد : لامطر فيها ، وناقة جماد : لا لبن فيها ، فكما لاتجعل السنة والناقة جماداً إلا على معنى أن السنة بخيلة بالقطر والناقة لاتسخو بالدر ، لاتجعل العين جموداً إلا وهناك مايقتضى إرادة البكاء منها ، وما يجعلها إذا بكت محسنة موصوفة بأنها قد جادت وإذا لم تبك مسيئة موصوفة بأنها قد ضنت .

هذا ، وبيت ابن الأحنف المذكور : نظير كلام ابن الربيع بن خيثم ، فإن رجلا قال له — وقد صلى ليلة حتى أصبح — : أتعبت نفسك ، فقال : راحتها أطلب ، ومثله قوله :

تَقُولُ سُلَيْمَى لَوْ أَقَمْتَ بأَرْضِنا وَلَمْ تَدْرِ أَنِّى لِلْمقامِ أُطَوِّفُ

وهو معنى كثير حسن جميل ، وقد زاد بعضهم على هذه الأمور المخلة بالفصاحة أمراً آخر وهو الكراهة فى السمع بأن يمج اللفظ ويتبرأ من سماعه ، كالجرشى ، فى قول أبى الطيب المتنبى يمدح سيف الدولة :

مُبَارَكُ الاسْمِ أَغَرُّ اللَّقَبْ كَرِيمُ الجِرِشَّى شَرِيفُ النَّسَبْ

(الجرشى : النفس) وفيما ذكر هذا القائل نظر ، لأن الكراهة فى السمع

* سَبُوحٌ لهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدُ * وَقولِهِ :

* حَمامَةَ جَرْعَى حَوْمَةِ الْجَنْدَلِ اسْجَعِى * وَفيهِ نَظَرٌ .

وَفى المُتَكلِّمِ : مَلَكَةٌ يُقْتَدَرُ بِهَا عَلَى التَّعْبيرِ عَنِ المَقصُودِ بِلفْظٍ فَصِيحٍ .

تشملها الغرابة ، وقد احترز عنها ؛ وزاد بعضهم أمراً آخر أيضاً وهو كثرة التكرار وتتابع الإضافات ، وأنشد على الأول قول أبى الطيب :

وَتَسْعِدُنى فى غَمْرَةٍ بعد غَمْرَةٍ سَبُوحٌ لها مِنْهَا عَلَيْهَا شواهِدُ

الغمرة : الشدة ، والسبوح : الفرس الحسن العدو الذى لا يتعب راكبه ، فكأنه يسبح فى الماء . وعلى الثانى قول ابن بابك :

حَمامة جرعى حومة الجندل اسجعى فأنت بمرأى من سُعادَ ومَسْمَعِ

(الجرعاء تأنيث الأجرع : وهى رملة لا تنبت شيئاً ، والحومة : معظم الشىء ، والجندل : الحجارة والسجع : هدير الحمام) وفيه نظر ، لأن ذلك إن أفضى باللفظ إلى الثقل على اللسان فقد حصل الاحتراز عنه بما تقدم ، وإلا فلا يخل بالفصاحة .

قال الشيخ عبد القاهر : قال الصاحب : إياك والإضافات المتداخلة ، فإن ذلك لا يحسن ؛ وذكر أنه يستعمل فى الهجاء كقول القائل :

يا على بن حمزة بن عماره أنت والله ثلجة فى خياره

ثم قال الشيخ : ولا شبهة فى ثقل ذلك فى الأكثر ، لكنه إذا سلم من الاستكراه ملح ولطف ؛ ومما حسن فيه قول ابن المعتز

وَظَلّتْ تُدِيرُ الرَّاحَ أَيْدِى جآذِرٍ عِتَاقِ دَنَانِيرِ الوجُوهِ مِلاَحِ

(وَالْبَلَاغَةُ) فِي الْكَلَامِ مُطَابَقَتُهُ لِمُقْتَضَى الْحَالِ مَعَ فَصَاحَتِهِ ؛ وَهُوَ

ومنه قول أبي تمام :

خُذْهَا ابْنَةَ الفِكْرِ المُهَذَّبِ فِي الدُّجَى ... وَاللَّيْلُ أَسْوَدُ رُقْعَةِ الجِلْبَابِ

(وأما البلاغة) فهى فى اللغة تنبىء عن الوصول والانتهاء ، قال فى القاموس بلغ الرجل بلاغة : إذا كان يبلغ بعبارته كنه مراده من إيجاز بلا إخلال أو إطالة بلا إملال ، ومن ثم قال البيانيون : إنها تطبيق الكلام على مقتضى الحال مع فصاحته ، وتطبيق الكلام على مقتضى الحال : هو الذى يسميه الشيخ عبد القاهر بالنظم ، حيث يقول : النظم توخى معانى النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التى يصاغ لها الكلام . فالشاعر البازل ، أوالكاتب المجيد ، هو الذى يضع كلامه الموضع الذى تقتضيه تلك المعانى ، وهناك معترك البلاغة الذى تظهر فيه الخواطر براعتها ، والبلغاء منتها ، فأنت إذا عمدت إلى ما تواصفوه بالحسن ، وشهدوا له بالفضل ، مثل قول الأول :

تَمَنَّانَا لِيَلْقَانَا بِقَوْمٍ ... تَخَالُ بَيَاضَ لأْمِهِمِ السَّرَابَا

فَقَدْ لَاقَيْتَنَا فَرَأَيْتَ حَرْبًا ... عَوَانًا تَمْنَعُ الشَّيْخَ الشَّرَابَا

ومثل قول ابن الدمينة :

أَبِينِي أَفِي يُمْنَى يَدَيْكِ جَعَلْتِنِي ... فَأَفْرَحَ أَمْ صَيَّرْتِنِي فِي شِمَالِكِ

أَبِيتُ كَأَنِّي بَيْنَ شِقَّيْنِ مِنْ عَصًا ... حِذَارَ الرَّدَى أَوْ خِيفَةً مِنْ زِيَالِكِ

تَعَالَلْتِ كَيْ أَشْجَى وَمَا بِكِ عِلَّةٌ ... تُرِيدِينَ قَتْلِي قَدْ ظَفِرْتِ بِذَلِكِ

فإنك لاتجد سبباً لهذا الحسن الذى يهجم عليك ، ويملأ عينيك : إلا توخى تلك المعانى . وتوفية حقوقها ، ثم إنه ليست المزية بواجبة لهذه المعانى فى أنفسها ،

مُخْتَلِفٌ ، فَإِنَّ مَقَامَاتِ الْكَلَامِ مُتفاوتة ، فمقام كلٍّ مِنَ التَّنْكِيرِ ، وَالْإِطْلَاقِ ، وَالتَّقْدِيمِ ، وَالذِّكْرِ ، يُبَايِنُ مَقَامَ خِلَافِهِ ؛ وَمَقَامُ الْفَصْلِ يُبَايِنُ مَقَامَ الْوَصْلِ ، وَمَقَامُ الْإِيجَازِ يُبَايِنُ مَقَامَ خِلَافِهِ ؛ وَكَذَا خِطَابُ الذَّكِيِّ مَعَ خِطَابِ الْغَبِيِّ . وَلِكُلِّ كَلِمَةٍ مَعَ صَاحِبَتِهَا مَقَامٌ ، وَارْتِفَاعُ شَأْنِ

ولكن تعرض بحسب الأغراض التي يوضع لها الكلام ، ثم بحسب موقع بعضها من بعض ، فرب تنكير مثلا له مزية فى لفظ ، وهو فى لفظ آخر فى غاية القبح (فظهر) لك أن البلاغة صفة فى الكلام بها يقع التفاضل ويثبت الإعجاز ، وإذا كان ذلك كذلك فلا يكون مرجعها الألفاظ من حيث هي ألفاظ مفردة ، بل الألفاظ باعتبار إفادتها المعانى : أى الأغراض والمزايا التي يصاغ لها الكلام (وكثيراً ما) تسمى تلك الصفة فصاحة أيضاً وهذا هو مراد الشيخ عبد القاهر بما يكرره فى دلائل الإعجاز من أن الفصاحة صفة راجعة إلى المعنى دون اللفظ (قال) ومما يشهد لذلك أنك لاتشك إذا فكرت فى قوله تعالى : (وقيل ياأرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين) فتجلى لك منها الإعجاز ، وبهرك الذى ترى وتسمع ، أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة إلا لأمر يرجع إلى تركيبها ، وأن الفضل تناتج مابينها وحصل من مجموعها ، فإن ارتبت فى ذلك فتأمل هل ترى لفظة منها لو أفردت من بين أخواتها لأدت من الفصاحة ماتؤديه وهى فى مكانها من الآية ؟ ومما يؤيد ذلك أنك ترى الكلمة تؤنسك فى موضع ، ثم تراها بعينها تثقل عليك فى موضع آخر . وهاك مثالا يشهد بصحة ذلك ، وهو أنه قد جاءت لفظة الشيء مقبولة حسنة فى قول أبي حية :

إِذَا مَا تَقَاضَى الْمَرْءَ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ ... تَقَاضَاهُ شَيْءٌ لَا يَمَلُّ التَّقَاضِيَا

الْكَلَامِ فِى الْحُسْنِ وَالْقَبُولِ بِمُطَابَقَتِهِ لِلِاعْتِبَارِ الْمُنَاسِبِ ، وَانْحِطَاطُهُ بِعَدَمِهَا : فَمُقْتَضَى الْحَالِ هُوَ الِاعْتِبَارُ الْمُنَاسِبُ : فَالْبَلَاغَةُ رَاجِعَةٌ إِلَى اللَّفْظِ بِاعْتِبَارِ إِفَادَتِهِ الْمَعْنَى بِالتَّرْكِيبِ : وَكَثِيرًا مَا يُسَمَّى ذَلِكَ فَصَاحَةً أَيْضًا وَلَهَا طَرَفَانِ : أَعْلَى وَهُوَ حَدُّ الْإِعْجَازِ وَمَا يَقْرُبُ منه ، وَأَسْفَلُ وَهُوَ مَا إِذَا غُيِّرَ الْكَلَامُ عَنْهُ إِلَى مَا دُونَهُ الْتَحَقَ عِنْدَ الْبُلَغَاءِ بِأَصْوَاتِ الْحَيَوَانَاتِ ؛ وَبَيْنَهُمَا مَرَاتِبُ كَثِيرَةٌ ؛ وَتَتْبَعُهَا وُجُوهٌ أُخَرُ تُورِثُ الْكَلَامَ حُسْنًا .

وجاءت ضعيفة مستكرهة فى قول المتنبى :

لَوِ الْفَلَكُ الدَّوَّارُ أَبْغَضْتَ سَعْيَهُ ... لَعَوَّقَهُ شَيْءٌ عَنِ الدَّوَرَانِ

فلو كانت الكلمة إذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك فى ذاتها وعلى انفرادها لما اختلفت بها الحال ، ولكانت إما أن تحسن أبداً أو لاتحسن أبداً . وهناك دليل ثالث ، وهو أنا نعلم أن النبى عليه السلام تحدى العرب بفصاحة القرآن ، ولوكانت عائدة إلى الألفاظ لكان قد تحداهم بالموجود عندهم فى الماضى والحاضر . ودليل رابع وهوأن العالم بلغة من اللغات لايحتاج فى التلفظ بمفرداتها إلى الروية . هـذا هو لباب كلام عبد القاهر رحمه الله (تكملة) هذه نتف فى البلاغة لثلة من البلغاء . قال عبدالحميد بن يحي : البلاغة تقرير المعنى فى الأفهام من أقرب وجوه الكلام . وقال الرمانى : البلاغة إيصال المعنى إلى القلب فى أحسن صورة من اللفظ وقال ابن المعتز : البلاغة البلوغ إلى المعنى ولم يطل سفر الكلام . وقال إعرابى : البلاغة التقرب من البعيد والتباعد من الكلفة ، والدلالة بقليل على كثير ، هذا والبليغ عمرك الله من تراه يعبث بالكلام ويقوده بألين زمام . ومن إذا أنشدته مثل قول البحترى :

وَفِى الْمُتَكَلِّمِ مَلَكَةٌ يُقْتَدَرُ بِهَا عَلَى تَأْلِيفِ كَلَامٍ بَلِيغٍ . فَعُلِمَ أَنَّ كُلَّ بَلِيغٍ فَصِيحٌ ، وَلَا عَكْسَ ، وَأَنَّ الْبَلَاغَةَ مَرْجِعُهَا إِلَى الِاحْتِرَازِ عَنِ الْخَطَإِ فِى تَأْدِيَةِ الْمَعْنَى الْمُرَادِ ، وَإِلَى تَمْيِيزِ الْفَصِيحِ مِنْ غَيْرِهِ . وَالثَّانِى مِنْهُ مَا يُبَيَّنُ فِى

بَلَوْنَا ضَرَائِبَ مَنْ قَدْ نَرَى ... فَمَا إِنْ رَأَيْنَا لِفَتْحٍ ضَرِيبَا

هُوَ الْمَرْءُ أَبْدَتْ لَهُ الْحَادِثَا ... تُ عَزْمًا وَشِيكًا وَرَأْيًا صَلِيبَا

تَنَقَّلَ فِى خُلُقَىْ سُودَدٍ ... سَمَاحًا مُرَجًّى وَبَأْسًا مَهِيبَا

فَكَالسَّيْفِ إِنْ جِئْتَهُ صَارِخًا ... وَكَالْبَحْرِ إِنْ جِئْتَهُ مُسْتَثِيبَا

أنق له ، وأخذته الأريحية عنده ؛ إذ يرى شعراً دنا حتى أطمع ، ونأى حتى امتنع ، ولا غرو فالبحترى هو الذى ضرب فى قداح الشعر بأعلى السهام ، وأخذ فى عيون الفضل بأوفى الأقسام ، وشعره هو الذى يترقرق فيه ماء الطبع ويرتفع له حجاب القلب والسمع (ملكة) الملكات هى الصفات الراسخة التى تحصل بتكرار الشىء (وهو) أى مقتضى الحال (مقامات الكلام) أى أحواله (فمقام كل من التنكير الخ) أى فالحال الذى يناسبه التنكير يباين الحال الذى يناسبه التعريف وهكذا (ولكل كلمة مع صاحبتها مقام) وإذاً فلا ينبغى للبليغ أن يصنع مايخالف ذلك : ألا ترى أن الأعشى لو استبدل بقوله :

لَعَمْرِى لَقَدْ لَاحَتْ عُيُونٌ كَثِيرَةٌ ... إِلَى ضَوْءِ نَارٍ فِى يَفَاعٍ تَحَرَّقُ

قوله إلى ضوء نار متحرقة ، لنبا عنه الطبع ، وأنكرته النفس كل الإنكار ، وماذلك إلا لأنه لايشبه الغرض ولايليق بالحال ، حيث أن المعنى على أن هنالك موقداً يتجدد منه الإلهاب والإشعال حالا فحالا . وإذا قيل متحرقة كان المعنى

عِلْمِ مَتْنِ اللُّغَةِ ، أَوِ التَّصْرِيفِ ، أَوِ النَّحْوِ ، أَوْ يُدْرَكُ بِالْحِسِّ ، وَهُوَ مَاعَدَا التَّعْقِيدَ الْمَعْنَوِيَّ . وَمَا يُحْتَرَزُ بِهِ عَنِ الأَوَّلِ عِلْمُ الْمَعَانِي ، وَمَا يُحْتَرَزُ بِهِ عَنِ التَّعْقِيدِ الْمَعْنَوِيِّ عِلْمُ الْبَيَانِ ، وما يُعْرَفُ به وُجُوهُ التَّحْسِينِ عِلْمُ الْبَدِيعِ . وَكَثِيرٌ يُسَمِّي الْجَمِيعَ عِلْمَ الْبَيَانِ ، وَبَعْضُهُمْ يُسَمِّي الْأَوَّلَ عِلْمَ الْمَعَانِي ، وَالْأَخِيرَيْنِ عِلْمَ الْبَيَانِ ، وَالثَّلَاثَةَ عِلْمَ الْبَدِيعِ .

﴿ الفنُّ الأولُ علمُ المعاني ﴾

وَهُوَ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ أَحْوَالُ اللَّفْظِ الْعَرَبِيِّ الَّتِي بِهَا يُطَابِقُ مُقْتَضَى الحالِ . وَيَنْحَصِرُ فِي ثَمَانِيَةِ أَبْوَابٍ : أَحْوَالُ الإِسْنَادِ الْخَبَرِيِّ ، أَحْوَالُ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ ، أَحْوَالُ الْمُسْنَدِ ، أحوالُ متعلِّقَاتِ الْفِعْلِ ، الْقَصْرُ ، الإِنْشَاءُ

على أن هناك ناراً قد ثبتت لها وفيها هذه الصفة فحسب . وقس على هذا مثله (للاعتبار المناسب) ألا الذى اعتبره المتكلم مناسباً بحسب السليقة ، أو بحسب تتبع تراكيب البلغاء ، وهو الخصوصيات (ومايقرب منه) ظاهر عبارة المفتاح أنه معطوف على هو والضمير فى منه عائد إلى الأعلى ويكون حد الإعجاز خبراً عنهما . وهو صحيح ، فإن التنزيل فيه ماهو متناه فى البلاغة وماهو دون ذلك ، وكلاهما وقع به الإعجاز (وأسفل) قال الرازى : وليس من البلاغة فى شيء (التحق الخ) وإن كان صحيح الإعراب (إن كل بليغ فصيح ولا عكس) أما عبدالقاهر فإنه يرى أن الفصاحة والبلاغة والجزالة والبراعة ألفاظ مترادفة (والثانى) أى تمييز الفصيح من غيره (بالحس) هو الذوق (الأول) يعنى الخطأ فى تأدية المعنى المراد (أحوال اللفظ) أى الأمور العارضة له من التقديم

الْفَصْلُ وَالْوَصْلُ ، الإيجازُ وَالإطْنَابُ وَالمساوَاةُ . لأَنَّ الْكَلَامَ إمَّا خَبَرٌ أَوْ إنْشَاءٌ ؛ لأَنَّهُ إنْ كَانَ لِنِسْبَتِهِ خارِجٌ تُطَابِقُهُ أَوْلا تُطابِقُهُ فخبرٌ ، وَإلَّا فإنْشاءٌ . وَالْخَبَرُ لَابُدَّ لهُ منْ مُسْنَدٍ إلَيْهِ وَمُسْنَدٍ وَإسْنَادٍ ، وَالْمُسْنَدُ قدْ يكُونُ لهُ متعلِّقَاتٌ إذا كانَ فِعلاً أَوْ فِي مَعْنَاهُ : وَكلٌّ مِنَ الْإسْنَادِ وَالتَّعلُّقِ إمَّا بِقَصْرٍ أوْ بِغَيْرِ قَصْرٍ ، وَكلُّ جُمْلَةٍ قُرِنَتْ بِأُخْرَى إمَّا مَعْطُوفَةٌ عَلَيْهَا أَوْ غَيْرُ مَعْطُوفَةٍ ، وَالْكَلَامُ البَلِيغ إمَّا زَائدٌ عَلَى أَصْلِ الْمُرَادِ لِفَائِدَةٍ ، أَوْ غيرُ زَائدٍ .

« تنبيه » صِدْقُ الْخَبَرِ مُطَابَقَتُهُ لِلْوَاقِعِ ، وَكَذِبُهُ عَدَمُهَا ؛ وَقيلَ مُطَابَقَتُهُ لِاعْتِقَادِ الْمُخْبِرِ وَلَوْ خَطأً ، وَعَدَمُهَا : بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى إنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ .

والتأخير ، والتعريف والتنكير ، والفصل والوصل ، وغير ذلك مما سيأتي تفصيله (لأنه إن كان لنسبته خارج تطابقه أو لا تطابقه فخبر) يعجبني قول بعضهم : الخبر هو القول المقتضى بصريحه نسبة معلوم إلى معلوم بالنفى أو بالإثبات (أو فى معناه) كالمصدر واسم الفاعل واسم المفعول وما أشبه ذلك . (تنبيه) بين فيه حقيقة الصدق والكذب حيث تقدم إشارة ما إلى ذلك فى قوله تطابقه أو لا تطابقه (مطابقته للواقع الخ) وهذا هو المشهور وعليه التعويل (وقيل) القائل النظام (ولو أخطأ) أى غير مطابق للواقع (بدليل إن كان المنافقين لكاذبون) فكذبهم جل شأنه فى قولهم إنك لرسول الله وإن كان مطابقاً للواقع لأنهم لم يعتقدوه . وللنظام دليل آخر وهو أن من اعتقد

وَرُدَّ بِأَنَّ المعنى لَـكَاذِبُونَ فى الشَّهادَةِ ، أَوْ فى تَسْمِيَتِها ، أَوْ فى الْمَشْهُودِ بِهِ ، فى زَعْمِهِمْ .

« الْجاحِظُ » مُطابَقَتُهُ مَعَ الاعْتِقادِ ، وَعَدَمُها مَعَهُ ، وَغَيْرُهُما لَيْسَ بِصِدْقٍ وَلا كَذِبٍ ، بِدَلِيلِ : أَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ . لِأَنَّ المُرادَ

أمراً فأخبر به ثم ظهر خبره بخلاف الواقع يقال ما كذب ولكنه أخطأ كما روى عن عائشة أنها قالت فيمن شأنه كذلك : ما كذب ولكنه وهم ، ورد بأن المنفى تعمد الكذب لا الكذب ، بدليل تكذيب الكافر كاليهودى إذا قال الإسلام باطل وتصديقه إذا قال الإسلام حق كذا فى الإيضاح (فى الشهادة) لأن المعنى نشهد شهادة واطأت فيها قلوبنا ألسنتنا ، كما يترجم عنه إن واللام وكون الجملة اسمية ، فالتكذيب فى قولهم نشهد وادعائهم المواطأة لا فى قولهم إنك لرسول الله (أو فى تسميتها) أى فى تسميتهم إخبارهم شهادة . لأن الإخبار إذا خلا عن المواطأة لم يكن شهادة فى الحقيقة (أو فى المشهود به) يعنى قولهم إنك لرسول الله (فى زعمهم) لأنهم يعتقدون أنه خبر على خلاف ما عليه حال المخبر عنه فكأنه قيل إنهم يزعمون أنهم كاذبون فى هذا الخبر الصادق (الجاحظ) حاصل ما ذهب إليه أن الخبر ثلاثة أقسام : صادق . وكاذب ، وغير صادق ولا كاذب ، لأن الحكم إما مطابق للواقع مع اعتقاد المخبر له أو عدمه ، وإما غير مطابق مع الاعتقاد أو عدمه ، فالأول أى المطابق مع الاعتقاد هو الصادق ، والثالث أى غير المطابق مع الاعتقاد هو الكاذب ، والثانى والرابع أى المطابق مع عدم الاعتقاد وغير المطابق مع عدم الاعتقاد كل منهما ليس بصادق ولا كاذب ، فالصدق عنده مطابقة الحكم للواقع مع اعتقاده ، والكذب عدم مطابقته مع اعتقاده ، وغيرهما ضربان مطابقته مع عدم اعتقاده وعدم مطابقته مع عدم

بالثانى غَيْرُ الكَذِبِ . لِأَنَّهُ قَسِيمُهُ ، وَغَيْرُ الصِّدْقِ ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْتَقِدُوهُ وَرُدَّ بِأَنَّ المَعْنَى أَمْ لَمْ يَفْتَرِ ، فَعَبَّرَ عَنْهُ بِالْجِنَّةِ ، لِأَنَّ المَجْنُونَ لَا افْتِرَاءَ لَهُ .

﴿أحوالُ الإسنادِ الخبرىِّ﴾

لَا شَكَّ أَنَّ قَصْدَ الْمُخْبِرِ بِخَبَرِهِ : إِفَادَةُ المُخَاطَبِ . إِمَّا الْحُكْمَ ، أَوْ كَوْنَهُ

اعتقاده (بالثانى) أى الإخبار حال الجنة (بأن المعنى أم لم يفتر) فيكون التقسيم للخبر الكاذب فى نوعيه الكاذب عن عمد ولا عن عمد (المخبر) أى من يريد الإخبار لا من ينطق بالجملة الخبرية فإنه قد يقصد التحسر والتحزن . فى القرآن حكاية عن امرأة عمران : رب إنى وضعتها أنثى . وفيه حكاية عن زكريا عليه السلام : رب إنى وهن العظم منى . ومثل هذا كثير ومنه قوله :

قَوْمِي هُمُ قَتَلُوا أُمَيْمَ[1] أَخِي ۝ فَإِذَا رَمَيْتُ أَصَابَنِي سَهْمِي

فَلَئِنْ عَفَوْتُ لَأَعْفُوَنْ جَلَلًا ۝ وَلَئِنْ سَطَوْتُ لَأُوهِنَنْ عَظْمِي

(الحكم) المراد به الثبوت أو الانتفاء وكون ذلك مقصوداً للمخبر بخبره لايستلزم تحققه فى الواقع وهذا مغزى قول من قال : إن الخبر لا يدل على ثبوت المعنى أو انتفائه وليس مغزاه أنه لايفهم الثبوت منه ولا الانتفاء فإن ذلك هو مفهوم الكلام بلاريب ولا يصح إنكاره ، فإنا إذا قلنا زيد قائم فمفهومه ثبوت القيام لزيد ، وأما احتمال عدم الثبوت فليس مفهوماً للفظ أصلا بل احتمال عقلى من جهة صحة تخلف الدلالة لكونها وضعية (كونه) أى

---

(١) أميم : منادى مرخم .

عالِمًا به ؛ وَيُسَمَّى الْأَوَّلُ فَائِدَةَ الْخَبَرِ ، وَالثانى لَازِمَهَا ، وَقَدْ يُنَزَّلُ الْعَالِمُ بِهِمَا مَنزِلَةَ الْجَاهِلِ لِعَدَمِ جَرْيِهِ عَلَى مُوجَبِ الْعِلْمِ : فَيَنْبَغِى أَنْ يَقْتَصِرَ مِنَ التَّرْكِيبِ عَلَى قَدْرِ الْحَاجَةِ ، فَإِنْ كَانَ خَالِيَ الذِّهْنِ مِنَ الْحُكْمِ وَالتَّرَدُّدِ فِيهِ اُسْتُغْنِيَ عَنْ مُؤَكِّدَاتِ الْحُكْمِ ، وَإِنْ كَانَ مُتَرَدِّدًا فيه طالبًا له ، حَسُنَ تَقْوِيَتُهُ بِمُؤَكِّدٍ ، وَإِنْ كَانَ مُنْكِرًا وَجَبَ تَوْكِيدُهُ بِحَسَبِ الْإِنْكَارِ ،

المخبر (ويسمى الأول فائدة الخبر والثانى لازمها) قال السكاكى : والأولى بدون هذه تمتنع وهذه بدون الأولى لا تمتنع كما هو حكم اللازم المجهول المساواة ، أى يمتنع أن لا يحصل العلم الثانى من الخبر نفسه عند حصول الأول منه لامتناع حصول الثانى قبل حصول الأول مع أن سماع الخبر من المخبر كاف فى حصول الثانى منه ، ولا يمتنع أن لا يحصل الأول من الخبر نفسه عند حصول الثانى منه لجواز حصول الأول قبل حصول الثانى وامتناع حصول الحاصل (وقد ينزل العالم بهما منزلة الجاهل) فيلقى إليه الكلام كما يلقى إلى الجاهل . وقد ورد كثيراً تنزيل العالم بالشىء منزلة الجاهل به لأغراض ترجع إلى التسوية بينه وبين الجاهل . تعييراً له وتقبيحاً لحاله . وإن شئت فعليك بكلام رب العزة . ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ماشروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون . وانظر كيف تجد صدره يصف أهل الكتاب بالعلم على سبيل التوكيد القسمى وآخره ينفيه عنهم حيث لم يعملوا بعلمهم (فينبغى) أى إذا كان الغرض الأصلى من الكلام ما تقدم فينبغى الخ (فإن كان الخ) أصل هذا الكلام ماأجاب به أبو العباس عن قول الكندى المتفلسف إنى لأجد فى كلام العرب حشواً ، يقولون عبد الله قائم وأن عبد الله قائم وأن عبد الله لقائم والمعنى واحد بأن قال بل المعانى : مختلفة فعبد الله قائم إخبار عن قيامه ، وإن عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل ، وإن عبد الله لقائم جواب عن إنكار

كما قالَ تَعالَى حِكايَةً عَنْ رُسُلِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلامُ ، إِذْ كُذِّبُوا فى المَرَّةِ الأُولَى: إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ، وَفى الثَّانِيَةِ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ، وَيُسَمَّى الضَّرْبُ الأَوَّلُ ابْتِدائِيًّا ، وَالثَّانِي طَلَبِيًّا ، وَالثَّالِثُ إِنْكارِيًّا ؛ وَإِخْراجُ الكَلامِ عَلَيْها إِخْراجًا عَلَى مُقْتَضَى الظاهِرِ ، وَكَثِيراً مَّا يُخَرَّجُ الكَلامُ عَلَى خِلافِهِ ، فَيُجْعَلُ غيرُ السَّائِلِ كالسائل ، إِذَا قُدِّمَ إِلَيْهِ ما يُلَوِّحُ لهُ بالخَبَرِ فَيَسْتَشْرِفُ له اسْتِشْرافَ المُتَرَدِّدِ ، الطَّالِبِ ، نحوُ : وَلاَ تُخَاطِبْنِي فى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ . وَغيرُ المُنْكِرِ كالمُنْكِرِ ، إِذَا لاحَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَمارَاتِ الإِنكارِ ، نحو :

منكر (إخراج الكلام عليها) على الوجوه المذكورة وهى الخلو من التأكيد فى الأول والتقوية بمؤكد استحساناً فى الثانى ووجوب التأكيد بحسب الإنكار فى الثالث (يلوح) يشير (له) أى لغير السائل (فيستشرف له) أى فيتطلع غير السائل للخبر ، وأصل الاستشراف أن ينظر الإنسان إلى الشىء رافعاً رأسه باسطاً كفه على عينه كالمتقى لشعاع الشمس (نحو ولا تخاطبنى) الخطاب لنوح أى لا تكلمنى يا نوح فى شأن قومك ولا تشفع فى دفع العذاب عنهم ، فهذا يلوح بالخبر تلويحاً ويشعر بأنه قد حق عليهم العذاب فصار المقام مقام أن يتردد المخاطب فى أنهم صاروا محكوماً عليهم بالإغراق أم لا . فقيل إنهم مغرقون مؤكداً ونحوه : وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ، ومثل هذا قول بعض العرب :

فَغَنِّها وَهْيَ لَكَ الفِدَاءُ إِنَّ غِناءَ الإِبِلِ الحُدَاءُ

جاءَ شقيقٌ عارِضاً رُمْحَهُ   إنَّ بَنِي عَمِّكَ فيهم رِماحْ

وَالمنكِرُ كغيرِ المُنْكِرِ إذا كانَ مَعَهُ ما إنْ تأمَّلَهُ ارْتَدَعَ ، نحوُ : لا رَيْبَ فيه .

ومنه قول بشار بن برد :

بَكِّرَا صَاحِبَيَّ قَبْلَ الْهَجِيرِ   إنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ فِي التَّبْكِيرِ

وسلوك هذه الطريقة شعبة من البلاغة فيها دقة وغموض (نحو جاء شقيق) فإن مجيئه هكذا مدلا بشجاعته قد وضع رمحه عرضاً دليل على إعجاب شديد منه واعتقاد أنه لا يقوم إليه من بنى عمه أحد ، كأنهم كلهم عزل ليس مع أحد منهم رمح . والبيت لحجل بن نضلة أحد بنى عمرو بن عبد القيس بن معن وهو أحد أولاد عم شقيق الذى جاء لمحاربتهم ، ومثل البيت قوله تعالى : ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، مؤكداً بأن واللام وإن كان مما لا ينكر لأن تماديهم فى الغفلة والإعراض عن العمل لما بعده من أمارات الإنكار (نحو لا ريب فيه) أى ليس مظنة للريب لأنه من وضوح الدلالة وسطوع البرهان بحيث لا ينبغى لمرتاب أن يقع فيه . ومقتضى صنيعه فى الإيضاح إن ذلك تنظير لتنزيل الشيء منزلة عدمه فينفى كما نزل الإنكار منزلة عدمه فنفى مقتضاه وهو التأكيد (تكملة) قال الشيخ عبد القاهر : قد تدخل كلمة إن للدلالة على الظن قد كان منك أيها المتكلم فى الذى كان أنه لا يكون كقولك للشيء هو بمرأى من المخاطب ومسمع : إنه كان من الأمر ما ترى ، وكان منى إلى فلان إحسان ثم إنه جعل جزائى ما رأيت ، فتجعلك كأنك ترد على نفسك ظنك الذى ظننت وتبين الخطأ الذى توهمت . ومن خصائصها أن لضمير الشأن معها حسناً ولطفاً ليس بدونها بل لا يصلح إلا بها وذلك فى مثل قول رب العزة : إنه من يتق

وَهَكَذَا اعْتِبَارَاتُ النَّفْيِ « ثُمَّ الْإِسْنَادُ » مِنْهُ حَقِيقَةٌ عَقْلِيَّةٌ . وَهِيَ

ويبصر . فإنها لاتعمى الأبصار ، ومن لطيف ذلك ماتجده فى آخر هذه الأبيات التى أنشدها الجاحظ لبعض الحجازيين :

إِذَا طَمِعَتْ يَوْمًا لَحَرَانِي قَرِيبَةٌ   كَتَائِبَ يَأْسٍ كَرَّهَا وَاطِّرَادَهَا

أَكُدُّ ثِمَادِي وَالْمِيَاهُ كَثِيرَةٌ   أُعَالِجُ مِنْهَا حَفْرَهَا وَاكْتِدَادَهَا(١)

وَأَرْضَى بِهَا مِنْ بَحْرِ آخَرَ إِنَّهُ   هُوَ الرِّيُّ أَنْ تَرْضَى النُّفُوسُ ثِمَادَهَا

ومما تصنعه إن فى الكلام أنك تراها تهيء النكرة لأن تكون مبتدأ كقوله :

إِنَّ شِوَاءً وَنَشْوَةً   وَخَبَبَ الْبَازِلِ الْأَمُونِ(٢)

وإن كانت النكرة موصوفة تراها مع أن أحسن كقوله :

إِنَّ دَهْرًا يَلُفُّ شَمْلِي بِسُعْدَى   لَزَمَانٌ يَهُمُّ بِالْإِحْسَانِ

ومن تأثير إن فى الجملة أنها تغنى عن الخبر نحو :

إِنَّ مَحَلًّا وَإِنَّ مُرْتَحَلَا   وَإِنَّ فِي النَّفْسِ إِنْ مَضَوْا مَهَلَا

فلو أسقط إن لم يحسن الحذف أو لم يسغ (وهكذا اعتبارات النفى) فيستغنى عن التأكيد فى الابتدائى ويحسن تأكيده فى الطلبى ، ويجب تأكيده بحسب الإنكار فى الإنكارى ويخرج الكلام فيه على خلاف مقتضى الظاهر والمثل ظاهرة (ثم الإسناد منه الخ) اعلم أن سبب تسمية الإسناد فى هذين القسمين من الكلام عقلياً هو استناده إلى العقل دون الوضع . لأن إسناد الكلمة إلى الكلمة شيء يحصل بقصد المتكلم دون واضع اللغة ، فلا يصير

---

(١) الثماد جمع ثمد : وهو الماء القليل .

(٢) المطية الموثقة الخلق المأمونة العثار .

إِسْنَادُ الْفِعْلِ أَوْ مَعْنَاهُ إِلَى مَا هُوَ لَهُ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِ فِي الظَّاهِرِ كَقَوْلِ الْمُؤْمِنِ : أَنْبَتَ اللهُ الْبَقْلَ ، وَقَوْلِ الْجَاهِلِ : أَنْبَتَ الرَّبِيعُ الْبَقْلَ ، وَكَقَوْلِكَ : جَاءَ زَيْدٌ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَجِئْ * وَمِنْهُ مَجَازٌ عَقْلِيٌّ وَهُوَ إِسْنَادُهُ إِلَى

ضرب خبراً عن زيد بواضع اللغة بل بمن قصد إثبات الضرب فعلا له وإنما الذى يعود إلى واضع اللغة إن ضرب لإثبات الضرب لا لإثبات الخروج وأنه لإثباته فى زمان ماض وليس لإثباته فى زمان مستقبل ، فأما تعيين من ثبت له فإنما يتعلق بمن أراد ذلك من المخبرين ولو كان لغوياً لكان حكمنا بأنه مجاز فى مثل قولنا خط أحسن مما وشى الربيع من جهة أن الفعل لا يصح إلا من الحى القادر حكماً بأن اللغة هى التى أوجبت أن يختص الفعل بالحى القادر دون الجماد وذلك مما لاشك فى بطلانه (أو معناه) المراد بمعنى الفعل نحو المصدر واسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة واسم التفضيل والظرف (فى الظاهر) متعلق بقوله له وإنما قال فى الظاهر ليشمل ما لا يطابق اعتقاد المتكلم مما يطابق الواقع وما لا يطابقه ، فأقسام الحقيقة العقلية أربعة مثل لثلاثة منها وهى مايطابق الواقع والاعتقاد جميعاً ، وما يطابق الاعتقاد فقط ، وما لا يطابق الواقع والاعتقاد . أما مثال مايطابق الواقع فقط فقول المعتزلى لمن لا يعرف حاله وهو يخفيها منه : خالق الله الأفعال كلها (أنبت الربيع البقل) مثله قول الكفار : وما يهلكنا إلا الدهر ، فهذا ونحوه من حيث لم يتكلم به قائله على أنه متأول بل أطلقه بجهله وعماه إطلاق من يضع الصفة فى موضعها لا يوصف بالمجاز ، ولكن يقال عند قائله إنه حقيقة وهو كذب وباطل (مجاز عقلى) ويسمى مجازاً حكمياً ومجازاً فى الإثبات وإسناداً مجازياً (إسناده) أى الفعل أو معناه (بتأول) متصل

مُلاَبَسٍ لهُ غيرِ مَا هُوَ له بتأَوُّلٍ؛ وَلهُ مُلاَبَسَاتٌ شَتَّى ، يُلاَبِسُ الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بهِ ، وَالْمَصْدَرَ ، وَالزَّمَانَ وَالْمَكَانَ ، وَالسَّبَبَ : فإِسْنَاده إِلَى الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولَ بهِ ، إِذَا كَانَ مَبْنِيًّا له ، حقيقةٌ ، كما مَرَّ ، وَإِلَى غَيْرِهِمَا لِلْمُلاَبَسَةِ

بإسناده ، والتأول من آل إلى كذا رجع إليه ومعناه تطلب المآل من الحقيقة أو الموضع الذى إليه من العقل وحاصل . ذلك أن تنصب قرينة صارفة للإسناد على أن يكون إلى ماهو (وله) أى للفعل . « واعلم » أن هذا الضرب من المجاز على حدته كنز من كنوز البلاغة وذخر يعمد إليه الكاتب البليغ والشاعر المفلق والخطيب المصقع ، وربما يدور بخلدك أن الإبداع فيه أمر يستطيعه كل الناس وينجم هذا الظن من أنك ترى الرجل يقول أتى بى الشوق إلى لقائك ، وسار بى الحنين إلى رؤيتك ، وأشباه ذلك مما تجده لشهرته يجرى مجرى الحقيقة التى لايشكل أمرها ، وهو عمرك الله على خلاف ما تظن . فإنك لتراه يدق ويلطف حتى يمتنع مثله على الفحول البزل ، وحتى يأتيك بالبدعة لم تعرفها والنادرة تأنق لها . « هذا » وليس كل شىء يصلح لأن تتعاطى فيه المجاز العقلى بسهولة بل تجدك فى كثير من الأمر وأنت تحتاج إلى أن تهيء الشىء وتصلحه له بشىء تتوخاه فى النظم كقول من يصف جملا :

تَنَاسَ طِلاَبَ الْعَامِرِيَّةِ إِذْ نَأَتْ ... بِأَسْجَحَ مِرْقَالِ الضُّحَى قَلِقِ الضَّفْرِ (١)

(١) الأسجح : الرقيق المشفر . ومرقال الضحى : أى يسرع السير فى الضحى وهو وقت الحر . والضفر : حزام الرحل .

مجاز . كقولهم عِيشَةٌ رَاضِيَةٌ ، وَسَيْلٌ مُفْعَمٌ ، وَشِعْرٌ شَاعِرٌ ، وَنَهارُهُ صَائِم ، ونَهْرٌ جارٍ ، وَبَنَى الأَميرُ المَدِينَةَ : وَقَوْلنَا بِتَأَوَّلٍ يَخْرُجُ مَا مَرَّ مِنْ قَوْلِ الجَاهِلِ ، وَلِهذَا لَمْ يَحْمِلْ نحوُ قولِهِ :

إِذَا مَا أَحَسَّتْهُ الْأَفَاعِي تَحَيَّزَتْ شَوَاةُ الْأَفَاعِي مِنْ مُثَلَّمَةٍ سُمْرِ (١)
تَجُوبُ لَهُ الظَّلْمَاءَ عَيْنٌ كَأَنَّهَا زُجَاجَةُ شَرْبٍ غَيْرُ مَلْأَى وَلَا صِفْرِ

يريد أن يهتدى بنور عينه فى الظلمات ويمكنه بها أن يخرقها ويمضى فيها ولولاها لكانت الظلماء كالسد الذى لا يجد السائر شيئاً يفرجه به ويجعل لنفسه فيها سبيلا ، فلولا أنه قال تجوب له فعلق له بتجوب لما صلحت العين لأن يسند «تجوب» إليها ولكان لاتتبين جهة التجوز فى جعل تجوب فعلا للعين كما ينبغى ، وكذلك لو قال تجوب له الظلماء عينه لم يكن له هذا الموقع ولا اضطرب عليه معناه . وانقطع السلك من حيث كان يعيبه حينئذ أن يصف العين بما وصفها به الآن (مفعم) أى مملوء ، سائحة ، قال الشيخ عبد القاهر : ومما طريق المجاز فيه الحكم قول الخنساء :

تَرْتَعُ مَا رَتَعَتْ حَتَّى إِذَا ادَّكَرَتْ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ

وذاك أنها لم ترد بالإقبال والإقبال غير معناهما فتكون قد تجوزت فى نفس الكلمة وإنما المجاز فى أن جعلتها لكثرة ماتدبر وتقبل كأنها تجسمت من الإقبال والإدبار ، وليس أيضاً على حذف مضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، وإن كانوا يذكرونه منه ، إذ لو قلنا أريد إنما هى ذات إقبال وإدبار أفسدنا الشعر

---

(١) يقول إذا سار ليلا واحست به الافاعي وهي بعيدة عن جحورها تحيزت : أي تلوت ، شواتها : أى أطرافها أو انقبضت جلدتها وتنحت ، والمثلة : السمر . يريد أخفافها التى ثلمها السير على الحجارة .

أشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفْنَى الـكَبِيــــرَ كَرُّ الغَدَاةِ وَمَرُّ العَشِيْ

عَلَى المَجَازِ ، مَا لَمْ يُعْلَمْ أَوْ يُظَنَّ أَنَّ قَائِلَهُ لَمْ يُرِدْ ظَاهِرَهُ ، كَمَا اسْتُدِلَّ عَلَى أَنَّ إِسْنَادَ مَيَّزَ فِي قَوْلِ أَبِي النَّجْمِ :

مَيَّزَ عَنْهُ قُنْزُعاً عَنْ قُنْزُعِ جَذْبُ اللَّيَالِي أَبْطِئِي أَوْ أَسْرِعِي

مَجَازٌ بِقَوْلِهِ عَقِيبَهُ : ✲ أَفْنَاهُ قِيلُ اللهِ لِلشَّمْسِ اطْلُعِي ✲ (وَأَقْسَامُهُ

على أنفسنا وخرجنا إلى شيء مغسول وإلى كلام عامى مرذول لا مساغ له عند من هو صحيح الذوق ، صحيح المعرفة ، نسابة للمعانى (نحو قوله أشاب) وقول أبى الإصبع :

أَهْلَكَنَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ مَعَا وَالدَّهْرُ يَغْدُو مُصَمِّماً جَذَعا

(أشاب) هو للصلتان العبدى الشاعر الحماسى وبعده :

إِذَا لَيْـلَةٌ أَهْرَمَتْ يَوْمَهَا أَتَى بَعْدَ ذَلِكَ يَوْمٌ فَتِيْ

نَرُوحُ وَنَغْدُو لِحَاجَاتِنَا وَحَاجَةُ مَنْ عَاشَ لَا تَنْقَضِيْ

تَمُوتُ مَعَ المَرْءِ حَاجَاتُهُ وَتَبْـقَى لَهُ حَاجَةٌ مَا بَقِيْ

(ميز) قبله :

قَدْ أَصْبَحَتْ أُمُّ الخِيَارِ تَدَّعِي عَلَيَّ ذَنْباً كُلُّهُ لَمْ أَصْنَعِ

مِنْ أَنْ رَأَتْ رَأْسِي كَرَأْسِ الأَصْلَعِ

ميز : أى فصل عنه أى عن رأسه ، والقنزع : الشعر المجتمع فى نواحى الرأس . وجذب الليالى : مضيها وتعاقبها ، وقوله أبطئى أو أسرعى : حال من الليالى على تقدير القول أى مقولا فيها ويجوز أن يكون الأمر بمعنى الخبر (أفناه) تمامه

أَرْبعةٌ) لأنَّ طَرَفَيْهِ إمّا حقيقتانِ . نحوُ : أنبتَ الرَّبيعُ البقْلَ ، أَوْ مجازَانِ نحوُ : أحْيَا الأرْضَ شَبابُ الزّمانِ ، أوْ مُختلِفانِ ، نحوُ أنْبَتَ البقْلَ شبابُ الزّمَانِ ، وَأحْيا الأرْضَ الرَّبيعُ : وَهُوَ فى القُرْآنِ كَثيرٌ : وَ إذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إيمَانًا ، يُذَبِّحُ أبْنَاءهُمْ . يَنزِعُ عنهما لِبَاسَهُمَا ، يَوْماً يَجْعَلُ

---

* حَتَّى إذَا وَارَاكِ أُفْقٌ فارْجِعِى *

(لأن طرفيه)*وهما المسند والمسند إليه (حقيقتان) لغويتان (نحو أنبت الربيع البقل) مثله قوله :

* وَشَيَّبَ أيَّامُ الفِرَاقِ مَفارِقى *

وقول جرير :

لَقَدْ لمتِنَا يَا أُمَّ غيلاَنَ فى السُّرَى وَنِمْتِ وَمَا لَيْلُ المَطِيِّ بِنائمِ

(مجازان) لغويان (نحو أحيا الأرض شباب الزّمان) فإن المراد بإحياء الأرض إحداث النضرة والخضرة الناشئة عن تهييج القوى المنمية فيها ، والإحياء فى اللغة : إعطاء الحياة ، وهى صفة تقتضى الحس والحركة الإرادية . والمراد بشباب الزمان : زمان ازدياد قواها المنمية ، والشباب فى اللغة : كون الحيوان فى زمان تكون حرارته الغريزية مشبوبة (وأحيا الأرض الربيع) مثله قول أبى الطيب :

وَتُحْيِي لَهُ المَالَ الصَّوَارِمُ وَالقنَا وَيقتُلُ مَا يُحْيِى التبسمُ وَالجَدَا

جعل الزيادة والوفور حياة للمال ، وتفريقه فى العطاء قتلا له ، ثم أثبت الإحياء فعلا للصوارم ، والقتل فعلا للتبسم ، مع أن الفعل لا يصح منهما ، ونحوه قولهم : أهلك الناس الدينار والدرهم ، جعلت الفتنة إهلاكاً ثم أثبت الإهلاك فعلا للدينار والدرهم (وإذا تليت الخ) فأثبت الفعل فى جميع ذلك لما لا يثبت له

الوِلْدَانَ شِيبًا ، وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا . وَغَيْرُ مُخْتَصٍّ بِالْخَبَرِ بَلْ يَجْرِي فى الإنْشاءِ نحو : يا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً . وَلا بُدَّ لَهُ مِنْ قَرِينَةٍ لَفْظِيَّةٍ ، كما مَرَّ ، أَوْ مَعْنَوِيَّةٍ ، كاسْتِحَالَةِ قِيَامِ المُسْنَدِ بالمَذْكُورِ عقلاً كقَوْلِكَ : مَحَبَّتُكَ جَاءَتْ بِي إِلَيْكَ ، أَوْ عَادَةً نحوُ : هَزَمَ الأَمِيرُ الجُنْدَ ، وَصُدُورِهِ عَنِ المُوَحِّدِ فى مثالِ : أَشَابَ الصغيرَ . وَمَعْرِفَةُ حقيقتهِ إمَّا

فعل . إذا رجعنا إلى المعقول ، على معنى السبب (أثقالها) ما كنز فيها وأودع جوفها (نحو يا هامان ابن لى صرحاً) فأثبت البناء لهامان وإنما هو للعملة وهامان آمر (كما مر) يريد قول أبى النجم : أفناه قيل الله (بالمذكور) أى بالمسند إليه المذكور مع المسند (ومعرفة حقيقته) قال الإمام عبد القاهر : اعلم أنه ليس بواجب فى هذا المجاز أن يكون للفعل فاعل فى التقدير إذا أنت أسندت الفعل إليه عدت به إلى الحقيقة ، مثل أنك تقول فى ربحت تجارتهم : ربحوا فى تجارتهم ، فإن ذلك لا يتأتى فى كل شىء ، ألا ترى أنه لا يمكنك أن تثبت للفعل فى قولك أقدمنى بلدك حق لى فاعلا سوى الحق ، وكذا لا تستطيع فى قوله

وَصَيَّرَنِي هَوَاكِ وَبِي ... لِحَيْنِي يُضْرَبُ المَثَلُ

وقوله يزيدك وجهه ، البيت ، أن تزعم أن له فاعلا قد نقل عنه الفعل فجعل للهوى ولوجهه ؛ فالاعتبار إذن بأن يكون المعنى الذى يرجع إليه الفعل موجوداً فى الكلام على حقيقته . معنى ذلك أن القدوم موجود على الحقيقة ، وكذلك الصيرورة والزيادة موجودتان على الحقيقة . وإذا كان معنى اللفظ موجوداً

ظاهرة كما في قوله تعالى : فما ربحت تجارتهم ، أى فما ربحوا فى تجارتهم ، وإما خفية ، كما فى قولك : سرتني رؤيتك ، أى سرنى الله عند رؤيتك وقوله : يزيدك وجهه حسنا * إذا ما زدته نظرا

على الحقيقة لم يكن المجاز فيه نفسه فيكون فى الحكم . قال الرازى : فيه نظر لأن الفعل لابد من أن يكون له فاعل حقيقة لامتناع صدور الفعل لا عن فاعل . فهو إن كان ما أسند إليه الفعل فلا مجاز وإلا فيمكن تقديره . فزعم السكاكى أن الحق فى جانب الرازى ، وأن فاعل هذه الأفعال هو الله تعالى وتبعه المصنف فى ذلك ، قال التفتازانى : وفى ظنى أن هذا تكلف والحق ماذكره الإمام : وهذا صحيح لأن تقدير الفاعل الموجد ، وهو الله تعالى ، فى مثل هذه الأفعال تقديراً لما لا يقصد فى الاستعمال . ولا يتعلق به الغرض فى التراكيب (يزيدك) هو لأبى نواس من قصيدة يهجو فيها الأعراب لتعشقهم النساء دون الغلمان . ومثله قول حاجز بن عوف :

أبى عبر الفوارس يوم داج ٍ وعمى مالك وضع السهاما(1)
فلو صاحبتنا لرضيت عنا إذا لم تغبق المائة الغلاما(2)

يريد إذا كان العام عام جدب ، وجفت ضروع الإبل ، حتى إن حلب منها مائة لم يحصل من لبنها ما يكون غبوق غلام واحد . فالفعل هو الذى غبق

---

(1) عبر الفوارس : وزنها وعرف عددها وقوتها ، واحتال بعد ذلك بالهزيمة عندما عرفه العدو حتى رجع إلى قومه وكانوا كامنين ، فثاروا على أعدائهم وقتلوهم . ويوم داج : أى يوماً داجياً ، أى مظلماً بالسحاب .

(2) أى إذا لم يكف لبن مائة ناقة لغبوق غلام واحد ، أى عند الجدب

أى يَزِيدُكَ اللهُ حُسْناً فى وَجْهِهِ : وَأَنْكَرَهُ السَّكاكِىُّ ذاهِباً إلى أَنَّ ما مَرَّ وَنَحْوَهُ اسْتِعارَةٌ بِالْكِنايَةِ ، عَلَى أَنَّ الْمُرادَ بِالرَّبِيعِ الفاعِلُ الحَقِيقِىُّ بِقَرِينَةِ نِسْبَةِ الإِنْباتِ إِلَيْهِ ، وَعَلَى هذا القِياسِ غيرُهُ . وَفِيهِ نَظَرٌ : لِأَنَّهُ يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ الْمُرادُ بِعِيشَةٍ فى قَوْلِهِ تَعالَى : فى عِيشَةٍ راضِيَةٍ ، صاحِبَها كما سَيَأْتِى . وَأَنْ لا تَصِحَّ الإِضافَةُ فى نَحْوِ نَهارُهُ صائِمٌ ، لِبُطْلانِ إِضافَةِ الشَّىْءِ إِلى نَفْسِهِ ، وَأَنْ لا يَكُونَ الأَمْرُ بِالْبِناءِ لِهامانَ ، وَأَنْ يَتَوَقَّفَ نحو :

مستعمل فى نفسه على حقيقته ، والمجاز فى إسناده إلى الإبل وجعله فعلا لها (وأنكره السكاكى) وهاك ماقاله : الذى عندى هو نظم هذا النوع فى سلك الاستعارة بالكناية بجعل الربيع استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقى ، بوساطة المبالغة فى التشبيه وجعل نسبة الإنبات إليه قرينة للاستعارة ، وبجعل الأمير المدبر لأسباب هزيمة العدو ، استعارة بالكناية عن الجند الهازم وجعل نسبة الهزم إليه قرينة للاستعارة (وفيه نظر) إن ما أورده المصنف على مذهب السكاكى لا يتم إلا إذا كان المراد بالمشبه نفس المشبه به حقيقة والسكاكى صرح بأن المراد المشبه به ادعاء فاعرف هذا حتى تكون على بصيرة من الأمر ، نعم قد ردوا مذهبه فى الاستعارة بالكناية بما يصعب دفعه وسيمر بك فى محله (أن يكون المراد بعيشة صاحبها) وهو باطل إذ لا معنى لقولنا فهو صاحب عيشة (كما سيأتى) يريد تفسير الاستعارة بالكناية على مذهب السكاكى (وأن لا تصح الإضافة) لأن المراد بالنهار حينئذ فلان نفسه . يعنى وقد وقعت هذه الإضافة فى البليغ من الكلام : فما ربحت تجارتهم (وأن لا يكون الأمر بالبناء لهامان) لأن المراد به حينئذ هو العملة أنفسهم واللازم باطل ، لأن النداء له والخطاب معه (وأن يتوقف) لأن أسماء الله

أَنْبَتَ الرَّبِيعُ الْبَقلَ عَلَى السَّمْعِ : وَاللَّوَازِمُ كُلُّهَا مُنْتَفِيَةٌ ؛ وَلِأَنَّهُ يَنْتَقِضُ بِنحو : نَهَارُهُ صَائِمٌ ، لاشْتِمَالِهِ عَلَى ذِكْرِ طَرَفَيِ التَّشْبِيهِ .

﴿ أحوالُ المسنَدِ إليه ﴾

أما حَذْفُهُ : فَلِلِاحْتِرَازِ عَنِ الْعَبَثِ بِنَاءً عَلَى الظَّاهِرِ ، أَوْ تَخْيِيلِ الْعُدُولِ إِلَى أَقْوَى الدَّلِيلَيْنِ مِنَ الْعَقْلِ وَاللَّفْظِ كَقَوْلِهِ :

توقيفية ، يعنى وليس كذلك ، لأن مثل هـذا التركيب صحيح شائع ، سمع من الشارع أو لم يسمع (لاشتماله الخ) وذلك يمنع من حمل الكلام على الاستعارة كما صرح به السكاكى ، لكن أجابوا عن هذا بأن ذلك إنما يكون مانعاً إذا كان ذكرهما على وجه ينبىء عن التشبيه مثل زيد أسد « وبعد » فقط اعتاد السكاكى أن يخالف أئمة البلاغة فيما لا غناء فى مخالفتهم فيه ! وما كان أغنانا عن معرفة مذهبه هـذا . وحبذا عمل المصنف لو أنه جعله دبر أذنه (أما حـذفه) قال عبد القادر يصف الحذف : إنه لعجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجـدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن (فللاحتراز الخ) يقول : إن المسند إليه — بعد أن تدل عليه القرينة — تختلف مقاصد البلغاء من حذفه ، فتارة يكون الغرض التحرز عن العبث ، لأن ذكره يعد عبثاً لدلالة القرينة عليه وعلم السامع به ، وأخرى يكون لتخييل أن فى تركه تعويلا على شهادة العقل ، وفى ذكره تعويلا على شهادة اللفظ من حيث الظاهر ، وكم بين الشهادتين ، إلى آخر ما ذكره . هـذا . وإنما قال تخييل لأن الدال حقيقة

* قَالَ لِي كَيفَ أنتَ قُلْتُ عَلِيلُ * أَوِ اخْتِبَارِ تَنَبُّهِ السَّامِعِ عِنْدَ القَرِينَةِ ، أَوْ مِقْدَارِ تَنَبُّهِهِ ، أَوْ إِيهَامِ صَوْنِهِ عَنْ لِسَانِكَ ، أَوْ عَكْسِهِ ، أَوْ تَأَتِّى الإِنْكَارِ لَدَى الْحَاجَةِ ، أَوْ تَعَيُّنِهِ ، أَوِ ادِّعَاءِ التَّعَيُّنِ ، أَوْ نَحوِ ذَلِكَ ،

عند الحذف هو اللفظ المدلول عليه بالقرائن (قال لى) تمامه :

* سهر دائم وحزن طويل * فلم يقل أنا عليل للاحتراز أو التخييل . وربما يكون الحذف لغير ذلك لأن لكل امرىء فى باب البلاغة مانوى (أو إيهام صونه عن لسانك) تعظيما له (أو عكسه) أى إيهام صون لسانك عنه تحقيراً له (أو تأتى) أى تيسر الإنكار عند الحاجة إلى الإنكار ، نحو نذل لئيم ، عند قيام القرينة على أن المراد زيد ، ليتأتى لك أن تقول ما أردت زيداً بل غيره (أو نحو ذلك) كاتباع الاستعمال الوارد على تركه مثل رمية من غير رام وشنشنة [1] أعرفها من أخزم ، أو على ترك نظائره كما فى الرفع على المدح أو الذم أو الترحم ، فإنهم لا يكادون يذكرون فيه المبتدأ ، قال :

هُمُ حَلُّو مِنَ الشَّرَفِ الْمُعَلَّى ... وَمِنْ كَرَمِ العَشِيرَةِ حيثُ شاؤا

بُنَاةُ مَكَارِمٍ وَأُسَاةُ كَلْمٍ ... دِمَاؤُهُمُ مِنَ الكَلَبِ الشِّفاء

وقال الحماسى :

رَآنى عَلَى مَا بى عُمَيْلَةُ فاشْتَكى ... إِلَى مَالِهِ حَالِي أَسَرَّ كما جَهَرْ

---

(١) هو لأبى أخزم الطائى وكان له ابن عاق يقال له أخزم . فمات وترك بنين ، فوثبوا يوماً على جدهم أبى أخزم فأدموه فقال :

إن بنى ضرجونى بالدم ... شنشنة أعرفها من أخزم

يعنى أن هؤلاء أشبهوا أباهم فى العقوق ، والشنشنة : الطبيعة والعادة .

وَأَمَّا ذِكْرُهُ فَلِكَوْنِهِ الأَصْلَ وَلاَ مُقْتَضِيَ لِلْعُدُولِ عَنْهُ ، أَوْ لِلاحْتِيَاطِ

غُلاَمٌ رَمَاهُ اللهُ بِالْخَيْرِ يَافِعاً   لَهُ سِيمِيَاءُ لاَ تَشُقُّ عَلَى الْبَصَرْ

وقال الأقيشر فى ابن عم له موسر سأله فمنعه ، فشكاه إلى القوم وذمه ، فوثب إليه ابن عمه ولطمه :

سَرِيعٌ إِلَى ابْنِ العَمِّ يَلْطِمُ وَجْهَهُ   وَلَيْسَ إِلَى دَاعِى النَّدَى بِسَرِيعِ
حَرِيصٌ عَلَى الدُّنْيَا مُضِيعٌ لِدِينِهِ   وَلَيْسَ لِمَا فِي بَيْتِهِ بِمُضِيعِ

ومنه قولهم — بعد أن يذكروا الرجل — فتى من شأنه كذا وكذا ، وأغر من صفته كيت وكيت كقوله :

سَأَشْكُرُ عَمْرًا مَا تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي   أَيَادِيَ لَمْ تُمْنَنْ وَإِنْ هِيَ جَلَّتِ
فَتًى غَيْرُ مَحْجُوبِ الْغِنَى عَنْ صَدِيقِهِ   وَلاَ مُظْهِرُ الشَّكْوَى إِذَا النعلُ زَلَّتِ
رَأَى خَلَّتِي مِنْ حَيْثُ يَخْفَى مَكَانُهَا   فَكَانَتْ قَذَى عَيْنَيْهِ حَتَّى تَجَلَّتِ

وقوله :

فَتًى كَانَ يُدْنِيهِ الغِنَى مِنْ صَدِيقِهِ   إِذَا مَا هُوَ اسْتَغْنَى وَيُبْعِدُهُ الفَقْرُ
فَتًى لاَ يَعُدُّ الْمَالَ رَبًّا وَلاَ تُرَى   بِهِ جَفْوَةٌ إِنْ نَالَ مَالًا وَلا كِبْرُ
فَتًى كَانَ يُعْطِي السَّيْفَ فِي الرَّوْعِ حَقَّهُ   إِذَا ثَوَّبَ الدَّاعِي وَتَشْقَى بِهِ الْجُزْرُ

وقول جميل :

وَهَلْ بُثَيْنَةُ يا لَلنَّاسِ قَاضِيَتِي   دَيْنِي وَفَاعِلَةٌ خَيْرًا فَأَجْزِيهَا
تَرْنُو بِعَيْنَيْ مَهَاةٍ أَقْصَدَتْ بِهِمَا   قَلْبِي عَشِيَّةَ تَرْمِينِي وَأَرْمِيهَا

لِضَعْفِ التَّعْوِيلِ عَلَى الْقَرِينَةِ ، أَوْ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى غَبَاوَةِ السَّامِعِ ، أَوْ زِيَادَةِ الإِيضَاحِ وَالتَّقْرِيرِ ، أَوْ إِظْهَارِ تَعْظِيمِهِ ، أَوْ إِهَانَتِهِ ، أَوِ التَّبَرُّكِ بِذِكْرِهِ ، أَوِ اسْتِلْذَاذِهِ ، أَوْ بَسْطِ الْكَلَامِ حَيْثُ الإِصْغَاءُ مَطْلُوبٌ ، نَحْوُ : هِيَ عَصَايَ .

هَيْفَاءُ مُقْبِلَةً عَجْزَاءُ مُدْبِرَةً رَيَّا الْعِظَامِ بِلِينِ الْعَيْشِ غَاذِيهَا

وبعد أن يذكروا الديار والمنازل : ربع كذا وكذا ، قال :

اعْتَادَ قَلْبَكَ مِنْ لَيْلَى عَوَائِدُهُ وَهَاجَ أَهْوَاءَكَ الْمَكْنُونَةَ الطَّلَلُ

رَبْعٌ قَوَاءٌ أَذَاعَ الْمُعْصِرَاتُ بِهِ وَكُلُّ حَيْرَانَ سَارٍ مَاؤُهُ خَضِلُ (١)

وهذه طريقة مستمرة عندهم . « هـذا » ومن لطيف الحذف قول بكر ابن النطاح :

الْعَيْنُ تُبْدِي الْحُبَّ وَالْبُغْضَا وَتُظْهِرُ الإِبْرَامَ وَالنَّقْضَا

دُرَّةُ مَا أَنْصَفْتِنِي فِي الْهَوَى وَلَا رَحِمْتِ الْجَسَدَ الْمُنْضَى

غَضْبَى وَلَا وَاللهِ يَا أَهْلَهَا لَا أَطْعَمُ الْبَارِدَ أَوْ تَرْضَى

التقدير هي غضبى . وهذا شعر يمتزج بأجزاء النفوس ، ويصل إلى القلوب بلا آذان (أو إظهار تعظيمه أو إهانته) كما فى بعض الأسامى المحمودة أو المذمومة (حيث الإصغاء مطلوب) أى فى مقام يكون إصغاء السامع مطلوباً للمتكلم

---

(١) أذاع المعصرات : أنزلت ماءها بكثرة . والحيران السارى : هو المزن يجرى ليلا .

وَأَمّا تعريفُه فَبِالإِضْمَارِ : لِأَنَّ المَقَامَ لِلتَّكَلُّمِ أَوِ الخِطَابِ أَوِ الغَيبةِ . وَأَصْلُ الخِطَابِ أَنْ يَكُونَ لِمُعَيَّنٍ ، وقد يُتْرَكُ إلى غَيْرِهِ لِيَعُمَّ كُلَّ مُخَاطَبٍ نحوُ : وَلَوْ تَرَى إِذِ المُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، أي تَنَاهَتْ حَالُهُمْ في الظُّهورِ ، فلا يَخْتَصُّ بِهَا مخاطَبٌ . وَبِالعَلَمِيَّةِ لِإِحْضَارِهِ بِعَيْنِهِ في ذِهْنِ السَّامِعِ

لشرفه ، ولذلك يطال الكلام مع الأحباء (للتكلم) كقول بشار :

أَنَا المُرَعَّثُ لاَ أَخْفَى عَلَى أَحَدٍ   ذَرَّتْ بِيَ الشَّمْسُ لِلقَاصِي وَلِلدَّانِي [1]

(أو الخطاب) كقول الحماسي :

وَأَنْتَ الَّذِي أَخْلَفْتَنِي مَا وَعَدْتَنِي   وَأَشْمَتَّ بِي مَنْ كَانَ فِيكَ يَلُومُ

(أو الغيبة) لكون المسند إليه مذكوراً ، أو في حكم المذكور لقرينة ، كقول أبي تمام :

بِيُمْنِ أَبِي إِسْحَاقَ طَالَتْ يَدُ العُلَى   وَقَامَتْ قَنَاةُ الدِّينِ وَاشْتَدَّ كَاهِلُهْ

هُوَ البَحْرُ مِنْ أَيِّ النَّوَاحِي أَتَيْتَهُ   فَلُجَّتُهُ المَعْرُوفُ وَالجُودُ سَاحِلُهْ

وقوله تعالى : ولأبويه لكل واحد منهما السدس . أي ولأبوى الميت (لمعين) واحداً أو كثيراً (ليعم كل مخاطب) على سبيل البدل لا على سبيل التناول دفعة واحدة (نحو : ولو ترى) وكما تقول : فلان لئيم إن أكرمته أهانك ، وإن أحسنت إليه أساء إليك ، فلا تريد مخاطباً بعينه بل تريد إن أكرم أو أحسن إليه قصداً إلى أن سوء معاملته لا يختص بواحد دون واحد (ناكسوا رءوسهم) من الحياء والخزى (بها) أي برؤية حالهم (وبالعلمية) أي تعريف المسند إليه

---

(١) كان بشار يلقب بالمرعث لرعثة كانت له في صغره ، والرعثة : القرط المعلق في شحمة الأذن . وذرت الشمس : طلعت .

ابتداءً باسمٍ مختصٍّ به ، نحو : قل هو الله أحدٌ ؛ أو تعظيمٍ أو إهانةٍ أو كنايةٍ ، أوْ إيهام استلذاذِهِ ، أو التبرُّك بِهِ أوْ نحوِ ذلِكَ . وبالموصُولِيَّةِ لِعَدَمِ عِلْمِ المخاطَبِ بِالأحْوَالِ المختصَّةِ بِهِ سِوَى الصِّلَةِ ، كَقَوْلِكَ : الَّذِى كَانَ مَعَنَا أَمْسِ رَجُلٌ عَالِمٌ . أوِ استهجانِ التصريحِ بالاسْمِ ، أوْ زِيَادَةِ

بإيراده علماً (نحو : قل هو الله أحد) هو ضمير الشان مبتدأ أول والله مبتدأ ثان والجملة خبره ، فقد ورد المسند إليه علماً لأجل إحضاره فى الذهن ابتداء بجميع مشخصاته التى قام عليها الدليل كالقدرة ونحوها ، باسم خاص به تعالى ، ونحوه قول الشاعر :

أَبُو مَالِكٍ قَاصِرٌ فَقْرُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَمُشِيعٌ غِنَاه

وقول الآخر :

أَللهُ يَعْلَمُ مَا تَرَكْتُ قِتَالَهُمْ حَتَّى عَلَوْا فَرَسِي بِأَشْقَرَ مُزْبِدِ

(أو تعظيم أو إهانة) كما فى الكنى والألقاب المحمودة والمذمومة (أو كناية) حيث الاسم صالح لها ، ومما ورد صالحاً للكناية من غير باب المسند إليه قوله تعالى : تبت يدا أبى لهب ، كناية عن كونه جهنمياً (أو إيهام استلذاذه) نحو قوله :

بِاللهِ يَا ظَبَيَاتِ القَاعِ قُلْنَ لَنَا لَيْلَاىَ مِنْكُنَّ أَمْ لَيْلَى مِنَ الْبَشَرِ

(أو نحو ذلك) مما يناسب اعتباره فى الإعلام كالتفاؤل والتطير ، (أو استهجان التصريح بالاسم) قال السكاكى : والعدول عن التصريح باب من البلاغة يصار إليه كثيراً ، وإن أورث تطويلا . يحكى عن شريح أن عدى بن أرطاه أتاه ومعه امرأة له من أهل الكوفة يخاصمها ،

التقرير نحو : وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ، أو التفخيم نحو : فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ، أو تنبيه المخاطب على خطإ نحو :

فلما جلس بين يدى شريح قال عدى : أين أنت ؟ قال بينك وبين الحائط . قال : إنى امرؤ من أهل الشام ، قال : بعيد سحيق ، قال وأنى قدمت العراق ، قال : خير مقدم ، قال : وتزوجت هذه ؟ قال : بالرفاء والبنين ، قال : وإنها ولدت غلاماً ، قال : ليهنك الفارس ، قال : وأردت أن أنقلها إلى دارى ، قال : المرء أحق بأهله ، قال : قد كنت شرطت لها وكرها ، قال الشرط أملك . قال : اقض بيننا ، قال : فعلت ، قال : فعلى من قضيت ؟ قال : على ابن أملك : عدل شريح عن لفظ عليك لئلا يواجهه بالصريح على ما يشق على المخاصم من القضاء عليه (نحو وروادته) فالكلام مسوق لنزاهة يوسف وطهارة ذيله والمذكور أدل عليه من امرأة العزيز أو زليخا . ومما هو نص فى زيادة تقرير الغرض المسوق له الكلام فى غير المسند إليه بيت السقط :

أَعُبَّادَ الْمَسِيحِ يَخَافُ صَحْبِي ... وَنَحْنُ عَبِيدُ مَنْ خَلَقَ الْمَسِيحَا

فإنه أدل على عدم خوفهم النصارى من أن يقول نحن عبيد الله (نحو : فغشيهم) وقوله تعالى : والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى : ومثله قوله :

مَضَى بِهَا مَا مَضَى مِنْ عَقْلِ شَارِبِهَا ... وَفِى الزُّجَاجَةِ بَاقٍ يَطْلُبُ البَاقِى

ومنه فى غير هذا الباب بيت الحماسة :

صَبَا مَا صَبَا حَتَّى عَلاَ الشَّيْبُ رَأْسَهُ ... فَلَمَّا عَلاَهُ قَالَ لِلْبَاطِلِ ابْعَدِ

فإن ما مفعول ، وقول أبى نواس :

وَلَقَدْ نَهَزْتُ مَعَ الْغُوَاةِ بِدَلْوِهِمْ ... وَأَسَمْتُ سَرْحَ اللَّهْوِ حَيْثُ أَسَامُوا

إِنَّ الَّذِينَ تَرَوْنَهُمْ إِخْوَانَكُمْ * يَشْفِي غَلِيلَ صُدُورِهِمْ أَنْ تُصْرَعُوا

أو الإيماء إلى وَجهِ بِناءِ الخَبَرِ نحو : إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ : ثُمَّ إِنَّهُ رُبَّمَا جُعِلَ ذَرِيعَةً إِلَى التَّعْرِيضِ بِالتَّعْظِيمِ لشأنه نحو :

وَبَلَغْتُ مَا بَلَغَ امْرُؤٌ بِشَبَابِهِ   فَإِذَا عُصَارَةُ كُلِّ ذَلِكَ أَثَامُ(١)

(نحو : إن الذين) ففيه من التنبيه على خطئهم فى هـذا الظن ما ليس فى قولك إن القوم الفلانى . والبيت لعبدة بن الطيب من قصيدة يعظ فيها بنيه (أو الإيماء إلى وجه بناء الخبر) يقول : قد يعرف المسند إليه بالموصولية لما فى صلته من الإشارة إلى نوع الخبر من ثواب أو عقاب أو مدح أو ذم مثلا . وحاصله أن يؤتى بالفاتحة على وجه ينبه الفطن على الخاتمة نحو : إن الذين يستكبرون الآية ، فنى مضمون الصلة الذى هو الاستكبار إيماء إلى أن الخبر أمر من جنس الإذلال والعقوبة : قال السكاكى : ثم يتفرع على هذا اعتبارات لطيفة ، ربما جعل ذريعة إلى التعريض بالتعظيم كقولك : الذى يرافقك يستحق الإجلال والرفع والذى يفارقك يستحق الإذلال والصفع ، ومنه قولهم جاء(٢) بعد اللتيا والتى ، أو بالإهانة كما إذا قلبت الخبر فى الصورتين ، وربما جعل

(١) أثام : كسلام ، جزاء الإثم .

(٢) قال السكاكى فى فصل الإيجاز : وقول العرب جاء بعد اللتيا والتى بترك صلة الموصول إيثاراً للإيجاز تنبيهاً على أن المشار إليهما باللتيا والتى وهى المحنة ، والشدائد بلغت من شدتها وفظاعة شأنها ، مبلغاً يبهت الواصف معها حتى لا يحير ببنت شفة .

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا   بَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ

أَوْ شَأْنِ غَيْرِهِ نحو : الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ

وَ بِالْإِشَارَةِ لِتَمْيِيزِهِ أَكْمَلَ تَمْيِيزٍ نحوُ قوله :

* هَذَا أَبُو الصَّقْرِ فَرْدًا فِي مَحَاسِنِهِ *

ذريعة إلى تعظيم شأن الخبر كقول الفرزدق * إن الذى سمك السماء * البيت فإن فيه إيماء إلى أن الخبر المبنى عليه أمر من جنس الرفعة والبناء ؛ ثم فى هذا الإيماء تعريض لتعظيم بناء بيته من حيث أنه فعل من رفع السماء ، أو تعظيم شأن غير الخبر نحو : الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين ، ففيه إيماء إلى أن الخبر المبنى عليه أمر من جنس الخسران ، وفيه مع ذلك تعظيم لشأن شعيب ، وفى هذه الاعتبارات كثرة ، فحم لها حول ذكائك . «هذا» وقد يقصد بالموصول الحث على التعظيم نحو : جاء الذى علمك ، أو التحقير نحو : جاء الذى سألك أو التهكم كقوله تعالى : ياأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون . ولطائف هذا الباب لا تكاد تضبط (لتمييزه أكبر تمييز) لغرض من الأغراض كأن يكون فى مقام المدح وفى حال إجراء أوصاف الرفعة ونعوت الأثرة (نحو هذا أبو الصقر) مثله قوله :

وَإِذَا تَأَمَّلَ شَخْصَ ضَيْفٍ مُقْبِلٍ   مُتَسَرْبِلٍ سِرْبَالَ لَيْلٍ أَغْبَرِ

أَوْمَا إِلَى الْكَوْمَاءِ هَذَا طَارِقٌ   نَحَرَتْنِيَ الْأَعْدَاءُ إِنْ لَمْ تُنْحَرِي

وقول المتنبي :

أُولَئِكَ قَوْمٌ إِنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا الْبِنَا   وَإِنْ عَاهَدُوا أَوْفَوْا وَإِنْ عَقَدُوا شَدُّوا

أَوِ التَّعْرِيضِ بِغَبَاوَةِ السَّامِعِ كقوله :

أُولَئِكَ آبَائِي فَجِئْنِي بِمِثْلِهِمْ إِذَا جَمَعَتْنَا يَا جَرِيرُ الْمَجَامِعُ

أَوْ بَيَانِ حَالِهِ فِي الْقُرْبِ أَوِ الْبُعْدِ أَوِ التَّوَسُّطِ : كَقَوْلِكَ : هَذَا أَوْ ذَلِكَ أَوْ ذَاكَ زَيْدٌ ؛ أَوْ تَحْقِيرِهِ بِالْقُرْبِ نَحْوَ : أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ؛ أَوْ تَعْظِيمِهِ بِالْبُعْدِ نَحْوُ : الم ذَلِكَ الْكِتَابُ ؛ أَوْ تَحْقِيرِهِ كَمَا يُقَالُ : ذَلِكَ اللَّعِينُ فَعَلَ كَذَا ، أَوْ لِلتَّنْبِيهِ عِنْدَ تَعْقِيبِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ بِأَوْصَافٍ عَلَى أَنَّهُ جَدِيرٌ بِمَا يَرِدُ بَعْدَهُ مِنْ أَجْلِهَا نَحْوَ : أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمْ.

والبيت لابن الرومى وتمامه « من نسل شيبان بين الضال والسلم » الضال : هو السدر ، والسلم : شجر ذو شوك ، وهما من شجر البوادى ، وأشار بذلك إلى ما تتمادح به العرب من سكنى البادية لأن العز مفقود فى الحضر (أو التعريض بغباوة السامع) وأنه لا يتميز الشيء عنده إلا بالحس (أولئك آبائى) هو للفرزدق من قصيدة يفتخر فيها على جرير (نحو هذا أو ذلك او ذاك) فهذا زيد فى حال القرب وذلك فى حال البعد وذاك فى حال التوسط ، وإنما أخر لأنه إنما يتحقق بعد تحقيق الطرفين (أهذا الذى يذكر آلهتكم) مثله قوله تعالى : وماهذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ، وقوله تعالى ، وهو من غير باب المسند إليه : ماذا أراد الله بهذا مثلا . وقول الشاعر :

تَقُولُ وَدَقَّتْ صَدْرَهَا بِيَمِينِهَا أَبَعْلِيَ هَذَا بِالرَّحَا الْمُتَقَاعِسُ [1]

(نحو ذلك الكتاب) ذهاباً إلى بعد درجته ، ونحوه : فذلكن الذى لمتننى فيه ، لم تقل فهذا — وهو حاضر — رفعاً لمنزلته فى الحسن وتمهيداً للعذر فى الافتتان به (نحو : أولئك على هدى) فقد عقب المشار إليه وهو المتقين

(١) المتقاعس : الذى يخرج صدره ويدخل ظهره .

الْمُفْلِحُونَ . وَ بِاللَّامِ لِلْإِشَارَةِ إِلَى مَعْهُودٍ ، نَحْوُ : وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى

بأوصاف هى الإيمان بالغيب وإقام الصلاة وغير ذلك ، ثم عرف المسند إليه بالإشارة تنبيهاً على أن المشار إليهم أحقاء بما يرد بعد أولئك وهو كونهم على الهدى عاجلا والفوز والفلاح آجلا من أجل اتصافهم بالأوصاف المذكورة.. ومثل ذلك قول عروة بن الورد :

لَحَا اللهُ صُعْلُوكًا إِذَا جَنَّ لَيْلُهُ ... مُصَافِي الْمُشَاشِ (١) آلِفًا كُلَّ مَجْزَرِ

يَنَامُ ثَقِيلًا ثُمَّ يُصْبِحُ قَاعِدًا ... يَحُتُّ الْحَصَى عَنْ جَنْبِهِ الْمُتَعَفِّرُ

يُعِينُ نِسَاءَ الْحَيِّ مَا يَسْتَعِنَّهُ ... فَيُضْحِي طَلِيحًا كَالْبَعِيرِ الْمُحَسَّرِ

وَلَكِنَّ صُعْلُوكًا صَفِيحَةُ وَجْهِهِ ... كَضَوْءِ سِرَاجِ الْقَابِسِ الْمُتَنَوِّرِ

مُطِلًّا عَلَى أَعْدَائِهِ يَزْجُرُونَهُ ... بِسَاحَتِهِمْ زَجْرَ الْمَنِيحِ الْمُشَهَّرِ

وَإِنْ بَعُدُوا لَا يَأْمَنُونَ اقْتِرَابَهُ ... تَشَوُّفَ أَهْلِ الْغَائِبِ الْمُتَنَظَّرِ

فَذَلِكَ إِنْ يَلْقَ الْمَنِيَّةَ يَلْقَهَا ... حَمِيدًا وَإِنْ يَسْتَغْنِ يَوْمًا فَأَجْدِرِ

عدد له خصالا فاضلة كما ترى ثم عقب هذا بقوله ، فذلك فأفاد أنه حرى بما ذكر بعده لأجل اتصافه بتلك الخصال (معهود) بين المتكلم والمخاطب لتقدم ذكره صريحاً أو كناية كما فى الآية ، أو لعلم المخاطب به نحو : إذ هما فى الغار

(١) المشاش جمع مشاشة : قيل هى رءوس المفاصل مثل الركبتين ، وفى إضافة مصافى إلى المشاش من التهكم ما لا يخفى . والمجزر : موضع جزر الإبل . والمتعفر : المترب . والبعير المحسر : هو المعيى . وقوله وإن بعدوا الخ : على التقديم والتأخير ، أراد لا يأمنون اقترابه وإن بعدوا .

اى لَيْسَ الذى طَلَبَتْ كالتى وُهِبَتْ لها ، أَوْ إِلَى نَفْسِ الْحَقِيقَةِ كَقولِكَ : الرَّجلُ خيرٌ منَ المَرْأَةِ ؛ وَقَد يأتِي لِوَاحِدٍ بِاعْتِبَارِ عَهْدِيَّتِهِ فِى الذِّهْنِ كقولك : أَدْخُلِ السُّوقَ حيثُ لا عَهْدَ ؛ وَهذَا فِى المَعنَى كَالنَّكِرَةِ ، وَقَدْ يُفِيدُ

ونحو : إذ يبايعونك تحت الشجرة ، وكقولك لمن فوق سهما : القرطاس . أو لحضوره نحو هذا الرجل ، ياأيها الرجل (أى ليس الذى الخ) أى ليس الذكر الذى طلبته امرأة عمران كالأنثى التى وهبت لها ، أى فاللام فى الأنثى إشارة إلى معهود تقدم فى قوله تعالى : قالت رب إنى وضعتها أنثى ، لـكنه ليس مسنداً إليه لأنه مجرور بالكاف ، واللام فى الذكر إشارة إلى ماسبق ذكره كناية فى قوله تعالى : رب إنى نذرت لك مافى بطنى محرراً ، فإن لفظ ما وإن كان يعم الذكور والإناث إلا أن التحرير ، وهو أن يعتق الولد لخدمة بيت المقدس ، إنما كان للذكور دون الإناث (إلى نفس الحقيقة) بصرف النظر عن عمومها وخصوصها (الرجل خير من المرأة) مثله الدينار خير من الدرهم وقول المعرى :

وَالْخِلُّ كالماء يُبْدِى لِى ضَمَائِرَهُ ... مَعَ الصَّفَاءِ وَيُخْفِيهَا مَعَ الكَدَرِ

وقوله تعالى ، وهو من غير هذا الباب : وجعلنا من الماء كل شىء حى . أى جعلنا مبدأ كل شىء حي هذا الجنس الذى هو الماء (يأتى) أى المعرف بلام الحقيقة (باعتبار عهديته فى الذهن) لمطابقته الحقيقة (أدخل السوق) فأشير باللام إلى الحقيقة لكن فى ضمن بعض الإفراد لقيام القرينة على ذلك ومثله قوله تعالى : وأخاف أن يأكله الذئب (فى المعنى) وأما فى اللفظ فتجرى عليه أحكام المعارف من وقوعه مبتدأ وذا حال ووصفاً للمعرفة وموصوفاً بها ونحو ذلك (كالنكرة) فيعامل معاملتها ويوصف بالجملة كقوله :

☆ وَلَقَدْ أَمُرُّ عَلَى اللَّئِيمِ يَسُبُّنِى ☆

الِاسْتِغْرَاقَ ، نحوُ : «إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ» وَهُوَ ضَرْبَانِ : حَقِيقِيٌّ ، نحوُ :

° وإنما لم يقل نكرة لما بينهما من تفاوت ما ، وهو أن النكرة معناها بعض غير معين من جملة أفراد الحقيقة وهذا معناه نفس الحقيقة ، وإنما تستفاد البعضية من القرينة كالدخول والأكل فيما مر (نحو إن الإنسان) فأشير باللام إلى الإنسانية في ضمن كل فرد من أفرادها بدليل الاستثناء الذي هو معيار العموم لأن شرطه دخول المستثنى منه لو لم يذكر هذا . والحاصل أن المراد باسم الجنس المعرف باللام إما نفس الحقيقة لا مايصدق عليه من الافراد وهو تعريف الجنس والحقيقة ، ونحوه علم الجنس كأسامة ، وإما فرد معين وهو العهد الخارجي . ونحوه العلم الخاص كزيد ، وإما فرد غير معين وهو العهد الذهني ونحوه النكرة كرجل ، وإما كل الافراد وهو الاستغراق . ونحوه لفظ كل مضافاً إلى النكرة كقولنا كل رجل . (وبعد) فقد قال أستاذنا الشيخ محمد عبده في تفسير سورة والعصر : إن الاستغراق بأل في لسان العرب ليس كالاستغراق بلفظ كل وليست أل مساوية لكل التي تضاف إلى النكرة ويراد بها تعميم الحكم في جميع أفراد الجنس ، وإنما يراعى في أل استغراق المعهود عند المخاطبين ، لأنها في لسانهم للعهد . وتعريف الجنس إما في فرد أو أفراد ولن تفارق العهد أبداً وكذلك التي يسميها النحاة العهد الذهني ويتحيرون في الفرق بينها وبين النكرة ثم يقول فريق منهم إن الفرق في اللفظ وإجراء أحكامه أما المعنى فلافرق فيه ، وهو وهم فاسد . وهذا كلام من قتل اللغة علماً وأحاط بأسرارها خبراً (وهو) أي الاستغراق (حقيقي) وهو أن يراد كل فرد مما يتناوله اللفظ لغة .

عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، أَيْ كُلَّ غَيْبٍ وَشَهَادَةٍ : وَعُرْفِيٌّ كقولنا : جَمَعَ الْأَمِيرُ الصَّاغَةَ ، أَيْ صَاغَةَ بَلَدِهِ أَوْ مَمْلَكَتِهِ . وَاسْتِغْرَاقُ المفردِ أَشْمَلُ : بِدَلِيلِ صِحَّةِ لَا رِجَالَ فِي الدَّارِ ، إِذَا كَانَ فِيهَا رَجُلٌ أَوْ رَجُلَانِ ، دُونَ لَا رَجُلَ . وَلَا تَنَافِيَ بَيْنَ الِاسْتِغْرَاقِ وَإِفْرَادِ الِاسْمِ ، لِأَنَّ الْحَرْفَ إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيهِ مُجَرَّدًا عَنْ مَعْنَى الْوَحْدَةِ ، لِأَنَّهُ بِمعنى كُلِّ فَرْدٍ لَا مَجْمُوعِ الْأَفْرَادِ ، وَلِهَذَا

(وعرفى) وهو أن يراد كل فرد مما يتناوله اللفظ بحسب متفاهم العرف (أى صاغة بلده أو مملكته) لاصاغة الدنيا (واستغراق المفرد أشمل) هذه العبارة قد أشار إلى مغزاها جار الله الزمخشري فى كشافه ، ومعناها أن اسم الجنس المفرد إذا دخلت عليه أداة الاستغراق كحرف التعريف أو النفى كان شموله للافراد أكثر من شمول المثنى والجمع الداخل عليهما تلك الأداة وذلك أن المفرد يتناول كل واحد من الأفراد ، والمثنى إنما يتناول كل اثنين اثنين ، ولا ينافيه خروج الواحد ، والجمع إنما يتناول كل جماعة جماعة ، ولا ينافيه خروج الواحد والاثنين . ودليل ذلك صحة : لا رجال فى الدار إذا كان فيها رجل أو رجلان وعدم صحة لا رجل إذا كان فيها رجل أو رجلان . هذا ، وقد قالوا إن كلام المصنف مسلم فى النكرة المنفية دون المعرف باللام ، لأن الجمع المعرف بلام الاستغراق يتناول كل واحد من الافراد بل هو فى ذلك أقوى من المفرد (ولا تنافى) هذا جواب عن سؤال أورده السكاكى وهو أن إفراد الاسم ينافى أن تكون الأداة الداخلة عليه للاستغراق ، لأن الإفراد يدل على الوحدة ، والاستغراق على التعدد (الحرف) الدال على الاستغراق كحرف النفى ولام التعريف (عليه) أى على الاسم المفرد .

امْتَنَعَ وَصْفُهُ بِنَعْتِ الجمعِ . وَبِالْإِضَافَةِ لِأَنَّهَا أَخْصَرُ طَرِيقٍ نَحْوُ :

* هَوَايَ مَعَ الرَّكْبِ الْيَمَانِينَ مُصْعِدُ * أَوْ تَضَمُّنِهَا تَعْظِيمًا لِشَأْنِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ ، أَوِ الْمُضَافِ أَوْ غَيْرِهِمَا ، كَقَوْلِكَ عَبْدِي حَضَرَ ، وَعَبْدُ الْخَلِيفَةِ رَكِبَ ، وَعَبْدُ السُّلْطَانِ عِنْدِي ؛ أَوْ تَحْقِيرًا نحو : وَلَدُ الحَجَّامِ حَاضِرٌ .

(امتنع وصفه بنعت الجمع) ولا اكتراث بما حكاه الأخفش فى الدينار الصفر والدرهم البيض (لأنها الخ) أو لإغنائها عن تفصيل متعذر كقوله :

بَنُو مَطَرٍ يَوْمَ اللِّقَاءِ كَأَنَّهُمْ ... أُسُودٌ لَهَا فِي غِيلِ خَفَّانَ أَشْبُلُ

أو لتضمنها اعتباراً لطيفاً مجازياً كقوله :

إِذَا كَوْكَبُ الْخَرْقَاءِ لَاحَ بِسُحْرَةٍ ... سُهَيْلٌ أَذَاعَتْ غَزْلَهَا فِي الْقَرَائِبِ

(لأنها أخصر طريق) والمقام مقام اختصار (هواى) هو لجعفر بن علبة الحارثى من أبيات قالها وتمامه :

* جَنِيبٌ وَجُثْمَانِي بِمَكَّةَ مُوثَقُ *

وبعده :

عَجِبْتُ لِمَسْرَاهَا وَأَنَّى تَخَلَّصَتْ ... إِلَيَّ وَبَابُ السِّجْنِ دُونِيَ مُغْلَقُ
أَلَمَّتْ فَحَيَّتْ ثُمَّ قَامَتْ فَوَدَّعَتْ ... فَلَمَّا تَوَلَّتْ كَادَتِ النَّفْسُ تَزْهَقُ
فَلَا تَحْسَبِي أَنِّي تَخَشَّعْتُ بَعْدَكُمْ ... لِشَيْءٍ وَلَا أَنِّي مِنَ الْمَوْتِ أَفْرَقُ
وَلَا أَنَّ قَلْبِي يَزْدَهِيهِ وَعِيدُهُمْ ... وَلَا أَنَّنِي بِالْمَشْيِ فِي الْقَيْدِ أَخْرَقُ
وَلَكِنْ عَرَتْنِي مِنْ هَوَاكِ صَبَابَةٌ ... كَمَا كُنْتُ أَلْقَى مِنْكِ إِذْ أَنَا مُطْلَقُ

وَأَمَّا تَنْكِيرُهُ فَلِلْإِفْرَادِ نحو : وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى . أَوِ النَّوْعِيَّةِ نحو : وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ . أَوِ التَّعْظِيمِ أَوِ التَّحْقِيرِ كقوله :

لَهُ حَاجِبٌ فِي كُلِّ أَمْرٍ يَشِينُهُ ... وَلَيْسَ لَهُ عَنْ طَالِبِ الْعُرْفِ حَاجِبُ

« الضمانة الحب والعشق ، وهواى بمعنى مهوى ، فهو أخصر من الذى أهواه ، ونحوه ، ومصعد : مبعد ذاهب فى الأرض .

(فللافراد) وقد ينكر لكون المقام غير صالح للتعريف إما لأنك لا تعلم جهة من التعريف حقيقة أو تتجاهل ، وباب التجاهل فى البلاغة عريق ، وإن شئت فانظر لفظ كأن فى قول الخارجية :

أَيَا شَجَرَ الْخَابُورِ مَالَكَ مُورِقاً ... كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفِ

ماذا ترى ؟ وإما لأنه يمنع من التعريف مانع كقوله :

إِذَا سَئِمَتْ مُهَنَّدَهُ يَمِينٌ ... لِطُولِ الْحَمْلِ بَدَّلَهُ شِمَالَا

لم يقل يمينه احترازاً عن التصريح بنسبة السآمة إلى يمين الممدوح (رجل) أى فرد من أشخاص الرجال (غشاوة) أى نوع من الأغطية غير ما يتعارفه الناس وهو غطاء التعامى عن آيات الله ، ورأى السكاكى أن التنكير للتعظيم أى غشاوة عظيمة تحجب أبصارهم بالكلية وتحول بينها وبين الإدراك ، وهذا أليق. (له حاجب) أى له حاجب أى حاجب وليس له حاجب ما ومثله قوله :

وَلِلّهِ مِنِّي جَانِبٌ لَا أُضِيعُهُ ... وَلِلَّهْوِ مِنِّي وَالْخَلَاعَةِ جَانِبُ

والبيت لابن أبى السمط من أبيات منها :

فَتًى لَا يُبَالِي الْمُدْلِجُونَ بِنُورِهِ ... إِلَى بَابِهِ أَنْ لَا تُضِيءَ الْكَوَاكِبُ

يَصَمُّ عَنِ الْفَحْشَاءِ حَتَّى كَأَنَّهُ ... إِذَا ذُكِرَتْ فِي مَجْلِسِ الْقَوْمِ غَائِبُ

أَوِ التَّكْثِيرِ كقولهم : إِنَّ لَهُ لَإِبِلاً وَإِنَّ لَهُ لَغَنَماً . أو التقليل نحو : وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ؛ وَقَدْ جَاءَ لِلتَّعْظِيمِ وَالتَّكْثِيرِ نحو : وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ ، أَيْ ذَوُو عَدَدٍ كَثِيرٍ وَآيَاتٍ عِظَامٍ . وَمِنْ تَنْكِيرِ غَيْرِهِ لِلْإِفْرَادِ أَوِ النَّوْعِيَّةِ نحو : وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ، وَلِلتَّعْظِيمِ نحو : فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ ، وللتحقير نحو : إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا * وَأَمَّا وَصْفُهُ : فَلِكَوْنِهِ مُبَيِّناً لَهُ كَاشِفاً عَنْ مَعْنَاهُ ،

(ورضوان من الله أكبر) أى وشىء من رضوانه أكبر مما ذكر قبل من الجنة ونعيمها لأن العبد إذا علم أن مولاه راض عنه فهو أكبر فى نفسه مما وراءه من النعم ، وإنما تهنأ له برضاه ، كما إذا علم بسخطه تنغصت عليه ولم يجد لها لذة وإن عظمت (للتعظيم والتكثير) معاً (غيره) أى غير المسند إليه (كل دابة من ماء) أى كل فرد من أفراد الدواب من نطفة معينة أو كل نوع من أنواع الدواب أو كل من نوع من أنواع المياه . « هذا » ومن تنكير غير المسند إليه للنكارة وعدم التعين قوله تعالى : أو اطرحوه أرضاً ، وللتقليل قول المتنبى :

فَيَوْماً بِخَيْلٍ تَطْرُدُ الرُّومَ عَنْهُمُو ... وَيَوْماً بِجُودٍ تَطْرُدُ الْفَقْرَ وَالْجَدْبَا

أى بعدد نزر من خيولك وشىء يسير من فيضان جودك . « واعلم » أنه كما أن التنكير لإبهامه يفيد التعظيم والتحقير والتقليل ، كذلك لفظ البعض كما فى قوله :

تَرَّاكُ أَمْكِنَةٍ إِذَا لَمْ أَرْضَهَا ... أَوْ يَرْتَبِطْ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمَامُهَا

كقولك : الْجِسْمُ الطَّوِيلُ العَرِيضُ الْعَمِيقُ ، يَحْتَاجُ إِلَى فَرَاغٍ يَشْغَلُهُ وَنَحْوُهُ فِي الْكَشْفِ قوله :

الْأَلْمَعِيُّ الَّذِي يَظُنُّ بِكَ الظَّنَّ كَأَنْ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا

أَوْ مُخَصِّصًا نَحْوُ : زَيْدٌ التَّاجِرُ عِنْدَنَا ، أَوْ مَدْحًا أَوْ ذَمًّا نَحْوُ : جَاءَنِي زَيْدٌ الْعَالِمُ أَوِ الْجَاهِلُ حَيْثُ يَتَعَيَّنُ الْمَوْصُوفُ قَبْلَ ذِكْرِهِ . أَوْ تَأْكِيدًا

أراد نفسه ، ونحو هذا كلام ذكره بعض الناس . ونحو قولهم : كفى هذا الأمر بعض اهتمامه (فى الكشف) وإن لم يكن وصفاً للمسند إليه (الألمعى) فالألمعى الحديد اللسان والقلب وقد أبانه بقوله : الذى يظن بك الظن . حكى أن الأصمعى سئل عن الألمعى فأنشد البيت ولم يزد : وهو لأوس بن حجر التميمى من قصيدة يرثى بها فضالة بن كلدة وأولها :

أَيَّتُهَا النَّفْسُ أَجْمِلِي جَزَعَا إِنَّ الَّذِي تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا

إِنَّ الَّذِي جَمَّعَ السَّمَاحَةَ وَالنَّجْدَةَ وَالْبِرَّ وَالتُّقَى جُمَعَا

أَوْدَى فَمَا تَنْفَعُ الْإِشَاحَةُ مِنْ شَيْءٍ لِمَنْ قَدْ يُحَاوِلُ الْبِدَعَا

الإشاحة : الحذر ، والبدع : الأمور الغريبة ومثل البيت قوله : إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا . قال الزمخشرى : الهلع : سرعة الجزع عند مس المكروه ، وسرعة المنع عند مس الخير ، من قولهم ناقة هلوع : سريعة السير وعن أحمد بن يحيى قال لى محمد بن عبد الله بن طاهر : ما الهلع ؟ قلت قد فسره الله تعالى (حيث يتعين الخ) وإلا صار الوصف مخصصاً «هذا» وقد يكون الوصف لبيان المقصود وتفسيره ومنه قوله تعالى : ومامن دابة

نحوُ : أمْسِ الدَّابِرُ كَانَ يَوْماً عَظِيماً . وَأَمَّا تَوْكِيدُهُ : فَلِلتَّقْرِيرِ أَوْ دَفْعِ تَوَهُّمِ التَّجَوُّزِ أو السَّهْوِ ، أَوْ عَدمِ الشُّمُولِ * وَأَمَّا بَيَانُهُ : فَلإِيضَاحِهِ بِاسْمٍ

فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه . قال فى الكشاف : فإن قلت هلا قيل وما من دابة ولا طائر إلا أمم أمثالكم ، وما معنى زيادة قوله فى الأرض ويطير بجناحيه ؟ قلت : معنى ذلك زيادة التعميم والإحاطة كأنه قيل وما من دابة قط فى جميع الأرضين السبع وما من طائر قط فى جو السماء من جميع ما يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم محفوظة أحوالها غير مهمل أمرها «فللتقرير» أى جعل المسند إليه مستقراً محققاً ثابتاً بحيث لا يظن به غيره نحو جاءنى زيد زيد إذا ظن المتكلم غفلة السامع عن سماع لفظ المسند إليه أو عن حمله على معناه (التجوز) أى التكلم بالمجاز (أو عدم الشمول) أى أو لدفع توهم عدم الشمول ، فأنت إنما : تقول جاء القوم كلهم ، لأنك لو قلت جاء القوم وسكت لكان يجوز أن يتوهم السامع أنه قد تخلف بعضهم إلا أنك لم تعتد به ، أو أنك جعلت الفعل الواقع من البعض كالواقع من الجميع لكونهم فى حكم الشخص الواحد كما يقال للقبيلة : فعلتم وصنعتم . يراد فعل قد كان من بعضهم . وربما يجمع بين كل وأجمعين بحسب اقتضاء المقام كقوله تعالى : فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، بناء على كثرة الملائكة واستبعاد سجود جميعهم مع تفرقهم واشتغال كل منهم بشأن وبهذا يزداد التعبير والتقريع على إبليس . واعلم أنهم لم يعنوا بقولهم التوكيد يفيد الشمول أنه يوجبه من أصله وأنه لولاه لما فهم الشمول من اللفظ وإلا لم يسم توكيداً وإنما المعنى أنه يمتنع أن يكون اللفظ المقتضى للشمول مستعملا على خلاف ظاهراً ومتجوزاً فيه (بيانه) أى تعقيبه بعطف البيان (فلإيضاحه) وقد يجىء

مُخْتَصٍّ بِهِ نحو : قَدِمَ صَدِيقُكَ خَالِدٌ . وَأَمَّا الإِبْدَالُ مِنْهُ : فلزِيَادَةِ التَّقْرِيرِ نحوُ : جَاءَنِي زَيْدٌ أَخُوكَ ، وَجَاءَ الْقَوْمُ أَكْثَرُهُمْ ، وَسُلِبَ عَمْرٌو ثَوْبُهُ . وَأَمَّا العَطْفُ : فَلتفصيلِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ مَعَ اخْتِصارٍ ، نحوُ : جاء زَيْدٌ وَعَمْرٌو . أَو لِلْمُسْنَدِ كَذَلِكَ نحو : جاءَنِي زَيد

عطف البيان لغير الإيضاح كما فى قوله تعالى : جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس » فقد ذكر الزمخشرى أن البيت الحرام عطف بيان للكعبة جىء به للمدح لا للإيضاح ، كما تجىء الصفة لذلك . وذكر فى قوله تعالى : ألا بعداً لعاد قوم هود ، إنه عطف بيان لعاد ، وفائدته — وإن كان البيان حاصلا بدونه — أن يوسموا بهذه الدعوة وسماً ، وتجعل فيهم أمراً محققاً لا شبهة فيه بوجه من الوجوه (فلزيادة التقرير) إنما عبر بذلك إيماء إلى أن البدل هو المقصود بالنسبة والتقرير زيادة تحصل تبعاً وضمناً . أما التوكيد فإن الغرض منه نفس التقرير (نحو جاءنى زيد أخوك) مثال لبدل الكل والتقرير فيه ظاهر لما فيه من التكرير ومثله — وهو من غير المسند إليه — قوله تعالى : اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم . قال فى الكشاف : وفائدة البدل التوكيد لما فيه من التكرير والإشعار بأن الطريق المستقيم بيانه وتفسيره صراط المسلمين (وجاء القوم أكثرهم) مثال لبدل البعض ، وقد حصل التقرير فيه بذكر ما اشتمل عليه الأول بالدلالة الكلية ، فإن الأكثر بعض القوم (وسلب زيد ثوبه) مثال لبدل الاشتمال ، وبيان التقرير فيه أن المبدل منه يشعر به فى الجملة ، فالنفس قبل ذكره تتشوف لشىء يطلبه المبدل منه ، فإذا ذكر كان متكرراً (كذلك) أى مع اختصار (نحو جاءنى زيد فعمرو الخ)

فَعَمْرٌو أَوْ ثُمَّ عمرو ، أَوْ جاءَنى القومُ حَتَّى خالِدٌ ؛ أَو رَدِّ السَّامِعِ إِلَى الصَّوَابِ نحوُ : جاءَنى زَيْدٌ لا عمرٌو ، أو صَرْفِ الْحُكْمِ إِلَى آخَرَ نحوُ : جاءَنى زَيْدٌ بلْ عمرٌو ، وَمَا جاءَنى عَمْرٌو بل زيد ؛ أو الشكِّ ، أو التَّشْكِيكِ لِلسَّامِعِ نحوُ : جاءَنى زَيْدٌ أَوْ عمرٌو * وَأما فَصْلُهُ : فَلِتَخْصِيصِهِ بِالْمُسْنَدِ .

فالفاء وثم وحتى تشترك فى تفصيل المسند وتختلف من جهة أن الفاء تدل على أن ملابسة الفعل للتابع بعد ملابسته للمتبوع بلا مهلة ، وثم كذلك مع مهلة وحتى مثل ثم إلا أن فيها دلالة على أن ماقبلها ما ينقضى شيئاً فشيئاً إلى أن يبلغ مابعدها (جاءنى زيد لاعمرو) تقول ذلك لمن زعم أن عمراً جاءك دون زيد أو أنهما جاآك جميعاً . ومثل أن تقول : ماجاءنى زيد لكن عمرو ، فإنك تخاطب به من يعتقد أن زيداً جاءك دون عمرو (آخر) أى محكوم عليه آخر (نحو جاءنى زيد بل عمرو) . اعلم أن بل إذا تقدمها إيجاب جعلت ماقبلها كالمسكوت عنه عند الجمهور أومقطوعاً بنفى الحكم عنه عند ابن الحاجب وأثبتت الحكم لما بعدها عند الجميع ، وإن تقدمها نفى أو نهى فهى لتقرير ما قبلها على حاله وجعل ضده لما بعدها . وعند المبرد أنها تنقل معنى النفى والنهى لما بعدها (أو الشك) أى شك المتكلم (أو التشكيك للسامع) إى إيقاعه فى الشك . بقى الإبهام كقوله تعالى : وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين . والإباحة والتخيير مثل قولك : ليدخل الدار زيد أو عمرو ، والفرق بينهما واضح ، فإن الإباحة لا تمنع من الإتيان بالشيئين أو الأشياء جميعاً (فصله) أى تعقيبه بضمير الفصل (فلتخصيصه بالمسند) أى لقصر المسند على المسند إليه ؛ وقد يكون الفصل للتأكيد فحسب وذلك إذا كان التخصيص حاصلا بدونه بأن يكون فى الكلام

وَأَمَّا تَقْدِيمُهُ : فَلِكَوْنِ ذِكْرِهِ أَهَمَّ ، إِمَّا لأَنَّهُ الأَصْلُ وَلاَ مُقْتَضِىَ لِلْعُدُولِ عَنْهُ ، وَإِمَّا لِيَتَمَكَّنَ الخَبَرُ فى ذِهْنِ السَّامِعِ ، لأَنَّ فى الْمُبْتَدَإِ تَشْوِيقاً إِلَيْهِ كَقَوْلِهِ :

وَالَّذِى حَارَتِ الْبَرِيَّةُ فِيهِ حَيَوَانٌ مُسْتَحْدَثٌ مِنْ جَمَادِ

وَإِمَّا لِتَعْجِيلِ الْمَسَرَّةِ أَوِ الْمَسَاءَةِ لِلتفاؤُلِ أَوِ التَّطَيُّرِ ، نَحْوُ : سَعْدٌ فى دَارِكَ ، وَ : السَّفَّاحُ فى دَارِ صَدِيقِكَ ، وَإِمَّا لإِيهَامِ أَنَّهُ لا يَزُولُ عَنِ الْخَاطِرِ أَوِ

ما يفيد قصر المسند على المسند إليه نحو : إن الله هو الرزاق ، أو قصر المسند إليه على المسند كقول أبى الطيب :

إِذَا كَانَ الشَّبَابُ السُّكْرَ وَالشَّيْبُ هَمًّا فَالْحَيَاةُ هِىَ الْحِمَامُ

« واعلم » أن مثل هذه المباحث المذكورة فى العطف والفصل ولو بينت فى النحو فإنها تذكر فى البيان باعتبار استعمالها لمناسبة الحال . وهكذا كل ما ماثلها فى ذلك (تقديمه) اعلم أن للتقديم فى باب البلاغة القدح المعلى فإنه لا يزال يفتر لك عن بديعة ، ويفضى بك إلى لطيفة ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه ، ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شىء وحول اللفظ عن مكان إلى مكان (والذى) البيت لأبى العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعرى ، من أبيات يرثى بها فقيهاً حنفياً والمقصود بالحيوان فى البيت هو الإنسان كما لا يخفى ، والحيرة الواقعة فيه من وجهة نياط النفس بالجسم « هنا » ، وقد جعل السكاكى البيت شاهداً لكون

أنَّهُ يُسْتَلَذُّ به ؟ وَإِمّا لِنَحْوِ ذَلِكَ . عَبْدُ القَاهِرِ : وَقَد يُقَدَّمُ لِيُفِيدَ تَخْصِيصَهُ بِالْخَبَرِ الفِعْلِيِّ إنْ وَلِيَ حَرْفَ النَّفْيِ نحوُ : ما أنا قُلْتُ هذا ، أيْ لم أَقُلْهُ مَعَ أنَّهُ مَقُولٌ لِغَيْرِي ، ولهذا لَمْ يَصِحَّ مَا أَنا قُلْتُ هَذَا وَلاَ غَيْرِي ، وَلا : مَا أَنا

المسند إليه موصولا وهو أحسن (وإما لنحو ذلك) مثل الدلالة على أن المطلوب إنما هو اتصافه بالخبر لا نفس الخبر ، كما إذا قيل لك : كيف الزاهد ؟ فتقول : الزاهد يشرب ويطرب ، ومثل إفادة زيادة تخصيص كقوله :

مَتَى تَهْزُزْ بَنِي قَطَنٍ تَجِدْهُمْ ... سُيُوفًا فِي عَوَاتِقِهِمْ سُيُوفُ

جُلُوسٌ فِى مَجَالِسِهِمْ رِزَانٌ ... وَإِنْ ضَيْفٌ أَلَمَّ فَهُمْ خُفُوفُ

قاله السكاكى (وقد يقدم الخ) هذا مغزى كلام عبد القاهر لا لفظه . (تخصيصه بالخبر الفعلى) أى قصر الخبر الفعلى عليه (ولى حرف النفى) أى وقع بعد حرف النفى بلا فصل (أى لم أقله الخ) فأفاد التقديم نفى الفعل عنك وثبوته لغيرك ، فلا تقول ذلك إلا فى شىء ثبت أنه مقول وأنت تريد نفى كونك قائلا له ، ومن ذلك قوله :

وَما أنا أسْقَمْتُ جِسْمِى بِهِ ... وَلاَ أنا أضْرَمْتُ فى القَلْبِ نَارَا

المعنى على أن السقم ثابت موجود وليس القصد بالنفى إليه ولكن إلى أن يكون هو الجالب له ويكون قد جره إلى نفسه ، ومثله قوله :

* وَما أنا وَحْدِى قُلْتُ ذا الشِّعْرَ كُلَّهُ *

الشعر مقول على القطع والنفى لأن يكون هو وحده القائل له (لم يصح ما أنا قلت هذا ولا غيرى) لمناقضة منطوق الثانى مفهوم الأول . والذى يصح عند قصد هذا المعنى أن يقال : ما قلت أنا ولا أحد غيرى (ولا ما أنا رأيت

رَأَيْتُ أَحَدًا ، وَلاَ : مَا أَنَا ضَرَبْتُ إِلَّا زَيْدًا ، وَ إِلَّا فقَدْ يأْتِى لِلتَّخْصِيصِ رَدًّا عَلَى مَنْ زَعَمَ انْفِرَادَغَيْرِهِ بِهِ ، أوْ مُشَارَكَتَهُ فِيهِ نحوُ : أَنَا سَعَيْتُ فى حاجَتِكَ وَيُؤَكَّدُ عَلَى الْأَوَّلِ بنحوِ لا غَيْرِى ، وَعَلَى الثانى بنحو وَحْدِى ؛ وَقد يأْتى

أحداً) لأنه يقتضى المحال وهو أن يكون إنسان غير المتكلم قد رأى كل أحد من الناس لأنه قد نفى عن المتكلم الرؤية على جهة العموم فى المفعول لأن النكرة فى سياق النفى تعم فيجب أن تثبت لغيره على جهة العموم فى المفعول (ولا ما أنا ضربت إلا زيداً) لأن نقض النفى بإلا يقتضى أن يكون القائل له قد ضرب زيداً وإيلاء الضمير حرف النفى يقتضى أن لا يكون ضربه وذلك تناقض . (وإلا) قد علمت أن المسند إليه المقدم إن ولى حرف النفى فهو يفيد التخصص ألبتة وإن لم يل حرف النفى بأن لا يكون ثم نفى أصلا أو يكون حرف النفى متأخراً عن المسند إليه فقد يفيد التخصيص وقد يفيد التقوى (غيره) أى غير المسند إليه (به) أى بالخبر الفعلى (ويؤكد على الأول) وهو أن يكون الكلام للرد على من زعم انفراد الغير (وعلى الثانى) وهو أن يكون للرد على من زعم المشاركة ، فإن قلت أنا فعلت كذا وحدى فى قوة أنا فعلته لا غيرى فلم اختص كل منهما بوجه من التوكيد دون وجه ؟ فإنا نقول لأن جدوى التوكيد لما كانت إماطة شبهة خالجت قلب السامع وكانت فى الأول أن الفعل صدر من غيرك وفى الثانى أنه صدر منك بشركة الغير أكدت وأمطت الشبهة فى الأول بقولك لا غيرى والثانى بقولك وحدى لأنه محزه ولو عكست أحلت . وهذا ، ومن البين فى ذلك قولهم فى المثل :

لِتَقْوِيَةِ الْحُكْمِ نحوَ : هُوَ يُعْطِي الْجَزِيلَ . وكذا إذا كانَ الفِعْلُ مَنْفِيًّا

* أَتُعلِمُنِي (١) بِضَبٍّ أَنَا حَرَشْتُهُ *

(نحوَ هو يعطى الجزيل) فأنت لا تريد أن غيره لا يعطى الجزيل ولا أن تعرض بإنسان ولكن تريد أن تقرر فى ذهن السامع وتحقق أنه يفعل إعطاء الجزيل . وسبب التقوى على ما ذكره الشيخ عبد القاهر هو أن الاسم لا يؤتى به معرى من العوامل إلا لحديث قد نوى إسناده إليه فإذا قلت عبدالله فقد أشعرت قلب السامع بذلك أنك تريد الحديث عنه فهذا توطئة له وتقدمة للإعلام به ، فإذا جئت بالحديث فقلت : قام مثلا دخل على القلب دخول المأنوس به وذلك لا محالة أشد لثبوته وأنفى للشبهة وأمنع للشك . وجملة الأمر أنه ليس إعلامك بالشيء بغتة مثل الإعلام به بعد التنبيه عليه لأن ذلك يجرى مجرى تكرير الإعلام فى التأكيد والأحكام . قال : ويشهد لما قلنا أنا إذا تأملنا وجدنا هذا الضرب من الكلام يجىء فيما سبق فيه إنكار من منكر أن يقول الرجل : ليس لى علم بالذى تقول ، فتقول : أنت تعلم أن الأمر على ما أقول ولكنك تميل إلى خصمى ، ويجىء فيما اعترض فيه شك نحو أن تقول للرجل : كأنك لا تعلم ما صنع فلان ولم يبلغك ، فيقول : أنا أعلم ولكنى أداريه ، وفى تكذيب مدع كقوله عز وجل : وإذا جاءكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به ، فإن قولهم آمنا دعوى منهم أنهم لم يخرجوا بالكفر كما دخلوا به

---

(١) المثل يقوله العالم بالشيء لمن يريد تعليمه إياه ، وحرش الضب واحترشه : صاده بالحيلة المعروفة . وهى أن يحرك يده على باب جحره ليظنه حية فيخرج ذنبه ليضربه فيأخذه .

فالموضع موضع تكذيب ، وفيما القياس فى مثله أن لا يكون كقوله تعالى : والذين اتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، وذلك أن عبادتهم لها تقتضى أن لا تكون مخلوقة ، وفيما يستغرب من الأمر نحو أن تقول : ألا تعجب من فلان يدعى العظيم وهو يعيى باليسير ويزعم أنه شجاع وهو يفزع من أدنى شىء . وفى الوعد والضمان كقول الرجل : أنا أعطيك أنا أكفيك ، وذلك أن من شأن من تعده وتضمن له أن يعترضه الشك فى تمام الوعد وفى الوفاء به فهو من أحوج شىء إلى التأكيد ، وفى المدح والافتخار كقول الحماسى :

هُمُ يَفْرُشُونَ(١) اللِّبْدَ كُلَّ طِمِرَّةٍ وَأَجْرَدَ سَبَّاحٍ يَبُذُّ الْمُغَالِبَا

وقوله :

هُمَا يَلْبَسَانِ الْمَجْدَ أَحْسَنَ لِبْسَةٍ شَحِيحَانِ مَا اسْطَاعَا عَلَيْهِ كِلَاهُمَا

وقوله :

هُمُ يَضْرِبُونَ الْكَبْشَ يَبْرُقُ بَيْضُهُ
عَلَى وَجْهِهِ مِنَ الدِّمَاءِ سَبَائِبُ(٢)

وذلك أن من شأن المادح أن يمنع السامعين من الشك فيما يمدح به ويبعدهم عن الشبهة ، وكذلك المفتخر كقول طرفة :

(١) اللبد : الصوف ، وقد جرت العادة بوضع قطعة منه على ظهر الفرس تحت السرج للينه . والطمرة : الفرس الجواد . والأجرد : الفرس القصير الشعر . والسباح : الذى يشبه عدوه السباحة ويبذ : يغلب .

(٢) الكبش : رئيس الجيش يتركونه قتيلا . والسبائب جمع سبيبة : الثوب ، يشبهون بها طرائق الدم .

نحوُ : أنتَ لا تَكْذِبُ ، فإنّهُ أشَدُّ لنفى الكَذِبِ مِنْ لاَ تَكْذِبُ ، وَكَذَا مِنْ لاَ تَكْذِبُ أنتَ ، لِأَنَّهُ لِتأْكِيدِ المَحْكُومِ عَلَيْهِ لاَ الْحُكْمِ ؛ وَإِنْ بنِيَ الْفِعْلُ عَلَى مُنَكَّرٍ أفَادَ تَخْصِيصَ الْجِنْسِ أوِ الْوَاحِدِ بِهِ ، نحوُ رَجُلٌ

---

* نَحْنُ فِي المَشْتَاةِ نَدْعُو الْجَفَلَى *

المشتاة : مكان الشتاء أو زمانه . والجفلى : الدعوة العامة إلى الطعام (نحو أنت لا تكذب) مثله قوله تعالى : والذين هم بربهم لا يشركون ، فإنه يفيد من التأكيد فى نفى الإشراك مالا يفيده قولنا والذين لا يشركون بربهم ولا قولنا والذين بربهم لا يشركون (لأنه) أى لفظ أنت فى لا تكذب أنت (لتأكيد المحكوم عليه) لئلا يتوهم أنه غير ضمير المخاطب وأسند الحكم للضمير تجوزاً أو سهواً أو نسياناً (وإن بنى الفعل على منكر) يعنى إن أخبر بالفعل عن منكر أفاد تخصيص الجنس أو الواحد به نحو ، رجل جاءنى أى لا امرأة أو لا رجلان ، وذلك لأن أصل النكرة أن تكون لواحد من الجنس فيقع القصد بها تارة إلى الجنس فقط ، كما إذا كان المخاطب بهذا الكلام قد عرف أن قد أتاك آت ولم يدر جنسه أرجل هو أم امرأة ، أو اعتقد أنه امرأة . وتارة إلى الواحد فقط ، كما إذا عرف أن قد أتاك من هو من جنس الرجال ولم يدر أرجل هو أم رجلان أو اعتقد أنه رجلان «وبعد» فحاصل كلام عبد القاهر أن الاسم إذا قدم على الفعل فإن ولى حرف النفى أفاد التقديم أن نفى الفعل مخصوص بهذا الاسم ، وإن لم يل حرف النفى اقتضى ذلك أن يكون القصد إلى الفاعل إلا أن المعنى من هذا القصد ينقسم قسمين : أحدهما ما يفيد تخصيص فحوى الفعل بالاسم للرد على من زعم انفراد غيره به أو مشاركته فيه ، الثانى ما لا يفيد إلا تقوى

جاءنى ، أىْ لاَ امْرَأَةٌ أَوْ لاَ رَجُلاَنِ . وَوَافَقَهُ السكاكىُّ عَلَى ذَلِكَ ، إِلَّا أَنهُ قَالَ : التَقْدِيمُ يفيدُ الِاخْتِصَاصَ ، إِنْ جَازَ تَقْدِيرُ كَوْنِهِ فى الأَصْلِ مُؤَخَّراً عَلَى أَنَّهُ فَاعِلٌ مَعْنًى فقط نحوُ : أنا قمتُ ، وَقُدِّرَ ، وَإِلَّا فلا يفيدُ إِلَّا تقوِّىَ الْحُكْمِ ، سَوَاء جَازَ كما مرَّ وَلم يُقَدَّرْ ، أَوْ لَمْ يَجُزْ نحو زَيْدٌ قَامَ ؛ وَاسْتَثْنَى الْمُنَكَّرَ بِجَعْلِهِ مِنْ بَابِ : وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ، أيْ عَلَى القَوْلِ

الحكم وتقريره فى ذهن السامع وهكذا أيضاً الفعل المنفى فإذا قلت أنت لاتحسن هذا كان أشد لنفى إحسان ذلك عنه من أن تقول لا تحسن هذا حتى لو أتيته بأنت فيما بعد تحسن فقلت لا تحسن أنت لم يكن له تلك القوة هذا كله إذا بنى الفعل على معرف ، فإن بنى على منكر أفاد التقديم تخصيص الجنس أو الواحد بالفعل كما علمت (على ذلك) أى على أن التقديم يفيد التخصيص والتقوى (إلا أنه قال) حاصل مذهبه أن المسند إليه المقدم إن كان نكرة فهو للتخصيص إن لم يمنع منه مانع وإن كان معرفة فإن كان مظهراً فلا يكون للتخصيص ألبتة وإن كان مضمراً فإن قدر كونه فى الأصل مؤخراً فهو للتخصيص وإلا فللتقوى (نحو أنا قمت) فإنه يجوز أن تقدر أصله قمت أنا ، على أن أنا تأكيد للفاعل الذى هو التاء فى قمت فيكون فاعلا فى المعنى وإن كان تأكيداً فى اللفظ (وقدر) معطوف على جاز يقول إن إفادة التخصيص تتوقف على شيئين أحدهما جواز التقدير ، والآخر حصول ذلك التقدير من المتكلم (نحو زيد قام) فإنه لا يجوز أن يقدر أن أصله قام زيد فقدم ، لأنه يلزم عليه تقديم الفاعل اللفظى وهو لا يجوز (واستثنى الخ) لما كان مغزى كلامه قبل أن لا يكون نحو رجل

بالإِبْدَالِ مِنَ الضَّمِيرِ لِئَلاَّ يَنْتَفِيَ التخصيصُ إذْ لا سببَ له سِوَاهُ ، بخِلاَفِ الْمعرَّفِ ؛ ثمَّ قالَ : وَشَرْطهُ أَنْ لاَ يمْنَعَ مِنَ التخصيصِ مانعٌ ، كَقَوْلِنَا رَجُلٌ جاءَنى ، عَلَى ما مَرَّ ، دُونَ قَوْلِهم : شَرٌّ أَهَرَّ ذَا نَابٍ ، أَمَّا عَلَى التَّقْدِيرِ الأَوَّلِ فَلِامْتِنَاعِ أَنْ يُرَادَ الْمُهِرُّ شَرٌّ لا خيرٌ ، وَأَمَّا على الثانى فَلِنُبُوِّهِ عن مَظَانِّ اسْتِعْمالِهِ ؛ إِذْ قد صَرَّحَ الْأَئِمَّةُ بِتَخْصِيصِهِ حَيْثُ تأَوَّلُوهُ بمَا أَهَرَّ ذَا نَابٍ إِلَّا شَرٌّ ، فَالْوَجْهُ تفظيع شأنِ الشرِّ بتنكيرِهِ . وَفِيهِ نَظَرٌ ، إِذِ الفاعلُ

جاءنى مفيداً للتخصيص لأنه إذا أخر فهو فاعل لفظاً لا معنى استثناه بأن قدر أصله جاءنى رجل ، لا على أن رجل فاعل جاءنى بل على أنه بدل من الفاعل الذى هو الضمير المستتر فى جاءنى ، فيكون فاعلا معنى ، كما قيل فى قوله تعالى : وأسروا النجوى الذين ظلموا : إن الذين ظلموا بدل من الواو فى أسروا ، وفرق بينه وبين المعرف بأنه لولم يقدر ذلك فيه انتفى تخصيصه إذ لا سبب لتخصيصه سواه ، ولو انتفى تخصيصه لم يقع مبتدأ بخلاف المعرف لوجود شرط الابتداء فيه وهو التعريف (وشرطه) أى شرط جعل المنكر من هذا الباب واعتبار التقديم والتأخير فيه (على مامر) من أن معناه رجل جاءنى لا امرأة أو لا رجلان (شر أهر ذا ناب) هذا مثل يضرب فى ظهور أمارات الشر ومخايله ، وأهره : حمله على الهرير وهو التصويت ، وذو الناب : السبع (الأول) يعنى تخصيص الجنس (الثانى) يعنى الواحد (فلنبوه) لأنه لا يقصد به أن المهر شر لاشران (تفظيع شأن الشر بتنكيره) لأن التنكير كما يخفى يفيد التعظيم والتهويل فيكون المعنى شر عظيم أهر ذا ناب لاشر حقير ، فيكون تخصيصاً نوعياً وهذا

اللفظىُّ والمعنوىُّ سوَاء فى امتناعِ التقديمِ مَا بَقِيَا عَلَى حَالِهِا ، فتجويزُ تقديمِ المعنوىِّ دُونَ اللفظىِّ تحَكُّمٌ ؛ ثمَّ لاَ نُسَلِّمُ انتفَاءَ التخصيصِ لولاَ تقديرُ التقديمِ ، لحصولهِ بغيرهِ كما ذكَرَهُ : ثمَّ لا نُسَلِّمُ امتناعَ أنْ يُرَادَ المهرُّ شَرٌّ لاخيرٌ . ثم قالَ : وَيقرُبُ منْ هُوَ قامَ ، زَيْدٌ قَائِمٌ ، فى التقوِّى لِتَضَمُّنِهِ الضَّمِيرَ : وَشَبَّهَهُ بالخالى عَنْهُ مِنْ جِهَةِ عَدَمِ تَغَيُّرِهِ فى التكلُّمِ

وإنى لأعجب من السكاكى عفا الله عنه حيث أسمع جعجعة ولا أرى طحناً ! وليت شعرى ما الذى حدا به إلى مخالفة الإمام عبد القاهر حتى وقع فى ذلك الخبط الظاهر « وبعد » فماذا على المصنف لو أنه يثبت مذهبه هذا بين سطور كتابه (والمعنوى) كالتأكيد والبدل (مابقيا على حالها) أى مادام الفاعل فاعلا والتابع تابعاً (تحكم) أى حكم بلا موجب (انتفاء التخصيص) يعنى فى نحو رجل جاءنى (كما ذكره) أى السكاكى فى بيان وجه الخصوص فى قولهم شراهر ذا ناب من التهويل والتفظيع (ثم لانسلم امتناع أن يراد المهر شر لاخير) قال الشيخ عبد القاهر إنما قدم شر لأن المراد أن يعلم أن الذى أهر ذا ناب هو من جنس الشر لا من الخير ، فجرى مجرى أن تقول رجل جاءنى ، تريد أنه رجل لا امرأة ، وقول العلماء إنه إنما صلح لأنه بمعنى ما أهر ذاناب إلا شر بيان لذلك ، وهذا صريح فى خلاف ما ذكره السكاكى (ثم قال) هاك ماقاله السكاكى فى مفتاحه بعد تقرير التقوى فى نحو هو قام لما فيه من الإسناد مرتين . ويقرب من قبيل أنا عرفت وأنت عرفت وهو عرف فى اعتبار تقوى الحكم زيد عارف ؛ وإنما قلت يقرب دون أن أقول نظيره لأنه لما لم يتفاوت فى التكلم

وَالْخِطَابِ وَالغَيْبَةِ : ولهذا لم يُحكَمْ بأنه جملةٌ ، ولا عُومِلَ مُعامَلَتَها في البناء .

وَمِمَّا يُرَى تَقْدِيمُهُ كاللازم ، لفظُ مِثْلُ وَغَيْرُ ، فى نحو : مِثْلُكَ لاَ يَبْخَلُ ، وَغَيْرُكَ لا يَجُودُ ، بِمَعْنَى أَنْتَ لاَ تَبْخَلُ وَأَنْتَ تجودُ ، مِنْ غَيْرِ إِرَادَةِ تَعْرِيضٍ لِغَيْر

والخطاب والغيبة فى أنا عارف وأنت عارف وهو عارف أشبه الخالى عن الضمير ، ولذلك لم يحكم على عارف بأنه جملة ولا عومل معاملتها فى البناء حيث أعرب فى نحو رجل عارف رجلا عارفاً رجل عارف (مثل وغير) إذا استعملا على سبيل الكناية (فى نحو مثلك لا يبخل) مما لا يراد بلفظ مثل إنسان غير ما أضيف إليه ولكن أريد أن من كان على الصفة التى هو عليها كان من مقتضى القياس أن يفعل ماذكر أو أن لا يفعل ولكون المعنى هذا قال الشاعر :

وَلَمْ أَقُلْ مِثْلُكَ أَعْنِى بِهِ   سِوَاكَ يَا فَرْدًا فى مَحَاسِنِه

وعليه قول المتنبى :

مِثْلُكَ يَثْنِى الْمُزْنَ عَنْ صَوْبِهِ   وَيَسْتَرِدُّ الدَّمْعَ عَنْ غَرْبِهِ

(وغيرك لا يجود) مثله قول المتنبى :

* غَيْرِى بِأَكْثَرِ هَذَا النَّاسِ يَنْخَدِعُ *

فإنه معلوم أنه لم يرد أن يعرض بواحد هناك فيصفه بأنه ينخدع ، بل أراد أنه ليس ممن ينخدع ، وكذا قول أبى تمام :

وَغَيْرِى يأْكُلُ الْمَعْرُوفَ سُحْتًا   وَتَشْحَبُ عِنْدَهُ بِيضُ الْأَيَادِى

فإنه لم يرد أن يعرض بشاعر سواه ، فيزعم أن الذى قرف به عند الممدوح من أنه هجاه كان من ذلك الشاعر لا منه بل أراد أن ينفى عن نفسه أن يكون

الْمُخَاطَبِ ، لِكَوْنِهِ أَعْوَنَ عَلَى الْمُرَادِ بِهِمَا « قِيلَ » وَقَدْ يُقَدَّمُ لِأَنَّهُ دَالٌّ عَلَى الْعُمُومِ نَحْوُ : كُلُّ إِنْسَانٍ لَمْ يَقُمْ ، بِخِلَافِ مَا لَوْ أُخِّرَ نَحْوُ : لَمْ يَقُمْ كُلُّ إِنْسَانٍ ، فَإِنَّهُ يُفِيدُ نَفْيَ الْحُكْمِ عَنْ جُمْلَةِ الْأَفْرَادِ ، لَا عَنْ كُلِّ فَرْدٍ ، وَذَلِكَ لِئَلَّا يَلْزَمَ تَرْجِيحُ التَّأْكِيدِ عَلَى التَّأْسِيسِ ، لِأَنَّ الْمُوجَبَةَ الْمُهْمَلَةَ الْمَعْدُولَةَ

ممن يكفر بالنعمة ويلؤم « هذا » واستعمال مثل وغير هكذا مركوز فى الطباع وإذا تصفحت الكلام وجدتهما يقدمان أبداً على الفعل إذا نحى بهما نحو ماذكرناه ولا يستقيم المعنى فيهما إذا لم يقدما ، والسر فى ذلك أن تقديمهما يفيد تقوى الحكم كما سبق تقريره ، وسيأتى أن المطلوب بالكناية فى مثل قولنا مثلك لا يبخل وغيرك لايجود هوالحكم ، وأن الكناية أبلغ من التصريح فيما قصد بها ، فكان تقديمهما أعون للمعنى الذى جلبا لأجله (قيل) القائل ابن مالك وجماعة (نحو كل إنسان لم يقم) فتقديم كل إنسان على لم يقم يفيد نفى القيام عن كل الناس (وذلك لئلا يلزم الخ) يقول هذا القائل : إنه لو لم يكن التقديم مفيداً لعموم النفى والتأخير مفيداً لنفى العموم للزم ترجيح التأكيد على التأسيس . ومعلوم أن التأسيس الذى هو إنشاء معنى لم يكن حاصلا قبل أرجح من التأكيد الذى هو إفادة ما قد حصل ، لأن الإفادة خير من الإعادة . وبيان اللزوم فى التقديم ، أن قولنا إنسان لم يقم ، موجبة مهملة معدولة المحمول ، أما أنها موجبة فلأنه حكم فيها بثبوت عدم القيام لإنسان . وأما أنها مهملة فلأنه أهمل فيها بيان كمية أفراد المحكوم عليه ، وأما أنها معدولة المحمول فلأن حرف السلب قد جعل جزأ من المحمول ، وإذا كانت كذلك كان معناها السلب عن جملة الأفراد من غير تعرض لكليتها ولا لجزئيتها والمحقق منها السلب عن البعض

الْمَحْمُولِ فِى قُوَّةِ السَّالِبَةِ الْجُزْئِيَّةِ الْمُسْتَلْزِمَةِ نَفْىَ الْحُكْمِ عَنِ الْجُمْلَةِ دُونَ كُلِّ فَرْدٍ ، وَالسَّالِبَةُ الْمُهْمَلَةُ فِى قُوَّةِ السَّالِبَةِ الْكُلِّيَّةِ الْمُقْتَضِيَةِ لِلنَّفْىِ عَنْ كُلِّ فَرْدٍ ، لِوُرُودِ مَوْضُوعِهَا فِى سِيَاقِ النَّفْىِ ، وَفِيهِ نَظَرٌ ، لِأَنَّ النَّفْىَ عَنِ الْجُمْلَةِ فِى الصُّورَةِ الْأُولَى وَعَنْ كُلِّ فَرْدٍ فِى الثَّانِيَةِ ، إِنَّمَا أَفَادَهُ الْإِسْنَادُ

فهى فى قوة السالبة الجزئية المستلزمة نفى الحكم عن الجملة ألبتة ، لأن مفهومها سلب الحكم عن بعض الأفراد ، كقولنا ليس بعض الإنسان بقائم . وهذا المعنى يصدق عند انتفاء الحكم عن بعض الأفراد دون بعض وعند انتفائه عن كل فرد وعلى كل حال يصدق النفى عن جملة الأفراد أى عن مجموعها على طريق السلب المسلط على الإثبات الكلى وإذا كان ذلك كذلك كانت المهملة والجزئية متلازمين لأنه كلما صدق السلب عن البعض الذى هو مفاد الجزئية صدق ثبوت السلب المصدوق فى الجملة الذى هو مفاد المهملة ، وكلما صدق ثبوت السلب المصدوق فى الجملة صدق السلب عن البعض .

فيتحقق بهذا أن الموجبة المهملة المعدولة المحمول للسلب عن الجملة لا عن كل فرد . فلو كان إنسان لم يقم بعد دخول كل أيضاً معناه كذلك كان كل مفيداً المعنى الحاصل قبله ، فيجب أن يحمل على نفى الحكم عن كل فرد ليكون كل لتأسيس معنى آخر ترجيحاً للتأسيس على التأكيد . وبيان اللزوم فى التأخير ، أن قولنا لم يقم إنسان سالبة مهملة والسالبة فى قوة السالبة الكلية المقتضية للنفى عن كل فرد مثل لا شىء من الإنسان بقائم وإنما كانت تلك فى قوة هذه لورود موضوعها وهو نكرة فى سياق النفى ، والنكرة فى سياق النفى تعم . فمعنى لم يقم إنسان نفى الحكم عن كل فرد ، فلو كان بعد دخول كل أيضاً كذلك كان كل

إِلَى مَا أُضِيفَ إِلَيْهِ كُلُّ ، وَقَدْ زَالَ ذَلِكَ بِالْإِسْنَادِ إِلَيْهِ فَيَكُونُ تَأْسِيسًا لَا تَأْكِيدًا ، وَلِأَنَّ الثَّانِيَةَ إِذَا أَفَادَتِ النَّفْيَ عَنْ كُلِّ فَرْدٍ فَقَدْ أَفَادَتِ النَّفْيَ عَنِ الْجُمْلَةِ ، فَإِذَا حُمِلَتْ عَلَى الثَّانِي لَا يَكُونُ كُلٌّ تَأْسِيسًا ، وَلِأَنَّ النَّكِرَةَ الْمَنْفِيَّةَ إِذَا عَمَّتْ كَانَ قَوْلُنَا : لَمْ يَقُمْ إِنْسَانٌ ، سَالِبَةً كُلِّيَّةً لَا مُهْمَلَةً . . عبدُ القاهرِ : إِنْ كَانَتْ كُلٌّ دَاخِلَةً فِي حَيِّزِ النَّفْيِ بِأَنْ أُخِّرَتْ

لتأكيد معنى حصل قبل فيجب أن يحمل على نفى القيام عن جملة الأفراد ليكون كل لتأسيس معنى آخر ، إذ التأسيس أرجح من التأكيد (وفيه) أى فيما استدل به هذا القائل أما أصل قوله فصحيح (الأولى) يعنى الموجبة المهملة المعدولة المحمول كقولنا إنسان لم يقم (الثانية) يعنى السالبة المهملة كقولنا لم يقم إنسان (ما أضيف إليه كل) وهو لفظ إنسان (فيكون تأسيساً لا تأكيداً) لأن التأكيد لفظ يفيد تقوية ما يفيده لفظ آخر وما نحن فيه ليس كذلك ، وبعد ، فقد قالوا إن هذا المنع لا يصح إلا على تقدير أن يراد التأكيد الاصطلاحى ، أما لو أريد بذلك أن يكون كل لإفادة معنى كان حاصلا بدونه فاندفاع المنع ظاهر (الثانية) يعنى السالبة المهملة (حملت) أى كل (الثانى) وهو النفى عن جملة الأفراد (لايكون تأسيساً) بل تأكيد لأن هذا المعنى كان حاصلا بدونه وحينئذ فلو جعلنا لم يقم كل إنسان لعموم النفى مثل لم يقم إنسان لم يلزم ترجيح التأكيد على التاسيس إذ لا تأسيس أصلا بل يلزم ترجيح أحد التأكيدين على الآخر (ولأن النكرة) هذا بحث فى التسمية يقول إن النكرة المنفية إذا عمت كانت لقضية المحتوية عليها سالبة كلية لا مهملة ، فتسمية ذلك القائل لها بالمهملة لا يصح (وعبد القاهر) كلامه هو مفاد كلام ابن مالك وجماعته ولكن أين

عَنْ أَدَاتِهِ نَحْوُ * مَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّى الْمَرْءُ يُدْرِكُهُ * أَوْ مَعْمُولَةً لِلْفِعْلِ الْمَنْفِيِّ نَحْوُ : مَا جَاءَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ ، أَوْ مَا جَاءَ كُلُّ الْقَوْمِ ، وَلَمْ آخُذْ كُلَّ

الماء من السماء وموقع السيل من مطلع سهيل ، ثم إن ماذكره المصنف هو مغزى كلام عبد القاهر لا لفظه (نحو ما كل) مثله قول الآخر :

* مَا كُلُّ رَأْيِ الْفَتَى يَدْعُو إِلَى رَشَدٍ *

والبيت للمتنبي وتمامه :

* تَجْرِي الرِّيَاحُ بِمَا لاَ تَشْتَهِي السُّفُنُ *

(أو معمولة للفعل المنفى) الذى يظهر أن ذلك معمول لفعل مقدر معطوف على أخرت أى أو جعلت معمولة . وهاك عبارة الشيخ عبدالقاهر مع تصرف ما : واعلم أنك إذا أدخلت كلا فى حيز النفى بأن تقدم النفى عليه لفظاً أو تقديراً ، يعنى كما إذا قدمته على الفعل المنفى العامل فيه فإنه مؤخر تقديراً لأن مرتبة المعمول التأخر عن العامل ، فالمعنى على نفى الشمول دون نفى الفعل والوصف نفسه . والسبب فى ذلك أنك إذا قلت أتانى القوم مجتمعين ، فقال قائل لم يأتك القوم مجتمعين ، كان نفيه ذلك متوجهاً إلى الاجتماع الذى هو تقييد فى الإتيان من أصله كان من سبيله أن يقول إنهم لم يأتوك أصلا ، فما معنى قولك مجتمعين ، وإذا كان هذا حكم النفى إذا دخل على كلام فيه تقييد ، فإن التأكيد ضرب من التقييد فمتى نفيت كلاماً فيه تأكيد فإن نفيك ذلك يتوجه إلى التأكيد خصوصاً . فإذا قلت لم أر كل القوم كنت عمدت بنفيك إلى معنى كل خاصة ، وإذن يجب أن يكون قد أتاك بعض القوم . وإذا أخرجت كلا من حيز النفى ولم تدخله فيه لالفظاً ولا تقديراً كان المعنى على أنك تتبعت الجملة فنفيت الفعل والوصف عنها

الدَّرَاهِمِ ، أَوْ كُلَّ الدَّرَاهِمِ لَمْ آخُذْ ، تَوَجَّهَ النَّفْيُ إِلَى الشُّمُولِ خَاصَّةً وَأَفَادَ ثُبُوتَ الْفِعْلِ أَوِ الْوَصْفِ لِبَعْضٍ ، أَوْ تَعَلُّقَهُ بِهِ ، وَإِلَّا عَمَّ ، كَقَوْلِ

واحداً واحداً ، والعلة فى أن كان ذلك كذلك أنك إذا بدأت بكل كنت قد بنيت النفى عليه وسلطت الكلية على النفى وأعملتها فيه وإعمال معنى الكلية فى النفى يقتضى أن لا يشذ شىء عن النفى فاعرفه (توجه النفى إلى الشمول خاصة) فإن قلت فما تصنع فى قوله تعالى : والله لا يحب كل مختال فخور ، والله لا يحب كل كفار أثيم . فإنا نقول قد عرضنا ذلك على شيخنا الإمام الشيخ محمد عبده فأجاب — حفظه الله — بما يشرح الصدر ويملأ النفس ارتياحاً ، قال : قد يعدل عما يدل على عموم السلب إلى ما يفيد بسلب العموم ، والسلب عام على الحقيقة ، للتعريض بالمخاطب والإيماء إلى أنه شر صنفه ، مثلا إذا قلت لسفيه . تعرض بأنه شر السفهاء : أنا لا أحب كل سفيه ، فالمعنى أنه لو فرض أن محبتى تتعلق بسفيه لكنت غير موضع لها ، وكذلك الذى جاء فى الآية الكريمة أريد به والله أعلم التعريض بمن نزلت فيهم من أعداء الله وأنهم شر أصنافهم ، فقوله تعالى : والله لا يحب كل مختال فخور ، معناه أن محبة الله لا تعم المختالين الفخورين حتى تشمل هؤلاء فكأنه سبحانه يقول لو أن محبتنا تعلقت بمختال فخور لما تعلقت بأولئك لأن مختالهم وفخورهم شر مختال وفخور . وهكذا يقال فى سائر الآيات وما يكون ظاهره أنه من سلب العموم وحقيقته أنه من عموم السلب (وأفاد ثبوت الفعل أو الوصف لبعض أو تعلقه به) أما إفادته ثبوت الفعل أو الوصف ففيما إذا كانت كل فاعلا معنى أو لفظاً للفعل أو الوصف ، وأما إفادته تعلق الفعل أو الوصف ففيما إذا كانت مفعولا لفظاً أو معنى لهما وإطلاق الثبوت على نسبة أحدهما للفاعل والتعلق على نسبته للمفعول اصطلاح شائع (وإلا)

النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — لَمَّا قَالَ لَهُ ذُو الْيَدَيْنِ : أَقَصُرَتِ الصَّلَاةُ أَمْ نَسِيتَ : كلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ ، وَعَلَيْهِ قَوْلُهُ :

قَدْ أَصْبَحَتْ أُمُّ الخِيَارِ تَدَّعِي * عَلَيَّ ذَنْباً كُلُّهُ لَمْ أَصْنَعِ

وَأَمَّا تَأْخِيرُهُ فَلِاقْتِضَاءِ المَقَامِ تَقْدِيمَ المسندِ . . هَذَا كُلُّهُ مُقْتَضَى

أى وإن لم تكن داخلة فى حيز النفى بأن قدمت عليه لفظاً ولم تكن معمولة للفعل المنفى (كل ذلك لم يكن) فالمعنى لا محاولة على نفى الأمرين جميعاً وعلى أنه عليه السلام أراد أنه لم يكن واحد منهما لا القصر ولا النسيان . والدليل على ذلك وجهان : أحدهما أن السؤال بأم عن أحد الأمرين لطلب التعيين بعد ثبوت أحدهما عند المتكلم على الإبهام ، فجوابه إما بالتعيين أو بنفى كل واحد منهما ؛ وثانيهما ماروى أنه لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كل ذلك لم يكن ، قال له ذو اليدين بعض ذلك قد كان ، والإيجاب الجزئى نقيضه السلب الكلى (وعليه قوله) أى قول أبى النجم وقد تقدم ، ومثله قول دعبل :

فَوَاللهِ ما أَدْرِي بِأَيِّ سِهَامِهَا رَمَتْنِي وَكُلٌّ عِنْدَنَا لَيْسَ بِالْمُكْدِي[1]

أَبِالْجِيدِ أَمْ مَجْرَى الْوِشَاحِ وَإِنَّنِي لَأُتْهِمُ عَيْنَيْهَا مَعَ الْفَاحِمِ الْجَعْدِ

المعنى على نفى أن يكون فى سهامها مكد على وجه من الوجوه ، ومن البين فى ذلك قوله :

فَكَيْفَ وَكُلٌّ لَيْسَ يَعْدُو حِمَامَهُ وَلَا لِامْرِئٍ عَمَّا قَضَى اللهُ مَزْحَلُ

(كله لم أصنع) برفع كله على معنى لم أصنع شيئاً مما تدعيه على من الذنوب ولهذا عدل عن النصب (فلاقتضاء المقام تقديم المسند) وسيأتى بيان ذلك

(١) المكدى : الذى يحفر ولا يجد الماء ، أى وليس من سهامها مايخطىء .

الظَّاهِر ، وَقد يَخْرُجُ الكَلامُ عَلَى خِلاَفِهِ ، فَيُوضَعُ المُضْمَرُ مَوْضِعَ المُظْهَر كقولهم : نِعْمَ رَجُلاً زَيْدٌ ، مَكَانَ نِعْمَ الرَّجُلُ ، فِي أَحَدِ القَوْلَيْنِ . وَقَوْلِهِمْ هُوَ أَوْ هِيَ زَيْدٌ عالِمٌ ، مَكَانَ الشَّأْنُ أو القِصَّةُ ، لِتَمَكَّنَ ما يَعْقُبُهُ في ذِهْنِ السَّامِعِ ، لِأَنَّهُ إِذا لم يَفْهَمْ مِنْهُ مَعْنىً انْتَظَرَهُ وَقد يعكس . فإِنْ كَانَ اسْمَ إِشَارَةٍ فلِكَمالِ العِنايَةِ بتمييزه ، لِاخْتِصَاصِهِ بحكم بديع كقوله :

إن شاء الله (كقولهم) ابتداء من غير جرى ذكر أو قرينة حال (فى أحد القولين) وهو القول بأن المخصوص خبر مبتدأ محذوف ، وأما من يجعل المخصوص مبتدأ ونعم رجلا خبره فيحتمل عنده أن يكون الضمير عائداً إلى المخصوص وهو متقدم تقديرا (وقولهم هو أو هى زيد عالم) ويختار تأنيث هذا الضمير إذا كان فى الكلام مؤنث غير فضلة نحو : هى هند مليحة ، وقوله جل شأنه : فإنها لاتعمى الأبصار ، قصداً إلى المطابقة لا أنه راجع إلى ذلك المؤنث ، ولم يسمع نحو : هى زيد عالم ، وإن كان القياس يقتضى قياسه « هذا » ومن ذلك وإن كان من غير باب المسند إليه قولهم : ياله رجلا ، وياها قصة ، وربه رجلا ، وقوله تعالى : فقضاهن سبع سموات (ليتمكن) تعليل لوضع المضمر موضع المظهر « هذا » وقد يكون وضع المضمر موضع المظهر لاشتهاره ووضوح أمره مثل قوله تعالى : إنا أنزلناه أو لادعاء أن الذهن لايلتفت إلى غيره كقوله فى المطلع :

* زارت عليها للظلام رواق *

إلى غير ذلك من الأغراض والمقاصد (يعكس) فيوضع المظهر موضع

كَمْ عَاقِلٍ عَاقِلٍ أَعْيَتْ مَذَاهِبُهُ   وَجَاهِلٍ جَاهِلٍ تَلْقَاهُ مَرْزُوقا
هٰذا الَّذِى تَرَكَ الْأَوْهَامَ حَائِرَةً   وَصَيَّرَ الْعَالِمَ النِّحْرِيرَ زِنْدِيقا

المضمر (كقوله كم عاقل الخ) فقوله فى أول البيت الثانى هـذا إشارة إلى حكم سابق غير محسوس وهو كون العاقل محروماً والجاهل مرزوقاً ، فـكان القياس فيه الإضمار بأن يقـال هما مثلا ، فعدل إلى اسم الإشارة لـكمال العناية بتمييزه ليرى السامعين أن هـذا الشىء المتميز المتعين هو الذى له الحـكم العجيب ، وهو جعل الأوهام حائرة والعالم النحرير زنديقاً ، فالحكم البديع هوالذى أسند للسند إليه المعبر عنه باسم الإشارة ، والبيتان لأحمد بن يحيى بن إسحق الراوندى وعاقل الثانى صفة لعاقل الأول بمعنى كامل العقل متنـاه فيه ، وأعيت مذاهبه : أعجزته وصعبت عليه طرق معايشه ، والنحرير : الحاذق الماهر المتقن ، كأنه ينحر العلم نحراً ، والزنديق : الذى لا يؤمن بالربوبية ولا باليوم الآخر .وكلام ابن الراوندى هذا إحدى حماقاته وهو بالجهال أليق ، وما أبدع مايقول أبو تمام : —

يَنَالُ الفتَى مِنْ دَهْرِهِ وَهْوَ جَاهِلٌ   وَ يُكْدِى الفتَى فى دَهْرِهِ وَهْوَ عالِمُ
وَلَوْ كَانَتِ الْأَرْزَاقُ تَجْرِى عَلَى الْحِجَا   هَلَكْنَ إِذَنْ مِنْ جَهْلِهِنَّ الْبَهَائِمُ

وما أجمل قول الصابى :

إِذَا جَمَعَتْ بيْنَ امْرَأَيْنِ صِنَاعَةٌ   فَأَحْبَبْتَ أَنْ تَدْرِى الَّذِى هُوَ أَحْذَقُ
فَلَا تَتَفَقَّدْ مِنْهُمَا غَيْرَ مَاجَرَتْ   بِهِ لَهُمَا الْأَرْزَاقُ حِينَ تفرَّقُ
فَحَيْثُ يَكُونُ الْجَهْلُ فَالرِّزْقُ وَاسِعٌ   وَحَيْثُ يَكُونُ الْعِلْمُ فَالرِّزْقُ ضَيِّقُ

وأنت إذا أردت فلسفة هـذا الباب فعليك بكتاب الفلاكة والمفلوكين

أَوِ التَّهَكُّمِ بِالسَّامِعِ ، كَمَا إِذَا كَانَ فَاقِدَ الْبَصَرِ ، أَوِ النِّدَاءِ عَلَى كَمَالِ بَلَادَتِهِ ، أَوْ فَطَانَتِهِ ، أَوِ ادِّعَاءِ كَمَالِ ظُهُورِهِ : وَعَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ هَذَا الْبَابِ

تَعَالَلْتِ كَيْ أَشْجَى وَمَا بِكِ عِلَّةٌ * تُرِيدِينَ قَتْلِي قَدْ ظَفِرْتِ بِذَلِكِ

وَإِنْ كَانَ غَيْرَهُ فَلِزِيَادَةِ التَّمَكُّنِ ، نَحْوُ : قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ

(كما إذا كان فاقد البصر) ولم يكن ثم مشار إليه أصلا (والنداء على كمال بلادته) لأن فى اسم الإشارة إيماء إلى أن السامع لايدرك إلا المحسوس (أو فطانته) ففى استعمال اسم الإشارة الذى أصله المحسوس فى المعنى الغامض إيماء إلى أن السامع لذكائه صارت المعقولات لديه كالمحسوسات (تعاللت) أى أظهرت العلة ومعنى أشجى : أحزن ، فأنت تراه عمد إلى اسم الإشارة مع أن المشار إليه غير محسوس ، وذلك لادعائه ظهور القتل وأنه كالمحسوس ، والبيت لعبد الله بن الدمينة من قصيدة مطلعها :

قفى قبل وشك البين يابنت مالك ولا تحرمينى نظرة من جمالك

(وإن كان غيره) أى وإن كان المظهر الذى وضع موضع المضمر غير اسم الإشارة (فلزيادة التمكن) ومن هنا كان لإعادة اللفظ فى مثل قوله :

وَإِنْ طُرَّةٌ رَاقَتْكَ فَانْظُرْ فَرُبَّمَا أَمَرَّ مَذَاقُ الْعُودِ وَالْعُودُ أَخْضَرُ

وقول المتنبى :

بِمَنْ نَضْرِبُ الأَمْثَالَ أَمْ مَنْ نَقِيسُهُ إِلَيْكَ وَأَهْلُ الدَّهْرِ دُونَكَ وَالدَّهْرُ

وبيت الحماسة : شَدَدْنَا شِدَّةَ اللَّيْثِ غَدَا وَاللَّيْثُ غَضْبَانُ

من الحسن والبهجة ومن الفخامة والنبل ما لايخفى موضعه ، وكان لو ترك فيها الإظهار إلى الإضمار لعدمت الذى أنت واجده الآن (نحو قل هو الآية)

وَنَظِيرُهُ مِنْ غَيْرِهِ : وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ، أَوْ إِدْخَالِ الرَّوْعِ فِي ضَمِيرِ السَّامِعِ وَتَرْبِيَةِ الْمَهَابَةِ ، أَوْ تَقْوِيَةِ دَاعِي الْمَأْمُورِ : مِثَالُهُمَا قَوْلُ الخلفاء : أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَأْمُرُكَ بِكَذَا ، وَعَلَيْهِ مِنْ غَيْرِهِ : فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، أو الِاسْتِعْطَافِ كقوله : ﴿ إِلٰهِي عَبْدُكَ الْعَاصِي أَتَاكَا ﴾

فلم يقل هو الصمد لزيادة التمكن (الصمد) أى الذى يقصد فى الحوائج ولا يقضى فيها غيره (وبالحق) مثله قول عبد الله بن عنمة :

﴿ إن تسألوا الحق نعط سائله ﴾ (داعى المأمور) أى ما يكون داعياً لمن أمرته بشىء إلى الامتثال والإتيان به (أمير المؤمنين يأمرك بكذا) مكان أنا آمرك (وعليه) أى على وضع المظهر موضع المضمر لتقوية داعى المأمور (من غيره) أى من غير باب المسند إليه (فتوكل على الله) فلم يقل فتوكل على لما فى لفظ الجلالة من تقوية الداعى إلى التوكل لدلالته على ذات موصوفة بالأوصاف الكاملة من القدرة وما إليها (كقوله : إلهى عبدك العاصى أتاكا) فلم يقل أنا العاصى أتيتك ، لأن فى لفظ عبدك من الخضوع الموجب للعطف والشفقة ما ليس فى لفظ أنا ، وفيه مع ذلك تمكن من وصفه للعاصى ، ونظير هذا قوله تعالى : قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً ـ إلى قوله ـ فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته ، لم يقل فآمنوا بالله وبى ليتمكن من إجراء الصفات المذكورة عليه ، ويشعر بأن الذى وجب الإيمان به بعد الإيمان بالله هو الرسول الموصوف بتلك الصفات كائناً من كان أنا أو غيرى إظهاراً للنصفة وبعداً عن التعصب لنفسه وتمام البيت :

﴿ مُقِرًّا بِالذُّنُوبِ وَقَدْ دَعَاكَا ﴾

السكاكيُّ : هَذَا غيرُ مُخْتَصٍّ بالْمُسْنَدِ إِلَيْهِ ، وَلاَ بِهذَا الْقَدْرِ ، بَلْ كُلٌّ مِنَ التَّكلُّمِ وَالْخِطَابِ وَالْغَيْبَةِ مُطْلَقاً يُنْقَلُ إِلَى الآخَرِ : وَيُسَمَّى هَذَا النَّقْلُ الْتِفَاتاً كقولِهِ : * تَطَاوَلَ لَيْلُكَ بِالأَثْمُدِ *

وبعده :

فإِنْ تَغْفِرِ فَأَنْتَ لِذَاكَ أَهْلٌ ... وَإِنْ تَطْرُدْ فَمَنْ يَرْحَمْ سِوَاكَا

(السكاكي) عبارته : واعلم أن هذا النوع أعنى نقل الكلام عن الحكاية إلى الغيبة لا يختص المسند إليه ولا هذا القدر ، بل الحكاية والخطاب والغيبة ثلاثتها ينقل كل واحد منها إلى الآخر ويسمى هذا النقل التفاتاً عند علماء المعانى والعرب يستكثرون منه ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل فى القبول عند السامع . وأحسن تطرية لنشاطه . وأملأ باستدرار إصغائه وهم أحرياء بذلك . أليس قرى الأضياف سجيتهم ، ونحر العشار للضيف دأبهم وهجيراهم (١) . لامزقت أيدى الأدوار لهم أديما ، ولاأباحت لهم حريما ، أفتراهم يحسنون قرى الأشباح . فيخالفون فيه بين لون ولون وطعم وطعم ولايحسنون قرى الأرواح فلا يخالفون فيه بين أسلوب وأسلوب وإيراد وإيراد (كقوله تطاول) لامرىء القيس الكندى الصحابى من قصيدة يرثى بها أباه وتمامه : ونام الخلى ولم يرقد * الأثمد : اسم مكان ، والخطاب فى ليلك لنفسه ومقتضى الظاهر ليلى ، فهو التفات على مذهب السكاكى ، وعند الجمهور تجريد ومثله قول ربيعة بن مقروم :

بَانَتْ سُعَادُ فَأَمْسَى الْقَلْبُ مَعْمُودَا ... وَأَخْلَفَتْكَ ابْنَةُ الْحُرِّ الْمَوَاعِيدَا

(١) عادتهم .

وَالْمَشْهُورُ أَنَّ الالْتِفَاتَ هُوَ التعبيرُ عَنْ مَعْنًى بِطَرِيقٍ مِنَ الثلاثةِ بَعْدَ التَّعْبِيرِ عَنْهُ بِآخَرَ مِنْهَا وَهَذَا أَخَصُّ . مِثَالُ الالْتِفَاتِ مِنَ التَّكَلُّمِ إِلى الْخِطَابِ : وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ؟ وَ إِلَى الْغَيْبَةِ : إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ . وَمِنَ الخطَابِ إِلى التَّكَلُّمِ :

طَحَا بِكَ قَلْبٌ فِي الْحِسَانِ طَرُوبُ ... بُعَيْدَ الشَّبَابِ عَصْرَ حَانَ مَشِيبُ
يُكَلِّفُنِي لَيْلَى وَقَدْ شَطَّ وَلْيُهَا ... وَعَادَتْ عَوَادٍ بَيْنَنَا وَخُطُوبُ

فالتفت كما ترى حيث لم يقل وأخلفتني (والمشهور) هذا من كلام المصنف (وهذا أخص) من تفسير السكاكي ، لأن السكاكي أراد بالنقل أن يعبر بطريق من هذه الطرق عما عبر عنه بغيره أو كان مقتضى الظاهر أن يعبر عنه بغيره منها فكل التفات عندهم التفات عنده من غير عكس (ومالى الآية) أى ومالكم لا تعبدون الذى فطركم ، تلطف فى الإرشاد بإبرازه فى معرض المناصحة لنفسه وإمحاض النصح حيث أراد لهم ما أرادوا لها . وإذ عمد إلى التكلم لذلك كان مقتضى الظاهر أن يجرى الكلام على طريقه فيقول وإليه أرجع ، فلما قصد إلى الخطاب حيث قال وإليه ترجعون كان التفاتاً (طحا بك) البيتان لعلقمه بن عبدة الفحل ، طحا بك : ذهب بك كل مذهب ، وطروب : له طرب فى طلب الحسان ونشاط فى مراودتهن ، وبعيد الشباب : يعنى حين ولى وكاد ينصرم ، ومعنى عصر حان مشيب : زمان قرب المشيب واهتمامه بالهجوم ، وفاعل يكلفنى : ضمير يعود إلى القلب ، وشط : بعد ، والولى : القرب ، والعوادى : الصوارف ، وعوادى الدهر : عوائقه ، والخطوب : الأمور الشديدة تنزل ، فالتفت كما ترى فى قوله يكلفنى عن قوله بك « وبعد » فقد اشترطوا فى الالتفات أن يكون

وَإِلَى الْغَيْبَةِ : حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ ، وَمِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى التَّكَلُّمِ : وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ ، وَإِلَى الْخِطَابِ : مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ . وَوَجْهُهُ أَنَّ الْكَلَامَ إِذَا نُقِلَ مِنْ أُسْلُوبٍ إِلَى أُسْلُوبٍ كَانَ أَحْسَنَ تَطْرِيَةً لِنَشَاطِ السَّامِعِ وَأَكْثَرَ إِيقَاظًا لِلْإِصْغَاءِ إِلَيْهِ ؛ وَقَدْ تَخْتَصُّ مَوَاقِعُهُ بِلَطَائِفَ كَمَا فِي الْفَاتِحَةِ ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا ذَكَرَ الْحَقِيقَ بِالْحَمْدِ عَنْ قَلْبٍ حَاضِرٍ وَجَدَ مِنْ نَفْسِهِ مُحَرِّكًا لِلْإِقْبَالِ عَلَيْهِ وَكُلَّمَا أَجْرَى عَلَيْهِ صِفَةً مِنْ تِلْكَ الصِّفَاتِ الْعِظَامِ قَوِيَ ذَلِكَ الْمُحَرِّكُ ، إِلَى أَنْ يَؤُولَ الْأَمْرُ إِلَى خَاتِمَتِهَا الْمُفِيدَةِ ، أَنَّهُ مَالِكُ الْأَمْرِ كُلِّهِ

المخاطب بالكلام فى الحالين واحداً ومن هنا كان قول جرير :

أَغِثْنِي يَا فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي ... بِسَيْبٍ مِنْكَ إِنَّكَ ذُو ارْتِيَاحِ

ثِقِي بِاللهِ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ ... وَمِنْ عِنْدِ الْخَلِيفَةِ بِالنَّجَاحِ

ليس من الالتفات فى شىء لأن المخاطب بالبيت الأول امرأته ، والمخاطب بالبيت الثانى هو الخليفة كما لا يخفى (ووجهه) أى وجه حسن الالتفات (تطرية) تجديداً (كما فى الفاتحة) وكما فى قوله تعالى : ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول ، لم يقل واستغفرت لهم ، وعدل عنه إلى طريقة الالتفات تفخيما لشأن الرسول وتعظيما لاستغفاره وتنبيهاً على أن شفاعة من اسمه الرسول من الله بمكان (من تلك الصفات) الدال أولها على أنه المتولى تدبير جميع العالمين ، وثانيها على أنه المنعم بأنواع النعم جلائلها ودقائقها . (خاتمتها) وهى قوله مالك يوم الدين « تكملة » قد يطلق الالتفات على معنيين

فى يَوْمِ الْجَزاء : فحينئذ يُوجِبُ الاقبالَ عليه ، وَالخطابَ بتخصيصهِ بغاية الخضوعِ وَالِاسْتِعَانَةِ فى المُهِمّاتِ . وَمِنْ خِلاَفِ الْمُقْتَضَي تَلَقِّي المخاطَب بغير ما يترَقَّبُ ، بحَمْلِ كلاَمِهِ عَلَى خِلاَفِ مُرَادِهِ تَنْبِيهاً عَلَى أَنَّهُ هُوَ الأَوْلَى

آخرين ، فواحد أن يفرغ المتكلم من المعنى ، فإذا ظننت أنه يريد أن يجاوزه يلتفت إليه فيذكره بغير ما تقدم ذكره به قال تعالى : وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ، وقال جل شأنه : ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم ، وقال جرير :

طَرِبَ الْحَمَامُ بِذِى الأَرَاكِ فَشَاقَنِى ... لاَ زِلْتَ فِى عَلَلٍ وَأَيْكٍ نَاضِرِ

وقال :

مَتَى كَانَ الْخِيَامُ بِذِى طُلُوحٍ ... سُقِيتِ الْغَيْثَ أَيَّتُهَا الْخِيَامُ
أَتَذْكُرُ يَوْمَ تَصْقُلُ عَارِضَيْهَا ... بِفَرْعِ بَشَامَةٍ سُقِىَ الْبَشَامُ

والثانى أن تذكر معنى فتوهم أن السامع اختلجه شيء فتلتفت إلى كلام يزيل اختلاجه ثم ترجع إلى مقصودك كقول ابن ميادة .

فَلاَ صَرْمُهُ يَبْدُو وَفِى الْيَأْسِ رَاحَةٌ ... وَلاَ وَصْلُهُ يَصْفُو لَنَا فَنُكَارِمُهْ

(تلقى المخاطب) هذا هو الذى سماه السكاكى الأسلوب الحكيم وقال فيه : إن هذا الأسلوب لربما صادف المقام فحرك من نشاط السامع ما سلبه حكم الوقور ، وأبرزه فى معرض المسحور وهل ألان شكيمة الحجاج لذلك الخارجى وسل سخيمته (١) حتى آثر أن يحسن على أن يسيء غير أن سحره بهذا الأسلوب؟ وسماه الشيخ عبد القاهر مغالطة : وعن سلوك هذه الطريقة فى جواب المخاطب عن من قال مفتخراً :

(١) السخيمة : الضغينة فى النفس

بِالْقَصْدِ ، كَقَوْلِ الْقَبَعْثَرَى لِلْحَجَّاجِ — وَقَدْ قَالَ لَهُ مُتَوَعِّداً لَأَحْمِلَنَّكَ عَلَى الْأَدْهَمِ — مِثْلُ الْأَمِيرِ يَحْمِلُ عَلَى الْأَدْهَمِ وَالْأَشْهَبِ ، أَيْ مَنْ كَانَ مِثْلَ الْأَمِيرِ فِى السُّلْطَانِ وَ بَسْطَةِ الْيَدِ فَجَدِيرٌ بِأَنْ يُصْفِدَ لَا أَنْ يَصْفِدَ ، أَوِ السَّائِلِ بِغَيْرِ مَا يَتَطَلَّبُ بِتَنْزِيلِ سُؤَالِهِ مَنْزِلَةَ غَيْرِهِ تَنبِيهاً عَلَى أَنَّهُ الْأَوْلَى بِحَالِهِ أَوِ الْمُهِمُّ لَهُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ

أَتَتْ تَشْتَكِي عِندِي مُزَاوَلَةَ الْقِرَى ... وَقَدْ رَأَتِ الضِيفَانَ يَنْحُونَ مَنْزِلِي
فَقُلْتُ كَأَنِّي مَا سَمِعْتُ كَلَامَهَا ... هُمُ الضَّيْفُ جِدِّي فِي قِرَاهُمْ وَعَجِّلِي

(لأحملنك على الأدهم) والحجاج يريد القيد (مثل الأمير الخ) فأنت ترى القبعثرى أبرز وعيد الحجاج فى معرض الوعد وتلقاه بغير ما يترقب بحمل الأدهم فى كلامه على الفرس الأدهم، وأكد ذلك بذكر الأشهب تنبيها على أن ذلك هو الأولى أن يقصده الأمير (يصفد) أى يعطى (لا أن يصفد) يقيد (أو السائل) أى أو تلقى السائل الخ (يسألونك عن الأهلة الآية) روى أن ثلة من الصحابة قالوا ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ثم يتزايد قليلا قليلا حتى يمتلىء ويستوى ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ . وهذا سؤال عن السبب فأجيبوا ببيان الحكمة تنبيهاً على أن الأولى أن يسألوا عن ذلك . وبعد ، فالمحققون من المفسرين على أنه سؤال عن الحكمة والكلام آت على مقتضى الظاهر (يسألونك ماذا ينفقون الآن) سألوا عن بيان ما ينفقون ، فأجيبوا ببيان المصرف قال

وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ؛ وَمِنْهُ التَّعْبِيرُ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ بِلَفْظِ الْمَاضِي تنبيهاً عَلَى تَحَقُّقِ وُقُوعِهِ نَحْوُ : وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ ، ومِثلُهُ : وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ، وَنحوُهُ : ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ له الناسُ ؛ وَمِنْهُ الْقَلْبُ نحوُ : عَرَضْتُ النَّاقَةَ عَلَى

فى الكشاف إن قوله من خير تضمن بيان ما ينفقونه وهو كل خير إلا أنه بنى الكلام على ماهو أهم وهو بيان المصرف لأن النفقة لايعتد بها إلا أن تقع موقعها ، قال الشاعر :

إِنَّ الصَّنِيعَةَ لَا تَكُونُ صَنِيعَةً ... حَتَّى يُصَابَ بِهَا طَرِيقُ الْمَصْنَعِ

(نحو ويوم ينفخ فى الصور فصعق) ومقتضى الظاهر فيصعق ، هذا ، ونظم القرآن ففزع . وعن حسان أن ابنه عبد الرحمن لسعه زنبور وهو طفل فجاء إليه يبكى فقال له : يابنى مالك ، قال : لسعنى طوير كأنه ملتف فى بردى حبرة فضمه إلى صدره وقال : يابنى قد قلت الشعر (ومثله) أى ومثل التعبير عن المستقبل بغير لفظه اسم الفاعل واسم المفعول لأن كلا منهما ليس حقيقة للاستقبال (لواقع) ومقتضى الظاهر يقع (القلب) هو أن يجعل أحد أجزاء الكلام مكان الآخر والآخر مكانه وهو مما يورث الكلام ملاحة ولا يشجع عليه إلا كمال البلاغة (نحو عرضت الخ) ومقتضى الظاهر عرضت الحوض على الناقة لأن المعروض عليه يجب أن يكون ذا شعور حتى يميل المعروض أو يحجم عنه ، وقد أخذ المصنف هذا من جعل الزمخشرى قوله تعالى : ويوم يعرض الذين كفروا على النار ، من القلب . والسبب فى هذا هو أن الأصل أن يجاء بالمعروض إلى المعروض عليه ، وهنا جىء بالمعروض عليه وهو الناقة إلى المعروض وهو

الْحَوْضِ ، وَقَبِلَهُ السَّكَّاكِيُّ مُطلقاً ، وَرَدَّهُ غَيْرُهُ مُطْلَقاً ، وَالْحَقُّ أَنَّهُ إِنْ تَضَمَّنَ اعْتِبَارًا لَطِيفاً قُبِلَ ، كَقَوْلِهِ

وَمَهْمَهٍ مُغْبَرَّةٍ أَرْجَاؤُهُ * كَأَنَّ لَوْنَ أَرْضِهِ سَمَاؤُهُ

أَيْ لَوْنُهَا ، وَإِلَّا رُدَّ ، كَقَوْلِهِ * كَمَا طَيَّنْتَ بِالْفَدَنِ السِّيَاعَا *

الحوض فاعتبر ذلك ، فنزل أحدهما منزلة الآخر (ومهمه) البيت لرؤبة بن العجاج . المهمه : المفازة ، ومغبرة مملوءبالغبرة ، والأرجاء : الأطراف ،وقوله كأن الخ : أي كأن لون سمائه لغبرتها لون أرضه فهو من القلب،والإعتبار اللطيف هو المبالغة في وصف لون السماء بالغبرة ، ومثله قول أبي تمام يصف قلم الممدوح :

لُعَابُ الْأَفَاعِي الْقَاتِلَاتِ لُعَابُهُ وَأَرْيُ الْجَنَى اشْتَارَتْهُ أَيْدٍ عَوَاسِلُ

(أي لونها) يريد أن الكلام على حذف مضاف والتقدير كأن لون أرضه لون سمائه (كما طينت) صدره :

* فَلَمَّا أَنْ جَرَى سِمَنٌ عَلَيْهَا *

وهو للقطامي من قصيدة يمدح بها زفر بن حارث الكلابي وقد أنقذه من أعدائه وأعطاه مائة ناقة وقبله :

أَكُفْرًا بَعْدَ رَدِّ الْمَوْتِ عَنِّي وَبَعْدَ عَطَائِكَ الْمِائَةَ الرِّتَاعَا

وبعده :

أَمَرْتَ بِهَا الرِّجَالَ لِيَأْخُذُوهَا وَنَحْنُ نَظُنُّ أَنْ لَنْ تُسْتَطَاعَا

فقد شبه الناقة في سمنها بالفدن ، وهو القصر المطين بالسياع ، وهو الطين بالتبن ، وقد عكس فجعل المطين هو السياع ، والمطين به هو الفدن ، وليس فيه

﴿ أحوالُ المسنَدِ ﴾

أمّا تَرْكُهُ فَلِمَا مَرَّ كَقَوْلِهِ * فَإنِّي وَقَيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبُ * وقولِهِ :

اعتبار لطيف وفيه نظر لأن القلب ههنا يدل على كثرة السباع حتى صار كأنه الأصل وسمن الناقة مشبه به ، فيدل حينئذ على عظم السمن حتى صار الشحم لكثرته بالنسبة للعظام كأنه الأصل ومما هو مردود لعدم تضمنه اعتباراً لطيفاً قول حسان :

* يكُونُ مِزاجَها عَسَلٌ وماءُ *

وقول عروة بن الورد :

* فَدَيْتُ بِنَفْسِهِ نَفْسِي وَمَالِي *

وقول القطامي :

* ولاَ يَكُ مَوْقِفٌ مِنْكِ الْوَدَاعَا *

، حق الاستعمال يكون مزاجها عسلا وماء ، فديت بنفسي نفسه وماله ، ولا يك موقفاً منك الوداع (فلما مر) في حذف المسند إليه ، ومما يقتضي تركه اتباع الاستعمال كقولهم ضربي زيداً قائماً وأكثر شربي السويق ملتوتاً وأخطب ما يكون الأمير قائماً وقولهم كل رجل وضيعته وقولهم لولا زيد لكان كذا (كقوله فإني وقيار) فإنه حذف المسند إلى قيار كما ترى ، وتقدير الكلام فإني لغريب وقيار كذلك ، وما هذا إلا لقصد الاختصار والاحتراز عن العبث مع ضيق المقام بسبب التوجع والمحافظة على الوزن والسر في تقديم قيار على خبر إن قصد التسوية بينهما في التحسر على الاغتراب ، كأنه أثر في غير ذوي العقول أيضاً . ومن هنا قال الزمخشري عند قوله تعالى : إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون الآية . الصابئون : مبتدأ وهو مع خبره المحذوف في جملة معطوفة على

نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمَا عِنْدَكَ رَاضٍ وَالرَّأْيُ مُخْتَلِفُ

وَقَوْلِكَ : زَيْدٌ مُنْطَلِقٌ وَعَمْرٌو ، وَقَوْلِكَ : خَرَجْتُ فَإِذَا زَيْدٌ ، وَقَوْلِهِ

جملة إن الذين آمنوا إلى آخره لا محل لها من الإعراب وفائدة تقديم الصابئون التنبيه على أنهم مع كونهم أبين المذكورين ضلالا وأشدهم غياً يتاب عليهم إن صح منهم الإيمان والعمل الصالح فما الظن بغيرهم « هذا » وقد أنشد البيت صاحب الكامل فإنى وقياراً بالنصب ثم قال ولو رفع لكان جيداً تقول إن زيداً منطلق وعمراً وعمرو فمن قال عمراً فإنما رده على زيد ومن قال عمرو فله وجهان : جيد وهو أن تحمل عمرا على الموضع ، وجائز وهو أن يعطف على المضمر فى الخبر . والبيت لضابىء بن الحارث البرجمى من أبيات قالها وهو محبوس فى المدينة أيام الخليفة الثالث وصدره :

« وَمَنْ يَكُ أَمْسَى بِالْمَدِينَةِ رَحْلُهُ »

الرحل : المنزل ، وقيار : اسم فرس أو جمل للشاعر ولفظ البيت خبر ومعناه التوجع من الغربة (وقوله نحن بما عندنا) أى نحن بما عندنا راضون فالمسند إلى نحن محذوف كما ترى للاحتراز عن العبث مع ضيق مقام الوزن قيل ومما حذف فيه المسند الاحتراز عن العبث قوله تعالى : والله ورسوله أحق أن يرضوه ، أى والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك ويجوز أن يكون جملة واحدة وتوحيد الضمير لأنه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسوله فكانا فى حكم مرضى واحد . والبيت لقيس بن الخطيم من فحول شعراء الجاهلية (وقولك زيد منطلق وعمرو) ومن هذا الباب قوله تعالى : واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن أى واللائى لم يحضن مثلهن (وقولك خرجت فإذا زيد) فحذف

* إِنَّ مَحَلاًّ وَإِنَّ مُرْتَحَلاً * أَيْ إِنَّ لَنَا فِي الدُّنْيَا ، وَلَنَا عَنْهَا ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ،

المسند إلى زيد للاحتراز عن العبث مع اتباع الاستعمال وإنما كان ذكره هنا عبثاً لأن إذا المفاجأة تدل على مطلق الوجود وقد انضم إليها ما يدل على الخبر المخصوص وهو خرجت المشعر بان المراد ، فإذا زيد بالباب أو موجود مثلا (وقوله إن محلا) إذ التقدير — كما فى المصنف — إن لنا فى الدنيا محلا ولنا عنها إلى الآخرة مرتحلا ، فالمسند محذوف كما ترى لقصد الاختصار مع اتباع الاستعمال . ومن هذا قول الرجل للرجل : هل لكم أحد إن الناس ألب عليكم ، فيقول إن زيداً وإن عمراً أى لنا وقد وضع سيبويه فى ذلك باباً فقال : هذا باب ما يحسن عليه السكوت فى هذه الاحرف الخمسة لإضمارك ما يكون مستقراً لها وموضعاً لو أظهرته وليس هذا المضمر بنفس المظهر . وذلك إن مالا وإن ولداً وإن عدداً ، قال عبدالقاهر : لو أسقطت إن لم يحسن الحذف أو لم يجز لأنها الحاضنة له والمتكفلة بشأنه والمترجمة عنه . والبيت للأعشى وتمامه :

* وَإِنَّ فِي السَّفْرِ إِذْ مَضَوْا مَهَلاً *

فى الصحاح : السفر جمع سافر كصحب وصاحب ، وفى القاموس : السافر المسافر لا فعل له (وقوله تعالى قل لو أنتم تملكون) قال صاحب الكشاف وتقديره لو تملكون تملكون مكرراً لفائدة التأكيد فأضمر تملك الأول إضماراً على شريطة التفسير وأبدل من الضمير المتصل الذى هو الواو ضمير منفصل وهو أنتم لسقوط مايتصل به من اللفظ ، فأنتم فاعل الفعل المضمر وتملكون تفسيره قال وهذا ما يقتضيه علم الإعراب ، فأما ما يقتضيه علم البيان فهو إن أنتم تملكون فيه دلالة على الاختصاص ، وأن الناس هم المختصون بالشح البالغ

يَحْتَمِلُ الْأَمْرَيْنِ ، أى أَجْمَلُ ، أو فأمرى : وَلَا بُدَّ مِنْ قَرِينَةٍ ، كَوُقُوعِ الـكلَامِ جَوَابًا لِسُؤَالٍ — مُحَقَّقٍ نحوُ : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ، أَوْ مُقَدَّرٍ نحوُ ﴿ لِيُبْكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِخُصُومَةٍ ﴾

ونحوه قول حاتم :

﴿ لَوْ ذَاتُ سِوَارٍ لَطَمَتْنِي ﴾

وقول المتلمس :

﴿ وَلَوْ غَيْرُ إِخْوَانِي أَرَادُوا نَقِيصَتِي ﴾

وذلك لأن الفعل الأول لما سقط لأجل المفسر برز الكلام فى صورة المبتدأ والخبر (يحتمل الأمرين) يعنى حذف المسند إليه وحذف المسند ، والتقدير فأمرى صبر جميل ، أو فصبر جميل أجمل . ومما يحتمل الأمرين قوله تعالى : سورة أنزلناها ، وطاعة معروفة ، أى هذه سورة أو فيما أوحينا إليك سورة ، والمطلوب منكم طاعة معروفة ، معلومة لا يشك فيها ولا يرتاب كطاعة الخاص من المؤمنين الذين طابق باطن أمرهم ظاهره لا أيمان تقسمون بها بأفواهكم وقلوبكم على خلافها ، أو طاعتكم طاعة معروفة بأنها بالقول دون الفعل ، أو طاعة معروفة أمثل وأولى بكم من هذه الأيمان الكاذبة قاله الزمخشرى ، ومن هـذا الباب قوله تعالى : ولا تقولوا ثلاثة . أى ولا تقولوا لنا آلهـة ثلاثة أو ولا تقولوا الله وعيسى ومريم آلهة ثلاثة ، فنى الحذف تكثير فائدة التوسعة بالاحتمال « تكملة » قال صاحب المفتاح : وقد يكون حذف المسند بناء على أن ذكره يخرج إلى ما ليس بمراد كقولك أزيد عندك أم عمرو فإنك لو قلت أم عندك عمرو أو أم عمرو عندك لخرج أم عن الاتصال إلى الانقطاع (نحو ليبك يزيد) وتمامه « ومختبط مما تطيح الطوائح » فأنت ترى أنه لما قال

وَفَضْلُهُ عَلَى خِلَافِهِ بِتَكَرُّرِ الإِسْنَادِ إِجْمَالاً ثُمَّ تَفْصِيلاً ، وَبِوُقُوعِ نَحْوِ : يَزِيدُ غَيْرَ فَضْلَةٍ ، وَبِكَوْنِ مَعْرِفَةِ الْفَاعِلِ كَحُصُولِ نِعْمَةٍ غَيْرِ مُتَرَقَّبَةٍ

ليبك يزيد كأن سائلا سأله من يبكيه فقال ضارع أى يبكيه ضارع ، وقد روى البيت بفتح ياء يبك فيكون يزيد مفعولا وضارع فاعلا والضارع المستكن الخاشع وقوله لخصومة أى لأجل خصومة نالته لأنه كان ملجأ للعائذين ، والمختبط الذى يطلب المعروف من غير آصرة والطوائح جمع مطيحة وهى القواذف على غير قياس كلواقح جمع ملحقة يقال طوحته الطوائح أى نزلت به المهالك والبيت لضرار بن نهشل يرثى أخاه يزيد (وفضله) يعنى هذا التركيب وهو بناء ليبك للمفعول على الرواية المشهورة (على خلافه) يعنى ليبك يزيد ببناء الفعل للفاعل ونصب يزيد (إجمالا ثم تفصيلا) أى بأن أسند أولا إجمالا أى إسناد إجمال ثم أسند ثانياً تفصيلا أى إسناد تفصيل ، وبعد ، فقد قال السكاكى إن مثل هذا التركيب متى وقع موقعه رفع شأن الكلام فى باب البلاغة إلى حيث يناطح السماكين ويبارى الفرقدين وموقعه أن يصل من بليغ عالم بجهات البلاغة بصير بمقتضيات الأحوال ساحر فى اقتضاب الكلام ماهر فى أفانين السحر إلى بليغ مثله مطلع من كل تركيب على حاق معناه وفصوص مستتبعاته . ومن هذا الأسلوب قوله تعالى : وجعلوا لله شركاء الجن ، على وجه فإن لله شركاء إن جعلا مفعولين لجعلوا فالجن يحتمل وجهين أحدهما ماذكره الشيخ عبد القاهر أن يكون منصوباً بمحذوف دل عليه سؤال مقدر كأنه قيل من جعلوا لله شركاء فقيل الجن فيفيد الكلام إنكار الشريك مطلقاً فيدخل اتخاذ الشريك من غير الجن فى الإنكار دخول اتخاذه من الجن ، والثانى ما ذكره صاحب الكشاف أن ينتصب الجن بدلا من شركاء فيفيد إنكار الشريك مطلقاً أيضاً ، قال : وإن جعلت لله لغواً

لِأَنَّ أَوَّلَ الْكَلَامِ غَيْرُ مُطْمِعٍ فِي ذِكْرِهِ . وَأَمَّا ذِكْرُهُ فَلِمَا مَرَّ ، أَوْ أَنْ يَتَعَيَّنَ كَوْنُهُ اسْمًا أَوْ فِعْلًا . وَأَمَّا إِفْرَادُهُ فَلِكَوْنِهِ غَيْرَ سَبَبِيٍّ مَعَ

كان شركاء الجن مفعولين قدم ثانيهما على الأول وفائدة التقديم استعظام أن يتخذ لله شريك من كان ملكا أو جنا أو غيرهما ، ولذلك قدم اسم الله على الشركاء (فلما مر) فى ذكر المسند إليه من أن الذكر هو الأصل ولا مقتضى للعدل عنه ومن الاحتياط لضعف التعويل على القرينة ومن التعريض بغباوة السامع مثل قوله تعالى : بل فعله كبيرهم هذا بعد ، وقوله : أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم وغير ذلك (أو أن يتعين كونه اسما) فيستفاد منه الثبوت (أو فعلا) فيستفاد منه التجدد (فلكونه غير سببى إلى آخره) إليك عبارة السكاكى مع شىء من التصرف قال : وأما الحالة المقتضية لأفراد الاسم فهى إذا كان فعليا ولم يكن المقصود من نفس التركيب تقوى الحكم والمراد بالفعل ما يكون مفهومه محكوما به بالثبوت للمسند إليه أو بالانتفاء عنه كقولك أبو زيد منطلق والكر من البر بستين وضرب أخو عمرو ويشكرك عمرو أن تعطه وفى الدار خالد إذ تقديره واستقر أو حصل فى الدار على أقوى الاحتمالين لتمام الصلة بالظرف وما يقتضى أن يكون جملة أن يراد تقوى الحكم بنفس التركيب كقولك(١) أنا عرفت وأنت عرفت وهو

---

(١) بينا لك سبب التقوى فى مثل هذه المثل عند الكلام على تقديم المسند إليه على ما رآه الشيخ عبد القاهر ، أما على ما ذكره السكاكى فسبب التقوى أن المبتدأ لكونه مبتدأ يستدعى أن يسند إليه شىء فإذا جاء بعده ما يصلح أن يسند إليه صرفه إلى نفسه فينعقد بينهما حكم سواء كان خاليا عن الضمير أو متضمنا له ثم إذا كان متضمنا لضميره صرفه ذلك الضمير إلى المبتدأ ثانيا فيكتسى الحكم قوة .

عَدَمِ إِفَادَةِ تَقَوِّي الْحُكْمِ ؛ وَالْمُرَادُ بِالسَّبَبِيِّ نَحْوُ : زَيْدٌ أَبُوهُ مُنْطَلِقٌ ، وَأَمَّا كَوْنُهُ فِعْلاً فَلِلتَّقْيِيدِ بِأَحَدِ الْأَزْمِنَةِ الثَّلَاثَةِ عَلَى أَخْصَرِ وَجْهٍ ، مَعَ إِفَادَةِ التَّجَدُّدِ كَقَوْلِهِ :

أَوَكُلَّمَا وَرَدَتْ عُكَاظَ قَبِيلَةٌ * بَعَثُوا إِلَيَّ عَرِيفَهُمْ يَتَوَسَّمُ

عرف وزيد عرف أو أن يكون المسند سببياً وهو أن يكون مفهومه مع الحكم عليه بالثبوت لما هو مبنى عليه أو بالانتفاء عنه مطلوب التعليق بغير ماهو مبنى عليه تعليق إثبات لذلك الغير بنوع ما أو نفى عنه بنوع ما أو يكون المسند فعلا يستدعى الاستناد إلى ما بعده بالإثبات أو بالنفى فيطلب تعليقه على ما قبله بنوع إثبات أو نفى ليكون مابعده بسبب ما قبله ، فالأول نحو زيد أبوه منطلق فإن مفهوم منطلق مع الحكم عليه بثبوته لمبتدئه يعنى أبوه قد علق بزيد بالإثبات له وزيد غير ما بنى منطلق عليه ، والثانى نحو عمرو ضرب ابوه ، فإن ضرب فعل أسند إلى مابعده وهو أخوه ثم علق على ما قبله وهو عمرو بالإثبات لان الأخ متعلق به ومضاف إلى ضميره (كقوله) أى قول طريف بن تميم العنبرى من أبيات يصف بها نفسه بالشجاعة (أو كلما إلى آخره) فالمعنى على توسم وتأمل ونظر يتجدد من العريف هناك حالا فحالا ، وتصفح منه للوجوه واحداً بعد واحد ، ولو قيل متوسماً لم يفد ذلك حق الإفادة . ومن البين فى ذلك قوله جل شأنه : هل من خالق غير الله يرزقكم ، إذ لو قيل هل من خالق غير الله رازق لكم لكان المعنى غير ما أريد ، وقول الأعشى :

وَأَمَّا كَوْنُهُ اسْمًا فَلِإِفَادَةِ عَدَمِهِمَا كَقَوْلِهِ :

لَا يَأْلَفُ الدِّرْهَمُ الْمَضْرُوبُ صُرَّتَنَا   لَكِنْ يَمُرُّ عَلَيْهَا وَهْوَ مُنْطَلِقُ

وَأَمَّا تَقْيِيدُ الْفِعْلِ بِمَفْعُولٍ وَنَحْوِهِ فَلِتَرْبِيَةِ الْفَائِدَةِ ، وَالْمُقَيَّدُ فِي نَحْوِ

لَعَمْرِي لَقَدْ لَاحَتْ عُيُونٌ كَثِيرَةٌ   إِلَى ضَوْءِ نَارٍ فِي يَفَاعٍ تُحَرَّقُ(١)

تُشَبُّ لِمَقْرُورَيْنِ يَصْطَلِيَانِهَا   وَبَاتَ عَلَى النَّارِ النَّدَى وَالْمُحَلَّقُ

المعنى على أن هناك موقداً يتجدد منه الإلهاب والإشعال حالا فحالا ، وإذا قيل إلى ضوء نار متحرقة كان المعنى أن هناك ناراً قد ثبتت لها وفيها هذه الصفة وجرى ذلك مجرى أن يقال إلى ضوء نار عظيمة فى أنه لا يفيد فعلا يفعل «هذا» ، وعكاظ متسوق للعرب يجتمعون فيه فيتناشدون ويتفاخرون . يقول الشاعر : إن لكل قبيلة على جناية فى ورودا عكاظ طالبنى الكافل بأمرهم . (فلإفادة عدمهما) أى عدم التقييد المذكور وإفادة التجدد ، لأن الاسم وضع لأجل أن يثبت به المعنى للشيء فحسب (كقوله) أى قول النضر بن جؤية يتمدح بالغنى والكرم — فالمعنى أن الانطلاق من الصرة ثابت للدرهم دائماً كما هو ظاهر فى ذلك قوله تعالى : وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ، فإن أحداً لا يشك فى امتناع الفعل ههنا كما لا يخفى (ونحوه) كالحال والتمييز (فلتربية الفائدة) لأن الحكم العارى عن القيود لا يزيد عن فائدة نسبة المحكوم به للمحكوم عليه بل ربما كان ذلك الحكم معلوماً عند السامع ، فلا يفيد فإذا زيد قيد كان

---

(١) لاحت : لمعت ، واليفاع : ما ارتفع من الأرض ، وتشب : توقد ، والمقرور : المصاب بالقر وهو البرد ، والندى : الكرم ، والمحلق : اسم رجل كريم من ولد أبى بكر بن كلاب من بنى عامر

كَانَ زَيْدٌ مُنْطَلِقًا هُوَ مُنْطَلِقًا لا كَانَ . وَأَمَّا تَرْكُهُ فَلِمَانِعٍ مِنْهَا . وَأَمَّا تَقْيِيدُهُ بِالشَّرْطِ ، فَلِاعْتِبَارَاتٍ لاَ تُعْرَفُ إِلَّا بِمَعْرِفَةِ مَا بَيْنَ أَدَوَاتِهِ مِنَ التَّفْصِيلِ ، وَقَدْ بُيِّنَ ذَلِكَ فِي عِلْمِ النَّحْوِ ، وَلَكِنْ لاَ بُدَّ مِنَ النَّظَرِ هٰهُنَا فِي إِنْ وَإِذَا وَلَوْ . . فَإِنْ وَإِذَا لِلشَّرْطِ فِي الاسْتِقْبَالِ ، لَكِنْ أَصْلُ إِنْ عَدَمُ الْجَزْمِ بِوُقُوعِ الشَّرْطِ ، وَأَصْلُ إِذَا الْجَزْمُ بِوُقُوعِهِ ، وَلِذَلِكَ كَانَ النَّادِرُ مَوْقِعًا لِإِنْ ، وَغَلَبَ لَفْظُ الْمَاضِي مَعَ إِذَا نَحْو : فَإِذَا جَاءَتْهُمْ

فيه فائدة غريبة : وكلما كثرت قيوده كثرت فوائده (هو منطلقاً لا كان) لأن منطلقاً هو المسند حقيقة وكان قيد له للدلالة على زمان النسبة (تركه) أى ترك تقييد المسند (فلمانع منها) أى من تربية الفائدة كعدم العلم بالمقيدات أو عدم الاحتياج إليها وغير ذلك من الأغراض (تقييده) أى الفعل (أدواته) أدوات الشرط (للشرط فى الاستقبال) أى لتعليق حصول الجزاء بحصول الشرط فى المستقبل (ولذلك كان النادر موقعا لإن) لأنه غير مقطوع به فى غالب الأمر[1] (وغلب لفظ الماضى مع إذا) لكونه أقرب إلى القطع بالوقوع نظرا إلى اللفظ ، وبعد ، فلا بد للبليغ من العلم بموقع أن وإذا حتى يكون بنجوة من الخطأ وبمفازة من اللوم ، أو ما ترى كيف أنحوا باللائمة على عبد الرحمن بن حسان إذ أخطأ بهما الموقع فى قوله يخاطب بعض الولاة وقد سأله حاجة فلم يقضها ثم شفع له فيها فقضاها :

---

(١) قالوا ذلك لأن النادر — وهو ما وقوعه قليل — قد يجزم بوقوعه كما جزم بوقوع اليوم الآخر مع ندور وقوعه إذ لا يحصل إلا مرة واحدة .

الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ، لِأَنَّ الْمُرَادَ الْحَسَنَةُ الْمُطْلَقَةُ ، وَلِهَذَا عُرِّفَتْ تَعْرِيفَ الْجِنْسِ ، وَالسَّيِّئَةُ نَادِرَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا ، وَلِهَذَا نُكِّرَتْ ؛ وَقَدْ تُسْتَعْمَلُ إِنْ فِي الْجَزْمِ تَجَاهُلاً أَوْ لِعَدَمِ جَزْمِ

تَوَلَّى سِوَاكُمْ أَجْرَهَا وَاصْطِنَاعَهَا ... ذُمِمْتَ وَلَمْ تُحْمَدْ وَأَدْرَكْتُ حَاجَتِي
وَنَفْسٌ أَضَاقَ اللهُ بِالْخَيْرِ بَاعَهَا ... أَبَى لَكَ كَسْبَ الْحَمْدِ رَأْيٌ مُقَصِّرٌ
عَصَاهَا وَإِنْ هَمَّتْ بِشَرٍّ أَطَاعَهَا ... إِذَا هِيَ حَثَّتْهُ عَلَى الْخَيْرِ مَرَّةً

(جاءتهم) قوم موسى (الحسنة) من الخصب والرخاء (لنا هذه) لأجلنا ونحن مستحقوها (سيئة) جدب وبلاء (لأن المراد إلى آخره) أصل هذا الكلام لصاحب الكشاف غفر الله له وهاك عبارته : فإن قلت كيف قيل فإذا جاءتهم الحسنة بإذا وتعريف الجنس وإن تصبهم سيئة بأن وتنكير السيئة ، قلت لأن جنس الحسنة وقوعه كالواجب لكثرته واتساعه ، وأما السيئة فلا تقع إلا فى الندرة ولا يقع إلا شيء منها ، انتهى كلامه . أما قوله تعالى : إذا مس الناس ضر ، بلفظ إذا مع الضر فللنظر إلى لفظ المس وإلى تنكير الضر المفيد فى المقام التوبيخى القصد إلى اليسير من الضر وإلى الناس المستحقين أن يلحقهم كل ضرر وللتنبيه على أن مساس قدر يسير من الضر لأمثال هؤلاء حقه أن يكون فى حكم المقطوع به ، وأما قوله تعالى : وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ، بعد قوله عز وجل : وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، أى أعرض عن شكر الله وذهب بنفسه وتكبر وتعظم ، فالذى تقتضيه البلاغة أن يكون الضمير فى مسه للمعرض المتكبر ، ويكون لفظ إذا للتنبيه على أن مثله يحق أن يكون ابتلاؤه بالشر مقطوعاً به (تجاهلا) لاستدعاء المقام إياه كما إذا استطالت

الْمُخَاطَبِ كَقَوْلِكَ لِمَنْ يُكَذِّبُكَ : إِنْ صَدَقْتُ فَمَاذَا تَفْعَلُ ، أَوْ تَنْزِيلِهِ مَنْزِلَةَ الْجَاهِلِ لِمُخَالَفَتِهِ مُقْتَضَى الْعِلْمِ أَوِ التَّوْبِيخِ ، وَتَصْوِيرِ أَنَّ الْمَقَامَ لاشْتِمَالِهِ عَلَى مَا يَقْلَعُ الشَّرْطُ عَنْ أَصْلِهِ لاَ يَصْلُحُ إِلاَّ لِفَرْضِهِ كَمَا يُفْرَضُ الْمُحَالُ نَحْوُ : أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ، فِيمَنْ قَرَأَ إِنْ بِالْكَسْرِ ، أَوْ تَغْلِيبِ غَيْرِ الْمُتَّصِفِ بِهِ عَلَى الْمُتَّصِفِ ؛ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : وَإِنْ كُنْتُمْ

ليلتك فتقول إن يطلع الصبح وينقض الليل أفعل كذا فتتجاهل تولهاً وتضجراً (أو تنزيله إلى آخره) كما يقول الأب لابن لا يراعى حقه ، افعل ما شئت إنى إن لم أكن لك أباً كيف تراعى حق (كما يفرض المحال) متى تعلق بفرضه غرض من الأغراض نحو إرخاء العنان لإلزام الخصم والتبكيت كما ذكر الزمخشرى فى قوله تعالى : فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، أنه من باب التبكيت لأن دين الحق واحد لا يوجد له مثل ، فقيل فإن آمنوا بكلمة الشك على سبيل الفرض والتقدير ، أى فإن حصلوا ديناً آخر مثل دينكم مساوياً له فى الصحة والسداد فقد اهتدوا . وفيه أن دينهم الذى هم عليه وكل دين سواه مغاير له غير مماثل لأنه حق وهدى وما سواه باطل وضلال ، ونحو هذا قولك الرجل تشير عليه هذا هو الرأى والصواب فإن كان عندك رأى أصوب منه فاعمل به وقد علمت أن لا أصوب من رأيك ، ولكنك تريد تبكيت صاحبك وتوقيفه على أن ما رأيت لا رأى وراءه (نحو أفنضرب الآية) فأنت ترى أن الإسراف مقطوع به لكن جىء بلفظ إن لقصد التأنيب والتجهيل فى ارتكاب الإسراف ، وتصوير أن الإسراف من العاقل فى هذا المقام — مقام ظهور الآيات ونزول القرآن — حرى أن لا يكون ثبوته له إلا على مجرد الفرض والتقدير (به) أى

فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ، يَحْتَمِلُهُمَا . وَالتَّغْلِيبُ يَجْرِى فِى فُنُونٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ، وَمِنْهُ أَبَوَانِ

بالشرط (يحتملهما) أى يحتمل أن يكون للتوبيخ على الريبة وتصوير أن الريبة مما لا ينبغى أن تثبت لهم إلا على الفرض لاشتمال المقام على ما يزيلها وهو الآيات وأن يكون لتغليب غير المرتابين من المخاطبين على المرتابين منهم ، فإنه كان فيهم من يعرف الحق وإنما ينكر عناداً (والتغليب) وهو أن يغلب على الشىء ما لغيره لتناسب بينهما أو اختلاط ، وهو أمر يجرى فى كل متناسبين ومختلطين بحسب المقامات لكن غالب أمره دائر على الشرف والخفة (وكانت من القانتين) فعدت الأنثى من الذكور بحكم التغليب ، لأن القنوت مما يوصف به الذكور والإناث ، ولولا ذلك لقيل وكانت من القانتات (بل أنتم قوم تجهلون) فكان القياس يجهلون لأن الضمير عائد إلى قوم ولفظه لفظ الغائب لكونه اسماً مظهراً لكنه فى المعنى عبارة عن المخاطبين ، فغلب جانب الخطاب على جانب الغيبة ، (ومنه أبوان) ومنه قوله تعالى : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا ، أدخل شعيب عليه السلام فى لتعودن فى ملتنا بحكم التغليب إذ لم يكن شعيب فى ملتهم ، وقوله تعالى : فسجدوا إلا إبليس ، عد إبليس من الملائكة بحكم التغليب ، وقوله تعالى : جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ، فإن الخطاب فيه شامل للعقلاء والأنعام فغلب فيه المخاطبون على الغائبين والعقلاء على الأنعام ، وقوله يذرؤكم فيه : أى يبثكم ويكثركم فى هذا التدبير ، وهو أن جعل للناس والأنعام أزواجاً حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل ، فجعل هذا التدبير كالمعدن والمنبع للبث والتكثير ولذلك قيل يذرؤكم فيه ولم يقل به كما فى قوله تعالى : ولكم فى القصاص حياة .

وَنَحْوُهُ ، وَلِكَوْنِهِمَا لِتَعْلِيقِ أَمْرٍ بِغَيْرِهِ فِى الِاسْتِقْبَالِ كَانَ كُلٌّ مِنْ جُمْلَتَيْ كُلٍّ فِعْلِيَّةً اسْتِقْبَالِيَّةً ، وَلاَ يُخَالَفُ ذَلِكَ لَفْظًا

(ونحوه) كالمشرقين للشرق والمغرب ، والقمرين للشمس والقمر ، والحسنين للحسن والحسين وما أشبه ذلك مما غلب أحد المتصاحبين أو المتشابهين على الآخر بأن جعل متفقاً له فى الاسم ، ثم ثنى ذلك الاسم وقصد إليهما جميعاً (ولكونهما) إن وإذا (لتعليق أمر) وهو حصول مضمون الجزاء (بغيره) وهو حصول مضمون الشرط (فى الاستقبال) مرتبط بلفظ غيره على معنى جعل حصول الجزاء مترتباً على حصول الشرط فى الاستقبال (كان كل من جملتى كل فعلية استقبالية) ذلك لأن الشرط كما لا يخفى مفروض الحصول فى الاستقبال فيمتنع ثبوته ومضيه ، والجزاء معلق حصوله على حصول الشرط فى الاستقبال ، ويمتنع كما هو ظاهر تعليق حصول الحاصل الثابت على حصول ما يحصل فى المستقبل (لفظاً) وأما معنى فلا يمكن التخالف بحال ، وقوله تعالى : وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك ، معناه فاصبر ولا تحزن فقد كذبت رسل من قبلك ، وقوله : إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ، ومعناه ينصره من نصره قبل ذلك . وقس على هذا بقدر ما يناسب المقام ، هذا ، وقد تستعمل[1] إن فى غير الاستقبال قياساً إذا كان الشرط لفظ كان مثل قوله تعالى : وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا الآية ، وفى غير ذلك قليلا ، كقول أبى العلاء المعرى :

---

(١) يكون ذلك إذا قصد بها تعليق الجزاء على حصول الشرط فى الماضى ولا يقال إن هذا ينافى ما قدمناه آنفاً من أن الشرط مفروض الحصول فى الاستقبال لأنا نقول هذا حين استعمال إن للتعليق فى المستقبل كما هو غالب أمرها .

إِلَّا لِنُكْتَةٍ ، كَإِبْرَازِ غَيْرِ الْحَاصِلِ فِى مَعْرِضِ الْحَاصِلِ ، لِقُوَّةِ الْأَسْبَابِ أَوْ كَوْنِ مَا هُوَ لِلْوُقُوعِ كَالْوَاقِعِ أَوِ التَّفَاؤُلِ ، أَوْ إِظْهَارِ الرَّغْبَةِ فِى وُقُوعِهِ

وَإِنْ ذَهَلَتْ عَمَّا أَجَنَّ صُدُورُهَا فَقَدْ أَلْهَبَتْ وَجْدًا نُفُوسَ رِجَالِ (١)

لظهور أن المعنى على المضى دون الاستقبال ، وقد تستعمل إذا للمضى مثل قوله تعالى : حتى إذا بلغ بين السدين . حتى إذا ساوى بين الصدفين . حتى إذا جعله ناراً ، وللاستمرار مثل قوله جل شأنه : وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا . (إلا لنكتة) فإن قلت فأى نكتة فى قوله تعالى : إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون ، وقد ذكر فى موضع جزاء هذا الشرط ثلاث جمل متعاطفة وعدل فى الثالثة إلى لفظ الماضى . فإنا نقول الغرض من ذلك كما قال الزمخشرى الدلالة على أنهم ودوا قبل كل شيء كفر المؤمنين وارتدادهم ، يعنى أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعاً من قتل الأنفس وتمزيق الأعراض وردكم كفاراً ، وردكم كفاراً أسبق المضار عندهم وأولها لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم لأنكم بذالون لها دونه والعدو أهم شيء عنده أن يقصد أعز شيء عند صاحبه (لقوة الأسباب) وذلك كما تقول حال انعقاد أسباب الاشتراء إن اشترينا كذا كان كذا (أو كون ماهو للوقوع كالواقع) هذا كما هو ظاهر معطوف على قوة الأسباب يعنى أنه يعبر بالماضى عن المستقبل فى جملة الشرط لقصد إبراز غير الحاصل فى العرض الحاصل لكون المعنى شأنه الوقوع فهو كالواقع فى ترتب ثمرة الوقوع فى الجملة على كل منهما وذلك مثل أن تقول إن مت كان كذا وكذا (فى وقوعه) أى وقوع الشرط أو

---

(١) يقول : إن هذه الإبل قد أحرقت بحنينها قلوب رجال ، يعنى راكبيها وإن خلت صدورها عن الوجد الذى أضمره .

نَحْوُ : إِنْ ظَفِرْتُ بِحُسْنِ الْعَاقِبَةِ فَهُوَ الْمَرَامُ ، فَإِنَّ الطَّالِبَ إِذَا عَظُمَتْ رَغْبَتُهُ فِى حُصُولِ أَمْرٍ يَكْثُرُ تَصَوُّرُهُ إِيَّاهُ ، فَرُبَّمَا يُخَيَّلُ إِلَيْهِ حَاصِلاً ، وَعَلَيْهِ : إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا . السَّكَّاكِيُّ : أَوْ لِلتَّعْرِيضِ نَحْوُ : لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ.

غير الحاصل (إن ظفرت إلى آخره) هو مثال للأمرين قبله (فربما يخيل إليه حاصلا) وقد يقوى هذا التخيل عند الطالب حتى إذا وجد حكم الحس بخلاف حكمه غلطه تارة واستخرج له محملا أخرى وعليه قول أبى العلاء المعرى :

مَا سِرْتُ إِلَّا وَطَيْفٌ مِنْكَ يَصْحَبُنِي   سُرًى أَمَامِي وَتَأْوِيبًا عَلَى أَثَرِي

يقول لكثرة ماناجيت نفسى بك انتقشت فى خيالى فأعدك بين يدى مغالطا للبصر بعلة الظلام إذا لم يدركك ليلا أمامى وأعدك خلفى إذا لم يتيسر لى تغليط حين لا يدركك بين يدى نهاراً (وعليه) أى على إظهار الرغبة فى الوقوع قوله تعالى : ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً ، فلم يقل إن يردن وجىء بلفظ الماضى للدلالة على توفر الرغبة فى إرادتهن التحصن ، وإنما قال وعليه لأن الله منزه عن الرغبة ، والمراد ههنا لازمها وهو كمال الرضا به . هذا ، وفائدة قوله إن أردن تحصناً أن يبشع عند المخاطب الوقوع فى الإكراه لكى يعرف أنه كان ينبغى له أن يأنف من هذه الرذيلة ، وإن لم يكن ثم زاجر شرعى ، ذلك لأن مضمون الآية النداء عليه بأن أمته خير منه لأنها آثرت التحصن عن الفاحشة وهو يأبى الإكراه عليها (نحو لئن أشركت) فالخطاب لمحمد عليه السلام وعدم إشراكه مقطوع به لكن جىء بلفظ الماضى إبرازاً للإشراك فى معرض الحاصل على سبيل الفرض والتقدير تعريضاً لمن صدر عنهم الإشراك بأنهم قد حبطت أعمالهم ، ومما هو بين فى ذلك قوله تعالى : ولئن اتبعت أهواءهم بعد ماجاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين ، قال صاحب الكشاف

عَمَلَكَ ، وَنَظِيرُهُ فِي التَّعْرِيضِ : وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ؟ أَيْ وَمَالَكُمْ لَا تَعْبُدُونَ الَّذِي فَطَرَكُمْ ، بِدَلِيلِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ؛ وَوَجْهُ حُسْنِهِ إِسْمَاعُ الْمُخَاطَبِينَ الْحَقَّ عَلَى وَجْهٍ لَا يَزِيدُ غَضَبَهُمْ ، وَهُوَ تَرْكُ التَّصْرِيحِ بِنِسْبَتِهِمْ إِلَى الْبَاطِلِ ، وَيُعِينُ عَلَى قَبُولِهِ لِكَوْنِهِ أَدْخَلَ فِي إِمْحَاضِ النُّصْحِ ، حَيْثُ لَا يُرِيدُ إِلَّا مَا يُرِيدُ لِنَفْسِهِ . وَلَوْ لِلشَّرْطِ فِي الْمَاضِي مَعَ الْقَطْعِ بِانْتِفَاءِ الشَّرْطِ فَيَلْزَمُ عَدَمُ الثُّبُوتِ وَالْمُضِيُّ فِي جُمْلَتَيْهَا ، فَدُخُولُهَا عَلَى الْمُضَارِعِ

هذا كلام ورد على سبيل الفرض والتقدير ، وفيه لطف للسامعين وزيادة تحذير واستفظاع لحال من يترك الدليل بعد إنارته ويتبع الهوى (ونظيره فى التعريض ومالى لا أعبد الذى فطرنى) ومثل ذلك قوله تعالى : أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون إنى إذاً لفى ضلال مبين ، إذ المراد أتتخذون من دونه آلهة إن يردكم الرحمن بضر لا تغن عنكم شفاعتهم شيئاً ولا ينقذونكم إنكم إذاً لفى ضلال مبين ولذلك قيل آمنت بربكم دون بربى وأتبعه فاسمعون (بدليل وإليه ترجعون) إذ لولا التعريض لكان المناسب وإليه أرجع لأنه الموافق للسياق (حسنه) أى التعريض (المخاطبين) الذين هم أعداء المتكلم (ويعين) عطف على قوله لا يزيد أى أن ذلك الوجه لا يزيد غضبهم وهو على ذلك يعين على قبول الحق (ولو للشرط فى الماضى إلى آخره) يقول أصل لو أنها تدل على أن الجزاء كان فيما مضى بحيث يقع على تقدير وقوع الشرط مع القطع بانتفاء الشرط المقتضى انتفاء الجزاء وأنت إذا قلت لو جئتنى لأكرمتك فهم أن المجىء شرط فى الإكرام وأنه على تقدير وقوعه يقع وفهم مع هذا أن الأول لم يقع فيلزم — حيث كان المجىء شرطاً وانتفى — انتفاء المشروط الذى هو الجزاء ، ومن هنا قيل إن لو لامتناع الشىء لامتناع غيره وتوفية ذلك حقه من البيان أمس بعلم اللغة (والمضى) وذهب المبرد إلى أنها تستعمل

فى نحوِ : لَوْ يُطِيعُكُمْ فى كَثِيرٍ مِنَ الأمْرِ لَعَنِتُّمْ ، لِقَصْدِ استِمْرَارِ الفِعْلِ فِيمَا مَضَى وَقْتاً فَوَقْتاً ، كما فى قَوْلِهِ تَعَالَى : اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ، وَفى نحوِ : وَلَوْ تَرَى إذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ ، لِتَنْزِيلِهِ مَنْزِلَةَ المَاضِى لِصُدُورِهِ عَمَّنْ

فى المستقبل استعمال إن وأنشد قول الهذلى :

وَلَوْ تَلْتَقِى أَصْدَاؤُنَا بَعْدَ مَوْتِنَا
وَمِنْ دُونِ رَمْسَيْنَا مِنَ الأرْضِ سَبْسَبُ(١)

لَظَلَّ صَدَى صَوْتِى وَإنْ كُنْتُ رِمَّةً
لِصَوْتِ صَدَى لَيْلَى يَهَشُّ وَيَطْرَبُ

(لعنتم) أى لوقعتم فى العنت والهلاك ، يقال فلان يتعنت فلاناً : أى يطلب ما يؤديه إلى الهلاك ، وقد أعنت العظم إذا هيض بعد الجبر (لقصد استمرار الفعل إلى آخره) قال الزمخشرى : إنما قيل يطيعكم دون أطاعكم للدلالة على أنه كان فى إرادتهم استمرار عمله على مايستصوبونه ، وإنه كلما عن لهم رأى فى أمر كان معمولا عليه بدليل قوله : فى كثير من الأمر ، كقولك فلان يقرى الضيف ويحمى الحريم : تريد أنه مما اعتاده ووجد منه مستمراً (كما فى قوله الله يستهزىء بهم) قال فى الكشاف : فإن قلت هلا قيل الله مستهزىء بهم ليكون طبقاً لقوله إنما نحن مستهزؤن . قلت لأن يستهزىء يفيد حدوث الاستهزاء وتجدده وقتاً بعد وقت وهكذا كانت نكايات الله فيهم وبلاياه النازلة بهم (وفى نحو ولو ترى إلى آخره) من هذا الباب قوله : ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ، وقوله : ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم . هذا

(١) الأصداء جمع صدى : ظل الصوت يرجع مثله فى الجبل ونحوه ، والرمس : القبر ، والسبسب : المفازة ، ويهش : يرتاح ويميل .

لا خلافَ فى إخبارِه ، كما فى : رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ! أَوْ لاستحضارِ الصُّورَةِ كما قالَ تَعالَى : فَتُثِيرُ سَحَاباً ، استحضاراً لِتلكَ الصُّورَةِ البَدِيعَةِ الدَّالَّةِ عَلَى القُدْرَةِ البَاهِرَةِ . وَأَمَّا تَنْكِيرُهُ : فَلِإِرَادَةِ عَدَمِ الحَصْرِ وَالعَهْدِ ، كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ كَاتِبٌ وَعَمْرٌو شاعِرٌ ، أَوْ لِلتَّفْخِيمِ ، نَحْوُ : هُدًى

ويجوز أن تكون لو فى هذه الآيات للتمنى ، كأنه قال وليتك ترى ، وحينئذ لا استشهاد لأن التى للتمنى تدخل على المضارع كما تدخل على الماضى (كما فى ربما يود) قال صاحب الكشاف : فإن قلت لم دخلت ربما على المضارع وقد أبوا دخولها إلا على الماضى ؟ قلت لأن المترقب فى إخبار الله تعالى بمنزلة الماضى المقطوع به فى تحققه فكأنه قيل ربما ود (أو لاستحضار الصورة) هو معطوف على قوله لتنزيله يعنى صورة رؤية الكافرين موقوفين على النار قائلين ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ، وكذا صورة رؤية الظالمين موقوفين عند ربهم والمجرمين ناكسى رؤسهم متقاولين بتلك المقالات وصورة ودادة الكافرين لو أسلموا (كما فى قوله تعالى فتثير سحاباً) وكما فى قول تأبط شراً :

أَلاَ مَنْ مُبْلِغٌ فِتْيَانَ فَهْمٍ ... بِمَا لاَقَيْتُ عِنْدَ رَحَا بِطَانِ

بِأَنِّى قَدْ لَقِيتُ الغُولَ تَهْوِى ... بِسَهْبٍ كَالصَّحِيفَةِ صَحْصَحَانِ

فَقُلْتُ لها كِلاَنَا نِضْوُ أَرْضٍ ... أَخُو سَفَرٍ فَخَلِّى لِي مَكَانِى

فَشَدَّتْ شَدَّةً نَحْوِى فَأَهْوَتْ ... لَهَا كَفِّى بِمَصْقُولٍ يَمَانِى

فَأَضْرِبُهَا بِلاَ دَهَشٍ فَخَرَّتْ ... صَرِيعاً لِليَدَيْنِ وَلِلْجِرَانِ

إذ قال فأضربها ليصور لقومه الحالة التى تشجع فيها على ضرب الغول كأنه

بمتقين ، أوْ للتَّحْقِيرِ . وَأَمَّا تَخْصِيصُهُ بالْإِضَافَةِ أَوِ الْوَصْفِ : فَلِتَكُونَ الفَائِدَةُ أَتَمَّ كما مَرَّ . وَأَمَّا تَرْكُهُ فَظَاهِرٌ مِمَّا سَبَقَ . وَأَمَّا تَعْرِيفُهُ : فَلإِفَادَةِ السَّامِعِ حُكْماً عَلَى أَمْرٍ مَعْلُومٍ لهُ بإِحْدَى طُرُقِ التَّعْرِيفِ بِآخَرَ مِثْلِهِ ،

يبصرهم إياها ويطلب منهم مشاهدتها تعجيباً من جراءته على كل هول وثباته عند كل شدة . تكملة : قد يكون دخول لو على المضارع للدلالة على أن الفعل من المطاوعة بحيث يحترز عن أن يعبر عنه بلفظ الماضى لكونه مما يدل على الوقوع فى الجملة ، كما تقول : لقد أصابتنى حوادث لو تبقى إلى الآن لما بقى منى أثر . وقد يعدل عن عدم الثبوت إلى جعل الجملة الثانية اسمية مثل قوله تعالى : ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير ، دلالة على ثبوت المثوبة واستقرارها أما الجملة الأولى فلا تقع إلا فعلية ألبتة (نحو هدى للمتقين) على أنه خبر مبتدأ محذوف أو خبر ذلك الكتاب ، أى هدى لا يكتنه كنهه ، ومثله قول الله جل شأنه : إن زلزلة الساعة شيء عظيم (أو للتحقير) كما تقول الحاصل لى من هذا المال شيء أى حقير (كما مر) من أن زيادة الخصوص توجب أتمية الفائدة (تركه) أى ترك تخصيص المسند بالإضافة أو الوصف (مما سبق) فى ترك تقييد المسند المانع من تربية الفائدة (ولإفادة السامع إلى آخره) قال فى الإيضاح تفسير هذا أنه قد يكون للشيء صفتان من صفات التعريف ويكون السامع عالماً باتصافه بإحداهما دون الأخرى ، فإن أردت أن تخبره بأنه متصف بالأخرى فإنك تعمد إلى اللفظ الدال على الأولى وتجعله مبتدأ وتعمد إلى اللفظ الدال على الثانية وتجعله خبراً ، فتفيد السامع ما كان يجهله من اتصافه بالثانية ، كما إذا كان للسامع أخ يسمى زيداً وهو يعرفه بعينه واسمه ، ولكن لا يعرف أنه أخوه ، وأردت أن تعرفه أنه أخوه فتقول له : زيد أخوك ، سواء عرف أن له

أوْ لاَزِمَ حُكْمٍ كَذَلِكَ ، نحْوُ : زَيْدٌ أَخُوكَ وَعَمْرٌو الْمُنْطَلِقُ ، باعْتِبَارِ تَعْرِيفِ الْعَهْدِ أو الجِنْسِ وَعَكْسِهِمَا ، وَالثَّانِي قَدْ يُفِيدُ قَصْرَ

أخاً ، ولم يعرف أن زيداً أخوه أو لم يعرف أن له أخاً أصلا ، وإن عرف أن له أخاً فى الجملة وأردت أن تعينه عنده قلت : أخوك زيد ، أما إذا لم يعرف أن له أخاً أصلا فلا يقال ذلك لامتناع الحكم بالتعيين على من لا يعرفه المخاطب أصلا ، فظهر الفرق بين قولنا زيد أخوك وقولنا أخوك زيد ، وكذا إذا عرف السامع إنساناً يسمى زيداً بعينه واسمه ، وعرف أنه كان من إنسان انطلاق ولم يعرف أنه كان من زيد أو غيره . فأردت أن تعرفه أن زيداً هو ذلك المنطلق ، فتقول زيد المنطلق ، وإن أردت أن تعرفه أن ذلك المنطلق هو زيد ، قلت المنطلق زيد ، وكذا إذا عرف السامع إنساناً يسمى زيداً بعينه واسمه وهو يعرف معنى جنس المنطلق ، وأردت أن تعرفه أن زيداً متصف به فتقول زيد المنطلق ، وإن أردت أن تعين عنده جنس المنطلق ، قلت المنطلق زيد ، انتهى . فقوله هنا بآخر مثله مرتبط بقوله حكما أى لإفادة السامع حكما على أمر معلوم بأمر آخر ، مثل ذلك الأمر المحكوم عليه فى أنه معلوم للسامع بإحدى طرق التعريف ، وقوله أو لازم حكم كذلك معطوف على حكما أي أو لإفادة السامع لازم حكم على أمر معلوم بإحدى طرق التعريف بأمر آخر مثله ، وفى هذا إشارة إلى أن كون المبتدأ والخبر معلومين لا ينافى كون الكلام مفيداً للسامع فائدة مجهولة ، لأن ما يستفيد السامع من الكلام هو انتساب الخبر إلى المبتدأ ، أو كون المتكلم عالماً به ، والعلم بنفس المبتدأ والخبر لا يوجب العلم بانتساب أحدهما إلى الآخر ، وقوله باعتبار متعلق بمحذوف حال من المنطلق (والثانى) أى اعتبار تعريف الجنس (قد يفيد) وقد لا يفيد القصر كقول الخنساء .

الْجِنْسِ عَلَى شَيْءٍ ، تَحْقِيقاً نَحْوُ : زَيْدٌ الأَمِيرُ ، أَوْمُبَالَغَةً لِكَمَالِهِ فِيهِ ؛ نَحْوُ : عَمْرٌو الشُّجَاعُ ، وَقِيلَ : الإِسْمُ مُتَعَيِّنٌ لِلابْتِدَاءِ لِدِلاَلَتِهِ عَلَى الذَّاتِ وَالصِّفَةُ لِلْخَبَرِيَّةِ لِدِلاَلَتِهَا عَلَى أَمْرٍ نِسْبِيٍّ ؛ وَرُدَّ بِأَنَّ الْمَعْنَى الشَّخْصُ الَّذِي

إِذَا قَبُحَ الْبُكَاءُ عَلَى قَتِيلٍ ٭ رَأَيْتُ بُكَاءَكَ الْحَسَنَ الْجَمِيلاَ

لم ترد أن ما عدا البكاء عليه فليس بحسن ولا جميل ، ولكنها أرادت أن تقره فى جنس ما حسنه الحسن الظاهر الذى لا ينكره أحد ومثله قول الآخر :

أَسُودٌ إِذَا مَا أَبْدَتِ الْحَرْبُ نَابَهَا   وَفِى سَائِرِ الدَّهْرِ الْغُيُوثُ الْمَوَاطِرُ

وقول حسان :

وَإِنَّ سَنَامَ الْمَجْدِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ   بَنُو بِنْتِ مَخْزُومٍ وَوَالِدُكَ الْعَبْدُ

أراد أن يثبت له العبودية ثم يجعله ظاهر الأمر فيها معروفاً بها (نحو زيد الأمير) إذا لم يكن أمير سواه (لكماله فيه) أى لكمال ذلك الجنس فى المقصور عليه أو لكمال المقصور عليه فى الجنس (نحو عمرو الشجاع) أى الكامل فى الشجاعة ، فتخرج الكلام فى صورة توهم أن الشجاعة لم توجد إلا فيه لعدم الاعتداد بشجاعة غيره لقصورها عن رتبة الكمال . « وبعد » فالمقصور قد يكون نفس الجنس مطلقاً ، أى من غير اعتبار تقييده بشىء كما فى الأمثلة المذكورة قبل ، وقد يكون الجنس باعتبار تقييده بظرف أو غيره ، كقولك هو الوفى حين لا تظن نفس بنفس خيراً ، ومثله قول الأعشى :

هُوَ الْوَاهِبُ الْمِائَةَ الْمُصْطَفَاةَ   إِمَّا مَخَاضاً وَإِمَّا عِشَارَا

فإنه قصر عليه هبة المائة من الإبل حال كونها مخاضاً أو عشاراً لا هبة المائة بأى حال كانت ولا الهبة مطلقاً ، سواء كانت هبة الإبل أو غيرها « هذا »

لَهُ الصفةَ صَاحِبُ الاسْمِ . وَأَمَّا كَوْنُهُ جُمْلَةً : فَلِلتَّقَوِّى أَوْ لِكَوْنِهِ سَبَبِيًّا

وقد ذكر الشيخ فى دلائل الإعجاز للخبر المعرف باللام معنى غير ماذكر دقيقاً ، وذلك مثل قولك : هو البطل المحامى ، لاتريد أنه البطل المعهود ولاقصر جنس البطل عليه مبالغة ونحو ذلك ، بل تريد أن تقول لصاحبك هل سمعت بالبطل المحامى ، وهل حصلت معنى هذه الصفة ، وكيف ينبغى أن يكون الرجل حتى يستحق أن يقال ذلك له وفيه ؟ فإن كنت قتلته علماً وتصورته حق تصوره فعليك صاحبك واشدد به يدك فهو ضالتك وعنده بغيتك ، وطريقه كطريق قولك ، هل سمعت بالأسد ، وهل تعرف ماهو ؟ فإن كنت تعرفه فزيد هو هو بعينه . ويزداد هذا المعنى ظهوراً بأن تكون الصفة التى تريد الإخبار بها عن المبتدأ مجراة على موصوف ، وإن أردت أن تسمع فى ذلك ماتسكن للنفس إليه سكون الصادى إلى برد الماء فاسمع قول ابن الرومى :

هُوَ الرَّجُلُ المَشْرُوكُ فى جُلِّ مَالِهِ وَلَكِنَّهُ بالمَجْدِ وَالْحَمْدِ مُفْرَدُ

وليس شىء أغلب على هذا الضرب من الذى ، فإنه يجىء كثيراً على أنك تقدر شيئاً فى وهمك ثم تعبر عنه بالذى ، ومثال ذلك قوله :

أَخُوكَ الَّذِى إِنْ تَدْعُهُ لِمُلِمَّةٍ يُجِبْكَ وَإِنْ تَغْضَبْ إِلَى السَّيْفِ يَغْضَبِ

وقول الآخر :

أَخُوكَ الَّذِى إِنْ رِبْتَهُ قَالَ إِنَّمَا أَرَبْتَ وَإِنْ عَاتَبْتَهُ لَانَ جَانِبُهْ

وهذا فن عجيب الشأن ، وله مكان من الفخامة والنبل ، وهو من سحر البيان الذى تقصر العبارة عن تأدية حقه (وقيل إلى آخره) ذهب الإمام الرازى إلى أن الاسم فى نحو زيد المنطلق والمنطلق زيد ، لما كان دالا على الذات تعين للابتداء تقدم أو تأخر ، والصفة لماكانت دالة على أمر نسبي تعينت

لِما مرّ ، وَاسْمِيَّتها وَفِعْلِيَّتُهَا وَشَرْطِيَّتُهَا لِما مرّ ، وَظَرْفِيَّتُهَا لِاخْتِصَارِ الفِعْلِيَّةِ

للخبرية قدمت أو أخرت ، فأجاب المصنف بأن المنطلق لا يجعل مبتدأ إلا بمعنى الشخص الذى له الانطلاق ، وأنه بهذا المعنى لا يجب أن يكون خبراً ، وزيد لا يجعل خبراً إلا بمعنى صاحب اسم زيد ، وأنه بهذا المعنى لا يجب أن يكون مبتدأ (فللتقوى) أى تقوى الحكم الذى هو ثبوت المسند للمسند إليه أو سلبه ، كزيد قام وما زيد قام (أو لكونه سببياً) نحو زيد أبوه قائم (لما مر) أن أفراده يكون لكونه غير سببى مع عدم إفادة التقوى ، هذا وسبب التقوى فى مثل زيد قام على ما ذكره السكاكى هو أن المبتدأ لكونه مبتدأ يستدعى أن يسند إليه شيء ، فإذا جاء بعده مايصلح أن يسند إلى ذلك المبتدأ ، صرفه ذلك المبتدأ إلى نفسه سواء كان خالياً عن الضمير أو متضمناً له فينعقد بينهما حكم ، ثم إذا كان متضمناً لضميره المعتد به بأن لا يكون مشابهاً للخالى عن الضمير كما فى زيد قائم صرفه ذلك الضمير إلى المبتدأ ثانياً فيكتسى الحكم قوة ، فعلى هذا يختص التقوى بما يكون مسنداً إلى ضمير المبتدأ ويخرج عنه نحو : زيد ضربته ، ويجب أن يجعل سببياً . وأما على ما ذكره عبد القاهر فى دلائل الإعجاز وهو أن الاسم لا يؤتى به معرى عن العوامل إلا لحديث قد نوى إسناده إليه ، فإذا قلت زيد فقد أشعرت قلب السامع بأنك تريد الإخبار عنه ، فهذا توطئة له وتقدمة للإعلام به ، فإذا قلت قام دخل فى قلبه دخول المأنوس وهذا أشد للثبوت وأمنع من الشبهة والشك . وبالجملة ليس الإعلام بالشيء بغتة مثل الإعلام به بعد التنبيه عليه والتقدمة ، فإن ذلك يجرى مجرى تأكيد الإعلام فى التقوى ، فيدخل فيه نحو زيد ضربته وزيد مررت به (لما مر) فتكون اسمية لإفادة الثبوت وفعلية لإفادة التجدد ، قال السكاكى : وما تسمع من تفاوت الجملتين الفعلية والإسمية تجدداً وثبوتاً هو يطلعك على أنه حين ادعى المنافقون الإيمان

إِذْ هِيَ مُقَدَّرَةٌ بِالْفِعْلِ عَلَى الْأَصَحِّ . وَأَمَّا تَأْخِيرُهُ : فَلِأَنَّ ذِكْرَ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ أَهَمُّ كَمَا مَرَّ . وَأَمَّا تَقْدِيمُهُ : فَلِتَخْصِيصِهِ بِالْمُسْنَدِ إِلَيْهِ نَحْوُ : لَا فِيهَا غَوْلٌ ؛ أَيْ بِخِلَافِ خُمُورِ الدُّنْيَا ، وَلِهَذَا لَمْ يُقَدَّمِ الظَّرْفُ فِي نَحْوِ : لَا رَيْبَ فِيهِ ، لِئَلَّا يُفِيدَ ثُبُوتَ الرَّيْبِ فِي سَائِرِ كُتُبِ اللهِ تَعَالَى ، أَوْ لِلتَّنْبِيهِ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ عَلَى أَنَّهُ خَبَرٌ لَا نَعْتٌ كَقَوْلِهِ :

بقولهم آمنا بالله وباليوم الآخر جائين به جملة فعلية ، على معنى أحدثنا الدخول فى الإيمان ، وأعرضنا عن الكفر ليروج ذلك عنهم كيف طبق المفصل فى رد دعواهم الكاذبة قوله تعالى : وماهم بمؤمنين ، حيث جيء به جملة اسمية ومع الباء وعلى تفاوت كلام المنافقين مع المؤمنين ومع شياطينهم فيما يحكيه جل وعلا عنهم وهو : وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم ، تفاوتاً إلى جملة فعلية وهى آمنا ، وإلى اسمية ومع إن وهى إنا معكم ، كيف أصاب شاكلة الرمى ، وعلى أن إبراهيم حين أجاب الملائكة عن قولهم له سلاماً بالنصب بقوله لهم سلام بالرفع ، كيف كان عاملا بالذى يتلى عليك فى القرآن المجيد : وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها . وتكون شرطية للاعتبارات المختلفة الحاصلة من أدوات الشرط (إذ هى إلى آخره) يعنى إنما قلنا إن الظرفية يثبت بها اختصار الفعلية لأن الظرف فى قولنا زيد عندك مقدر بالفعل على الأصح فصار فى تأويل الجملة لا بالاسم حتى يكون الظرف فى تأويل المفرد (فلتخصيصه بالمسند إليه) أى لقصر المسند إليه على المسند (نحو لا فيها غول) مثله قوله عز وعلا : لكم دينكم ولى دين ، وقولك لمن يقول زيد إما قائم وإما قاعد فيردده بين القيام والقعود من غير أن يخصصه بأحدهما قائم هو (أى بخلاف خمور الدنيا) فإنها تغتال العقول (أو للتنبيه إلى آخره) قال السكاكى وإنما يصار إلى هذا التنبيه لأن الظرف

لَهُ هِمَمٌ لاَ مُنْتَهَى لِكِبَارِهَا وَهِمَّتُهُ الصُّغْرَى أَجَلُّ مِنَ الدَّهْرِ

أَوِ التَّفَاؤُلِ ، أَوِ التَّشْوِيقِ إِلَى ذِكْرِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ كَقَوْلِهِ :

ثَلاَثَةٌ تُشْرِقُ الدُّنْيَا بِبَهْجَتِهَا شَمْسُ الضُّحَى وَأَبُو إِسْحَاقَ وَالْقَمَرُ

﴿ تنبيه ﴾ كَثِيرٌ مِمَّا ذُكِرَ فى هذا البابِ وَالَّذِى قَبْلَهُ غيرُ مُخْتَصٍّ بِهِمَا ، كَالذِّكْرِ ، وَالْحَذْفِ وَغيرِهِمَا ؛ وَالْفَطِنُ إِذَا أَتْقَنَ اعْتِبَارَ ذَلِكَ فِيهِمَا لاَ يَخْفَى عَلَيهِ اعْتِبَارُهُ فى غيرِهِمَا .

بتأخره عن المنكر يكون بالحمل على الوصف أولى منه بالحمل على الخبر لأمرين يتعاضدان فى ذلك ، استدعاء المنكر فى مقام الابتداء أن يوصف ليتقوى بذلك فائدة الحكم ، وصلاحية الظرف أن يكون من صفاته ، ولذلك لايجب تقديم الظرف على المنكر إذا كان موصوفاً ، قال الله تعالى : وأجل مسمى عنده ، (كقوله له همم) وقوله تعالى : ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ، وقول الشاعر :

لِكُلٍّ جَدِيدٍ لَذَّةٌ غَيْرَ أَنَّنِي وَجَدْتُ جَدِيدَ الْمَوْتِ غَيْرَ لَذِيذِ

والبيت لحسان بن ثابت فى النبى صلى الله عليه وسلم (أو التفاؤل) نحو :

* سَعِدَتْ بِغُرَّةِ وَجْهِكَ الأَيَّامُ *

(أو التشويق إلى ذكر المسند إليه) قال السكاكى : وحق هذا الاعتبار تطويل الكلام فى المسند وإلا لم يحسن ذلك الحسن (كقوله ثلاثة) وقول الآخر :

وَكَالنَّارِ الْحَيَاةُ فَمِنْ رَمَادٍ أَوَاخِرُهَا وَأَوَّلُهَا دُخَانُ

﴿ أَحْوَالُ مُتَعَلِّقَاتِ الْفِعْلِ ﴾

الْفِعْلُ مَعَ الْمَفْعُولِ كَالْفِعْلِ مَعَ الْفَاعِلِ ، فِي أَنَّ الْغَرَضَ مِنْ ذِكْرِهِ مَعَهُ إِفَادَةُ تَلَبُّسِهِ بِهِ ، لَا إِفَادَةُ وُقُوعِهِ مُطْلَقًا ، فَإِذَا لَمْ يُذْكَرْ مَعَهُ فَالْغَرَضُ إِنْ كَانَ إِثْبَاتَهُ لِفَاعِلِهِ ، أَوْ نَفْيَهُ عَنْهُ مُطْلَقًا ، نُزِّلَ مَنْزِلَةَ اللَّازِمِ ، وَلَمْ يُقَدَّرْ لَهُ مَفْعُولٌ ، لِأَنَّ الْمُقَدَّرَ كَالْمَذْكُورِ ؛ وَهُوَ ضَرْبَانِ : لِأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يُجْعَلَ الْفِعْلُ مُطْلَقًا كِنَايَةً عَنْهُ مُتَعَلِّقًا بِمَفْعُولٍ مَخْصُوصٍ دَلَّتْ عَلَيْهِ قَرِينَةٌ أَوْ لَا ، الثَّانِي كَقَوْلِهِ تعالى : قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ؟

والبيت لمحمد بن وهيب يمدح المعتصم بالله (الفعل مع المفعول كالفعل مع الفاعل) أصل هذا الكلام للشيخ عبد القاهر فى دلائل الإعجاز جعله تمهيداً للكلام على حذف المفعول والعبارة الواضحة أن يقال : إن حال الفعل مع المفعول الذى يتعدى إليه حاله مع الفاعل . فكما أنك إذا أسندت الفعل إلى الفاعل ، كان غرضك أن تفيد وقوعه منه ، لا أن نفيد وجوده فى نفسه فقط ، كذلك إذا عديته إلى المفعول كان غرضك أن تفيد وقوعه عليه ، فقد اجتمع الفاعل والمفعول فى أن عمل الفعل فيهما إنما كان ليعلم التباسه بهما ، فعمل الرفع فى الفاعل ليعلم التباسه به من جهة وقوعه منه ، والنصب فى المفعول ليعلم التباسه به من جهة وقوعه عليه ، أما إذا أريد الإخبار بوقوعه فى نفسه من غير إرادة أن يعلم ممن وقع أو على من وقع فالعبارة عنه أنه يقال كان ضرب أو وقع ضرب أو وجد أو نحو ذلك من ألفاظ تفيد الوجود المجرد . . . وإذ قد عرفت هذا فاعلم أن الفعل المتعدى إذا أسند إلى فاعله ولم يذكر له مفعول ، فإما أن يكون الغرض إثبات المعنى فى نفسه

السَّكاكِيُّ : ثُمَّ إِذَا كَانَ الْمَقَامُ خِطَابِيًّا لاَ اسْتِدْلاَلِيًّا أَفَادَ ذَلِكَ مَعَ التَّعْمِيمِ ، دَفْعاً لِلتَّحَكُّمِ ، وَالأَوَّلُ كَقَوْلِ الْبُحْتُرِيِّ فِي الْمُعْتَزِّ بِاللهِ :

للفاعل من غير اعتبار عمومه وخصوصه ، ولا اعتبار تعلقه بمن وقع عليه . وأما أن لا يكون كذلك ، فإن كان الأول كان المتعدى بمنزلة اللازم فلا يذكر له مفعول ، لأن ذكره ينقض الغرض ، ألا ترى أنك لو قلت هو يعطى الدنانير كان المعنى بيان جنس ماتناوله الإعطاء نفسه ، لابيان كونه معطياً ، ولا يقدر أيضاً لأن المقدر فى حكم المذكور ، وهذا النوع قسمان : قسم هو مثل قوله تعالى : قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون . المعنى : هل يستوى من له علم ومن لاعلم له من غير أن يقصد النص على معلوم ، وقوله تعالى : وأنه هو أغنى وأقنى ، وقوله : وأنه هو أمات وأحيا ، على معنى أنه الذى منه الإغناء والإقناء والإحياء والإماتة . وهنا قال السكاكى : إذا كان المقام خطابياً يكتفى فيه بمجرد الظن لااستدلالياً يطلب فيه اليقين البرهانى ، أفاد ذلك مع العموم فى إفراد الفعل بعلة إيهام أن القصد إلى فرد دون فرد آخر مع تحقق الحقيقة فيهما تحكم ، ثم جعل قولهم فى المبالغة فلان يعطى ويمنع ويصل ويقطع محتملا لذلك ولتعميم المفعول ، وعده الشيخ عبد القاهر مما يفيد أصل المعنى على الإطلاق من غير إشعار بشىء من ذلك . وقسم هو أن تذكر الفعل وفى نفسك له مفعول مخصوص قد علم مكانه ، إما لجرى ذكر ، أو دليل حال ، إلا أنك تنسيه نفسك وتخفيه ، وتوهم إنك لم تذكر ذلك الفعل إلا لأن تثبت نفس معناه من غير أن تعديه إلى شىء ، أو تعرض فيه لمفعول ، وهذا هو ماأراده المصنف بقوله أن يجعل الفعل مطلقاً كناية عنه متعلقاً بمفعول مخصوص دلت عليه قرينة . ومثاله قول البحترى يمدح المعتز بالله ويعرض المستعين بالله :

شَجْوُ حُسَّادِهِ وَغَيْظُ عِدَاهُ * أَنْ يَرَى مُبْصِرٌ وَيَسْمَعَ وَاعٍ

أَيْ أَنْ يكونَ ذُو رُؤْيَةٍ وَذُو سَمْعٍ ، فَيُدْرِكَ مَحَاسِنَهُ وَأَخْبَارَهُ الظَّاهِرَةَ الدَّالَّةَ عَلَى اسْتِحْقَاقِهِ الْإِمَامَةَ دُونَ غَيْرِهِ فَلاَ يَجِدُوا إِلَى مُنَازَعَتِهِ سَبِيلاً ، وَإِلَّا وَجَبَ التَّقْدِيرُ بِحَسَبِ الْقَرَائِنِ . ثُمَّ الْحَذْفُ إِمَّا لِلْبَيَانِ بَعْدَ

شجو حساده وغيظ عداه أن يرى مبصر ويسمع واع

المعنى لا محالة أن يرى مبصر محاسنه ويسمع واع أخباره ، بيد أنه تغافل عن ذلك ، لأنه أراد أن يقول محاسن الممدوح وآثاره لم تخف على من له بصر لكثرتها واشتهارها ، ويكفى فى معرفة أنها سبب لاستحقاقه الإمامة دون غيره ، أن يقع عليها بصر ويعيها سمع لظهور دلالتها على ذلك لكل أحد ، فحساده وأعداؤه يتمنون أن لا يكون فى الدنيا من له عين يبصر بها وأذن يسمع بها كى يخفى استحقاقه للإمامة ، فيجدوا بذلك سبيلا إلى منازعته إياها ، ومن هذا قول طفيل الغنوى لبنى جعفر بن كلاب :

جَزَى اللهُ عَنَّا جَعْفَرًا حِينَ أَزْلَقَتْ بِنَا نَعْلُنَا فى الْوَاطِئِينَ فَزَلَّتِ
أَبَوْا أَنْ يَمَلُّونَا وَلَوْ أَنَّ أُمَّنَا تُلَاقِى الَّذِى لاَقَوْهُ مِنَّا لَمَلَّتِ
هُمُ خَلَطُونَا بِالنُّفُوسِ وَأَلْجَئُوا إِلَى حُجُرَاتٍ أَدْفَأَتْ وَأَظَلَّتِ

فقد حذف المفعول فى أربعة مواضع ، لأن الأصل لملتنا وألجؤنا وأدفأتنا وأظلتنا ، إلا أنه كالمتناسى حتى كأن لا قصد إلى مفعول وكأن الفعل أبهم أمره فلم يقصد به شىء يقع عليه ، وإن كان الثانى وهو أن يكون الغرض إفادة تعلقه بمفعول وجب تقديره بحسب القرائن ، ثم حذفه من اللفظ إما للبيان بعد الإبهام كما فى فعل المشيئة إذا لم يكن فى تعلقه بمفعوله غرابة ، كقولك لو شئت جئت أو لم أجىء . أى لو شئت المجىء أو عدم المجىء . فإنك متى قلت لو

الْإِبْهَامِ كَمَا فِى فِعْلِ الْمَشِيئَةِ ، مَا لَمْ يَكُنْ تَعَلُّقُهُ بِهِ غَرِيباً ، نَحْوُ : فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ، بِخِلَافِ نَحْوِ : * وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي دَماً لَبَكَيْتُهُ * وَأَمَّا قَوْلُهُ :

شئت علم السامع أنك علقت المشيئة بشيء فيقع فى نفسه أن هناك شيئاً تعلقت به مشيئتك بأن يكون أولا يكون ، فإذا قلت جئت أو لم أجى عرف ، ذلك الشيء ، ومنه قوله تعالى : فلو شاء لهداكم أجمعين ، وقوله تعالى : من يشأ الله يضلله ، وقول طرفة :

فَإِنْ شِئْتُ لَمْ تُرْقِلْ وَإِنْ شِئْتُ أَرْقَلَتْ
مَخَافَةَ مَلْوِيٍّ مِنَ الْقِدِّ مُحْصَدِ(١)

وقول البحترى :

لَوْ شِئْتَ عُدْتَ بِلَادَ نَجْدٍ عَوْدَةً ... فَحَلَلْتَ بَيْنَ عَقِيقِهِ وَزَرُودِهِ

وقوله أيضاً :

لَوْ شِئْتَ لَمْ تُفْسِدْ سَمَاحَةَ حَاتِمٍ ... كَرَماً وَلَمْ تَهْدِمْ مَآثِرَ خَالِدِ

فإن كان فى تعلق الفعل به غرابة ، ذكرت المفعول لتقرره فى نفس السامع وتؤنسه به ، يقول الرجل يخبر عن عزه لو شئت أن أرد على الأمير رددت ، وإن شئت أن ألقى الخليفة كل يوم لقيته ، وعليه قول الخزيمى يرثى أبا الهيذام :

وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي دَماً لَبَكَيْتُهُ ... عَلَيْهِ وَلَكِنْ سَاحَةُ الصَّبْرِ أَوْسَعُ

---

(١) الإرقال : سرعة السير ، وناقة مرقال ومرقلة : سريعة ، والقد : السوط من الجلد ، والمحصد : كالملوى المفتول .

وَلَمْ يُبْقِ مِنِّى الشَّوْقُ غَيْرَ تَفَكُّرِى   فَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِى بَكَيْتُ تَفَكُّرَا

فَلَيْسَ مِنْهُ ، لِأَنَّ الْمُرَادَ بِالأَوَّلِ الْبُكاءُ الْحَقِيقِىُّ ، وَ إِمَّا لِدَفْعِ تَوَهُّمِ إِرَادَةِ غَيْرِ الْمُرَادِ ابْتِدَاءً كَقَوْلِهِ :

وَكَمْ ذُدْتَ عَنِّى مِنْ تَحَامُلِ حَادِثٍ   وَسَوْرَةِ أَيَّامٍ حَزَزْنَ إِلَى الْعَظْمِ

إِذْ لَوْ ذُكِرَ اللَّحْمُ لَرُبَّمَا تُوُهِّمَ قَبْلَ ذِكْرِ مَا بَعْدَهُ أَنَّ الْحَزَّ لَمْ يَنْتَهِ

فلما كان أن يشاء الإنسان أن يبكى دماً بدعاً عجيباً ، صرح بذكره ليقرره فى نفس السامع ويؤنسه ، فأما قول أبى الحسين على بن أحمد الجوهرى أحد شعراء الصاحب بن عباد :

ولم يبق منى الشوق غير تفكرى   فلو شئت أن أبكى بكيت تفكرا

فليس منه لأنه لم يرد أن يقول فلو شئت أن أبكى تفكراً بكيت تفكراً ، ولكنه أراد أن يقول أفنانى النحول فلم يبق منى وفى غير خواطر تجول ، حتى لو شئت البكاء فريت جفونى وعصرت عينى ليسيل منها دمع لم أجده ويخرج بدل الدمع التفكر . فالمراد بالبكاء فى الأول الحقيقى ، وفى الثانى غير الحقيقى ، فالثانى لايصلح لأن يكون تفسيراً للأول ، وإما لدفع أن يتوهم السامع فى أول الأمر إرادة شىء غير المراد . كقول البحترى فى قصيدته التى أولها :

« أعن سفه يوم الأبيرق أم حلم »

وهو يذكر محاماة الممدوح عليه وصيانته له ، ودفعه نوائب الزمان عنه

وكم ذدت عنى من تحامل حادث   وسورة أيام حززن إلى العظم

إذ لو قال حززن اللحم لجاز أن يتوهم السامع قبل ذكر ما بعده أن الحز كان فى بعض اللحم ولم ينته إلى العظم ، فترك ذكر اللحم ليبرىء السامع من هذا الوهم ويجعله بحيث يقع المعنى منه فى أنف الفهم ويصور فى نفسه من أول

إِلَى الْعِظَمِ . وَإِمَّا لِأَنَّهُ أُرِيدَ ذِكْرُهُ ثَانِياً عَلَى وَجْهٍ يَتَضَمَّنُ إِيقَاعَ الْفِعْلِ عَلَى صَرِيحِ لَفْظِهِ ، إِظْهَارًا لِكَمَالِ الْعِنَايَةِ بِوُقُوعِهِ عَلَيْهِ كَقَوْلِهِ :

قَدْ طَلَبْنَا فَلَمْ نَجِدْ لَكَ فِي السُّؤْ ✲ دَدِ وَالْمَجْدِ وَالْمَكَارِمِ مِثْلَا

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ السَّبَبُ تَرْكَ مُوَاجَهَةِ الْمَمْدُوحِ بِطَلَبِ مِثْلٍ لَهُ ؛ وَإِمَّا التَّعْمِيمِ مَعَ الِاخْتِصَارِ كَقَوْلِكَ : قَدْ كَانَ مِنْكَ مَا يُؤْلِمُ ، أَيْ كُلَّ أَحَدٍ ، وَعَلَيْهِ : وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ . وَإِمَّا لِمُجَرَّدِ الِاخْتِصَارِ عِنْدَ قِيَامِ

الأمر أن الحز مضى فى اللحم حتى لم يرده إلا العظم ، وإما لأنه أريد ذكره ثانياً على وجه يتضمن إيقاع الفعل على صريح لفظه ، إظهاراً لكمال العناية بوقوعه عليه ، كقول البحترى أيضاً :

قد طلبنا فلم نجد لك فى السؤ ✲ دد والمجد والمكارم مثلا

المعنى قد طلبنا لك مثلا ثم حذف المثل ، إذ كان غرضه أن يوقع نفى الوجود على صريح لفظ المثل ، ولأجل هذا المعنى بعينه عكس ذوالرمة فى قوله :

وَلَمْ أَمْدَحْ لِأُرْضِيَهُ بِشِعْرِي ✲ لَئِيماً أَنْ يَكُونَ أَصَابَ مَالاَ

فإنه أعمل الفعل الأول الذى هو أمدح فى صريح لفظ اللئيم ، والثانى الذى هو أرضى فى ضميره ، إذ كان غرضه إيقاع نفى المدح على اللئيم صريحاً دون الإرضاء ، ويجوز أن يكون سبب الحذف فى بيت البحترى قصد المبالغة فى التأديب مع الممدوح بترك مواجهته بالتصريح بما يدل على تجويز أن يكون له مثل ، فإن العاقل لا يطلب إلا ما يجوز وجوده .

قرينةٍ ، نحوُ : أَصغيتُ إليهِ ، أي أُذُني ، وعليهِ : أَرِني أَنظرْ إليكَ ، أي ذاتكَ ، وإمّا للرِّعايةِ على الفاصلةِ ، نحوُ : ما ودَّعكَ ربُّكَ وما قَلى ، وإمّا لاستهجانِ ذِكرِهِ ، كقولِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها . ما رأيتُ منهُ ولا رأى منّي ، أي العورةَ ، إمّا لنكتةٍ أُخرى . وتقديمُ مفعولِهِ ونحوِهِ عليهِ ، لِرَدِّ الخطإِ في التَّعيينِ ، كقولِكَ : زيدًا عرفتُ ، لِمَنِ اعتقدَ أنَّكَ عرفتَ إنسانًا ، وأنَّهُ غيرُ زيدٍ ، وتقولُ لتأكيدِهِ لا غيرَهُ . ولذلكَ لا يُقالُ : ما زيدًا

وقد بين المصنف بقية أسباب الحذف بقوله وإما للتعميم إلى آخره (نحو ماودعك ربك وما قلى) أي ما قلاك . وقال صاحب الكشاف : حذف المفعول في مثل هذا اختصار لفظي للعلم به . وقال بعضهم : إن الحذف هنا لترك مواجهته عليه السلام بإيقاع لفظ القلى على ضميره ولو كان منفياً ولم يفعل ذلك في ودع لأن لفظ ودع ليس كلفظ قلى (وإما لنكتة أخرى) كالتمكن من إنكاره إن مست الحاجة إليه أو تعينه أو ادعاء تعينه أو نحو ذلك ، قال الله جل شأنه : لينذر بأساً شديداً ،أى لينذر الذين كفروا فحذف لتعينه ، ولأن الغرض هو ذكر المنذر به (ونحوه) من الجار والظرف والحال وغيرها من سائر المعمولات (عليه) أى على الفعل (لرد الخطأ فى التعيين) أى لرد المتكلم خطأ المخاطب فى ظنه وقوع الفعل على مفعول معين . وقد يكون لرد الخطأ فى ظن الاشتراك فى المفعول ، فتقول زيداً عرفت ، لمن اعتقد أنك عرفت زيداً وعمراً (ولهذا لا يقال ما زيداً ضربت ولا غيره) لمناقضة دلالة الأول والثانى . وهذا كما هو ظاهر عند إرادتك أن ترد على المخاطب فى اعتقاده وقوع الضرب منك على زيد ، أما إذا لم ترد ذلك فإنه يجوز لك أن تقول : ما زيداً ضربت ولا غيره .

ضَرَبْتُ وَلاَ غَيْرَهُ ، وَلاَ مَازَيْدًا ضَرَبْتُ وَلَـكِنْ أَ كْرَمْتُهُ ، وَأَمَّا نَحْوُ زَيْدًا عَرَفْتُهُ فَتَأْكِيدٌ ، إِنْ قُدِّرَ الْمُفَسَّرُ قَبْلَ الْمَنْصُوبِ ، وَ إِلَّا فَتَخْصِيصٌ . وَأَمَّا نَحْوُ : وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ، فَلاَ يُفِيدُ إِلَّا التَّخْصِيصَ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُكَ بِزَيْدٍ

(ولا مازيداً ضربت ولكن أكرمته) لأن مبنى الكلام ليس على أن الخطأ واقع فى الفعل بأنه الضرب فترده إلى الصواب بأنه الإكرام وإنما هو على أن الخطأ فى المضروب حين اعتقد أنه زيد فرده إلى الصواب أن تقول ولكن عمراً (إن قدر المفسر قبل المضروب) فكان الأصل عرفت زيداً عرفته (وإلا) أى وإن لم يقدر المفسر قبل المنصوب بل قدر بعده فكان الأصل زيداً عرفت عرفته (فتخصيص) لأن المقدر كالمذكور فكما أن تقديم المفعول على الفعل المذكور يفيد الاختصاص كذلك تقديمه على المقدر . « وبعد » فقد علمت أن نحو زيداً عرفته يحتمل التخصيص ومجرد التأكيد والقرينة هى المعول عليها فى إفادة أحدهما ، وإذا دلت على التخصيص كان فى هذا التركيب أبلغ منه فى نحو : زيداً عرفت . لما فيه من التكرير المفيد للتأكيد . ومعلوم أن ليس التخصيص إلا تأكيداً على تأكيد ، فيتقوى بازدياد التأكيد لامحالة . ومن هنا قال صاحب الكشاف فى قوله جل شأنه : وإياى فارهبون ، أنه من باب زيداً رهبته وهو أوكد فى إفادة الاختصاص من إياك نعبد (فلا يفيد إلا التخصيص) لامتناع تقدير ، أما فهدينا ثمود لالتزامهم وجود فاصل بين أما والفاء . « وبعد » فالظاهر أن مثل هذا التقديم ليس للتخصيص لأنه ليس الغرض إنا هدينا ثمود دون غيرهم رداً على من زعم الاشتراك أو انفراد الغير بالهداية ، وإنما الغرض إثبات أصل الهداية لهم ثم الإخبار عن سوء صنيعهم (وكذلك قولك بزيد مررت) فإنه يفيد أن سامعك كان يعتقد مرورك

مَرَرْتُ . وَالتَّخْصِيصُ لاَزِمٌ لِلتَّقْدِيمِ غالبًا وَلِهذا يُقالُ في : إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ، مَعْنَاهُ نَخُصُّكَ بِالْعِبادَةِ وَالاسْتِعانَةِ ، وَفي : لَا إِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ ، مَعْنَاهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ لاَ إِلَى غَيْرِهِ : وَيُفِيدُ فِي الْجَمِيعِ وَرَاءَ التَّخْصِيصِ اهْتِمامًا

بغير زيد فأزلت عنه الخطأ مخصصاً مرورك بزيد دون غيره (غالباً) يريد أن التقديم قد لا يكون للاختصاص بأن يكون لمراعاة نظم الكلام مثلا وذلك أن يكون نظمه لا يحسن إلا بالتقديم مثل قوله جل وعلا : خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه ، وقوله جل شأنه : وإن عليكم لحافظين . إلى ربها ناظرة . فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث . إلى غير ذلك من المواضع التي لا يحسن فيها اعتبار التخصيص لنبو المقام عنه ، كما نبه على ذلك صاحب المثل السائر (ويفيد في الجميع وراء التخصيص اهتماماً بالمقدم) قال صاحب الكتاب وهو يذكر الفاعل والمفعول : — كأنهم يقدمون الذي شأنهم أهم وهم ببيانه أعنى » وبعد « فقد قال الشيخ الإمام في دلائل الإعجاز : اعلم أنا لم نجدهم اعتمدوا في التقديم شيئاً يجري مجرى الأصل غير العناية والاهتمام ، لكن ينبغي أن يفسر وجه العناية بشيء ويعرف له معنى ، وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال إنه قدم للعناية ، ولأن ذكره أهم من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية ولم كان أهم ، ومن الخطأ أيضاً أن يجعل التقديم مفيداً في كلام فائدة وغير مفيد في آخر ، وأن يعلل تارة بالعناية ، وأخرى بأنه توسعة على الشاعر والكاتب ، حتى تطرد لهذا قوافيه ، ولذاك سجعه ، ذاك لأن من البعيد أن يكون في جملة

بالمُقَدَّمِ ، وَلِهذَا يُقَدَّرُ فِي بِسْمِ اللهِ مُؤَخَّرًا ، وَأُورِدَ : اقْرَأْ بِسْمِ رَبِّكَ وَأُجِيبَ بِأَنَّ الأَهَمَّ فِيهِ الْقِرَاءَةُ ، وَبِأَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِاقْرَأْ الثَّانِي ، وَمَعْنَى الأَوَّلِ أَوْجِدِ الْقِرَاءَةَ . وَتَقْدِيمُ بَعْضِ مَعْمُولَاتِهِ عَلَى بَعْضٍ لِأَنَّ أَصْلَهُ التَّقْدِيمُ وَلَا مُقْتَضِيَ لِلْعُدُولِ عَنْهُ ، كَالْفَاعِلِ فِي نَحْوِ : ضَرَبَ زَيْدٌ عَمْرًا ، وَالْمَفْعولِ الأَوَّلِ فِي نَحْوِ : أَعْطَيْتُ زَيْدًا دِرْهَمًا ، أَوْ لِأَنَّ ذِكْرَهُ أَهَمُّ كَقَوْلِكَ :

النظم مايدل تارة ولا يدل أخرى (ولهذا يقدر فى بسم الله مؤخراً) ليفيد مع الاختصاص الاهتمام ، لأن المشركين كانوا يبدؤن بأسماء آلهتهم فقصد الموحد تخصيص اسم الله بالابتداء للاهتمام والرد عليهم (وأورد اقرأ باسم) فإن الفعل فيه مقدم (وأجيب بأن الأهم فيه القراءة) لأنها أول سورة نزلت ، فكان الأمر بالقراءة أهم من الأمر باختصاص القراءة باسم الله ، إذ لا يناسب المقام وأصل هذا لصاحب الكشاف . (وبأنه إلى آخره) هذا ما أجاب به السكاكى وإليك عبارته . الوجه عندى أن يحمل اقرأ على معنى افعل القراءة وأوجدها ، على نحو ماتقدم فى قولهم فلا يعطى ويمنع فى أحد الوجهين غير معدى إلى مقروء به ، وأن يكون باسم ربك مفعول إقرأ الذى بعده . ولا يذهب عليك أن ماارتآه الزمخشرى هو بالبلاغة ألصق وبنظم القرآن أليق (أو لأن ذكره أهم) قال فى الإيضاح : فيقدم المفعول على الفاعل إذا كان الغرض معرفة وقوع الفعل على من وقع عليه لا وقوعه ممن وقع منه كما إذا خرج رجل على السلطان وعاث فى البلاد وكثر منه الأذى والقتل ، وأردت أن تخبر بقتله فتقول قتل الخارجى فلان بتقديم الخارجى ، إذ ليس للناس فائدة فى أن يعرفوا قاتله ، وإنما الذى يريدون علمه هو وقوع القتل به ليخلصوا من شره . ويقدم الفاعل على المفعول إذا كان الغرض معرفة وقوع الفعل ممن

قَتَلَ الخَارِجِيَّ فُلَانٌ ، أوْ لِأنَّ فِي التَّأخِيرِ إخْلَالاً بِبَيَانِ المَعْنَى ، نَحْوُ : وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إيمَانَهُ ، فَإِنَّهُ لَوْ أُخِّرَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ عَنْ قَوْلِهِ يَكْتُمُ إيمَانَهُ لَتُوُهِّمَ أنَّهُ مِنْ صِلَةِ يَكْتُمُ ، فَلَمْ يُفْهَمْ أنَّهُ مِنْهُمْ ، أوْ بِالتَّنَاسُبِ كَرِعَايَةِ الفَاصِلَةِ نَحْوُ : فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى .

وقع منه لا وقوعه بمن وقع عليه ، كما إذا كان رجل ليس له بأس ولا يقدر فيه أن يقتل فقتل رجلا وأردت أن تخبر بذلك فتقول قتل فلان رجلا بتقديم القاتل ، لأن الذي يعني الناس من شأن هذا القتل ندوره وبعده من الظن ، ومعلوم أنه لم يكن نادراً ولا بعيداً من حيث كان واقعاً على من وقع عليه ، بل من حيث كان واقعاً ممن وقع منه ، وعليه قوله تعالى : ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، وقوله جل شأنه : ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم . قدم المخاطبين فى الأولى دون الثانية لأن الخطاب فى الأول للفقراء بدليل قوله تعالى : من إملاق ، فكان رزقهم أهم عندهم من رزق أولادهم ، فقدم الوعد برزقهم على الوعد برزق أولادهم ، والخطاب فى الثانية للأغنياء بدليل قوله خشية إملاق ، فإن الخشية إنما تكون مما لم يقع فكان رزق أولادهم هو المطلوب دون رزقهم ، لأنه حاصل فكان أهم ، فقدم الوعد برزق أولادهم على الوعد برزقهم (أو بالتناسب) أى أو لأن فى التأخير إخلالا بالتناسب (نحو فأوجس) الآية ، فقدم خيفة على موسى مع أنه فاعل لرعاية مابعده وما قبله من الفواصل المختومة بالألف إذ لو أخر خيفة لفات ذلك

﴿ القَصْرُ ﴾

الْقَصْرُ حَقِيقِيٌّ، وَغَيْرُ حَقِيقِيٍّ ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا نَوْعَانِ : قَصْرُ الْمَوْصُوفِ عَلَى الصِّفَةِ ، وَقَصْرُ الصِّفَةِ عَلَى الْمَوْصُوفِ ؛ وَالْمُرَادُ الْمَعْنَوِيَّةُ لاَ النَّعْتُ ؛ وَالْأَوَّلُ مِنَ الْحَقِيقِيِّ نَحْوُ : مَازَيْدٌ إِلَّا كَاتِبٌ إِذَا أُرِيدَ أَنَّهُ لاَ يَتَّصِفُ بِغَيْرِهَا وَهُوَ لاَ يَكَادُ يُوجَدُ لِتَعَذُّرِ الْإِحَاطَةِ بِصِفَاتِ الشَّيْءِ ، وَالثَّانِي كَثِيرٌ نَحْوُ : مَا فِي الدَّارِ إِلَّا زَيْدٌ ، وَقَدْ يُقْصَدُ بِهِ الْمُبَالَغَةُ ، لِعَدَمِ الِاعْتِدَاءِ بِغَيْرِ الْمَذْكُورِ ، وَالْأَوَّلُ مِنْ غَيْرِ الْحَقِيقِيِّ تَخْصِيصُ أَمْرٍ بِصِفَةٍ دُونَ أُخْرَى أَوْ مَكَانَهَا ، وَالثَّانِي تَخْصِيصُ صِفَةٍ بِأَمْرٍ دُونَ آخَرَ أَوْ مَكَانَهُ ؛ فَكُلٌّ مِنْهُمَا

(القصر) فى اصطلاح البيانيين تخصيص شىء بشىء بطريق معهود (حقيق) بأن يكون تخصيص الشىء بالشىء بحسب الحقيقة وفى نفس الأمر بأن لا يتجاوزه أصلا (وغير حقيقى) وهو الإضافى بأن يكون بحسب الإضافة والنسبة إلى شىء آخر (والمراد المعنوية) يقول : إن الصفة هنا يراد بها المعنى القائم بالذات لا النعت النحوى وهو التابع الذى يدل على معنى فى متبوعه غير الشمول (بغيرها) أى بغير الكتابة (لتعذر الإحاطة بصفات الشىء) وإذن فلا يمكن إثبات شىء منها ونفى ماعداه (وقد يقصد به المبالغه) كما يقصد بقولنا ما فى الدار إلا زيد ، أن جميع من فى الدار ممن عدا زيداً فى حكم المعدوم (فكل منهما) أى كل قسم من قسمى الإضافى وهما قصر الموصوف على الصفة وقصر الصفة

ضَرْبَانِ ، وَالْمُخَاطَبُ بِالأَوَّلِ مِنْ ضَرْبَيْ كُلٍّ مَنْ يَعْتَقِدُ الشَّرِكَةَ وَيُسَمَّى قَصْرَ إِفْرَادٍ لِقَطْعِ الشَّرِكَةِ ، وَبِالثَّانِي مَنْ يَعْتَقِدُ الْعَكْسَ وَيُسَمَّى قَصْرَ قَلْبٍ ، لِقَلْبِ حُكْمِ الْمُخَاطَبِ ، أَوْ تَسَاوَيَا عِنْدَهُ وَيُسَمَّى قَصْرَ تَعْيِينٍ

على الموصوف (ضربان) الأول تخصيص أمر بصفة دون أخرى وتخصيص صفة بأمر دون آخر والثانى تخصيص أمر بصفة مكان أخرى وتخصيص صفة بأمر مكان آخر (من يعتقد الشركة) أى اتصاف ذلك الأمر بتلك الصفة وغيرها جميعاً فى الأول واتصاف ذلك الأمر وغيره جميعاً بتلك الصفة فى الثانى فالمخاطب بقولنا مازيد إلا كاتب من يعتقد أن زيداً كاتب وشاعر وبقولنا ما شاعر إلا زيد من يعتقد أن زيداً شاعر لكن يدعى أن عمراً أيضاً شاعر (من يعتقد العكس) أى عكس الحكم الذى أثبته المتكلم فالمخاطب بقولنا مازيد إلا قائم من اعتقد اتصافه بالقعود دون القيام . وبقولنا ماشاعر إلا زيد من اعتقد أن الشاعر عمرو لا زيد (أو تساويا عنده) هو معطوف على قوله يعتقد العكس يقول : إن المخاطب بالثانى إما من يعتقد العكس أو من تساوى عنده الأمران أى اتصاف ذلك الأمر بتلك الصفة ، واتصافه بغيرها فى الأمر واتصافه بها واتصاف غيره بها فى الثانى ، فالمخاطب بقولنا ما زيد إلا قائم من يعتقد اتصافه بالقيام أو القعود من غير علم بالتعيين ، وبقولنا ما شاعر إلا زيد من يعتقد أن الشاعر زيد أو عمرو من غير أن يعلمه على التعيين . . والحاصل ، أن تخصيص شيء بشيء دون آخر قصر إفراد وتخصيص شيء بشيء مكان آخر إن اعتقد المخاطب فيه العكس قصر قلب ، وإن تساويا عنده قصر تعيين ، والذى تشعر به عبارة السكاكى أن القسمة ثنائية وأن ما جعله المصنف قسما ثالثاً وسماه قصر تعيين منظوم فى سلك قصر الإفراد ، ونوع منه وهاك عبارته : حاصل معنى

وَشَرْطُ قَصْرِ الْمَوْصُوفِ عَلَى الصِّفَةِ إِفْرَادًا عَدَمُ تَنَافِي الْوَصْفَيْنِ ، وَقَلْبًا تَحَقُّقُ تَنَافِيهِمَا ، وَقَصْرُ التَّعْيِينِ أَعَمُّ ؛ وَلِلْقَصْرِ طُرُقٌ : مِنْهَا الْعَطْفُ ، كَقَوْلِكَ فِي قَصْرِهِ إِفْرَادًا : زَيْدٌ شَاعِرٌ لَا كَاتِبٌ ، أَوْ مَا زَيْدٌ كَاتِبًا بَلْ شَاعِرٌ ، وَقَلْبًا : زَيْدٌ قَائِمٌ لَا قَاعِدٌ ، وَمَا زَيْدٌ قَاعِدًا بَلْ قَائِمٌ ، وَفِي قَصْرِهَا : زَيْدٌ شَاعِرٌ لَا عَمْرٌو ، أَوْ مَا عَمْرٌو شَاعِرًا بَلْ زَيْدٌ . وَمِنْهَا النَّفْيُ وَالِاسْتِثْنَاءُ ، كَقَوْلِكَ

القصر راجع إلى تخصيص الموصوف عند السامع بوصف دون ثان كقولك زيد شاعر لا منجم لمن يعتقده شاعراً ومنجماً ، أو قولك زيد قائم لا قاعد لمن يتوهم زيداً على أحد الوصفين من غير ترجيح ويسمى هذا قصر إفراد أو بوصف مكان آخر كقولك لمن يعتقد زيداً منجماً لا شاعراً مازيد منجم بل شاعر ، أو زيد شاعر لا منجم ويسمى هذا قصر قلب ، أو إلى تخصيص الوصف بموصوف قصر إفراد أو قصر قلب والمثل ظاهره وهو كلام متين وتقسيم قريب (عدم تنافي الوصفين) ليتصور اعتقاد المخاطب اجتماعهما ، فتكون المنفية في قولنا مازيد شاعر كونه كاتباً أو منجماً أو نحو ذلك لا كونه مفحماً لا يقول الشعر (وقلباً تحقق تنافيهما) ليكون إثبات الصفة مشعراً بانتفاء غيرها فتكون المنفية في قولنا : مازيد إلا قائم كونه قاعداً أو جالساً أو نحو ذلك لا كونه أسود أو أبيض (وقصر التعيين أعم) وإذن فكل مايصلح أن يكون مثالا لقصر الإفراد أو قصر القلب يصلح أن يكون مثالا لقصر التعيين من غير عكس . « وبعد » فقد أهمل السكاكي القصر الحقيقي وأدخل قصر التعيين في قصر الأفراد كما علمت ، فلم يشترط في قصر الموصوف إفراداً عدم تنافي الصفتين ، ولا في قصره قلباً تحقق تنافيهما وحبذا صنيعه ، وكان أمس بالمصنف أن يحذو حذوه في ذلك كما لا يخفى على طبع الذكي وقلب الفطن (كقولك في قصره

فى قَصْرِهِ : مَا زَيْدٌ إِلَّا شَاعِرٌ ، وَمَا زَيْدٌ إِلَّا قَائِمٌ ، وَفِى قَصْرِهَا : مَاشَاعِرٌ إِلَّا زَيْدٌ ؛ وَمِنْهَا إِنَّمَا كَقَوْلِكَ فى قَصْرِهِ : إِنَّمَا زَيْدٌ كَاتِبٌ وَإِنَّمَا زَيْدٌ قَائِمٌ ، وَفِى قَصْرِهَا : إِنَّمَاقَائِمٌ زَيْدٌ ، بِتَضَمُّنِهَا مَعْنَى مَا وَ إِلَّا ، لِقَوْلِ الْمُفَسِّرِينَ : إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ ، بِالنَّصْبِ ، مَعْنَاهُ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا الْمَيْتَةَ وَهُوَ الْمُطَابِقُ

مازيد إلا شاعر إلى آخره) قال السكاكى : وتحقيق وجه القصر فى الأول أنه متى قيل مازيد توجه النفى إلى صفته لاذاته ، لأن أنفس الذوات يمتنع نفيها وإنما تنفى صفاتها كما بين ذلك فى غير هذا العلم وحيث لانزاع فى طوله وقصره وما شاكل ذلك وإنما النزاع فى كونه شاعراً أو كاتباً تناولهما النفى . فإذا قيل إلا شاعر جاء القصر ، وفى الثانى أنه متى قيل ماشاعر فأدخل النفى على الوصف المسلم ثبوته ، أعنى الشعر الغير من الكلام فيهما كزيد وعمرو مثلا توجه النفى إليهما ، فإذا قيل إلا زيد جاء القصر (لتضمنها معنى ما وإلا) يقول : إن السبب فى إفادة إنما معنى القصر هو تضمنها معنى ما وإلا . والدليل على ذلك ثلاثة أوجه : أولها قول المفسرين فى قوله تعالى : إنما حرم عليكم الميتة ، بنصب الميتة إن المعنى ماحرم عليكم إلا الميتة ، وهذا المعنى هو المطابق لقراءة رفع الميتة المقتضية لانحصار التحريم على الميتة ، بسبب أن مافى قراءة الرفع يكون موصولا صلته حرم عليكم واقعاً اسماً لإن ويكون المعنى إن المحرم عليكم الميتة وقد سبق أن المنطلق زيد وزيد المنطلق ، كلاهما يقتضى انحصار الانطلاق على زيد ؛ الثانى أنك ترى أئمة النحو يقولون إنما تأتى إثباتاً لما يذكر بعدها ونفياً لماسواه ، الثالث صحة انفصال الضمير معها كقولك إنمايضرب أنامثله فى مايضرب إلا أنا . قال الفرزدق : أنا الزائد . . . البيت ، كما قال عمرو بن معد يكرب

لِقِرَاءَةِ الرَّفْعِ ، لِمَا مَرَّ ، وَلِقَوْلِ النُّحَاةِ : إِنَّمَا لِإِثْبَاتِ مَا يُذْكَرُ بَعْدَهَا ، وَنَفْيِ مَا سِوَاهُ ، وَلِصِحَّةِ انْفِصَالِ الضَّمِيرِ مَعَهَا ، قَالَ الْفَرَزْدَقُ :

أَنَا الذَّائِدُ الْحَامِي الذِّمَارَ وَإِنَّمَا ٭ يُدَافِعُ عَنْ أَحْسَابِهِمْ أَنَا أَوْ مِثْلِي

وَمِنْهَا التَّقْدِيمُ ، كَقَوْلِكَ فِي قَصْرِهِ : تَمِيمِيٌّ أَنَا ، وَفِي قَصْرِهَا : أَنَا كَفَيْتُ

قَدْ عَلِمَتْ سَلْمَى وَجَارَاتُهَا ٭ مَا قَطَّرَ الْفَارِسَ إِلَّا أَنَا

قال الشيخ عبد القاهر : اعلم أن الذى صنعه الفرزدق شىء لو لم يصنعه لم يصح له المعنى ، ذاك لأن غرضه أن يخص المدافع لا المدافع عنه ، وأنه يزعم أن المدافعة منه تكون عن أحسابهم لا عن أحساب غيرهم كما يكون إذا قال وما أدافع إلا عن أحسابهم ، وليس ذلك معناه ، إنما معناه أن يزعم أن المدافع هو لا غيره ، قال : ولا يجوز أن ننسب فيه إلى الضرورة فيجعل مثلا نظير قول الآخر :

٭ كَأَنَّا يَوْمَ قُرَّى إِنَّمَا نَقْتُلُ إِيَّانَا ٭

لأنه ليس به ضرورة إلى ذلك من حيث أن أدافع ويدافع واحد فى الوزن . هذا ، وقد نقل فى تضمنها معنى ما وإلا مناسبة عن على بن عيسى الربعى وهى أنه لما كانت كلمة إن لتأكيد إثبات المسند للمسند إليه ثم اتصلت بها ما المؤكدة لا النافية كما يظنه من لا وقوف له على علم النحو . ناسب أن تضمن معنى القصر ، لأن القصر ليس إلا تأكيداً على تأكيد ، فإن قولك زيد جاء لا عمرو لمن يردد المجىء الواقع بينهما يفيد إثباته لزيد فى الابتداء صريحاً وفى الآخر ضمناً (أنا كفيت مهمك) بمعنى وحدى إذا كنت تخاطب به من يعتقد أنك وغيرك كفيتما مهمه ، وبمعنى لا غيرى إذا كان المخاطب يعتقد

مُهِمَّكَ وَهَذِهِ الطُّرُقُ تَخْتَلِفُ مِنْ وُجُوهٍ فَدَلَالَةُ الرَّابِعِ بِالْفَحْوَى ، وَالْبَاقِيَةِ بِالْوَضْعِ وَالْأَصْلُ فِى الْأَوَّلِ النَّصُّ عَلَى الْمُثْبَتِ وَالْمَنْفِىِّ كَمَا مَرَّ ، فَلَا يُتْرَكُ إِلَّا كَرَاهَةَ الْإِطْنَابِ ، كَمَا إِذَا قِيلَ : زَيْدٌ يَعْلَمُ النَّحْوَ وَالتَّصْرِيفَ وَالْعَرُوضَ ، أَوْ زَيْدٌ يَعْلَمُ النَّحْوَ وَعَمْرٌو وَبَكْرٌ ، فَتَقُولُ فِيهِمَا زَيْدٌ يَعْلَمُ النَّحْوَ لَا غَيْرُ أَوْ نَحْوَهُ ، وَفِى الثَّلَاثَةِ الْبَاقِيَةِ النَّصُّ عَلَى الْمُثْبَتِ فَقَطْ ، وَالنَّفْىُ لَا يُجَامِعُ

أن غيرك كفى مهمه دونك (الرابع) وهو التقديم (بالفحوى) أى بمفهوم الكلام ، بمعنى أنه إذا تأمل من له الذوق السليم فى مفهوم الكلام الذى فيه التقديم فهم منه القصر وإن لم يعرف أنه فى اصطلاح البلغاء كذلك (والأصل إلى آخره) هذا هو الوجه الثانى من وجوه الاختلاف (فى الأول) وهو طريق العطف (كما مر) من الأمثلة ، فإن المعطوف عليه فى لا هو المثبت والمعطوف هو المنفى وفى بل بالعكس (زيد يعلم النحو لا غير) أما فى الأول فمعناه لا غير النحو وهو قائم مقام لا التصريف ولا العروض ، وأما فى الثانى فمعناه لا غير زيد وهو قائم مقام لا عمرو ولا بكر (أو نحوه) أى أو نحو لا غير مثل ليس إلا (والنفى إلى آخره) يقول الوجه الثالث من وجوه الاختلاف أن النفى بلا العاطفة لا يجامع النفى والاستثناء ، فلا يصح ما زيد إلا قائم لا قاعد ، لأن شرط جواز النفى بلا ، أن لا يكون ما قبلها منفياً بغيرها من أدوات النفى ، لأنها موضوعة لأن ينفى بها ماأوجبته للمتبوع ، لا لأن تفيد بها شيئاً قد نفى أولا أو تنفى بها نفياً فتعود إيجاباً ، وإذا كان ذلك كذلك تعذر أن ينفى بها بعد النفى والاستثناء . لأنك إذا قلت ما زيد إلا قائم ، فالغرض نفى كل صفة وقع فيها التنازع والصفة التى تنفيها بلا بعد هذا يجب أن تكون مما وقع فيها النزاع ، وإلا خرجت عما يراعى فى خطاب

الثَّانِى ، لِأَنَّ شَرْطَ المَنفِىِّ بِلاَ أَنْ لاَ يكُونَ مَنْفِيًّا قَبْلَهَا بِغَيْرِهَا ، وَيُجَامِعُ الْأَخِيرَيْنِ ، فَيُقَالُ : إِنَّمَا أَنَا تَمِيمِىٌّ لاَ قَيْسِىٌّ ، وَهُوَ يَأْتِينِى لاَ عَمْرٌو ، لِأَنَّ النَّفْىَ فِيهِمَا غَيْرُ مُصَرَّحٍ بِهِ ، كَمَا يُقَالُ امْتَنَعَ زَيْدٌ عَنِ المَجِىءِ لاَ عَمْرٌو . السكاكىُّ : شَرْطُ مُجَامَعَتِهِ لِلثَّالِثِ أَنْ لاَ يكُونَ الوَصْفُ مُخْتَصًّا

العطف بها من إفادة الحصر أو تأكيده ، فإذا قلت مثلا لاقاعد فقد نفيت بها شيئاً هو منفى قبلها بما النافية فلايصح الإتيان بها بعد النفى والاستثناء . ويصح الإتيان بها مع إنما والتقديم ، فتقول إنما زيد كاتب لاشاعر وهو يأتينى لاعمرو لأن النفى فيهما غير مصرح به وإنما صرح فيهما بالإثبات فلم يقبح تأكيد ماتضمناه والنفى بلا بخلاف ما ، وإلا فقد صرح فيهما بالنفى وحينئذ فالنفى الصريح ليس كالضمنى يدل على ذلك أنه يقال امتنع زيد عن المجىء لاعمرو فيعطف على فاعل امتنع بلا ، فيفيد الكلام حصر الامتناع فى زيد بواسطة العطف بلا ، وصح ذلك لأن صريح امتنع زيد إثبات الامتناع ، فلفظ لا يفيد نفى ذلك الإثبات ، وأما نفى المجىء فهو ضمنى فجاز العطف بلا لكون النفى فى امتنع ضمنياً ولو صرح به وقيل لم يجىء زيد لم يصح أن يقال لاعمرو لأنه نفى للنفى فيكون إثباتاً ووضع لا للنفى لا للإثبات (السكاكى إلى آخره) وإليك عبارته : إذا جامعت لا العاطفة إنما جامعتها بشرط وهو أن لايكون الوصف بعد إنما يستجيب الذين يسمعون ، فإن كل عاقل يعلم أنه لاتكون استجابة إلا ممن يسمع ويعقل وقوله : إنما أنت منذر من يخشاها ، فلا يخفى على أحد ممن به مسكة أن الإنذار إنما يكون إنذاراً ويكون له تأثير إذا كان مع من يؤمن بالله وبالبعث والقيامة وأهوالها ويخشى عقابها . وقولهم : إنما يعجل من يخشى الفوت ، فمركوز فى العقول

بالمَوْصُوفِ ، نَحوُ : إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ . عَبْدُ القاهِرِ . لاَ تَحْسُنُ فِي المُخْتَصِّ كما تَحْسُنُ فِي غَيْرِهِ وَهذَا أَقْرَبُ . وَأَصْلُ الثَّانِي أَنْ يكونَ مَا استُعْمِلَ مِمَّا يَجْهَلُهُ المُخَاطَبُ وَيُنْكِرُهُ ، بِخِلاَفِ الثَّالِثِ ، كَقَوْلِكَ لِصَاحِبِكَ وَقَدْ رَأَيْتَ شَبَحاً مِنْ بَعِيدٍ : مَا هُوَ إِلاَّ زَيْدٌ ، إِذَا اعْتَقَدَهُ غَيْرَهُ

أن من لم يخش القوت لم يعجل ، وإذا كان له اختصاص لم يصح فيه استعمال لا العاطفة ، فلا تقل إنما يعجل من يخشى القوت لا من يأمنه (وهذا أقرب) يقول إن كلام عبد القاهر أقرب إلى الصواب من عبارة السكاكى . « وبعد » فإن من الظاهر أن السكاكى إنما جعل ذلك شرطاً فى الحسن فهو فى الواقع لم يقل شيئاً غير ماقاله عبد القاهر وغريب ذهول المصنف رحمه الله عن مثل هذا (وأصل الثانى إلى آخره) يقول الوجه الرابع من وجوه الاختلاف أن أصل النفى والاستثناء أن يكون الحكم الذى استعمل هو فيه من الأحكام التى يجهلها المخاطب وينكرها ، بخلاف إنما ، فإن أصله أن يكون الحكم المستعمل هو فيه مما يعلمه المخاطب ولا ينكره . وأصل هذا الكلام للشيخ عبد القاهر رحمه الله ، وإليك عبارته مع شىء من التصرف : إن موضوع ما وإلا على أن يكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه ، أو ماينزل هذه المنزلة فلا يصح استعمالها فى الأمر الظاهر ، فلا تقول للرجل ترققه على أخيه وتنبهه الذى يجب عليه من صلة الرحم : ماهو إلا أخوك مثال الأول قولك لصاحبك وقد رأيت شبحاً من بعيد : ماهو إلا زيد إذا وجدته يعتقده غير زيد ويصر على الإنكار ، ومنه قوله تعالى : وما من إله إلا الله ، ومثال الثانى قوله عز وجل : وما محمد إلا رسول ، أى إنه صلى الله عليه وسلم لا يتعدى الرسالة إلى التبرى من الهلاك ، نزل استعظامهم هلاكه منزلة إنكارهم إياه ، ومثله : وماأنت بمسمع من فى القبور إن

مُصِرًّا ، وَقَدْ يُنَزَّلُ الْمَعْلُومُ مَنزِلَةَ المجهولِ ، لِاعتبارٍ مُنَاسِبٍ ، فَيُسْتَعْمَلُ لَهُ الثَّانِي إفراداً ، نحوُ : وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ : أَىْ مَقْصُورٌ عَلَى الرِّسَالَةِ لا يَتَعَدَّاهَا إِلى التَّبَرِّى مِنَ الْهَلاَكِ ، نُزِّلَ اسْتِعْظَامُهُمْ هَلاَكَهُ مَنزِلَةَ إِنْكَارِهِمْ إِيَّاه ، أَوْ قَلْباً ، نَحْوُ : إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا ، لِاعْتِقَادِ الْقَائِلِينَ أَنَّ الرَّسُولَ لاَ يَكُونُ بَشَراً ، مَعَ إِصْرَارِ الْمُخَاطَبِينَ عَلَى دَعْوَى الرِّسَالَةِ

أنت إلا نذير ، فإنه ﷺ كان لشدة حرصه على هداية الناس يكرر دعوة المتنعين عن الإيمان ولا يرجع عنها ، فكان فى معرض من ظن أنه يملك مع صفة الإنذار إيجاد الشىء فيما يمتنع قبوله إياه ، ومن هذا قوله تعالى : إن أنتم إلا بشر مثلنا ، لأن الكفار جعلوا الرسل كأنهم بادعائهم النبوة قد أخرجوا أنفسهم عن أن يكونوا بشراً مثلهم ، ولما كان كذلك أخرج اللفظ مخرجه حيث يراد إثبات أمر يدفعه المخاطب ويدعى خلافه ، ثم جاء الجواب من الرسل الذى هو قوله تعالى : إن نحن إلا بشر مثلكم ، كذلك بإن وإلا لأن من حكم من ادعى عليه خصمه الخلاف فى أمر هو لايخالف فيه أن يعيد كلام الخصم على وجهه ويجىء به على هيئته ويحكيه كما هو ، فإذا قلت للرجل أنت من شأنك كيت وكيت ، قال نعم أنا من شأنى كيت وكيت ، ولكن لاضير على ولا يلزمنى من أجل ذلك ماظننت أنه يلزم ، فالرسل كأنهم قالوا إن ماقلتم من أنا بشر مثلكم كما قلتم لسنا ننكر ذلك ولا نجهله ، ولكن ذلك لايمنعنا من أن يكون الله تعالى قد من علينا وأكرمنا بالرسالة . . . وأما إنما فموضوعها على أن تجىء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته ، أو لما ينزل

وَقَوْلُهُمْ : إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، مِنْ بَابِ مُجَارَاةِ الْخَصْمِ لِيَعْثُرَ حَيْثُ يُرَادُ تَبْكِيتُهُ ، لاَ لِتَسْلِيمِ انْتِفَاءِ الرِّسَالَةِ ، وَكَقَوْلِكَ إِنَّمَا هُوَ أَخُوكَ ، لِمَنْ يَعْلَمُ ذَلِكَ وَيُقِرُّ بِهِ ، وَأَنْتَ تُرِيدُ أَنْ تُرَقِّقَهُ عَلَيْهِ وَقَدْ يُنَزَّلُ الْمَجْهُولُ مَنْزِلَةَ الْمَعْلُومِ ، لِادِّعَاءِ ظُهُورِهِ ، فَيُسْتَعْمَلُ لَهُ الثَّالِثُ ، نَحْوُ : إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ، وَلِذَلِكَ جَاءَ : أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ، لِلرَّدِّ عَلَيْهِمْ مُؤَكَّداً بِمَا تَرَى ، وَمَزِيَّةُ إِنَّمَا عَلَى الْعَطْفِ

هذه المنزلة ، مثال الأول قولك للرجل : إنما هو أخوك ، وإنما هو صاحبك القديم ، لاتقوله لمن يجهل ذلك ويدفع صحته ، ولكن لمن يعلمه ويقر به إلا أنك تنبهه للذى يجب عليه من حق الأخ وحرمة الصاحب ، ومثله قول المتنبي :

إِنَّمَا أَنْتَ وَالِدٌ وَالأَبُ الْقَا طِعُ أَحْنَى مِنْ وَاصِلِ الأَوْلاَدِ

لم يرد أن يعلم كافوراً أنه والد ولا ذاك مما يحتاج كافور فيه إلى الإعلام ، ولكنه أراد أن يذكره منه بالأمر المعلوم ليبنى عليه استدعاء ما يوجبه كونه بمنزلة الوالد . ومثاله من التنزيل قوله تعالى : إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب ، وقوله عز وجل : إنما أنت منذر من يخشاها ، كل ذلك تذكير بأمر ثابت معلوم ، ومثال الثانى قول قيس الرقيات :

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِنَ اللَّـــهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظَّلْمَاءُ

ادعى فى كون الممدوح بهذه الصفة أنه أمر معلوم للجميع على عادة الشعراء إذا مدحوا أن يدعوا فى الأوصاف التى يذكرون بها الممدوحين أنها ثابتة لهم ، وأنهم قد شهروا بها ، وأنهم لم يصفوا إلا بالمعلوم الظاهر الذى لا يدفعه أحد كما قال الحطيئة :

أَنَّهُ يُعْقَلُ مِنْهَا الْحُكْمَانِ مَعًا ، وَأَحْسَنُ مَوَاقِعِهَا التَّعْرِيضُ ، نَحْوُ :

وَتَعْذُلُنِى أَفْنَاءُ سَعْدٍ عَلَيْهِمِ ... وَمَا قُلْتُ إِلاَّ بِالَّذِى عَلِمَتْ سَعْدُ(١)

وكما قال البحترى :

لاَ أَدَّعِى لِأَبِى الْعَلاَءِ فَضِيلَةً ... حَتَّى يُسَلِّمَهَا إِلَيْهِ عِدَاهُ

ومثل البيت قوله تعالى حكاية عن اليهود : وإذا قيل لهم لاتفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ، المعنى أنهم يدعون أن كونهم مصلحين أمر ظاهر معلوم ، ولذلك أكد الأمر فى تكذيبهم والرد عليهم فجمع بين إلا التى للتنبيه وإن التى هى للتأكيد ، فقال ألا إنهم هم المفسدون ولكن لايشعرون (الحكمان) أى الإثبات للمذكور والنفى عما سواه (وأحسن مواقعها التعريض) قال الشيخ عبد القاهر : اعلم أنك إذا استقريت وجدتها أقوى ماتكون وأعلق ماترى بالقلب إذا كان لايراد بالكلام بعدها نفس معناه ، ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه نحو إنا نعلم أن ليس الغرض من قوله تعالى : إنما يتذكر أولوا الألباب ، أن يعلم السامعون ظاهر معناه ولكن أن يذم الكفار ، وأن يقال إنهم من فرط العناد ومن غلبة الهوى عليهم فى حكم من ليس بذى عقل . وأنكم إذا طمعتم منهم فى أن ينظروا ويتذكروا كنتم كمن طمع فى ذلك من غير أولى الألباب ، ومثال ذلك من الشعر قوله :

أنا لم أرزق محبتها ... إنما للعبد ما رزقا

الغرض أن يفهمك من طريق التعريض أنه قد صار ينصح نفسه ، ويعلم أنه ينبغى له أن يقطع الطمع من وصلها ، وييأس من أن يكون منها إسعاف ، ومن ذلك قوله :

(١) الإفناء : الغوغاء والسقاط من الناس .

إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ، فإِنَّهُ تَعْرِيضٌ بِأَنَّ الْكُفَّارَ مِنْ فَرْطِ جَهْلِهِمْ كَالْبَهَائِمِ ، فَطَمَعُ النَّظَرِ مِنْهُمْ كَطَمَعِهِ مِنْهَا . ثُمَّ الْقَصْرُ كَمَا يَقَعُ بَيْنَ الْمُبْتَدَإِ وَالْخَبَرِ عَلَى مَا مَرَّ ، يَقَعُ بَيْنَ الْفِعْلِ وَالْفَاعِلِ وَغَيْرِهِمَا . فَفِي الِاسْتِثْنَاءِ يُؤَخَّرُ الْمَقْصُورُ عَلَيْهِ مَعَ أَدَاةِ الِاسْتِثْنَاءِ وَقَلَّ تَقْدِيمُهُمَا بِحَالِهِمَا ، نَحْوُ : مَاضَرَبَ إِلاَّ

---

* وَإِنَّمَا يَعْذِرُ الْعُشَّاقَ مَنْ عَشِقَا *

يقول إنه ليس ينبغى للعاشق أن يلوم من يلومه فى عشقه ، وأنه ينبغى أن لا ينكر ذلك منه ، فإنه لايعلم كنه البلوى فى العشق ولو كان ابتلى به لعرف ما هو فيه فعذره (وغيرهما) كالفاعل والمفعول وكالمفعولين وكذى الحال والحال تقول فى قصر الفاعل على المفعول إفراداً أو قلباً بحسب المقام : ما ضرب زيد إلا عمراً ، ومن الوارد على قصر القلب قوله تعالى حكاية عن السيد المسيح عليه السلام : ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله له لأنه قاله فى مقام اشتمل على معنى أنك ياعيسى لم تقل للناس ما أمرتك لأنى أمرتك أن تدعوا الناس إلى أن يعبدونى ، ثم إنك دعوتهم إلى أن يعبدوا من هو دونى ألا ترى إلى ماقبله : وإذ قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله وفى قصر المفعول على الفاعل ماضرب عمراً إلا زيد وفى قصر المفعول الأول على الثانى فى نحو كسوت وظننت ما كسوت زيداً إلا جبة وما ظننت زيداً إلا منطلقاً وفى قصر الثانى على الأول ما كسوت جبة إلا زيداً وما ظننت منطلقا إلا زيداً ، وفى قصر ذى الحال على الحال ماجاء زيد إلا راكباً ، وفى قصر الحال على ذى الحال ماجاء راكباً إلا زيد (وقل تقديمهما بحالهما) أى جاز على قلة تقديم المقصور عليه وأداة الاستثناء بحالهما على المقصور ، ومن ذلك قول الشاعر :

عَمْراً زَيْدٌ ، وَمَاضَرَبَ إلاَّ زَيْدٌ عَمْراً ، لِاسْتِلْزَامِهِ قَصْرَ الصِّفَةِ قَبْلَ تَمَامِهَا ؛ وَوَجْهُ الجَمِيعِ أَنَّ النَّفْيَ فِي الاِسْتِثْنَاءِ المُفَرَّغِ يَتَوَجَّهُ إِلَى مُقَدَّرٍ هُوَ مُسْتَثْنًى مِنْهُ عَامٌ مُنَاسِبٌ لِلْمُسْتَثْنَى فِي جِنْسِهِ وَصِفَتِهِ ، فَإِذَا أُوجِبَ

لاَ أَشْتَهِي يا قَوْمُ إلاَّ كَارِهًا　　بَابَ الأَمِيرِ وَإلاَّ دِفَاعَ الحَاجِبِ

وقول الآخر :

كأَنْ لَمْ يَمُتْ حَيٌّ سِوَاكَ وَلَمْ يَقُمْ　　عَلَى أَحَدٍ إلاَّ عَلَيْكَ النَّوَائِحُ

وأنشد سيبويه :

النَّاسُ أَلْبٌ عَلَيْنَا فِيكَ لَيْسَ لَنَا　　إلاَّ السُّيوفَ وَأَطْرافُ القَنا وزَرُ

وقوله بحالهما ، احتراز من إزالة حرف الاستثناء عن مكانه بتأخيره عن المقصور عليه ، كقولك في ما ضرب زيد إلا عمراً ما ضرب عمراً إلا زيد ، فإنه يختل المعنى (لاستلزامه قصر الصفة قبل تمامها) كالضرب الصادر من زيد في ما ضرب زيد إلا عمراً والضرب الواقع على عمرو في ماضرب عمراً إلا زيد (ووجه الجميع) أي وجه إفادة النفي والاستثناء الحصر في جميع ما ذكر مما بين المبتدأ والخبر والفاعل والمفعول والحال وصاحبها والمفعول الأول والثاني وغير ذلك (يتوجه إلى مقدر إلى آخره) أما توجهه إلى مقدر هو مستثنى منه فلكون إلا للإخراج واستدعاء الإخراج مخرجاً منه ، وأما عمومه فليتحقق الإخراج ولئلا يلزم التخصيص من غير مخصص . قال صاحب المفتاح ولذلك ترانا في علم النحو نقول تأنيث الضمير في كانت في قراءة أبي جعفر : إن كانت إلا صيحة ، بالرفع وفي ترى المبني للمفعول في قراءة الحسن : فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم ، برفع مساكنهم ، وفي بقيت في بيت ذي الرمة :

مِنْهُ شَيْءٌ بِإِلاَّ جَاءَ القَصْرُ ، وَفِي إِنَّمَا يُؤَخَّرُ المَقْصُورُ عَلَيْهِ ، تَقُولُ : إِنَّمَا ضَرَبَ زَيْدٌ عَمْراً ، وَلاَ يَجُوزُ تَقْدِيمُهُ عَلَى غَيْرِهِ لِلإِلْبَاسِ . وَغَيْرُ

---

* وَمَا بَقِيَتْ إِلَّا الضُّلُوعُ الجَرَاشِعُ *

للنظر إلى ظاهر اللفظ ، والأصل التذكير لاقتضاء المقام معنى شيء من الأشياء ، وأما مناسبته فى جنسه وصفته فظاهرة ، لأن المراد بجنسه أن يكون فى نحو : ماضرب زيد إلا عمراً أحداً ، وفى نحو قولك : ما كسوت زيداً إلا جبة لباساً ، وفى نحو : ما جاء زيد إلا راكباً ، كائناً على حال من الأحوال . وفى نحو : مااخترت رفيقاً إلا منكم من جماعة من الجماعات . ومنه قول السيد الحميرى :

لَوْ خُيِّرَ المِنْبَرُ فُرْسَانَهُ مَا اخْتَارَ إِلَّا مِنْكُمُ فَارِسَا

لأن أصله مااختار فارساً إلا منكم . والمراد بصفته كونه فاعلا أو مفعولا أو ذا حال أو حالا ، على هذا القياس (وفى إنما) هو معطوف على قوله ففى الاستثناء (وفى إنما يؤخر المقصود عليه) حيث يستفاد القصر منها فقط ، فخرج مثل قول أبى الطيب :

أَسَامِياً لَمْ تَزِدْهُ مَعْرِفَةً وَإِنَّمَا لَذَّةً ذَكَرْنَاهَا

إذ المفيد للقصر فيه هو التقديم (ولا يجوز تقديمه على غيره) بخلاف إلا لعدم إفضائه إلى الإلباس ، وههنا مفض إلى الإلباس كما قال ، لأنك لو قلت إنما ضرب زيد عمراً لكان فى المعنى عكس قولك إنما ضرب عمراً زيد . قال السكاكى : ومما ذكر تعثر على الفرق بين : إنما يخشى الله من عباده العلماء ، وبين إنما يخشى العلماء من عباده الله ، بتقديم المرفوع على المنصوب ، فالأول يقتضى انحصار خشية الله على العلماء ، والثانى يقتضى انحصار خشية

كَمَا إِلَّا فِي إِفَادَةِ الْقَصْرَيْنِ ، وَامْتِنَاعِ مُجَامَعَةِ لاَ .

﴿ الإِنْشَــاءُ ﴾

الْإِنْشَاءُ إِنْ كَانَ طَلَبًا اسْتَدْعَى مَطْلُوبًا غَيْرَ حَاصِلٍ وَقْتَ الطَّلَبِ ؛ وَأَنْوَاعُهُ كَثِيرَةٌ ، مِنْهَا : التَّمَنِّي ، وَاللَّفْظُ الْمَوْضُوعُ لَهُ لَيْتَ ، وَلاَ يُشْتَرَطُ إِمْكَانُ الْمُتَمَنَّى تَقُولُ : لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ ، وَقَدْ يُتَمَنَّى بِهَلْ نَحْوُ : هَلْ لِي

العلماء على الله (فى إفادة القصرين) قصر الموصوف على الصفة وقصر الصفة على الموصوف ، تقول فى قصره : ما زيد غير شاعر . إفراداً . وما زيد غير قائم . قلباً . وفى قصرها : ما شاعر غير زيد ، بالاعتبارين بحسب المقام (وامتناع مجامعة لا) فلا تقول : مازيد غير شاعر لا كاتب ، ولا ما شاعر غير زيد لا عمرو ﴿الإنشاء﴾ هو كما يطلق على الكلام الذى ليس لنسبته خارج تطابقه أو لا ، كذلك يطلق على فعل المتكلم أعنى إلقاء الكلام الإنشائى كالإخبار ، والمراد هنا هو الثانى ، ثم هو نوعان : طلب وغيره ، والمصنف لم يتعرض لغير الطلب لقلة المباحث البيانية المتعلقة به ، وذلك كبعض أفعال المقاربة ، وأفعال المدح والذم ، وصيغ العقود ، والقسم ، ولعل . على أن كثيراً منها نقل من الخبر إلى الإنشاء فيستغنى بأبحاثه الخبرية عن الإنشائية (استدعى مطلوباً غير حاصل) لامتناع تحصيل الحاصل . قال التفتازانى : فإذا وردت صيغة الطلب فى الحاصل حملت على ما يناسب المقام كما فى قول الله جل شأنه : يا أيها النبى اتق الله ، المعنى دم على التقوى (التمنى) هو طلب حصول الشيء بشرط المحبة ونفى الطماعية (ولا يشترط إمكان المتمنى) لأن الإنسان كثيراً ما يحب المحال ويطلبه . لكن إذا كان المتمنى ممكناً يجب ألا يكون

مِنْ شَفِيعٍ ، حَيْثُ يَعْلَمُ أَنْ لاَ شَفِيعَ ، وَ بِلَوْ نَحْوُ : لَوْ تَأْتِينِي فَتُحَدِّثَنِي ، بِالنَّصْبِ ، السكاكِيُّ : كَأَنَّ حُرُوفَ التَّنْدِيمِ وَالتَّحْضِيضِ — وَهِيَ هَلاَّ وَأَلاَّ بِقَلْبِ الْهَاءِ هَمْزَةً ، وَلَوْلاَ وَلَوْمَا — مَأْخُوذَةٌ مِنْهُمَا مُرَكَّبَتَيْنِ مَعَ لاَ وَمَا الْمَزِيدَتَيْنِ لِتَضْمِينِهِمَا مَعْنَى التَّمَنِّي لِيَتَوَلَّدَ مِنْهُ فِي الْمَاضِي التَّنْدِيمُ ، نَحْوُ : هَلاَّ أَكْرَمْتَ زَيْدًا ، وَفِي الْمُضَارِعِ التَّحْضِيضُ ، نَحْوُ : هَلاَّ تَقُومُ ؛ وَقَدْ يُتَمَنَّى

لك توقع وطماعية فى وقوعه ، وإلا لصار ترجياً يستعمل فيه لعل أو عسى ، (حيث يعلم أن لاشفيع) لأنه إذ ذاك يمتنع حمله على حقيقة الاستفهام لحصول الجزم بانتفاء هذا الحكم ، واستدعاء الاستفهام الجهل بثبوته وانتفائه هـذا . والسر فى العـــدول عن ليت والتمنى بهل ، هو إبراز المتمنى لكمال العناية به فى صورة الممكن الذى لا جزم بانتفائه (وبلو) ولعـل السر فى ذلك هو الإشعار بعزة متمناه حيث أبرزه فى صورة مالا يوجد ، لأن لو بحسب أصلها حرف امتناع لامتناع (منهما) أى من هل ولو المنقولتين للتمنى (لتضمينهما إلى آخره) يقول إن الغرض من هـذا التركيب والتزامه جعل هل ولو متضمنتين معنى التمنى ، وذلك ليتولد منه مع المـاضى التنديم ومع المستقبل التحضيض ، فتقول : هلا أكرمت زيداً ، ولولا أكرمت زيداً ، ولوما أكرمته . على معنى ليتك أكرمته قصداً إلى جعله نادماً على ترك الإكرام ، وتقول : هلا تقوم ، ولوما تقوم ، على معنى ليتك تقوم قصداً إلى حثه على القيام . ومع هـذا فلا يخلو من ضرب من التوبيخ واللوم على ماكان

بِإِمْهَالٍ ، فَتُعْطَى حُكْمَ لَيْتَ ، نَحْوُ : لَعَلِّي أَحُجُّ فَأَزُورَكَ ، بِالنَّصْبِ ، لِبُعْدِ الْمَرْجُوِّ عَنِ الْحُصُولِ . وَمِنْهَا الِاسْتِفْهَامُ ، وَأَلْفَاظُهُ الْمَوْضُوعَةُ لَهُ الْهَمْزَةُ ، وَهَلْ ، وَمَا ، وَمَنْ ، وَأَيٌّ ، وَكَيْفَ ، وَأَيْنَ ، وَأَنَّى ، وَمَتَى ، وَأَيَّانَ ، فَالْهَمْزَةُ

يجب أن يفعله المخاطب قبل أن يطالب منه (فتعطى حكم ليت) فينصب المضارع بعدها على تقدير أن (لبعد المرجو عن الحصول) فصار يشبه المحالات التى لاطمع فيها ، فاستعملت فيه لعل كاستعمال ليت لمشابهة هـذا المعنى لمعناها (ومنها الاستفهام) وحقيقته طلب الفهم بألفاظ معروفة . والمطلوب فهمه إن كان حكما بشيء على شيء إثباتا أو نفيا فهو التصديق إلا فهو التصور (وأيان) قال السكاكى بفتح الهمزة وبكسرها ، وهذه اللغة أعنى كسر همزتها تقوى أباه أن يكون أصلها أى وإن (فالهمزة لطلب التصديق إلى آخره) اعلم أن هذه الكلمات ثلاثة أنواع : أحدها يختص طلب التصديق وهو هل ، وثانيها يختص طلب التصور وهو سائر الأسماء الاستفهامية ، وثالثها مشترك بينهما وهو الهمزة فإنها تجيء لطلب التصور والتصديق لعراقتها فى الاستفهام ، ولهذا يجوز أن يقع بعد أم سائر كلمات الاستفهام سوى الهمزة ، قال الله جل شأنه : أم هل تستوى الظلمات والنور ، وقال : أم من هـذا الذى هو جند لكم . وقال : أم ماذا كنتم تعملون . وقال التغلبى :

أَنَّى جَزَوْا عَامِرًا سُوءًا بِفِعْلِهِمِ
أَمْ كَيْفَ يَجْزُونَنِى السُّوأَى مِنَ الْحَسَنِ
أَمْ كَيْفَ يَنْفَعُ مَا تُعْطِى الْعَلُوقُ بِهِ رِئْمَانَ أَنْفٍ إِذَا مَا ضُنَّ بِاللَّبَنِ (١)

(١) العلوق بفتح العين المهملة : الناقة تعطف على غير ولدها ولا ترأمه وإنما تشمه بأنفها وتمنعه لبنها . والبيت ينشد لمن يعد بالجميل ولا يفعله لانطواء قلبه على ضده .

لِطَلَبِ التَّصْدِيقِ كَقَوْلِكَ : أَقَامَ زَيْدٌ ، وَ : أَزَيْدٌ قَائِمٌ ، أَوِ التَّصَوُّرِ كَقَوْلِكَ : أَدِبْسٌ فِى الْإِنَاءِ أَمْ عَسَلٌ ، وَ : أَفِى الْخَابِيَةِ دِبْسُكَ أَمْ فِى الزِّقِّ ، وَلِهٰذَا لَمْ

وأم ههنا بمعنى بل التى تكون للانتقال من كلام إلى آخر من غير اعتبار استفهام هـذا ، والفرق بين الاستفهام عن التصديق والاستفهام عن التصور يـكاد يكون ظاهراً ، ذاك لأن الاستفهام عن التصديق يكون عن نسبة تردد الذهن فيها بين ثبوتها ونفيها . والاستفهام عن التصور يكون عند التردد فى تعيين الشيئين (كقولك أقام زيد) فى طلب التصديق بمضمون الجملة الفعلية (وأزيد قائم) فى طلب التصديق بمضمون الجملة الإسمية ، فقد تصورت القيام وزيداً والنسبة بينهما ، وسألت عن وقوع تلك النسبة هل هو محقق خارجاً أو لا ، فإذا قيل قام أو هو قائم حصل التصديق . والحاصل أن السائل عالم بأن بينهما نسبة ملتبسة بالوقوع أو اللاوقوع ويطلب تعيين ذلك (كقولك) فى طلب تصور المسند إليه (أدبس فى الإناء أم عسل) فأنت تعلم أن فى الإناء شيئاً والمطلوب هو تعيينه (وأفى الخابية إلى آخره) أى وكقولك فى طلب تصور المسند أفى الخابية دبسك أم فى الزق ، فأنت تعلم أن الدبس محكوم عليه بأنه فى أحدهما والمطلوب هو التعيين . . « هـذا » وإنا إذا أنعمنا النظر وألطفنا الفـكر وجدنا الهمزة لاتـكون إلا لطلب التصديق فى سائر أحوالها لأنه إذا قصد تعيين المسند إليه ، فالمطلوب هو العلم بتعيين النسبة ، فإذا قلت أزيد قام أم عمرو فإنما تسأل عن تعيين النسبة فى أحدهما ، أما زيد وعمرو فكلاهما معلوم وكذلك استناد القيام لأحدهما فاعرف هذا ولاتـكن رهين التقليد (ولهذا إلى آخره) يقول لما كانت الهمزة تـكون لطلب التصور وهل مختصة بالتصديق لاتتجاوزه كان قولك : أزيد قام وأعمراً عرفت حسناً بليغاً ، وقولك : هل زيد قام وهل

يَقْبُحُ أَزَيْدٌ قَامَ ، وَأَعَمْرًا عَرَفْتَ ، وَالْمَسْئُولُ عَنْهُ بِهَا هُوَ مَا يَلِيهَا كَالْفِعْلِ فِى أَضَرَبْتَ زَيْدًا ، وَالْفَاعِلِ فِى : أَأَنْتَ ضَرَبْتَ ، وَالْمَفْعُولِ فِى : أَزَيْدًا ضَرَبْتَ وَهَلْ لِطَلَبِ التَّصْدِيقِ فَحَسْبُ نَحْوُ : هَلْ قَامَ زَيْدٌ ، وَهَلْ عَمْرٌو قَاعِدٌ ، وَلِهَذَا امْتَنَعَ هَلْ زَيْدٌ قَامَ أَمْ عَمْرٌو ، وَقَبُحَ هَلْ زَيْدًا ضَرَبْتَ ، لِأَنَّ التَّقْدِيمَ

عمراً عرفت قبيحاً مرذولا ، ذاك لأن التقديم كما علمت يستدعى حصول التصديق بنفس الفعل فتكون هل لطلب حصول الحاصل وهو محال ، بخلاف الهمزة فإنها تكون لطلب التصور وتعيين الفاعل أو المفعول (والمسؤل عنه بها إلى آخره) يقول إن المسؤل عنه بالهمزة هو ما يليها فتقول : أضربت زيداً ، إذا كان الشك فى الفعل نفسه وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده وتقول : أأنت ضربت إذا كان الشك فى الفاعل من هو مع العلم بوقوع الفعل وتقول : أزيداً ضربت إذا كان الشك فى المفعول من هو مع الجزم بوقوع ضرب من المخاطب . قال الشيخ عبد القاهر : ومما يؤيد ذلك أنك تقول : أقلت شعرا قط ، أرأيت اليوم إنساناً ، فيكون كلاماً مستقيماً ، ولو قلت : أأنت قلت شعراً قط ، أأنت رأيت إنساناً أحلت ، وذلك أنه لامعنى للسؤال عن الفاعل من هو فى مثل هـذا ، لأن ذلك إنما يتصور إذا كانت الإشارة إلى فعل مخصوص نحو أن تقول : من قال هذا الشعر ، ومن بنى هذه الدار : وما أشبه ذلك مما يمكن أن ينص فيه على معين ، فأما قيل شعر على الجملة ورؤية إنسان على الإطلاق فمحال ذلك فيه لأنه ليس مما يختص بهذا دون ذاك حتى يسأل عن عين فاعله (ولهذا امتنع هل زيد قام أم عمرو) لأن وقوع المفرد بعد أم دليل على أنها متصلة وأم المتصلة لطلب تعيين الأمرين مع العلم بثبوت أصل الحكم فهى لاتكون إلا لطلب التصور بعد حصول التصديق بنفس الحكم وهو ليس

يَسْتَدْعِى حُصُولَ التَّصْدِيقِ بِنَفْسِ الفِعْلِ ، دُونَ : هَلْ زَيْدًا ضَرَبْتَهُ ، لِجَوَازِ تَقْدِيرِ الْمُفَسَّرِ قَبْلَ زَيْدًا ، وَجَعَلَ السَّكَّاكِيُّ قُبْحَ : هَلْ رَجُلٌ عَرَفَ لِذَلِكَ ، وَيَلْزَمُهُ أَنْ لَا يَقْبُحَ هَلْ زَيْدٌ عَرَفَ ، وَعَلَّلَ غَيْرُهُ قُبْحَهُمَا بِأَنَّ هَلْ بِمَعْنَى قَدْ فِى الْأَصْلِ ، وَتَرَكَ الهَمْزَةَ قَبْلَهَا لِكَثْرَةِ وُقُوعِهَا فِى الِاسْتِفْهَامِ ،

إلا لطلب التصديق فبينهما تدافع فيتمنع ، بخلاف ما إذا لم يذكر أم عمرو ، وقيل هل زيد قام فإنه يقبح ولا يمتنع لما سيجىء ، وبعد ، فإذا علمت هذا علمت أنه لايجوز استعمال أم بعد هل إلا أن تريد المنقطعة كقوله :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِى هَلْ تَغَيَّرَتِ الرَّحَى ❊ رَحَى الْحَرْبِ أَمْ أَضْحَتْ بِفَلْجٍ كَمَا هِيَا

ولذلك قال سيبويه هو على كلامين (لجواز تقدير المفسر قبل زيداً) بل هذا أرجح لأن الاصل تقدم العامل على المعمول وحينئذ فلا يستدعى حصول التصديق بنفس الفعل فتكون هل لطلب التصديق فيحسن (لذلك) أى لما قبح له هل زيداً ضربت وهو أن التقديم يستدعى حصول التصديق بنفس الفعل ، وإنه جعله لذلك لأن مذهبه كما تقدم أن الأصل عرف رجل على أن رجل بدل من الضمير فى عرف قدم للتخصيص . وإنما لم يجعله ممتنعاً لاحتمال أن يكون رجل فاعل فعل محذوف (ويلزمه أن لايقبح هل زيد عرف) لأن تقديم المظهر المعروف ليس للتخصيص حتى يستدعى حصول التصديق بنفس الفعل على ماسبق . مع أن هذا التركيب قبيح بالإجماع ، وما ذكره الزمخشرى فى المفصل من أن نحو : هل زيد خرج ، على تقدير الفعل فتصحيح للوجه القبيح لا أنه شائع حسن (غيره) أى غير السكاكى (قبحهما) أى قبح هل رجل عرف وهل زيد عرف (بأن هل بمعنى قد فى الأصل) يعنى وقد من لوازم الأفعال

وَهِيَ تُخَصِّصُ الْمُضَارِعَ بِالاسْتِقْبَالِ ، فَلَا يَصِحُّ : هَلْ تَضْرِبُ زَيْدًا

فكذا ما هي بمعناها . وأصل كلام المصنف هذا مازعمه الزمخشري أن هل بمعنى قد أبداً ، وأن الاستفهام إنما هو مستفاد من همزة مقدرة معها . قال في المفصل : وعند سيبويه أن هل بمعنى قد إلا أنهم تركوا الألف قبلها لأنها لاتقع إلا في استفهام ، وقد جاء دخولها عليها في قول زيد الخيل :

سَائِلْ فَوَارِسَ يَرْبُوعٍ بِشَدَّتِنَا أَهَلْ رَأَوْنَا بِسَفْحِ الْقَاعِ ذِي الْأَكَمِ (١)

وقال الراجز :

* أَهَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بِالْغَرِيَّيْنِ (٢) *

قال التفتازاني : فإن قلت هذا يقتضى أن لايصح أو يقبح دخولها على الجملة الاسمية التي طرفاها اسمان نحو هل عمرو قاعد ، وإلا فما الفرق بينه وبين ما إذا كان الخبر فعلا ، قلت : الفرق أنها إذا رأت الفعل في حيزها تذكرت عهوداً بالحمى وحنت إلى الإلف المألوف وعانقته ، ولم ترض بافتراق الاسم بينهما ، بخلاف ما لو إذا تراه في حيزها فإنها تسلت عنه ذاهلة (وهي تخصص المضارع بالاستقبال) لما كانت هل ليست أصلا في الاستفهام تقاصرت عن الهمزة فاختص المضارع بعدها بالاستقبال فلا يصح استعمالها في التوبيخ على الفعل الواقع في الحال كما يصح استعمال الهمزة فيه ، فلا تقول هل تضرب

(١) يربوع : أبو حي من تميم ، والأكم جمع أكمة : وهي الموضع يكون أشد ارتفاعاً مما حوله .

(٢) الغريان : هما بناآن طويلان ، يقال هما قبرا مالك وعقيل نديمي الأبرش ، وسميا غريين لأن النعمان بن المنذر كان يغريهما بدم من يقتله إذا خرج في يوم بؤسه .

وَهُوَ أَخُوكَ ، وَلِاخْتِصَاصِ التَّصْدِيقِ بِهَا وَتَخْصِيصِهَا الْمُضَارِعَ بِالِاسْتِقْبَالِ كَانَ لَهَا مَزِيدُ اخْتِصَاصٍ بِمَا كَوْنُهُ زَمَانِيًّا أَظْهَرُ كَالْفِعْلِ ، وَلِهَذَا كَانَ : فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ، أَدَلَّ عَلَى طَلَبِ الشُّكْرِ مِنْ : فَهَلْ تَشْكُرُونَ ، وَ : فَهَلْ أَنْتُمْ تَشْكُرُونَ ، لِأَنَّ إِبْرَازَ مَاسَيَتَجَدَّدُ فِي مَعْرِضِ الثَّابِتِ أَدَلُّ عَلَى كَمَالِ الْعِنَايَةِ بِحُصُولِهِ ، وَمِنْ : أَفَأَنْتُمْ شَاكِرُونَ ، وَإِنْ كَانَ لِلثُّبُوتِ ، لِأَنَّ هَلْ أَدْعَى لِلْفِعْلِ مِنَ الهَمْزَةِ ، فَتَرْكُهُ مَعَهَا أَدَلُّ عَلَى ذَلِكَ وَلِهَذَا

زيداً وهو أخوك ، على نحو أتضرب زيداً وهو أخوك فى أن يكون الضرب واقعاً فى الحال (ولاختصاص التصديق بها الخ) إليك قول السكاكى فى ذلك فإنه أوضح وأتم قال : ولكون هل لطلب الحكم بالثبوت أو الانتفاء وقد نبهت على أن الإثبات والنفى لا يتوجهان إلى الذوات وإنما يتوجهان إلى الصفات ولاستدعائه التخصيص بالاستقبال لما يحتمل ذلك ، وأنت تعلم أن احتمال الاستقبال إنما يكون لصفات الذوات لا لأنفس الذوات ، لأن الذوات من حيث هى هى ذوات فيما مضى وفى الحال وفى الاستقبال استلزم ذلك مزيد اختصاص لهل دون الهمزة بما يكون كونه زمانياً أظهر كالأفعال (أدل على كمال العناية بحصوله) من إبقائه على أصله فى فهل تشكرون، لأنها داخلة على الفعل حقيقة ، وفى فهل أنتم تشكرون لأنها داخلة على الفعل تقديراً ، لأن أنتم فاعل فعل محذوف يفسره الظاهر (على ذلك) أى على كمال العناية بحصول ما سيتجدد (ولهذا) أى لكون هل أدعى للفعل من

لاَ يَحْسُنُ : زَيْدٌ مُنْطَلِقٌ إِلَّا مِنَ الْبَلِيغِ ، وَهِيَ قِسْمَانِ ، بَسِيطَةٌ وَهِيَ الَّتِي يُطْلَبُ بِهَا وُجُودُ الشَّيْءِ ، كَقَوْلِنَا : هَلِ الْحَرَكَةُ مَوْجُودَةٌ وَمُرَكَّبَةٌ وَهِيَ الَّتِي يُطْلَبُ بِهَا وُجُودُ شَيْءٍ لِشَيْءٍ ، كَقَوْلِنَا : هَلِ الْحَرَكَةُ دَائِمَةٌ . وَالْبَاقِيَةُ لِطَلَبِ التَّصَوُّرِ فَقَطْ ، قِيلَ : فَيُطْلَبُ بِمَا شَرْحُ الِاسْمِ كَقَوْلِنَا : مَا الْعَنْقَاءُ ، أَوْ مَاهِيَّةِ الْمُسَمَّى . كَقَوْلِنَا : مَا الْحَرَكَةُ ، وَتَقَعُ هَلِ

الهمزة (لايحسن هل زيد منطلق إلا من البليغ) لأنه الذى يقصد به الدلالة على الثبوت وإبراز ماسيتجدد فى معرض الموجود . قال السكاكى : كما لا يحسن نظير قوله :

* لِيُبْكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِخُصُومَةٍ *

من كل أحد (بسيطة الخ) والبساطة والتركيب كما لا يخفى بالنظر لما تدخل عليه ، فمطلوب هل البسيطة هو التصديق بوجود الشيء فحسب ، ومطلوب المركبة هو التصديق بوجود الشيء ووجود شيء له . «وبعد» فلا يذهب عليك أن مثل هـذا التقسيم قليل الجدا، لطالب البلاغة (والباقية) أى من ألفاظ الاستفهام (شرح الاسم) أى بيان مدلول الاسم لغة ، فتقول ما العنقاء ، وأنت تطلب مدلوله ، والمعنى الذى وضع له فى اللغة (أو ماهية المسمى) قال التفتازانى : والفرق بين المفهوم من اللفظ بالجملة ، وبين الماهية التى تفهم من الحد بالتفصيل غير قليل . فإن كل من خوطب باسم فهم فهماً ما ، ووقف على الشيء الذى يدل عليه الاسم إذا كان عالماً باللغة ، وأما الحد فلا يقف عليه إلا المرتاض بصناعة المنطق ، فالموجودات لما كان لها مفهومات وحقائق كان لها حدود بحسب الاسم

الْبَسِيطَةُ فِى التَّرْتِيبِ بَيْنَهُمَا . وَبِمَنِ الْعَارِضُ الْمُشَخِّصُ لِذِى الْعِلْمِ، كَقَوْلِنَا : مَنْ فِى الدَّارِ ؟ وَقَالَ السَّكَّاكِىُّ : يُسْئَلُ بِمَا عَنِ الْجِنْسِ تَقُولُ : مَا عِنْدَكَ ، أَىْ أَىُّ أَجْنَاسِ الْأَشْيَاءِ ، وَجَوَابُهُ : كِتَابٌ وَنَحْوُهُ ، أَوْ عَنِ

وبحسب الحقيقة ، وأما المعدومات فلما لم يكن لها إلا المفهومات لم يكن لها حدود إلا بحسب الاسم لأن الحد بحسب الذات لا يكون إلا بعد أن يعرف أن الذات موجودة ، حتى أن ما يوضع فى أول التعاليم من حدود الأشياء التى يبرهن على وجودها فى أثناء العلم إنما هى حدود بحسب شرح الاسم . ثم لما أثبت وجودها وبرهن عليه صارت تلك الحدود بعينها حدوداً بحسب الذات والحقيقة ، ثم قال : فعلم أن الجواب الواحد جاز أن يكون حداً بحسب الاسم وبحسب الذات بالقياس إلى شخصين . وبالقياس إلى شخص واحد فى وقتين (وتقع هل البسيطة فى الترتيب بينهما) يعنى أن مقتضى الترتيب الطبيعى أن يطلب أولا شرح الاسم ثم وجود المفهوم فى نفسه ثم ماهيته وحقيقته ، لأن من لا يعرف مفهوم اللفظ استحال منه طلب وجود ذلك المفهوم ، ومن لا يعرف أنه موجود استحال منه طلب ماهيته وحقيقته ، إذ لا حقيقة للمعدوم ولا ماهية له (وبمن الخ) أى يطلب بمن الأمر الذى يعرض لذى العلم فيفيد تشخصه وتعيينه ، فإذا قلت من فى الدار قيل لك زيد ونحوه مما يفيد تشخصه . قال التفتازانى : وأما الجواب بنحو رجل فاضل من قبيلة كذا ، ونحو : ابن فلان وأخو فلان ، وما أشبه ذلك ، فإنما يصح من جهة أن المخاطب يفهم منه التشخص بحسب انحصار الأوصاف فى الخارج فى شخص ، وإن كانت تلك الأوصاف نظراً إلى مفهوماتها كليات (تقول ماعندك) قال السكاكى . وكذلك تقول ما الكلمة وما الكلام

الْوَصْفِ [illegible] : مَا زَيْدٌ ؟ وَجَوَابُهُ : الْكَرِيمُ ، وَنَحْوُهُ : وَ [illegible] عَنِ الْجِنْسِ

وفى التنزيل : فما خطبكم أى أى أجناس الخطوب خطبكم ، وفيه : ماتعبدون من بعدى ، أى أى من فى الوجود تؤثرونه فى العبادة . قال : وأما سؤال فرعون : وما رب العالمين ، فهو إما [illegible] لاعتقاده لجهله بالله تعالى أن لا موجود مستقلا بنفسه سوى الأجسام اعتقاد كل جاهل لانظر له ، كأنه قال : أى أجناس الأجسام هو ، وعلى هذا جواب موسى عليه السلام بالوصف تنبيهاً على النظر المؤدى إلى معرفته ، لكن لما لم يطابق السؤال عند فرعون عجب من حوله من جماعة الجهلة فقال لهم : ألا تستمعون ، ثم لما وجده مصراً على الجواب بالوصف إذ قال فى المرة الثانية : ربكم ورب آبائكم الأولين ، استهزأ به وجننه بقوله : إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ، وحين رآهم موسى عليه السلام لم يفطنوا لذلك فى المرتين غلظ عليهم فى الثالثة فقال : إن كنتم تعقلون . وإما عن الوصف طمعاً فى أن يسلك موسى عليه السلام فى الجواب معه مسلك الحاضرين لو كانوا هم المسؤلين مكانه لتمرته بينهم برب العالمين إلى درجة دعت السحرة إذ عرفوا الحق أن عقبوا قولهم : آمنا برب العالمين ، بقولهم : رب موسى وهرون ، نفياً لاتهامهم أنهم عنوه وجهله بحال موسى وعلو شأنه إذ لم يكن جمعهما قبل ذلك مجلس بدليل ماجرى فى ذلك الوقت من قوله : أو لو جئتك بشىء مبين قال فأت به إن كنت من الصادقين ، فحين سمع الجواب تعداه عجب واستهزأ وجنن وتفيهق بما تفيهق من قوله . لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين . قال الزمخشرى : والذى يليق بحال فرعون ويدل عليه الكلام أن يكون سؤاله

مِنْ ذَوِي الْعِلْمِ ، تَقُولُ : مَنْ جِبْرِيلُ ؟ أَيْ أَبَشَرٌ هُوَ أَمْ مَلَكٌ أَمْ جِنِّيٌّ . وَفِيهِ نَظَرٌ ؛ وَيُسْئَلُ بِأَيٍّ عَمَّا يُمَيِّزُ أَحَدَ الْمُتَشَارِكَيْنِ فِي أَمْرٍ يَعُمُّهُمَا ، نَحْوُ : أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا ؟ أَيْ أَنَحْنُ أَمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ . وَبِكَمْ عَنِ الْعَدَدِ ؛

هذا إنكاراً لأن يكون للعالمين رب سواه لادعائه الإلهية (تقول من جبريل إلى آخره) قال السكاكي : ومن هذا الباب قوله تعالى حكاية عن فرعون : فمن ربكما ياموسى . أي أملك هو أم بشر أم جني منكراً لأن يكون لهما رب سواه لادعائه الربوبية لنفسه ذاهباً في سؤاله هذا إلى معنى ألكما رب سواي ، فأجاب موسى عليه السلام بقوله : ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، كأنه قال نعم لنا رب سواك هو الصانع الذي إذا سلكت الطريق الذي بين بإيجاده لما أوجده ، وتقديره إياه على ماقدر ، واتبعت فيه الخريت الماهر ، وهو العقل الهادي من الضلال لزمك الاعتراف بكونه رباً وأن لارب سواه ، وأن العبادة له مني ومنك ومن الخلق أجمع حق لا مدفع له (وفيه نظر) قال في الإيضاح : لأنه إذا قيل من فلان يجاب بزيد ونحوه ، مما يفيد التشخص ، ولا يصح الجواب بنحو بشر أو جني ، وبعد ، فمن الظاهر أن مثل هذا يرجع فيه إلى السماع وربما يؤيد رأي السكاكي بيت الكتاب وهو :

أَتَوْا نَارِي فَقُلْتُ مَنُونَ أَنْتُمْ ... فَقَالُوا الْجِنُّ قُلْتُ عِمُوا ظَلَامَا

فقد سئلوا بمن وأجابوا بالجنس (ويسئل بأي الخ) قال السكاكي وأما أي فللسؤال عما يميز أحد المتشاركين في أمر يعمهما ، يقول القائل عندي ثياب ، فتقول أي الثياب هي ، فتطلب منه وصفاً يميزها عندك عما يشاركها في الثوبية قال تعالى حكاية عن سليمان : أيكم يأتيني بعرشها ؟ أي الإنسي أم الجني ، وقال حكاية عن الكفار : أي الفريقين خير مقاماً ، أي أنحن أم أصحاب محمد (عن العدد)

نحْوُ : سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ . وَبِكَيْفَ عَنِ الْحَالِ ، وَبِأَيْنَ عَنِ الْمَكَانِ . وَبِمَتَى عَنِ الزَّمَانِ ، وَبِأَيَّانَ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ . قِيلَ : وَتُسْتَعْمَلُ فِي مَوَاضِعِ التَّفْخِيمِ ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى : يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ . وَأَنَّى تُسْتَعْمَلُ تَارَةً بِمَعْنَى كَيْفَ ، نحْوُ : فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ، وَأُخْرَى

قال فى المفتاح : فإذا قلت كم درهماً لك وكم رجلا رأيت فكأنك قلت أعشرون أم ثلاثون أم كذا أم كذا ، وتقول كم درهمك وكم مالك أى كم دانقاً وكم ديناراً وكم ثوبك أى كم شبراً وكم ذراعاً وكم زيد ماكث أى كم يوماً أو كم شهراً وكم رأيتك أى كم مرة وكم سرت أى كم فرسخاً أو كم يوماً ، قال الفرزدق :

كَمْ عَمَّةٍ لَكَ يَا جَرِيرُ وَخَالَةٍ فَدْعَاءَ قَدْ حَلَبَتْ عَلَى عِشَارِى

فيمن[1] روى بنصب المميز (عن الحال) فإذا قيل كيف زيد فجوابه صحيح أو سقيم أو شبح أو جزلان وما أشبه ذلك (عن المكان) فإذا قيل أين زيد ، فالجواب فى الدار أو السوق مثلا (عن الزمان) ماضياً كان أو مستقبلا ، فتقول متى جئت ، والجواب سحراً مثلا ، وتقول متى تأتى ، والجواب بعد شهر (عن المستقبل) فتقول أيان يثمر هذا الغرس ، والجواب بعد سنة مثلا (قيل) القائل هو على بن عيسى الربعى إمام أئمة بغداد فى علم النحو (نحو فأتوا حرثكم أنى شئتم) أى من أى شق أردتم بعد أن يكون المأتى

---

(١) ويكون الاستفهام على هذا للتهكم ، أى أخبرنى بعدد عماتك وخالاتك اللاتى كن يخدمننى فقد نسيته . والذى يظهر أن المراد الخبرية ، وهى قد تنصب المميز .

بِمَعْنَى مِنْ أَيْنَ ، نَحْوُ : أَنَّى لَكَ هَذَا . ثُمَّ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ كَثِيرًا مَا تُسْتَعْمَلُ فِي غَيْرِ الِاسْتِفْهَامِ ، كَالِاسْتِبْطَاءِ نَحْوُ : كَمْ دَعَوْتُكَ ، وَالتَّعَجُّبِ نَحْوُ : مَالِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ ، وَالتَّنْبِيهِ عَلَى الضَّلاَلِ ، نَحْوُ : فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ، وَالْوَعِيدِ كَقَوْلِكَ لِمَنْ يُسِيءُ الْأَدَبَ : أَلَمْ أُؤَدِّبْ فُلاَنًا ، إِذَا عَلِمَ ذَلِكَ ، وَالتَّقْرِيرِ

موضع الحرث ، قال التفتازانى : ولم يجىء أنى زيد بمعنى كيف هو (كثيراً ماتستعمل فى غير الاستفهام) على سبيل المجاز . قال التفتازانى وتحقيق كيفية هذا المجاز وبيان أنه من أى نوع من أنواعه مما لم يحم حوله أحد (نحو كم دعوتك) ومنه بيت السقط :

إِلَى مَ وَفِيمَ تَنْقُلُنَا رِكَابٌ ... وَنَأْمُلُ أَنْ يَكُونَ لَنَا أَوَانُ

(والتقرير) أى حمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه وإلجائه إليه (بإيلاء إلى آخره) أى يشترط أن يكون المقرر به تالياً للهمزة [١] كما مر أن المستفهم عنه هو مايلى الهمزة فتقول : أفعلت ، إذا أردت أن تقرره بأن الفعل كان منه ، وتقول : أأنت فعلت ، إذا أردت أن تقرره بأنه الفاعل ، وتقول : أزيداً ضربت إذا أردت أن تقرره بأن مضروبه زيد ومما جعلت الهمزة فيه للتقرير بالفاعل قوله تعالى حكاية عن قول نمروذ : أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياإبراهيم ، قال الشيخ فى دلائل الإعجاز : لاشبهة فى أنهم لم يقولوا ذلك له عليه السلام

---

(١) أى إذا كان التقرير بالهمزة فإنها هى التى تجىء للتقرير بالفعل والفاعل والمفعول بخلاف البواقى فإن هل تكون للتقرير بنفس الحكم نحو : هل ثوب الكفار ماكانوا يفعلون ، والأسماء الاستفهامية للتقرير بما يسأل بها عنه نحو : كم آتيناهم من آية بينة ، ومن الذى ضربته وهكذا .

بِإِيلَاءِ الْمُقَرَّرِ بِهِ الهمْزَةَ ، كما مَرَّ ؛ وَالْإِنْكَارِ كَذَلِكَ ، نحوُ : أَغَيْرَ اللّهِ

وهم يريدون أن يقر لهم بأن كسر الأصنام قد كان ، ولكن أن يقر بأنه منه كان كيف ، وقد أشاروا إلى الفعل فى قولهم : أأنت فعلت هذا ، وقال هو عليه السلام فى جوابهم بل فعله كبيرهم هذا ، ولو كان التقرير بالفعل لكان الجواب : فعلت أو لم أفعل (والإنكار كذلك) فيشترط أن يلى المنكر الهمزة [١] قال امرؤ القيس :

* أَيَقْتُلُنِى وَالْمَشْرَفِىُّ مُضَاجِعِى *

فهذا لإنكار الفعل ، لأنه قال والمشرفى مضاجعى ، فذكر ما يكون مانعاً من الفعل ، والمانع إنما يحتاج إليه مع من يتصور صدور الفعل منه دون من يكون فى نفسه عاجزاً عنه ، وقال الله جل شأنه : أهم يقسمون رحمة ربك ، فهذا لإنكار الفاعل ، أى ليسوا هم المتخيرين للنبوة من يصلح لها المتولين لقسم رحمة الله التى لا يتولاها إلا هو بباهر قدرته وبالغ حكمته ، وعد الزمخشرى قوله : فأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ، وقوله : أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى ، من هذا الضرب ، على أن المعنى أفأنت تقدر على إكراههم على الإيمان ، وأفأنت تقدر على هدايتهم على سبيل القسر والإلجاء ، أى إنما يقدر على ذلك الله لا أنت ، وحمل السكاكى تقديم الاسم فى هذه الآيات على البناء

---

(١) يعنى إذا كان الإنكار بالهمزة ، وأما غيرها وإن صح مجيئه للإنكار لكن لا يجرى فيه هذا التفصيل ، وهو مثل قولك : فماذا يضرك لو فعلت كذا ، وكيف تؤذى أباك وقوله :

* مِنْ أَيْنَ تَدْرِى مَا الْعَرَارُ مِنَ الرَّنْدِ *

العرار : نبت طيب الرائحة ، والرند : شجر كذلك .

تَدْعُونَ ، وَمِنْهُ : أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ، أَيْ اللهُ كَافٍ عَبْدَهُ ، لِأَنَّ إِنْكَارَ النَّفْيِ نَفْيٌ لَهُ ، وَنَفْيُ النَّفْيِ إِثْبَاتٌ ؛ وَهَذَا مُرَادُ مَنْ قَالَ إِنَّ الْهَمْزَةَ فِيهِ لِلتَّقْرِيرِ ، أَيْ بِمَا دَخَلَهُ النَّفْيُ لَا بِالنَّفْيِ ، وَلِإِنْكَارِ الْفِعْلِ صُورَةٌ أُخْرَى ، وَهِيَ نَحْوُ : أَزَيْدًا ضَرَبْتَ أَمْ عَمْرًا ، لِمَنْ يُرَدِّدُ الضَّرْبَ بَيْنَهُمَا . وَالْإِنْكَارُ إِمَّا لِلتَّوْبِيخ

على الابتداء دون تقدير التقديم والتأخير كما مر فى نحو : أنا ضربت ، فلا يفيد إلا تقوى الإنكار . وقال تعالى : أغير الله اتخذ ولياً ، فهذا لإنكار المفعول ، فإن المنكر هو اتخاذ غير الله ولياً ، وأما قوله عز وجل : أأتخذ أصناماً آلهة ، فالمنكر هو نفس اتخاذ الآلهة فلهذا ولى الفعل (ومنه) أى من مجىء الهمزة للإنكار (أليس الله بكاف عبده) ومثله قوله تعالى : ألم نشرح لك صدرك ، وألم يجدك يتيما فآوى ، وقول جرير فى عبد الملك :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا ... وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ

ولهذا كان مدحاً بل قيل إنه أمدح بيت قالته العرب (من قال) هو الزمخشرى (أى بما دخله النفى) وحينئذ يحسن أن يقال إن الهمزة للتقرير كما يحسن أنه يقال إنها للإنكار (لمن يردد الضرب بينهما) أى لمن يدعى أنه ضرب إما زيداً وإما عمراً دون غيرهما ، لأنه إذا لم يتعلق الفعل بأحدهما والتقدير أنه لم يتعلق بغيرهما فقد انتفى من أصله لا محالة . ومن هذا الباب قوله تعالى : قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، أخرج اللفظ مخرجه إذا كان قد ثبت تحريم فى أحد الأشياء ، ثم أريد معرفة عين المحرم ، مع أن المراد إنكار التحريم من أصله ، وكذا قوله : آلله أذن لكم ، إذ معلوم أن المعنى على إنكار أن يكون قد كان من الله تعالى

أيْ ما كَانَ يَنْبَغِي أنْ يكُونَ نحْوُ : أعَصَيْتَ رَبَّكَ ، أوْ لاَ يَنْبَغِي أنْ يكُونَ نَحْوُ : أتَعْصِي رَبَّكَ ؛ أوْ لِلتَّكْذِيبِ ، أيْ لَمْ يكُنْ ، نحْوُ : أفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ ، أوْ لاَ يكُونُ نحوُ : أنُلْزِمُكُمُوهَا ، وَالتَّهَكُّمِ نحْوُ : أصَلاَتُكَ تأمُرُكَ أنْ نَتْرُكَ مايَعْبُدُ آباؤُنا ، والتَّحْقِيرِ نَحْوُ : مَنْ هَذَا ، وَالتَّهْوِيلِ كَقِرَاءةِ ابْنِ عَبَّاسٍ : وَلقَدْ نجَّيْنا بَنِي إسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ

إذن فيما قالوه من غير أن يكون هذا الإذن قد كان من غير الله ، فأضافوه إلى الله ، إلا أن اللفظ أخرج مخرجه إذا كان الأمر كذلك ليكون أشد لنفى ذلك وإبطاله ، فإنه إذا نفى الفعل عما جعل فاعلا له فى الكلام ولا فاعل له غيره لزم نفيه من أصله (نحو أعصيت ربك) أى لم كان العصيان وما كان ينبغى أن يقع (نحو أتعصى ربك) مثله قولك للرجل يضيع الحق : أتنسى قديم إحسان فلان ، أتترك صحبته وتتغير عن حالك معه ، لأن تغير الزمان . وقولك للرجل يركب الخطر : أتخرج فى هذا الوقت ، أتذهب فى غير الطريق ، أتغرر بنفسك (نحو أنلزمكموها) أى أنكرهكم على قبول البينة ونقسركم على الاهتداء بها وأنتم تكرهونها لا يكون ذلك . ومن هذا الباب قول الشاعر :

أأتْرُكُ أنْ قَلَّتْ دَرَاهِمُ خَالِدٍ زِيَارَتَهُ إنِّي إذًا لَلَئِيمُ

، هذا ، وقد يكون استفهام الإنكار الذى بمعنى النفى للتوبيخ أيضاً مثل قوله تعالى : وما ذا عليهم لو آمنوا بالله ، المعنى أى تبعة عليهم فى الإيمان وترك النفاق ، وهذا الذم والتوبيخ وإلا فلكل مصلحة فيه (والتهكم) معطوف على الاستبطاء (كقراءة ابن عباس) فإن المعنى عليها أنه لما وصف الله تعالى العذاب بأنه مهين لشدته وفظاعة شأنه ، أراد أن يصور كنهه فقال :

مَنْ فِرْعَوْنُ ، بِلَفْظِ الِاسْتِفْهَامِ وَرَفْعِ فِرْعَوْنُ ، وَلِهَذَا قَالَ : إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ ، وَالِاسْتِبْعَادِ نَحْوُ : أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ . وَمِنْهَا الْأَمْرُ ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّ صِيغَتَهُ مِنَ الْمُقْتَرِنَةِ بِاللَّامِ ، نَحْوُ : لِيَحْضُرْ زَيْدٌ ، وَغَيْرِهَا ، نَحْوُ : أَكْرِمْ عَمْرًا ، وَرُوَيْدَ بَكْرًا

من فرعون ، أتعرفون من هو فى فرط عتوه وتكبره وتجبره ، ماظنكم بعذاب يكون هو المعذب به ، ثم عرف حاله بقوله : إنه كان عالياً من المسرفين «تكملة» قد يراد بالاستفهام التوبيخ والتعجيب جميعاً مثل قوله تعالى : كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم الآية ، أى كيف تكفرون والحال أنكم عالمون بهذه القصة . أما التوبيخ فلأن الكفر مع هذه الحال ينبىء عن الانهماك فى الغفلة أو الجهل ، وأما التعجيب فلأن هذه الحال تأبى أن لا يكون للعاقل علم بالصانع وعلمه به يأبى أن يكفر وصدور الفعل مع الصارف القوى مظنة تعجب ، ونظيره : أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب . والحاصل أن كلمة الاستفهام إذا امتنع حملها على حقيقته تولد منه بمعونة القرائن ما يناسب المقام ، ولا تنحصر المتولدات فيما ذكره المصنف ، ولا ينحصر أيضاً شىء منها فى أداة دون أداة بل الحاكم فى ذلك هو سلامة الذوق وتتبع التراكيب ، فلا ينبغى أن تقتصر فى ذلك على معنى سمعته أو مثال وجدته من غير أن تتخطاه ؛ بل عليك بالتصرف واستعمال الروية والله الهادى (ومنها الأمر) وهو فى اللغة استعمال صيغة دالة على طلب من المخاطب على طريق الاستعلاء (من المقترنة باللام إلى آخره) فى هذا إشارة إلى أن أقسام صيغة الأمر ثلاثة : الأول : المقترنة باللام الجازمة ويختص بما ليس الفاعل المخاطب ،

مَوْضُوعَةً لِطَلَبِ الْفِعْلِ اسْتِعْلَاءً لِتَبَادُرِ الْفَهْمِ عِنْدَ سَمَاعِهَا إِلَى ذَلِكَ الْمَعْنَى ، وَقَدْ تُسْتَعْمَلُ لِغَيْرِهِ كَالْإِبَاحَةِ نَحْوُ : جَالِسِ الْحَسَنَ أَوِ ابْنَ سِيرِينَ ، وَالتَّهْدِيدِ نَحْوُ : اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ، وَالتَّعْجِيزِ نَحْوُ : فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ، وَالتَّسْخِيرِ نَحْوُ : كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ، وَالْإِهَانَةِ نَحْوُ : كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ، وَالتَّسْوِيَةِ نَحْوُ : اصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا ، وَالتَّمَنِّي نَحْوُ * أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ

والثانى : ما يصلح أن يطلب بها الفعل من الفاعل المخاطب بحذف حرف المضارعة ، والثالث : اسم دال على طلب الفعل ، وهو عند النحاة من أسماء الأفعال ، والأولان لغلبة استعمالها فى حقيقة الأمر ، أعنى طلب الفعل على سبيل الاستعلاء ، سماهما النحويون أمراً ، سواء استعملا فى حقيقة الأمر أو فى غيرها ، حتى إن لفظ اغفر فى قولنا : اللهم اغفر لنا ، أمر عندهم . وأما الثالث : فلما كان اسماً لم يسموه أمراً تمييزاً بين البابين (رويد بكراً) رويد اسم فعل بمعنى امهل (وقد تستعمل لغيره) مما يناسب المقام بحسب القرائن نحو : (جالس الحسن أو ابن سيرين) قال السكاكى : ومن أحسن ما جاء فيه قول كثير :

أسيء بنا أوْ أحْسِنِي لا مَلُولَةً   لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةً إِنْ تَقَلَّتِ (١)

أى لا أنت ملومة ولا مقلية ، ووجه حسنه إظهار الرضا بوقوع الداخل تحت لفظ الأمر حتى كأنه مطلوب ، أى مهما اخترت فى حق من الإساءة والإحسان ، فأنا راض به غاية الرضا فعاملينى بهما ، وانظرى هل تتفاوت حالى معك فى الحالين (نحو ألا أيها الليل) وتمامه :

---

(١) تقلى : تبغض .

أَلَا انْجَلِي * وَالدُّعَاءِ نَحْوُ : رَبِّ اغْفِرْ لِي ، وَالِالْتِمَاسِ كَقَوْلِكَ لِمَنْ يُسَاوِيكَ رُتْبَةً : افْعَلْ ، بِدُونِ الِاسْتِعْلَاءِ ثُمَّ الْأَمْرُ ؛ قَالَ السَّكَّاكِيُّ : حَقُّهُ الْفَوْرُ ، لِأَنَّهُ الظَّاهِرُ مِنَ الطَّلَبِ ، وَلِتَبَادُرِ الْفَهْمِ عِنْدَ الْأَمْرِ بِشَيْءٍ بَعْدَ الْأَمْرِ بِخِلَافِهِ إِلَى تَغْيِيرِ الْأَمْرِ الْأَوَّلِ دُونَ الْجَمْعِ وَإِرَادَةِ التَّرَاخِي ، وَفِيهِ نَظَرٌ .

وَمِنْهَا النَّهْيُ ، وَلَهُ حَرْفٌ وَاحِدٌ ، وَهُوَ لَا الْجَازِمَةُ فِي نَحْوِ قَوْلِكَ : لَا تَفْعَلْ ، وَهُوَ كَالْأَمْرِ فِي الِاسْتِعْلَاءِ ، وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ فِي غَيْرِ طَلَبِ الْكَفِّ أَوِ التَّرْكِ كَالتَّهْدِيدِ ، كَقَوْلِكَ لِعَبْدٍ لَا يَمْتَثِلُ أَمْرَكَ : لَا تَمْتَثِلْ أَمْرِي : وَهَذِهِ

---

* بِصُبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ *

وهو لامرىء القيس . الانجلاء : الانكشاف ، والأمثل : الأفضل . يقول ليزل ظلامك بضياء من الصبح ثم قال : وليس الصبح بأفضل منك عندى لأنى أقاسى الهموم نهاراً كما أعانيها ليلا ، أو لأن نهارى أظلم فى عينى لازدحام الهموم على حتى حكى الليل . ولما كان الليل لا يصح أن يطلب منه الانجلاء كانت هذه الصيغة للتمنى ولم تجعل للترجى ، لأن التمنى لما بعد ، ومن شأن المحب أن يستبعد انجلاء الليل (إلى تغيير الأمر الأول الخ) قال السكاكى : فإن المولى إذا قال لعبده قم ، ثم قال له قبل أن يقوم اضطجع حتى المساء ، يتبادر الفهم إلى أنه غير الأمر بالقيام إلى الأمر بالاضطجاع ، لا أنه أراد الجمع بين القيام والاضطجاع مع تراخى أحدهما (وفيه نظر) لأن ذلك غير مسلم عند خلو المقام عن القرائن . فليس مفهوم الأمر إلا الطلب استعلاء ، والفور والتراخى مفوض إلى القرينة (ومنها النهى) وهو طلب الكف عن الفعل استعلاء (طلب الكف أو الترك) يشير بذلك إلى الخلاف الذى

الْأَرْبَعَةُ يَجُوزُ تَقْدِيرُ الشَّرْطِ بَعْدَهَا، كَقَوْلِكَ: لَيْتَ لِي مالاً أُنْفِقُهُ، أَيْ إِنْ أُرْزَقْهُ أُنْفِقْهُ، وَأَيْنَ بَيْتُكَ أَزُرْكَ، أَيْ إِنْ تُعَرِّفْنِيهِ أَزُرْكَ، وَأَكْرِمْنِي أُكْرِمْكَ، أَيْ إِنْ تُكْرِمْنِي أُكْرِمْكَ، وَلَا تَشْتُمْنِي يَكُنْ خَيْرًا لَكَ، أَيْ إِنْ لَا تَشْتُمْنِي يَكُنْ خَيْرًا لَكَ. وَأَمَّا الْعَرْضُ كَقَوْلِكَ: أَلَا تَنْزِلُ تُصِبْ خَيْرًا، فَمُوَلَّدٌ مِنَ الِاسْتِفْهَامِ، وَيَجُوزُ تَقْدِيرُ الشَّرْطِ فِي غَيْرِهَا لِقَرِينَةٍ نَحْوُ:

قائم بين الأشاعرة والمعتزلة، فإن الأشاعرة يزعمون أن مقتضى النهي كف النفس عن الفعل بالاشتغال بأحد أضداده، والآخرون ذهبوا إلى أنه ترك الفعل. وتحقيق هذا البحث مما تكفل به علم الأصول (الأربعة) يعني التمني والاستفهام والأمر والنهي (يجوز تقدير الشرط بعدها) قال التفتازاني: ووجهه ذلك أن كل كلام لابد فيه من حامل المتكلم عليه، والحامل على الكلام الخبري إفادة المخاطب بمضمونه، وعلى الطلبي كون المطلوب مقصود المتكلم إما لذاته أو لغيره يعني يتوقف ذلك الغير على حصوله وتوقف غيره على حصوله هو معنى الشرط. وإذا ذكرت الطلب ولم تذكر بعده ما يصلح توقفه على المطلوب، جوز المخاطب كون ذلك المطلوب مقصوداً لنفسه ولغيره وإن ذكرت بعد ذلك غلب على ظنه كون المطلوب مقصوداً لذلك المذكور لا لنفسه، فيكون إذن معنى الشرط في الطلب مع ذكر ذلك الشيء ظاهراً (فمولد من الاستفهام) وليس به، لأن التقدير أنه لا ينزل فالاستفهام عن عدم النزول طلب للحاصل وهو محال (النداء) هو طلب إقبال المدعو على الداعي بأحد حروف مخصوصة كائناً وأصله لنداء البعيد وقد ينزل غير البعيد منزلة البعيد لكونه نائماً أو ساهياً حقيقة، أو بالنسبة إلى الأمر الذي تناديه

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ ، أَيْ إِنْ أَرَادُوا أَوْلِيَاءَ بِحَقٍّ .

وَمِنْهَا النِّدَاءُ ، وَقَدْ تُسْتَعْمَلُ صِيغَتُهُ فِي غَيْرِ مَعْنَاهُ ، كَالْإِغْرَاءِ فِي قَوْلِكَ لِمَنْ

له يعنى أنه بلغ من علو الشأن إلى حيث أن المخاطب لا يفى بما هو حقه من السعى فيه وإن بذل وسعه واستفرغ جهده ، فكأنه غافل عنه بعيد منه ، وأى والهمزة ، وأصلهما للقريب ، وقد يستعملان فى البعيد تنبيهاً على أنه حاضر فى القلب لا يغيب عنه أصلا كقول الشاعر :

أَسُكَّانَ نُعْمَانِ الْأَرَاكِ تَيَقَّنُوا ... بِأَنَّكُمْ فِى رَبْعِ قَلْبِى سُكَّانُ

وأما يا فقال ابن الحاجب إنها حقيقة فى القريب والبعيد ، لأنها لطلب الإقبال مطلقاً ، وقال الزمخشرى إنها للبعيد ، واستعمالها فى القريب إما لاستبعاد الداعى نفسه عن مرتبة المدعو نحو يا الله ، وإما للتنبيه على معظم الأمر وعلو شأنه وأن المخاطب مع شدة حرصه على الامتثال كأنه غافل عنه نحو : يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك ، وإما للحرص على إقباله كأنه أمر بعيد نحو : ياموسى أقبل ، وإما لغير ذلك من الأغراض والمقاصد (كالإغراء) والاستغاثة كقولك : يالله من ألم الفراق ، والتعجب نحو : يا للماء والعشب والتدله والتحير والتضجر كما فى نداء الأطلال والمنازل والمطايا كقوله :

* أيا مَنازِلَ سَلْمَى أَيْنَ سَلْماكِ *

وقوله :

يا ناقَ جِدِّى فَقَدْ أَفْنَتْ أَناتُكِ بِى ... صَبْرِى وَعُمْرِى وَأَحْلاَسِى وَأَنْسَاعِى (١)

---

(١) الأناة : التأنى والأحلاس جميع حلس : وهو كساء يطرح على ظهر البعير ، والأنساع جمع نسع : وهو ما ينسج للتصدير أى للحزام فى صدر البعير .

أُقْبِلَ يَتَظَلَّمُ : يا مَظْلُومُ ، وَالِاخْتِصَاصِ فِي قَوْلِهِمْ : أَنَا أَفْعَلُ كَذَا أَيُّهَا

والتوجع والتحسر كقوله :

فَيَا قَبْرَ مَعْنٍ كَيْفَ وَارَيْتَ جُودَهُ وَقَدْ كَانَ مِنْهُ الْبَرُّ وَالْبَحْرُ مُتْرَعَا

وأمثال هذه المعانى كثيرة فى الكلام (والاختصاص) وهو إما فى معرض التفاخر نحو : أنا أكرم الضيف أيها الرجل ، أو التصاغر نحو : أنا المسكين أيها الرجل ، أو لمجرد بيان المقصود بذلك الضمير ، فكل هذا صورته صورة النداء وليس به ، لأن أيا وما جعل وصفاً له لم يرد به المخاطب بل هو عبارة عما دل عليه ضمير المتكلم السابق ولا يجوز فيه إظهار حرف النداء لأنه لم يبق فيه معنى النداء أصلا فكره التصريح بأداته ، فقوله أيها الرجل : فأى مضموم والرجل مرفوع كما فى النداء لكن بمجموعه فى محل النصب على الحال ، ولذلك قال المصنف أى مختصاً من بين الرجال . وقد يقوم مقام أى اسم منصوب إما معرف باللام نحو : نحن العرب أقرى الناس للضيف ، أو مضاف نحو إنا معاشر الأنبياء لانورث ، وربما يكون علماً كقولك :

* بِنَا تَمِيماً يُكْشَفُ الضَّبَابُ *

قال ابن الحاجب المعرف ليس منقولا عن النداء ، ونحو : أيها الرجل منقول عنه قطعاً ، والمضاف يحتمل الامرين النقل فيكون منصوباً بياء مقدرة ، وكونه مثل المعرف فيكون منصوباً بتقدير أعنى أو أخص ، قال الإمام المرزوقى فى قول الحماسى :

* إِنَّا بَنِي نَهْشَلٍ لَا نَدَّعِي لِأَبٍ *

الفرق بين أن ينصب بنى نهشل على الاختصاص ، وبين أن يرفع على

الرَّجُلُ ، أيْ مُتَخَصِّصًا مِنْ بَيْنِ الرِّجَالِ . ثُمَّ الْخَبَرُ قَدْ يَقَعُ مَوْقِعَ الْإِنْشَاءِ إِمَّا لِلتَّفَاؤُلِ ، أَوْ لِإِظْهَارِ الْحِرْصِ فِي وُقُوعِهِ ، كَمَا مَرَّ ، وَالدُّعَاءُ بِصِيغَةِ الْمَاضِي مِنَ الْبَلِيغِ يَحْتَمِلُهُمَا ، أَوْ لِلِاحْتِرَازِ عَنْ صُورَةِ الْأَمْرِ ، أَوْ لِحَمْلِ الْمُخَاطَبِ عَلَى الْمَطْلُوبِ ، بِأَنْ يَكُونَ مِمَّنْ لَا يُحِبُّ أَنْ يُكَذِّبَ الطَّالِبَ .

﴿ تَنْبِيهٌ ﴾ الْإِنْشَاءُ كَالْخَبَرِ فِي كَثِيرٍ مِمَّا ذُكِرَ فِي الْأَبْوَابِ الْخَمْسَةِ السَّابِقَةِ ، فَلْيَعْتَبِرْهُ النَّاظِرُ .

الخبرية هو أنه لو جعله خبراً لكان قصده إلى تعريف نفسه عند المخاطب وكان فعله لذلك لايخلو عن خمول فيهم وجهل من المخاطب بشأنهم ، وإذا نصب من من ذلك (قد يقع موقع الإنشاء) مجازاً (للتفاؤل) كما إذا قيل لك فى مقام الدعاء : أعاذك الله من الشبهة ، وعصمك من الحيرة ، وحبب إليك التثبت وزين فى عينك الإنصاف ، وأذاقك حلاوة التقوى ، وأودع صدرك برد اليقين ليتفاءل بلفظ المضى على عدها من الأمور الحاصلة التى حقها الإخبار عنها بأفعال ماضية (أو لاظهار الحرص فى وقوعه) لما تقدم من أن الطالب إذا عظمت رغبته فى شيء كثر تصوره إياه ، فربما يخيل إليه حاصلا فيورد بلفظ الماضى (يحتملهما) أى التفاؤل وإظهار الحرص (أو للاحتراز عن صورة الأمر) كقول العبد للمولى إذا حول عنه الوجه ينظر المولى إلى ساعة (أو لحمل المخاطب الخ) فتقول لصاحبك الذى لا يحب أن تنسب إلى الكذب : تأتيني غداً ، تحمله أبلغ حمل بألطف وجه على الإتيان

﴿ الفَصْلُ وَالْوَصْلُ ﴾

الْوَصْلُ عَطْفُ بَعْضِ الْجُمَلِ عَلَى بَعْضٍ ، وَالفَصْلُ تَرْكُهُ ، فَإِذَا أَتَتْ جُمْلَةٌ بَعْدَ جُمْلَةٍ ، فَالْأُولَى إِمَّا أَنْ يَكُونَ لَهَا مَحَلٌّ مِنَ الْإِعْرَابِ ، أَوْ لَا ، وَعَلَى الْأَوَّلِ ، إِنْ قُصِدَ تَشْرِيكُ الثَّانِيَةِ لَهَا فِي حُكْمِهِ عُطِفَتْ عَلَيْهَا كَالْمُفْرَدِ ، فَشَرْطُ كَوْنِهِ مَقْبُولاً بِالْوَاوِ وَنَحْوِهِ[1] أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمَا جِهَةٌ جَامِعَةٌ ؛

﴿ الفصل والوصل ﴾ قال الشيخ الإمام فى دلائل الإعجاز : اعلم أن العلم بما ينبغى أن يصنع فى الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف فيها والمجىء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة ، ومما لا يأتى بتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخاص ، والأقوام طبعوا على البلاغة وأوتوا فناً من المعرفة فى ذوق الكلام هم بها أفراد ، وقد بلغ من قوة الأمر فى ذلك أنهم جعلوه حداً للبلاغة ، فقد جاء عن بعضهم أنه سئل عنها فقال : معرفة الفصل من الوصل ، ذاك لغموضه ودقة مسلكه ، وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل لسائر معانى البلاغة .

وأما بعد : فإن من سنتنا فى هذا الشرح أننا عند الكلام على المبحث الذى تلتحم أجزاؤه وتشتبك كلماته ، نعمد إلى نظم شرحه فى سمط واحد ، حتى يكون على ظهر العيس وطرف الثمام فنقول :

مما يكاد يكون معروفاً أن فائدة العطف هو التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه ، وإن من الحروف العاطفة ما يفيد هذا القدر فحسب وهو

---

(١) قول المصنف ، ونحوه : أى نحو الواو ، حشو فاسد ؛ لأن هذا الحكم مختص بالواو كما ستقف عليه .

نحْوُ : زَيْدٌ يَكْتُبُ وَيَشْعُرُ ، أَوْ يُعْطِي وَيَمْنَعُ ، وَلِهذَا عِيبَ عَلَى أَبِي تمَّامٍ قَوْلُهُ :

الواو ومنها ما يفيد مع ذلك معانى مثل إن الفاء توجب الترتيب من غير تراخ وثم توجبه مع تراخ ، وأو تردد الفعل بين شيئين وتجعله لأحدهما لا بعينه . ثم العطف إما فى المفردات وإما فى الجمل . فالذى فى المفردات يقتضى تشريك الثانى فى إعراب الأول وأنه إذا أشركه فى إعرابه فقد أشركه فى حكم ذلك الإعراب ، نحو إن المعطوف على المرفوع بأنه فاعل مثله ، والمعطوف على المنصوب بأنه مفعول به أو فيه أو له شريك له فى ذلك . والذى فى الجمل ، فالجمل على ضربين : أحدهما أن يكون المعطوف عليها موضع من الإعراب وإذا كانت كذلك كان حكمها حكم المفرد ، إذ لا يكون للجملة موضع من الإعراب حتى تكون واقعة موقع المفرد ، وإذا كانت الجملة الأولى واقعة موقع المفرد كان عطف الثانية عليها جارياً مجرى عطف المفرد ، فإذا قلت : مررت برجل خلقه حسن وخلقه قبيح ، كنت قد أشركت الثانية فى حكم الأولى وذلك الحكم كونها فى موضع جر بأنها صفة للنكرة . قال الشيخ الإمام : ونظائر ذلك تكثر ، والأمر فيها يسهل . الثانى : أن تكون الجملة المعطوف عليها عارية الموضع من الإعراب نحو : زيد قائم وعمرو قاعد ، وهذا الضرب هو الذى يدق مذهبه ويغمض أمره ، وإنما تكون الدقة فى الواو دون غيرها من حروف العطف لأن تلك تفيد مع الإشراك معانى كما علمت ، فإذا عطفت بواحد منها ظهرت الفائدة ، فإذا قلت : أعطانى فشكرته ، ظهر بالفاء أن الشكر كان معقباً على العطاء ومسبباً عنه ، وإذا قلت أخرجت ثم خرج زيد ، أفادت ثم إن خروجه كان بعد خروجك وأن مهلة وقعت بينهما ، وإذا قلت : يعطيك أو يكسوك

لاَ وَالَّذِى هُوَ عَالِمٌ أَنَّ النَّوَى ✲ صَبِرٌ وَأَنَّ أَبَا الْحُسَيْنِ كَرِيمُ(١)

وإلاَّ فصلتْ عنها ، نحو : وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ، اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ، لم يعطفْ اللهُ يستهزئ على إنا معكم لأنه ليس من مقولهم ، وعلى الثاني إنْ قصدَ ربطها بها

دلت أو على أنه يفعل واحداً منهما لابعينه . أما الواو فليس لها معنى سوى الإشراك ، فإذا قلت : جاءنى زيد وعمرو ، لم تفد بالواو شيئاً أكثر من اشتراك عمرو فى المجىء الذى أثبته لزيد ولا يتصور اشتراك بين شيئين حتى يكون هناك معنى يقع ذلك الاشتراك فيه . وإذا كان ذلك كذلك ولم يكن معنا فى قولنا زيد قائم وعمرو قاعد معنى تزعم أن الواو أشركت بين هاتين الجملتين فيه كانت الدقة وثبت أن الغموض . فنقول :

هذا الضرب ـ وهو ماتكون الجملة الأولى فيه عارية الموضع من الإعراب ـ لايخلو إما أن تكون الثانية متصلة من ذات نفسها بالأولى ومستغنية بربط معناها لها عن حرف عطف يربطها بأن كانت مؤكدة لها ومبينة ، وكانت إذا حصلت لم تكن شيئاً سواها ، وهذا لايجوز إدخال العاطف عليه . . وإما أن لاتكون كذلك ، فإما أن يكون بين الثانية وبين الأولى مناسبة . وهنا يجب

---

(١) قبله :

زَعَمَتْ هَوَاكَ عَفَا الْغَدَاةَ كَمَا عَفَا ✲ عَنْهَا طِلاَلٌ بِاللِّوَى وَرُسُومُ

وبعده :

مَا خُنْتُ عَنْ سَنَنِ الْوِدَادِ وَلاَ غَدَتْ ✲ نَفْسِي عَلَى إِلْفٍ سِوَاكَ تَحُومُ

عَلَى مَعْنَى عَاطِفٍ سِوَى الْوَاوِ عُطِفَتْ بِهِ نَحْوُ : دَخَلَ زَيْدٌ فَخَرَجَ عَمْرٌو ، أَوْ : ثُمَّ خَرَجَ عَمْرٌو ، إِذَا قُصِدَ التَّعْقِيبُ أَوِ الْمُهْلَةُ ، وَ إِلَّا فَإِنْ كَانَ لِلْأُولَى حُكْمٌ لَمْ يُقْصَدْ إِعْطَاؤُهُ لِلثَّانِيَةِ فَالْفَصْلُ ، نَحْوُ : وَ إِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ ، الْآيَةَ ، لَمْ يُعْطَفْ اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ عَلَى مَا قَالُوا لِئَلَّا[1] يُشَارِكَهُ فِي الِاخْتِصَاصِ بِالظَّرْفِ ، لِمَا[2] مَرَّ ، وَ إِلَّا[3] فَإِنْ كَانَ بَيْنَهُمَا كَمَالُ الِانْقِطَاعِ بِلَا إِيهَامٍ ، أَوْ كَمَالُ الِاتِّصَالِ أَوْ شِبْهُ أَحَدِهِمَا ، فَكَذَلِكَ

ذكر العاطف ، أولا يكون بينهما مناسبة رأساً ، وهنا لايجوز ذكر العاطف . تقرير لهذا المعنى بعبارة أخرى : إن كان بين الجملتين كمال الاتصال أو كمال الانقطاع أو كانت الثانية بمنزلة المتصلة بالأولى أو بمنزلة المنقطعة عنها تعين الفصل ، وإن كان بينهما توسط بين الاتصال والانقطاع تعين الوصل . . أما كمال الانقطاع فيكون لأمر يرجع إلى الإسناد أو إلى طرفيه الأول أن تختلف الجملتان خبراً وإنشاء لفظاً ومعنى كقولهم : لاتدن من الأسد يأكلك بالرفع وقول الأخطل .

---

(١) فيلزم أن يكون استهزاء الله بهم وهو أن خذلهم وخلاهم وماسولت لهم أنفسهم مستدرجاً إياهم من حيث لايشعرون مختصاً بحال خلوهم إلى شياطينهم وليس كذلك بل هو متصل لا انقطاع له بحال (٢) من كون تقديم الظرف يفيد الاختصاص (٣) أى إن لم يكن للأولى حكم لم يقصد إعطاؤه للثانية وذلك بأن لا يكون لها حكم زائد على مفهوم الجملة أو يكون ذلك ولكن قصد إعطاؤه للثانية أيضاً .

وَإِلَّا فَالْوَصْلُ مُتَعَيِّنٌ . أَمَّا كَمَالُ الانْقِطَاعِ فَلِاخْتِلَافِهِمَا خَبَرًا وَإِنْشَاءً لَفْظاً وَمَعْنًى ، نَحْوُ :

وَقَالَ رَائِدُهُمْ أَرْسُوا نُزَاوِلُهَا * فَكُلُّ حَتْفِ امْرِئٍ يَجْرِي بِمِقْدَارِ

وقال رائدهم ارسوا نزاولها فكل حتف امرىء يجرى بمقدار[1]

لما كان أرسو إنشاء لفظاً ومعنى ، وتزاولها خبراً لفظاً ومعنى ، لم يعطف عليه ، ولم يجعل أيضاً مجزوماً جواباً للأمر ، لأن الغرض تعليل الأمر بالإرساء بالمزاولة والحال فى الجزم بالعكس . أعنى يصير الإرساء علة للمزاولة . . أو معنى فقط ، كقولك مات فلان رحمه الله . وقد جعل السكاكى مما نحن فيه قول اليزيدى :

مَلَّكْتُهُ حَبْلِي وَلَكِنَّهُ أَلْقَاهُ مِنْ زُهْدٍ عَلَى غَارِبِي

وَقَالَ إِنِّى فِى الْهَوَى كَاذِبٌ انْتَقَمَ اللهُ مِنَ الْكَاذِبِ

وحمله الإمام عبد القاهر على الاستئناف ، قال لأنه جعل نفسه كأنه يجيب سائلا قال له : فما تقول فيما اتهمك به من أنك كاذب ، فقال أقول : انتقم الله من الكاذب ، وهو ظاهر . « واعلم » أن الفصل إنما يجب فى مثل هذا مالم يكن موهماً خلاف المقصود ، وإلا وجب الوصل لتعارض المانع ، والمقتضى

---

(١) الرائد : الذى يتقدم القوم لطلب الماء والكلأ ، وأرسو : من رست السفينة إذا وقفت على المرساة ، أو من رست أقدامهم فى الحرب : أى ثبتت ، ونزاولها من المزاولة : وهى المحاولة والمعالجة فى تحصيل الشىء ، والضمير للحرب وقيل للسفينة . أما جعله للخمر فلا يناسب قوله بعد :

إِمَّا نَمُوتُ كِرَاماً أَوْ نَفُوزُ بِهَا فَوَاحِدُ الدَّهْرِ مِنْ كَدٍّ وَأَسْفَارِ

أَوْ مَعْنًى فَقَطْ ؛ نَحْوُ : مَاتَ فُلَانٌ رَحِمَهُ اللهُ ، أَوْ لِأَنَّهُ لَا جَامِعَ بَيْنَهُمَا كَمَا سَيَأْتِي . وَأَمَّا كَمَالُ الاتِّصَالِ فَلِيَكُونَ الثَّانِيَةُ مُؤَكِّدَةً لِلْأُولَى لِدَفْعِ تَوَهُّمِ تَجَوُّزٍ أَوْ غَلَطٍ ، نَحْوُ : لَا رَيْبَ فِيهِ ، فَإِنَّهُ لَمَّا بُولِغَ فِي وَصْفِهِ بِبُلُوغِهِ الدَّرَجَةَ القُصْوَى فِي الْكَمَالِ بِجَعْلِ الْمُبْتَدَإِ ذَلِكَ وَتَعْرِيفِ

إذن وليس وراء الفصل إلا الوصل . يحكى أن الصديق رضى الله عنه مر بأعرابى فى يده ثوب ، فقال له الصديق : أتبيع هذا . فقال لا يرحمك الله . فقال له الصديق : قد قومت ألسنتكم لو تستقيمون ، لا تقل هكذا ، قل لا ويرحمك الله . ويحكى أن الصاحب بن عباد قال حين سمع من بعض الناس : لا وأيدك الله ، هذه الواو أحسن من واوات الأصداغ على خدود الملاح . الثانى أن لا يكون بين الجملتين جامع ، ومن هنا عابوا أبا تمام فى قوله (١) :

لا والذى هو عالم أن النوى صبر وأن أبا الحسين كريم

وذلك أنه لامناسبة بين كرم أبى الحسين ومرارة النوى ولا تعلق لأحدهما بالآخر ، وسيأتى الكلام على الجامع . وأما كمال الاتصال فيكون لأحد أمور ثلاثة : الأول : أن تكون الثانية مؤكدة للأولى والمقتضى للتأكيد دفع توهم التجوز أو الغلط ، وهو قسمان : أحدهما أن تنزل الثانية من الأولى منزلة التأكيد

---

(١) وقد تمحل الناس لتصحيح الوصل فى البيت بأمور : منها أن مرارة النوى سبب يقتضى انتجاع أبى الحسين لمكارمه التى تزيل شظف النوى ، وقد بالغ الطيبى فى استحسانه إشارة إلى أنه جمع بين متضادين ، هما مرارة النوى وحلاوة كرم أبى الحسين ، فأبرزهما فى معرض التوخى .

الْخَبَرِ بِاللَّامِ ، جَازَ أَنْ يَتَوَهَّمَ السَّامِعُ قَبْلَ التَّأَمُّلِ أَنَّهُ مِمَّا يُرْمَى بِهِ

المعنوى من متبوعه فى إفادة التقرير مع الاختلاف فى المعنى مثل قوله تعالى(١) : الم ذلك الكتاب لا ريب فيه ، فإنه لما بولغ فى وصف الكتاب بأنه بلغ الدرجة القصوى من الكمال حيث (١) جعل المبتدأ لفظة ذلك وأدخل على الخبر حرف التعريف كان عند السامع قبل أن يتأمله مظنة أن ينظمه فى سلك ما قد يرمى به على سبيل الجزاف من غير تحقق وإيقان ، فأتبعه لا ريب فيه نفياً لذلك ، وقد أصيب به المحز ، فوزانه وزان نفسه فى قولك : جاءنى زيد نفسه ، ومثل هذا قوله جل شأنه : كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقراً . الثانى : مقرر لما أفاده الأول ، ومن اللطيف فى ذلك قوله تعالى : ماهذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ، فصل

---

(١) ذلك على تقدير أن يكون الم جملة مستقلة ، وذلك الكتاب جملة ثانية ، ولا ريب فيه جملة ثالثة ، وهناك وجوه أخر ذكرها المفسرون . هذا والذى ذكره الشيخ فى دلائل الإعجاز أن قوله لا ريب فيه بيان وتوكيد وتحقيق لقوله ذلك الكتاب وزيادة تثبيت له وبمنزلة أن تقول هو ذلك الكتاب هو ذلك الكتاب فتعيده مرة ثانية لتثبته ، وإذن يكون التوكيد لفظياً .

(٢) وأنت قد علمت أن تعريف المسند إليه بالإشارة يدل على كمال العناية بتمييزه وأنه ربما يجعل ذريعة إلى تعظيمه وبعد درجته ، وأن تعريف المسند إليه باللام يفيد الحصر حقيقة أو مبالغة ؛ فمعنى ذلك الكتاب : أنه الكتاب الكامل كأن ما عداه من الكتب فى مقابلته ناقص ، وأنه يستحق أن يسمى كتاباً كما تقول هذا هو الرجل أى الكامل فى الرجولية ، الجامع لما يكون فى الرجال من مرضيات الخصال ، وكما قال : ❊ هم القوم كل القوم يا أم خالد ❊

جُزَافًا فأَتْبِعَهُ(١) نَفْيًا لِذَلِكَ التَّوَهُّمِ ، فوزانُهُ وِزَانُ نَفْسُهُ في : جَاءَنِي زَيْدٌ نَفْسُهُ ، وَنَحْوُ : هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ، فإِنَّ مَعْنَاهُ أَنَّهُ فِي الْهِدَايَةِ بَالِغٌ دَرَجَةً لَا يُدْرَكُ كُنْهُهَا حَتَّى كَأَنَّهُ هِدَايَةٌ مَحْضَةٌ ، وَهَذَا مَعْنَى ذَلِكَ الْكِتَابُ ، لِأَنَّ مَعْنَاهُ ـ كَمَا مَرَّ ـ الْكِتَابُ الْكَامِلُ ، وَالْمُرَادُ بِكَمَالِهِ كَمَالُهُ فِي الْهِدَايَةِ ، لِأَنَّ الْكُتُبَ السَّمَاوِيَّةَ بِحَسَبِهَا تَتَفَاوَتُ فِي دَرَجَاتِ الْكَمَالِ ؛ فَوِزَانُهُ وِزَانُ

إن هذا لكونه مؤكداً للأول نفى أن يكون بشراً ، ولك (١) أن تقول الذى عليه العرف متى قيل فى حق إنسان ما هذا بشرا ، ما هو بآدمى فى حال التعظيم له والتعجب مما يشاهد منه من حسن الخلق ، والخلق هو أن يفهم منه أنه ملك فوقع قوله إن هذا إلا ملك تأكيداً للملكية ففصل ، وثانيهما أن تنزل الثانية من الأولى منزلة التأكيد اللفظى من متبوعه فى اتحاد المعنى ، مثل قوله تعالى : هدى للمتقين ، فإن معناه فى الهداية بالغ درجة لا يدرك كنهها حتى كأنه هداية محضة ، وهذا معنى قوله : ذلك الكتاب ، لأن معناه كما تقدم الكتاب الكامل ، والمراد بكماله كماله فى الهداية ، لأن الكتب السماوية بحسبها يتفاوت شأنها فى درجات الكمال . الثانى أن تكون الثانية بدلا من الأولى والمقتضى للإبدال أن تكون الأولى غير وافية بتمام المراد وإيراده ، أو كغير الوافية

---

(١) ولك أن تخرجه من التأكيد وتجعله من باب التبيين قال الشيخ الإمام لأنه إذا نفى أن يكون بشراً فقد أثبت له جنس سواه ، إذ من المحال أن يخرج من جنس البشر ثم لا يدخل فى جنس آخر ، وإذا كان كذلك كان إثباته ملكا تبييناً لذلك الجنس وتعييناً له

(٢) قول المصنف فأتبعه : أى أتبع لا ريب فيه ذلك الكتاب ، أى جعل لا ريب فيه تابعاً لذلك الكتاب .

زَيْدٌ الثَّانِي فِي جَاءَنِي زَيْدٌ زَيْدٌ ، أَوْ بَدَلاً مِنْهَا ، لِأَنَّهَا غَيْرُ وَافِيَةٍ بِتَمَامِ الْمُرَادِ أَوْ كَغَيْرِ الْوَافِيَةِ ، بِخِلَافِ الثَّانِيَةِ وَالْمَقَامُ يَقْتَضِي اعْتِنَاءً بِشَأْنِهِ لِنُكْتَةٍ ، كَكَوْنِهِ مَطْلُوبًا فِي نَفْسِهِ أَوْ فَظِيعًا أَوْ عَجِيبًا أَوْ لَطِيفًا ، نَحْوُ : أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، فَإِنَّ الْمُرَادَ التَّنْبِيهُ عَلَى نِعَمِ اللهِ تَعَالَى ، وَالثَّانِي أَوْفَى بِتَأْدِيَتِهِ لِدَلَالَتِهِ عَلَيْهَا بِالتَّفْصِيلِ مِنْ غَيْرِ إِحَالَةٍ عَلَى عِلْمِ الْمُخَاطَبِينَ الْمُعَانِدِينَ ، فَوِزَانُهُ وِزَانُ وَجْهُهُ فِي : أَعْجَبَنِي زَيْدٌ وَجْهُهُ لِدُخُولِ الثَّانِي فِي الْأَوَّلِ ، وَنَحْوُ قَوْلِهِ :

والمقام مقام اعتناء بشأنه ، إما لكونه مطلوباً فى نفسه ، أو لكونه فظيعاً أو عجيباً أو لطيفاً أو غير ذلك مما له وجهة استدعاء للاعتناء بشأنه ، فيعيده المتكلم بنظم أوفى منه على نية استئناف القصد إلى المراد ، ليظهر بمجموع القصدين إليه فى الأول ، والثانى أعنى المبدل منه والبدل مزيد الاعتناء بالشأن وهذا ضربان أحدهما أن تنزل الثانية من الأولى منزلة بدل البعض من متبوعه مثل قوله تعالى : أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون ، فإنه مسوق للتنبيه على نعم الله تعالى عند المخاطبين ، وقوله أمدكم بأنعام وبنين ، أوفى بتأديته مما قبله لدلالته عليها بالتفصيل من غير إحالة على علمهم مع كونهم معاندين ، والأمداد بما ذكر من الأنعام وغيرها بعض الأمداد بما يعلمون فوزانه وزان وجهه فى قولك أعجبنى زيد وجهه . قال السكاكى : ويحتمل الاستئناف . وثانيهما : أن تنزل الثانية من الأولى منزلة بدل الاشتمال من متبوعه ، مثل قوله تعالى : اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون ، فإن المراد به حمل المخاطبين على اتباع الرسل وقوله تعالى : اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون،

أَقُولُ لَهُ ارْحَلْ لاَ تُقِيمنَّ عِنْدَنا ** وَإلاَّ فَكُنْ فى السِّرِّ والْجَهْرِ مُسْلِمَا

فإنَّ المُرَادَ بِهِ كَمَالُ إظْهَارِ الْكَرَاهَةِ لإقَامَتِهِ ، وقَوْلُهُ لاَ تُقِيمَنَّ عِنْدَنا أَوْفَى بتأدِيَتِهِ لِدَلاَلَتِهِ عَلَيْهِ بالْمُطَابَقَةِ مَعَ التأكِيد ، فوِزَانُهُ وِزَانُ حُسْنُهَا فى : أعْجَبَنى الدّارُ حُسْنُها ، لأنّ عدم الإقامة مغاير للارتحال

أوفى بتأدية ذلك ، لأن معناه اتبعوا من لا تخسرون معهم شيئاً من دنياكم وتربحون صحة دينكم ، فينتظم لكم خير الدنيا وخير الآخرة ، ومن ذلك قول القائل :

أقول له ارحل لا تقيمن عندنا ** وإلا فكن فى السر والجهر مسلما

فإن المقصود من كلامه هذا إظهار الكراهة لإقامته بسبب خلاف سر العلن ؛ وقوله لا تقيمن عندنا أوفى بتأدية هذا المقصود من قوله ارحل لدلالة ذلك عليه بالتضمن مع التجرد عن التأكيد ، ودلالة هذا عليه بالمطابقة مع التأكيد ، ووزان الثانية فى الآية والبيت وزان حسنها فى قولك : أعجبتنى الدار حسنها ، لأن معناها مغاير لمعنى ما قبلها وغير داخل فيه مع ما بينهما من الملابسة .

الثالث : أن تكون الثانية (١) بياناً للأولى ، وذلك بأن تنزل منها منزلة عطف

---

(١) وقد تعطف الجملة التى تصلح بياناً للأولى عليها تنبيهاً على استقلالها ومغايرتها لها ، ومن هذا قوله تعالى فى سورة إبراهيم : يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ، مع الواو ، وقد قال فى سورة البقرة يذبحون من غير واو فحيث طرح الواو جعل التذبيح تفسيراً للعذاب وبياناً له ، حيث أثبت جعل التذبيح لأنه أوفى على جنس العذاب ، وزاد عليه زيادة ظاهرة كأنه جنس آخر .

وَغَيْرُ دَاخِلٍ فِيهِ مع ما بَيْنَهُمَا مِنَ الْمُلَابَسَةِ ، أَوْ بَيَانًا لَهَا ، لِخَفَائِهَا ، نَحْوُ :
فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ
لَا يَبْلَى ، فإنَّ وِزَانَهُ وِزَانُ عُمَرَ في قَوْلِهِ :

* أَقْسَمَ بِاللهِ أَبُو حَفْصٍ عُمَرْ *

وأمَّا كَوْنُهَا كالْمُنْقَطِعَةِ عَنْهَا فَلِكَوْنِ عَطْفِهَا عَلَيْهَا مُوهِمًا لِعَطْفِهَا
عَلَى غَيْرِهَا ، ويُسَمَّى الْفَصْلُ لِذَلِكَ قَطْعًا ، مِثَالُهُ :

وَتَظُنُّ سَلْمَى أَنَّنِي أَبْغِي بِهَا * بَدَلًا أَرَاهَا فِي الضَّلَالِ تَهِيمُ

البيان من متبوعه في إفادة الإيضاح ، والمقتضى للتبيين أن يكون في الأولى نوع خفاء مع اقتضاء المقام إزالته مثل قوله تعالى : فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ، فصل جملة قال عما قبلها لكونها تفسيراً له وتبييناً ، فوزانه وزان عمر في قول الأعرابي : أقسم بالله أبو حفص عمر ، أما كون الثانية بمنزلة المنقطعة عن الأولى ، فلكون عطفها عليه موهماً لعطفها على غيرها ، ويسمى الفصل لذلك قطعاً ، مثاله قول الشاعر :

وتظن سلمى أنني أبغي بها * بدلا أراها في الضلال تهيم

لم يعطف أراها كي لا يحسب السامع العطف على أبغي ، ويعد أراها في الضلال تهيم من مظنونات سلمى في حق الشاعر ، وليس هو بمراد ، بل المراد أنه حكم للشاعر عليها بذاك ، وليس بمستبعد أن يكون قد قطع أراها ليقع جواباً لسؤال مقدر على سبيل الاستئناف ، وإياك أن ترى الفصل لأجل الوزن فما هو هناك . . وأما كونها بمنزلة المتصلة بها فلكونها جواباً عن سؤال اقتضته الأولى ، فتنزل منزلته ، فتنفصل الثانية

وَيَحْتَمِلُ الِاسْتِئْنَافَ . وَأَمَّا كَوْنُهَا كَالْمُتَّصِلَةِ بِهَا فَلِكَوْنِهَا جَوَابًا لِسُؤَالٍ اقْتَضَتْهُ الْأُولَى ، فَتُنَزَّلُ مَنْزِلَتَهُ ، فَتُفْصَلُ عَنْهَا ، كَمَا يُفْصَلُ الْجَوَابُ عَنِ السُّؤَالِ . السَّكَّاكِيُّ : فَيُنَزَّلُ ذَلِكَ مَنْزِلَةَ الْوَاقِعِ ، لِنُكْتَةٍ كَإِغْنَاءِ السَّامِعِ عَنْ أَنْ يَسْأَلَ أَوْ أَنْ لَا يُسْمَعَ مِنْهُ شَيْءٌ ، وَيُسَمَّى الْفَصْلُ لِذَلِكَ اسْتِئْنَافًا ، وَكَذَا الثَّانِيَةُ ، وَهُوَ ثَلَاثَةُ أَضْرُبٍ ، لِأَنَّ السُّؤَالَ إِمَّا عَنْ سَبَبِ الْحُكْمِ مُطْلَقًا ، نَحْوُ :

قَالَ لِي كَيْفَ أَنْتَ قُلْتُ عَلِيلٌ ... سَهَرٌ دَائِمٌ وَحُزْنٌ طَوِيلٌ

عنها كما يفصل الجواب عن السؤال . قال السكاكى : النوع الثانى من الحالة المقتضية للقطع أن يكون الكلام السابق بفحواه كالمورد للسؤال ، فينزل ذلك منزلة الواقع ، ويطلب بهذا الثانى وقوعه جواباً له فيقطع عن الجواب السابق لذلك وتنزيل السؤال بالفحوى منزلة الواقع لا يصار إليه إلا لجهات لطيفة ، إما لتنبيه السامع على موقعه ، أو لإغنائه أن يسأل : أو لئلا يسمع منه شيء ، أو لئلا ينقطع كلامك بكلامه ، أو للقصد إلى تكثير المعنى بتقليل اللفظ وهو تقدير السؤال وترك العاطف ، أو لغير ذلك مما ينخرط فى هذا السلك ، ويسمى الفصل لذلك استئنافاً ، وكذا الجملة الثانية أيضاً تسمى استئنافاً ، والاستئناف ثلاثة أضرب لأن السؤال الذى تضمنته الجملة الأولى إما عن سبب الحكم فيها مطلقاً كقوله :

قال لى كيف أنت، قلت عليل ... سهر دائم وحزن طويل

لما كان فى العادة إذا قيل فلان عليل ، أن يسأل عن سبب علته وموجب مرضه ، فيقال ما به وما علته قدر كأنه قيل له ذلك فأتى بقوله سهر دائم جوابا عن هذا السؤال المفهوم من فحوى الحال ، وكذلك قول المعرى :

أيْ مَا بالُكَ عَليلاً أوْ ما سَبَبُ عِلّتِكَ ، وَ إمَّا عَنْ سَبَبٍ خَاصٍّ ، نحْوُ : وما أُبَرِّىءُ نَفْسِي إنّ النّفْسَ لَأمّارَةٌ بِالسُّوءِ ، كأنّهُ قِيلَ هَلِ النّفْسُ أمّارَةٌ بِالسُّوءِ ؟ فَقِيلَ إنّ النّفْسَ لَأمّارَةٌ بِالسُّوءِ ؛ وَهَذَا الضَّرْبُ يَقْتَضِي تَأْكِيدَ الْحُكْمِ كَمَا مَرّ ، وَ إمّا عَنْ غَيْرِهِما ، نحْوُ : قَالُوا سَلاَمَاً قَالَ سَلاَمٌ ، أَيْ فَمَاذا قالَ ، وَقَوْلِهِ :

زَعَمَ الْعَوَاذِلُ أنّنِي فِي غَمْرَةٍ * صَدَقُوا وَلَكِنْ غَمْرَتِي لاَ تَنْجَلِي

وقدْ غَرِضْتُ مِنَ الدُّنْيا فَهَلْ زَمَنِي مُعْطٍ حَيَاتِي لِغِرٍّ بَعْدُ مَا غَرِضَا(١)

جرّبْتُ دَهْرِي وَأهْلِيهِ فَمَا تَرَكَتْ لِيَ التّجَارِبُ فِي وُدِّ امْرِىءٍ غَرَضَا

لم يصل جربت بالعطف على غرضت بناء على سؤال ينساق إليه معنى البيت الأول وهو : لم تقول ويحك هـذا ، وما الذى اقتضاك أن تطوى كشحك عن الحياة إلى هذه الغاية ، وإما عن سبب خاص له كقوله تعالى : وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء ، كأنه قيل هل النفس أمارة بالسوء ، فقيل نعم إن النفس لأمارة بالسوء ، وهذا الضرب يقتضى تأكيد الحكم كما مر فى باب أحوال الإسناد أن المخاطب إن كان متردداً فى الحكم طالباً له حسن تقويته بؤكد . . وإما عن غيرهما كقول الشاعر :

زعم العواذل أننى فى غمرة صدقوا ولكن غمرتى لاتنجلى

فإنه لما أبدى الشكاية من جماعات العذال ، كان ذلك مما يحرك السامع ليسأل أصدقوا فى ذلك أم كذبوا ، فأخرج الكلام مخرجه إذا كان ذلك قدقيل

---

(١) غرضت : ضجرت .

وَأَيْضًا مِنْهُ مَا يَأْتِي بِإِعَادَةِ اسْمِ مَا اسْتُؤْنِفَ عَنْهُ ، نَحْوُ : أَحْسَنْتَ إِلَى

له ففصل وطبق بذلك المفصل ، ومثله قول جندب بن عمار :

زَعَمَ الْعَوَاذِلُ أَنَّ نَاقَةَ جُنْدَبٍ بِجَنُوبِ خَبْتٍ عُرِّيَتْ وَأُجِمَّتِ
كَذَبَ الْعَوَاذِلُ لَوْ رَأَيْنَ مُنَاخَنَا بِالْقَادِسِيَّةِ قُلْنَ لَجَّ وَذَلَّتِ

وقد زاد هنا أمر الاستئناف وتقدير الجواب تأكيداً بأن وضع الظاهر موضع المضمر ، فقال كذب العواذل ولم يقل كذبن ، وذلك أنه لما أعاد ذكر العواذل ظاهراً كان ذلك أبين وأقوى لكونه كلاماً مستأنفاً من حيث وضعه وضعاً لا يحتاج فيه إلى ماقبله ، وأتى به مأتى ماليس قبله كلام ، ومن الحسن البين فى هذا الباب قول الوليد بن يزيد :

عَرَفْتُ الْمَنْزِلَ الْخَالِي عَفَا مِنْ بَعْدِ أَحْوَالِ
عَفَاهُ كُلُّ حَنَّانٍ عَسُوفِ الْوَبْلِ هَطَّالِ

لما قال عفا من بعد أحوال ، قدر كأنه قيل له فما عفاه ، فقال عفاه كل حنان ، ومثله قول المتنبي :

وَمَا عَفَتِ الرِّيَاحُ لَهُ مَحَلًّا عَفَاهُ مَنْ حَدَا بِهِمْ وَسَاقَا

فإنه لما نفى أن يكون الذى يرى به من الدروس والعفاء من الرياح ، وأن تكون التى فعلت ذلك ، كان مظنة أن يسأل عن الفاعل . قال الشيخ الإمام : واعلم أن الذى تراه فى التنزيل من لفظ قال مفصولا غير معطوف ، هذا هو التقدير فيه والله أعلم ، أعنى مثل قوله تعالى : هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً ، قال سلام قوم منكرون ، فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين ، فقربه إليهم قال ألا تأكلون ، فأوجس منهم خيفة قالوا

زَيْدٍ زَيْدٌ حَقِيقٌ بِالْإِحْسَانِ ؛ وَمِنْهُ مَا يُبْنَى عَلَى صِفَتِهِ ، نَحْوُ : أَحْسَنْتَ إِلَى زَيْدٍ صَدِيقِكَ الْقَدِيمِ أَهْلٌ لِذَلِكَ ، وَهَذَا أَبْلَغُ ، وَقَدْ يُحْذَفُ صَدْرُ الِاسْتِئْنَافِ ، نَحْوُ : يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ ، فِيمَنْ قَرَأَهَا مَفْتُوحَةَ الْبَاءِ ، وَعَلَيْهِ : نِعْمَ الرَّجُلُ زَيْدٌ ، عَلَى قَوْلٍ ، وَقَدْ يُحْذَفُ كُلُّهُ ، إِمَّا مَعَ قِيَامِ شَيْءٍ مَقَامَهُ ، نَحْوُ قَوْلِ الْحَمَاسِيِّ :

زَعَمْتُمْ أَنَّ إِخْوَتَكُمْ قُرَيْشٌ ٭ لَهُمْ إِلْفٌ وَلَيْسَ لَكُمْ إِلَافُ

لاتخف ، لما كان فى العرف والعادة فيما بين المخلوقين إذا قيل لهم دخل قوم على فلان فقالوا كذا أن يقولوا فما قال هو ، ويقول المجيب قال كذا أخرج الكلام ذلك المخرج لأن الناس خوطبوا بما يتعارفونه وسلك باللفظ معهم المسلك الذى يسلكونه ، وكذلك قوله : قال ألا تأكلون ، وقوله : قالوا لاتخف « تقسيم آخر للاستئناف » الاستئناف منه ما يأتى بإعادة اسم ما استؤنف عنه كقولك : أحسنت إلى زيد زيد حقيق بالإحسان ، ومنه ما يبنى على صفته كقولك : أحسنت إلى زيد صديقك القديم أهل لذلك . وهذا أبلغ لانطوائه على بيان السبب « تقسيم ثالث » الاستئناف قد يحذف صدره لقيام قرينة كقوله تعالى : يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال ، فيمن قرأ يسبح مبنياً للمفعول ومنه قولهم : نعم الرجل أو رجلا زيد ، وبئس الرجل أو رجلا عمرو على القول بأن المخصوص خبر مبتدأ محذوف أى هو زيد كأنه لما قيل ذلك فأبهم الفاعل بجعله معهوداً ذهنياً مظهراً أو مضمراً ، سئل عن تفسيره : فقيل هو زيد ثم حذف المبتدأ . . وقد يحذف كله ويقام ما يدل عليه مقامه كقول مساور بن هند يهجو بنى أسد :

زعمتم أن إخوتكم قريش   لهم إلف وليس لكم إلاف

أَوْ بِدُونِ ذَلِكَ ، نَحْوُ : فَنِعْمَ المَاهِدُونَ ، أَيْ نَحْنُ ، عَلَى قَوْلٍ . وَأَمَّا الْوَصْلُ لِدَفْعِ الْإِيهَامِ فَكَقَوْلِهِمْ : لاَ وَأَيَّدَكَ اللهُ . وَأَمَّا لِلتَّوَسُّطِ فَإِذَا اتَّفَقَتَا خَبَرًا أَوْ إِنْشَاءً لَفْظًا وَمَعْنًى أَوْ مَعْنًى فَقَطْ بِجَامِعٍ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا

أُولَئِكَ أُومِنُوا جُوعًا وَخَوْفًا * وَقَدْ جَاءَتْ بَنُو أَسَدٍ وَخَافُوا

التقدير أصدقنا أم كذبنا ، فقال تقديراً كذبتم والدليل على ذلك قوله لهم إلف وليس لكم إلاف ، ويجوز أن يقدر لهم إلف جواب سؤال اقتضاه الجواب المحذوف كأن المتكلم قال كذبتم ، فقالوا لم كذبنا ، فقال لهم إلف ، وقد يحذف ولا يقام شيء مقامه[1] كقوله تعالى : فنعم الماهدون ، أي نحن على قول من يجعل المخصوص خبر المبتدأ أي هم نحن . وأما ، الوصل للتوسط بين حالتي كمال الانقطاع وكمال الاتصال ، فإذا اتفق الجملتان خبراً أو طلباً لفظاً ومعنى أو معنى فقط مع جامع بينهما ، كقوله تعالى: إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم ، وقوله : يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، وقوله : يخادعون الله وهو خادعهم ، هذا في المتفقتين خبراً لفظاً ومعنى ، وقوله : كلوا واشربوا ولا تسرفوا ، وهذا في المتفقتين إنشاء لفظاً ومعنى وكقوله تعالى : وإذ

---

(١) لك أن تقول الفصل لا يعقل إلا بين كلامين منطوق بهما ، فإذا كانت الجملة المستأنفة محذوفة فكيف يسمى ذلك فصلا ، إلا أن يقال إن المصنف استطرد إلى أنواع الجملة المستأنفة ولم يسمه فصلا فليس من هذا الباب.

وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ، أَيْ لَا تَعْبُدُوا وَتُحْسِنُونَ ؛ بِمَعْنَى أَحْسِنُوا أَوْ وَأَحْسِنُوا . وَالْجَامِعُ بَيْنَهُمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ بِاعْتِبَارِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِمَا وَالْمُسْنَدَيْنِ جَمِيعًا ، نَحْوُ : يَشْعُرُ زَيْدٌ وَيَكْتُبُ وَيُعْطِي وَيَمْنَعُ ، وَزَيْدٌ شَاعِرٌ وَعَمْرٌو كَاتِبٌ ، وَزَيْدٌ طَوِيلٌ وَعَمْرٌو قَصِيرٌ لِمُنَاسَبَةٍ بَيْنَهُمَا ، بِخِلَافِ زَيْدٌ شَاعِرٌ وَعَمْرٌو كَاتِبٌ ، بِدُونِهَا ، وَزَيْدٌ شَاعِرٌ

أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا ، فعطف قوله وقولوا على قوله لا تعبدون ، لأنه بمعنى لا تعبدوا ، وأما قوله : وبالوالدين إحساناً فتقديره إما ، وتحسنون بمعنى وأحسنوا ، و إما وأحسنوا ، وهذا أبلغ من صريح الأمر والنهى لأنه كأنه سورع إلى الامتثال والانتهاء فهو يخبر عنه ، والجامع ، بين الجملتين يجب أن يكون باعتبار المسند إليه فى هذه والمسند إليه فى هذه وباعتبار المسند فى هذه والمسند فى هذه جميعاً كقولنا : يشعر زيد ويكتب ويعطى ويمنع ، وقولك : زيد شاعر وعمرو كاتب وزيد طويل وعمرو قصير ، إذا كان عمرو بسبب من زيد وكانا كالنظيرين والشريكين ، وبحيث إذا عرف السامع حال الأول عناه أن يعرف حال الثانى ، بخلاف قولنا : زيد شاعر وعمرو كاتب إذا لم يكونا كذلك ، بخلاف قولنا زيد شاعر وعمرو طويل ، كان كذلك أو لا . قال الشيخ فى دلائل الإعجاز : اعلم أنه كما يجب أن يكون المحدث عنه فى إحدى الجملتين بسبب من المحدث عنه فى الأخرى ، كذلك ينبغى أن يكون الخبر عن الثانى مما يجرى مجرى الشبيه والنظير أو النقيض للخبر عن الأول ، فلو قلت

وَعَمْرٌو طويلٌ مُطْلَقاً . « السَّكاكِيُّ » الْجَامِعُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ : إِمَّا عَقْلِيٌّ بِأَنْ يكُونَ بَيْنَهُمَا اتِّحَادٌ فِي التَّصَوُّرِ أَوْ تَمَاثُلٌ ، فإِنَّ الْعَقْلَ بِتَجْرِيدِهِ الْمِثْلَيْنِ عَنِ التَّشَخُّصِ فِي الْخَارِجِ يَرْفَعُ التَّعَدُّدَ ، أَوْ تَضَايُفٌ كَمَا بَيْنَ الْعِلَّةِ وَالْمَعْلُولِ أَوِ الْأَقَلِّ وَالْأَكْثَرِ ، أَوْ وَهْمِيٌّ بِأَنْ يَكُونَ بَيْنَ تَصَوُّرَيْهِمَا شِبْهُ تَمَاثُلٍ كَلَوْنَيْ بَيَاضٍ وَصُفْرَةٍ ، فإِنَّ الْوَهْمَ يُبْرِزُهُمَا فِي مَعْرِضِ الْمِثْلَيْنِ ، وَلِذَلِكَ حَسُنَ الْجَمْعُ بَيْنَ الثَّلَاثَةِ الَّتِي فِي قَوْلِهِ :

زيد طويل القامة وعمرو شاعر كان خلفا . » هذا ، وقد قال السكاكى الجامع بين الجملتين : إما عقلى أو وهمى أو خيالى . فالعقلى أن يكون بينهما اتحاد فى تصور مثل الاتحاد فى المخبر عنه أوفى الخبر أوفى قيد من قيودهما ، أو تماثل ، فإن العقل بتجريده المثلين عن التشخص فى الخارج يرفع التعدد عن البين ، أو تضايف كالذى بين العلة والمعلول ، والسبب والمسبب ، أو السفل والعلو ، والأقل والأكثر ، فالعقل يأبى أن لا يجتمعا فى الذهن وأن العقل سلطان مطاع . والوهمى هو أن يكون بين تصوريهما شبه تماثل ، نحو أن يكون المخبر عنه فى أحدهما لون بياض ، وفى الثانية لون صفرة ، فإن الوهم يحتال فى أن يبرزهما فى معرض المثلين ، وكم للوهم من حيل وإلا فعليك بقوله :

---

(١) ربما تقول إن هذا يشعر بأنه يكفى للوصل أن يكون الجامع بين المخبر عنها فقط أو المخبر بها فقط ، وأنت قد قلت آنفاً خلاف ذلك ، فإنا نقول كلام السكاكى هنا ليس إلا فى بيان الجامع بين الجملتين ، وأما إن أى قدر من الجامع يجب لصحة الوصل فمفوض إلى مكان آخر .

ثَلَاثَةٌ تُشْرِقُ الدُّنْيَا بِبَهْجَتِهَا * شَمْسُ الضُّحَى وَأَبُو إِسْحَقَ وَالْقَمَرُ

أَوْ تَضَادٌ ، كَالسَّوَادِ وَالْبَيَاضِ وَالْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ ، وَمَا يَتَّصِفُ بِهَا ، كَالْأَبْيَضِ وَالْأَسْوَدِ وَالْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ ، أَوْ شِبْهِ تَضَادٍّ ، كَالسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالْأَوَّلِ وَالثَّانِي ، فَإِنَّهُ يُنَزِّلُهُمَا مَنْزِلَةَ التَّضَايُفِ ، وَلِذَلِكَ تَجِدُ الضِّدَّ أَقْرَبَ خُطُورًا بِالْبَالِ مَعَ الضِّدِّ ، أَوْ خَيَالِيٌّ ، بِأَنْ يَكُونَ بَيْنَ تَصَوُّرَيْهِمَا تَقَارُنٌ فِي الْخَيَالِ سَابِقٌ ، وَأَسْبَابُهُ مُخْتَلِفَةٌ ، وَلِذَلِكَ اخْتَلَفَتِ الصُّوَرُ

ثلاثة تشرق الدنيا بهجتها شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر

وقل لى : ما الذى حسن الجمع بين الشمس وأبى إسحق والقمر هذا التحسين سواه أو بقوله :

إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْمَرْءِ فِي الْخَلْقِ مَطْمَعٌ فَذُو التَّاجِ وَالسَّقَّاءُ وَالذَّرُّ وَاحِدُ

أو تضاد كالسواد والبياض والهمس والجهارة والطيب والنتن ، وكالتحرك والسكون ، والقيام والقعود ، والإيمان والكفر ، وكالمتصفات بذلك فى نحو : الأسود والأبيض ، والمؤمن والكافر ، أو شبه تضاد كالذى بين نحو : السماء والأرض ، والسهل والجبل ، والأول والثانى ، فإن الوهم ينزل المتضادين والشبيهين بهما منزلة المتضايفين فيجتهد فى الجمع بينهما فى الذهن ، ولذلك تجد الضد أقرب خطوراً بالبال مع الضد ، والخيال هو أن يكون بين تصوريهما تقارن فى الخيال سابق لأسباب مؤدية إلى ذلك ، فإن جميع ما يثبت فى الخيال مما يصل إليه من الخارج يثبت فيه على نحو ما يتأدى إليه ويتكرر لديه ، ولذلك لما لم تكن الأسباب على وتيرة واحدة فيما بين البشر ، اختلفت الحال

الثَّابِتَةُ فِى الْخَيَالِ تَرَتُّبًا وَوُضُوحًا ، وَلِصَاحِبِ عِلْمِ الْمَعَانِى فَضْلُ احْتِيَاجٍ إِلَى مَعْرِفَةِ الْجَامِعِ ، لاَ سِيَّمَا الْخَيَالِىُّ ، فَإِنَّ جَمْعَهُ عَلَى مَجْرَى الْإِلْفِ وَالْعَادَةِ

فى ثبوت الصور فى الخيالات ترتباً ووضوحاً فكم من صور تتعانق فى الخيال وهى فى آخر ليست تتراءى ، وكم من صور لا تكاد تلوح فى الخيال وهى فى غيره نار على علم . يحكى أن جماعة من ذوى الحرف المختلفة وصفوا الكلام . فقال الجوهرى : أحسن الكلام ماثقبته الفكرة ونظمته الفطنة ، وفصل جوهر معانيه فى سمط ألفاظه فحملته نحور الرواة . وقال الصيرفى : خير الكلام ما نقدته يد البصيرة ، وجلته عين الروية ، ووزنه معيار الفصاحة ، فلا ينطق فيه بزائف ، ولا يسمع فيه ببهرج . وقال الصائغ : خير الكلام ما أحميته بكير الفكر وسبكته بمشاعل النظر وخلصته من خبث الإطناب ، فبرز بروز الإبريز مركباً فى معنى وجيز . وقال الحداد : أحسن الكلام ما نصبت عليه منفاخ الروية وأشعلت فيه نار البصيرة ، ثم أخرجته من فحم الإفحام ، ورققته بمطيس الأفهام . وقال النجار : أحسن الكلام ما طبخته مراجل العلم ، وضمنته دنان الحكمة وصفاه راووق الفهم ، فتمشت فى المفاصل عذوبته وفى الأفكار رقته ، وسرت فى تجاويف العقل سورته وحدته . وقال البزاز : أحسن الكلام ما صدق رقم ألفاظه وحسن رسم معانيه ، فلم يستعجم عند نشر ، ولم يستبهم عند طى . وقال الكحال : أصح الكلام ما سحقته فى منجار الذكاء ، ونخلته بحرير التمييز ، وكما أن الرمد قذى العين ، كذا الشبهة قذى البصائر ، فاكحل عين اللكنة بميل البلاغة ، وأجل رمد الغفلة ببرود اليقظة . ولصاحب علم المعانى فضل احتياج فى هذا الفن إلى التنبه لأنواع هذا الجامع والتيقظ لها ، لا سيما النوع الخيالى ، فإن جمعه على مجرى الإلف والعادة ، بحسب ما تنعقد الأسباب فى استيداع

الصور خزانة الخيال ، فقل لى إذ لم يوفه حقه من التيقظ وأنه من أهل المدر ، أنى يستحلى كلام رب العزة مع أهل الوبر ، حيث يبصرهم الدلائل ناسقاً كذلك النسق : أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ، لبعد البعير عن خياله فى مقام النظر ثم لبعده فى خياله عن السماء وبعد خلقه عن رفعها ، وكذا البواقى لكن إذا وفاه حقه بتيقظه لما عليه تقلبهم فى حاجاتهم جاء الاستحلاء ، وذلك إذا نظر أن أهل الوبر إذا كان مطعمهم ومشربهم وملبسهم من المواشى كانت عنايتهم مصروفة لامحالة إلى أكثرها نفعاً وهى الإبل ، ثم إذا كان انتفاعهم بها لا يتحصل إلا بأن ترعى وتشرب كان جل مرمى غرضهم نزول المطر ، وأهم مسارح النظر عندهم السماء ثم إذا كانوا مضطرين إلى مأوى يأويهم وإلى حصن يتحصنون فيه ، ولا مأوى ولا حصن إلا الجبال .

لَنَا جَبَلٌ يَحْتَلُّهُ مَنْ نُجِيرُهُ مَنِيعٌ يَرُدُّ الطَّرْفَ وَهُوَ كَلِيلُ

فما ظنك بالتفات خاطرهم إليها ، ثم إذا تعذر طول مكثهم فى منزل — ومن لأصحاب مواش بذلك — كان عقد الهمة عندهم بالتنقل من أرض إلى سواها من عزم الأمور ، فعند نظره هذا أيرى البدوى إذا أخذ يفتش عما فى خزانة الصور له لايجد صورة الإبل حاضرة هناك ، أو لايجد صورة السماء لها مقارنة أو تعوزه صورة الجبال بعدهما أو لاتنصاع إليه صورة الأرض بعدهن ؟ لا — وإنما الحضرى حيث لم تتآخذ عنده تلك الأمور ، وما جمع خياله تلك الصور على ذلك الوجه إذا تلا الآية قبل أن يقف على ما ذكرت ظن النسق بجهله معيبا . . هذا أذاقك الله حلاوة العلم وأشعر قلبك برد اليقين هو لباب ماقالوه

فى المُضِىِّ وَالمُضَارَعَةِ ، إلَّا لِمانِـعٍ .

﴿ تَذْنِيبٌ ﴾

أَصْلُ الْحَالِ المُنتَقِلَةِ أَنْ تَـكُونَ بِغَيْرِ وَاوٍ ، لِأَنَّهَا فى المَعْنَى حُـكْمٌ

فى باب الفصل والوصل ، استخرجناه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين (إلا لمانع) كما إذا أريد بإحداهما التجدد ، وبالأخرى الثبوت كما إذا كان زيد وعمرو قاعدين ، ثم قام زيد دون عمرو ، فإنك تقول قام زيد وعمرو قاعد . قال السكاكى : وعلى هذا قوله تعالى : سواء عليكم ادعوتموهم أم أنتم صامتون ، المعنى سواء عليكم أحدثتم الدعوة لهم أم استمر عليكم صمتكم عن دعائهم لأنهم كانوا إذا حزبهم أمر دعوا الله دون أصنامهم ، قال تعالى : وإذا مس الناس ضر الآية ، فكانت حالهم المستمرة أن يكونوا عن دعوتهم صامتين ﴿تذنيب﴾ لما كانت الحال الواقعة جملة تارة تدخلها الواو ، وأخرى لا تدخل ، صار لها فى الصورة حالتا فصل ووصل ، فناسب أن يذكر ذلك عقب الكلام على الفصل والوصل . وبعد ، فقد علمت أن من سنتنا فى شرح هذا الكتاب أننا عند الكلام على المبحث الذى تلتحم أجزاؤه وتشتبك كلماته ، نعمد إلى نظم شرحه فى سمط واحد حتى يكون هين المتناول سهل المأخذ ، فنقول : الغرض الآن هو بيان أن الحال إذا وقعت جملة تجىء تارة مع الواو وأخرى بغير واو ، والكلام فى ذلك مستدع تمهيد قاعدة ، وهى أن الحال نوعان : حال بالإطلاق (١) وحال تسمى مؤكدة ، ولكل واحد من النوعين أصل فى الكلام ، ولها معاً نهج فى الاستعمال واحد ، فأصل الثانى أن يكون وصفاً ثابتاً نحو : هو الحق بيناً ، وزيد أبوك شفيقاً ، وفى التنزيل :

---

(١) وهى التى تسمى المنتقلة

عَلَى صَاحِبِهَا كَالْخَبَرِ ، وَوَصْفٌ لَهُ كَالنَّعْتِ ، لَـكِنْ خُولِفَ هَذَا إِذَا

إنا أنزلناه قرآناً عربياً ، وأصل الأول أن يكون وصفاً غير ثابت من الصفات الجارية كاسم الفاعل واسم المفعول نحو جاء زيد راكباً ، وضربت اللص مكشوفاً ، ويمتنع أن يقال : جاء زيد طويلا أو قصيراً ، أو أسود أو أبيض ، اللهم إلا بتأويل ، ونهجهما فى الاستعمال أن يأتيا عاريين عن حرف النفى كما يقال هو الحق بينا دون لا خفيا ، وجاء زيد راكباً دون لا ماشياً . والأصل[1] فى النوعين أن يكونا بغير الواو لوجوه : الأول : أن إعراب الحال أصل ليس يتبع ولا مجال للواو فى المعرب بالإصالة لأن الإعراب دال على تعلق معنوى هنالك ، فذلك التعلق يكون مغنياً عن تكلف تعلق آخر . الثانى : إن حكم الحال مع ذى الحال أبداً نظير حكم الخبر مع المخبر عنه ، ألا تراك إذا ألغيت هو ، فى قولك هو الحق بينا ، بقى الحق ، وجاء فى قولك : جاء زيد راكباً ، بقى زيد راكب ، وضربت فى قولك : ضربت اللص مكتوفاً ، اللص مكتوف ، فتجد الحال وذا الحال خبراً ومخبراً والخبر ليس[2] موضعاً لدخول

---

(١) يؤخذ من ذلك أنه لاوجه للمصنف فى أن يقيد الحال بالمنتقلة لأن أصل الحال مطلقا ذلك إلا أنه وجب هذا الأصل فى المؤكدة ، لأنها فى معنى ماقبلها ، والواو تؤذن بالمغايرة .

(٢) قد يخدش فى هذا أن الأخفش فى طائفة جوز دخول الواو فى خبر كان وأخواتها وأنشدوا :

لَيْسَ شَيْءٌ إلا وَفِيهِ إِذَا مَا ... قَابَلَتْهُ عَيْنُ الْبَصِيرِ اعْتِبَارُ

وقول الحماسى :

فَلَمَّا صَرَّحَ الشَّـــرُّ ... فَأَمْسَى وَهْوَ عُرْيَانُ

وقول الآخر :

دَخَلْتُ عَلَى مُعَاوِيَةَ بْنَ حَرْبٍ ... وَكُنْتُ وَقَدْ يَئِسْتُ مِنَ الدُّخُولِ

كَانَتْ جُمْلَةً ، فإنَّها مِنْ حَيْثُ هِيَ جُمْلَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ بالإفادَةِ ، فتَحْتَاجُ إلَى مَا يَرْبِطُهَا بِصَاحِبِها ، وَكُلٌّ مِنَ الضَّمِيرِ وَالْوَاوِ صَالِحٌ لِلرَّبْطِ ، وَالأَصْلُ هُوَ الضَّمِيرُ ، بِدَلِيلِ الْمُفْرَدَةِ وَالْخَبَرِ وَالنَّعْتِ . فَالْجُمْلَةُ إنْ خَلَتْ عَنْ ضَمِيرِ صَاحِبِهَا وَجَبَ فِيهَا الْوَاوُ ، وَكُلُّ جُمْلَةٍ خَالِيَةٍ مِنْ ضَمِيرِ مَا يَجُوزُ أَنْ يَنْتَصِبَ عَنْهُ حَالٌ يَصِحُّ أَنْ تَقَعَ حَالاً عَنْهُ بِالْوَاوِ إلاَّ الْمُصَدَّرَةَ بِالْمُضَارِعِ

وقد يجاب بأن أمثال ذلك مما ورد فى على خلاف الأصل تشبيهاً بالحال .

الثالث : أنها فى الحقيقة وصف لذى الحال فلا يدخلها الواو كالنعت ، فظهر لك أن الأصل فى الجملة إذا وقعت موقع الحال أن لا يدخلها الواو ، ولكن النظر إليها من حيث كونها جملة مفيدة مستقلة بفائدة غير متحدة بالأولى وغير منقطعة عنها لجهات جامعة بينهما يبسط العذر فى أن يدخلهما مايربطها بالأولى وكل واحد من الضمير والواو صالح للربط والأصل الضمير بدليل الاقتصار عليه فى الحال المفردة والخبر والنعت . وإذا تمهد هذا فاعلم أن الجملة التى تقع حالا ضربان : خالية عن ضمير ماتقع حالا عنه ، وغير خالية . أما الأولى فيجب أن تكون بالواو لئلا تصير منقطعة عنه غير مرتبطة به ، وكل جملة خالية عن ضمير مايجوز(١) أن ينتصب عنه حال يصح أن تقع حالا عنه إذا كانت مع الواو إلا المصدرة بالمضارع المثبت كقولك : جاء زيد ويتكلم عمرو ، على أن يكون ويتكلم عمرو حالا عن زيد ، لما سيأتى أن ارتباط مثلها يجب أن يكون بالضمير وحده . وأما الثانية : فتارة يجب أن تكون بالواو وتارة

---

(١) بأن تكون فاعلا أو مفعولا ، معرفاً أو منكراً مخصصاً . لا مبتدأ وخبراً ، ولا نكرة محضة .

الْمُثْبَتِ نَحْوُ : جَاءَ زَيْدٌ وَيَتَكَلَّمُ عَمْرٌو لِمَا سَيَأْتِي ، وَإِلاَّ فَإِنْ كَانَتْ فِعْلِيَّةً وَالْفِعْلُ مُضَارِعٌ مُثْبَتٌ امْتَنَعَ دُخُولُهَا ، نَحْوُ : وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ، لِأَنَّ الْأَصْلَ الْمُفْرَدَةُ ، وَهِيَ تَدُلُّ عَلَى حُصُولِ صِفَةٍ غَيْرِ ثَابِتَةٍ مُقَارِنٍ لِمَا

يمتنع ذلك ، وتارة يترجح أحدهما ، وتارة يستوى الأمران والواو غير منافسة للضمير فى إفادة الربط ، فتعين التنبيه على أسباب الاختلاف ، فنقول الجملة إما أن تكون فعلية والفعل مضارع مثبت غير منفى ، وحينئذ تمتنع الواو بل ترى الكلام على مجيئها عارية من الواو كقوله :

وقوله :

وَقَدْ عَلَوْتُ قُتُودَ الرَّحْلِ يَسْفَعُنِي ... يَوْمٌ تَجِيءُ بِهِ الْجَوْزَاءُ مَسْمُومُ (١)

وقوله :

وَلَقَدْ أَغْتَدِي يُدَافِعُ رُكْنِي ... أَحْوَذِيٌّ ذُو مَيْعَةٍ إِضْرِيجُ (٢)

وفى التنزيل : ولا تمنن تستكثر — وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى — ويذرهم فى طغيانهم يعمهون . قال المصنف : والسبب فى ذلك هو أن أصل الحال المفردة أن تدل على حصول صفة غير ثابتة مقارن ذلك الحصول لما جعلت قيداً له وهو العامل فيها والمضارع المثبت كذلك ، أما دلالته على حصول صفة غير ثابتة فلأنه فعل مثبت والفعل المثبت يدل على التجدد وعدم

---

(١) القتود جمع قتد : وهو خشب الرحل المعهود ، ويسفعه اليوم : يلحقه بحره فيغير لونه ، وأصله تأثير النار وتعليمها ما تصيبه ، والجوزاء : برج تنزله الشمس فى آخر الربيع ، وحينئذ تهب الرياح الحارة واليوم مسموم ريحه حارة .

(٢) الأحوذى : الحاذق ، وميعة الفرس : أول جريه وأنشطه ، والإضريج : الفرس الشديد العدو .

جُعِلَتْ قَيْدًا لهُ ، وَهُوَ كَذَلِكَ ، أَمَّا الْحُصُولُ فَلِكَوْنِهِ فِعْلاً مُثْبَتاً ، وَأَمَّا الْمُقَارَنَةُ فَلِكَوْنِهِ مُضَارِعاً ، وَأَمَّا مَا جَاءَ مِنْ نَحْوِ : قُمْتُ وَأَصُكُّ وَجْهَهُ ، وَقَوْلِهِ :

فَلَمَّا خَشِيتُ أَظَافِيرَهُمْ نَجَوْتُ وَأَرْهَنُهُمْ مَالِكَا

فَقِيلَ عَلَى حَذْفِ الْمُبْتَدَإِ ، أَيْ وَأَنَا أَصُكُّ وَأَنَا أَرْهَنُهُمْ ، وَقِيلَ الأَوَّلُ شَاذٌّ وَالثَّانِي ضَرُورَةٌ ، وَقَالَ عَبْدُ الْقَاهِرِ : هِيَ فِيهِمَا لِلْعَطْفِ وَالأَصْلُ

الثبوت ، وأما دلالته على المقارنة فلكونه مضارعاً وهو يصلح للحال . وأما قول ابن همام السلولى :

فَلَمَّا خَشِيتُ أَظَافِيرَهُمْ نَجَوْتُ وَأَرْهَنُهُمْ مَالِكَا

« فى رواية من رواه وأرهنهم » وما شبهوه به من قولهم . قمت وأصك وجهه ، فقيل على حذف المبتدأ ، أى وأنا أرهنهم وأنا أصك ، فتكون الجملة اسمية ، وقيل الأول ضرورة والثانى شاذ . وقال الشيخ الإمام : ليست الواو فيهما للحال بل هى للعطف ، وأرهن وأصك بمعنى رهنت وصككت ، وعدل إلى صيغة المضارع لحكاية الحال كما فى قوله :

وَلَقَدْ أَمُرُّ عَلَى اللَّئِيمِ يَسُبُّنِي فَمَضَيْتُ ثُمَّتَ قُلْتُ لاَ يَعْنِينِي

يبين ذلك أنك ترى الفاء تجىء مكان الواو فى مثل هذا ، وذلك كنحو ما فى الخبر فى حديث عبدالله بن عتيك حين دخل على أبى رافع اليهودى حصنه قال : فانتهيت إليه فإذا هو فى بيت مظلم لا أدرى أين هو من البيت ، فقلت أبا رافع ، فقال من هذا ، فأهويت نحو الصوت فاضربه بالسيف ، وأنا دهش ، فكما أن أضربه مضارع قد عطفه بالفاء على ماض لأنه فى المعنى ماض ،

وَصَكَكْتُ وَرَهَنْتُ ، عَدَلَ عَنْ لَفْظِ الْمَاضِي إِلَى الْمُضَارِعِ لِحِكَايَةِ الْحَالِ وَإِنْ كَانَ مَنْفِيًّا فَالأَمْرَانِ ، كَقِرَاءَةِ ابْنِ ذَكْوَانَ : فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَانِ بِالتَّخْفِيفِ وَنحو : وَمَالَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللهِ لِدَلاَلَتِهِ عَلَى الْمُقَارَنَةِ لِكَوْنِهِ مُضَارِعاً

كذلك يكون أرهنهم معطوفاً على الماضى قبله ، وكما لا يشك فى أن المعنى فى الخبر فأهويت فضربت ، كذلك يكون المعنى فى البيت نجوت ورهنت . قلنا إن الجملة إن كانت فعليه والفعل مضارع مثبت امتنع الواو ، أما إن دخل حرف نفى على المضارع فإنه يجوز فيه الأمران ، وذلك مثل قراءة ابن ذكوان : فاستقيما ولا تتبعان ، بتخفيف النون (١) ، وقولهم : كنت ولا أخشى بالذئب ، وقول مسكين الدارمى :

أَكْسَبَتْهُ الْوَرِقُ الْبِيضُ أَبًا وَلَقَدْ كَانَ وَلاَ يُدْعَى لِأَبْ

وقول مالك بن رفيع وكان جنى جناية فطلبه مصعب بن الزبير :

أَتَانِي مُصْعَبٌ وَبَنُو أَبِيهِ فَأَيْنَ أَحِيدُ عَنْهُمْ لاَ أَحِيدُ
أَقَادُوا مِنْ دَمِي وَتَوَعَّدُونِي وَكُنْتُ وَمَا يُنَهْنِهُنِي الْوَعِيدُ

كان فى هذا كله تامة ، والجملة الداخل عليها الواو فى موضع الحال ولا معنى لجعلها ناقصة ، وجعل الواو مزيدة وليس مجىء المضارع حالا على هذا الوجه بعزيز فى الكلام ألا تراك تقول : جعلت أمشى ولا أدرى أين أضع رجلى ، وجعل يقول ولا يدرى ، وقال أبو الأسود :

يُصِيبُ وَمَا يَدْرِي وَيُخْطِي وَمَا دَرَى وَكَيْفَ يَكُونُ النَّوْكُ إِلاَّ كَذَلِكَ

---

(١) فإنها تكون حينئذ نون رفع وتكون لا للنفى دون النهى والواو للحال .

دُونَ الْحُصُولِ لِكَوْنِهِ مَنفِيًّا . وَكَذَا إِنْ كَانَ مَاضِياً لَفْظًا أَوْ مَعْنًى كَقَوْلِهِ تَعَالَى: أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ ، وَقَوْلِهِ : أَوْجَاؤُكُمْ

وهو شائع كثير . ومثال مجيء المضارع منفياً حالا من غير واو قوله :

مَضَوْا لا يُرِيدُونَ الرِّمَاحَ وَغَالَهُمْ مِنَ الدَّهْرِ أَسْبَابٌ جَرَيْنَ عَلَى قَدْرِ

وقول أرطاة بن سهية وهو لطيف جداً :

إِنْ تَلْقَنِي لاَ تَرَى غَيْرِي بِنَاظِرَةٍ تَنْسَ السِّلَاحَ وَتَعْرِفْ جَبْهَةَ الأَسَدِ

فقوله لا ترى فى موضع حال ، ومثله فى اللطف قول أعشى همدان وصحب عباد بن ورقاء إلى أصبهان فلم يحمده فقال :

أَتَيْنَا إِصْبَهَانَ فَهَزَّلَتْنَا وَكُنَّا قَبْلَ ذَلِكَ فِي نَعِيمِ
وَكَانَ سَفَاهَةً مِنِّي وَجَهْلاً مَسِيرِي لاَ أَسِيرُ إِلَى حَمِيمِ

وقال خالد بن يزيد بن معاوية :

لَوْ أَنَّ قَوْماً لِارْتِفَاعِ قَبِيلَةٍ دَخَلُوا السَّمَاءَ دَخَلْتُهَا لاَ أُحْجَبُ

وهو كثير إلا أنه لا يهتدى إلى وضعه بالموضع المرضى إلا من كان صحيح الطبع ، قال المصنف : والسبب فى جواز الأمرين هو دلالة المضارع على المقارنة لكونه مضارعاً دون الحصول لكونه منفياً ، أى والمقارنة يناسبها ترك الواو وعدم الحصول يناسبه وجودها ، وأما ، إن كان الفعل ماضياً لفظاً أو معنى ، فكذلك يجيء بالواو وبغير الواو ، أما بمجيئه بالواو فالكثير الشائع كقولك : أتانى وقد جهده السير ، وقال تعالى : أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر ، وقال امرؤ القيس :

أَتَقْتُلُنِي وَقَدْ شَغَفْتُ فُؤَادَهَا كَمَا شَغَفَ الْمَهْنُوءَةَ الرَّجُلُ الطَّالِي

حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ، وَقَوْلِهِ : أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ، وَقَوْلِهِ : فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ، وَقَوْلِهِ : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ

وقال :

فَجِئْتُ وَقَدْ نَضَتْ لِنَوْمٍ ثِيَابَهَا لَدَى السِّتْرِ إِلَّا لِبْسَةَ الْمُتَفَضِّلِ

هذا فى الماضى لفظاً ، وأما الماضى(١) معنى فمثاله قوله تعالى : أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شىء ، وقوله : أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ، وقول كعب :

لَا تَأْخُذَنِّي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ أُذْنِبْ وَإِنْ كَثُرَتْ فِيَّ الْأَقَاوِيلُ

وقوله تعالى : أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم وقول الشاعر :

بَانَتْ قَطَامُ وَلَمَّا يَحْظَ ذُو مِقَةٍ مِنْهَا بِوَصْلٍ وَلَا إِنْجَازِ مِيعَادِ

وأما بغير الواو فكقوله تعالى : أو جاؤكم حصرت صدورهم وقول الشاعر :

يَمْشُونَ قَدْ كَسَرُوا الْجُفُونَ إِلَى الْوَغَى مُتَبَسِّمِينَ وَفِيهِمُ اسْتِبْشَارُ

وقوله :

فَآبُوا بِالرِّمَاحِ مُكَسَّرَاتٍ وَأُبْنَا بِالسُّيُوفِ قَدِ انْحَنَيْنَا

وقول الآخر :

مَتَى أَرَى الصُّبْحَ قَدْ لَاحَتْ مَخَايِلُهُ وَاللَّيْلَ قَدْ مُزِّقَتْ عَنْهُ السَّرَابِيلُ

وكقوله تعالى : فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، وقوله : ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وقول امرىء القيس :

---

(١) المراد به المضارع المنفى بلم ولما .

تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ؛ أَمَّا الْمُثْبَتُ فَلِدَلَالَتِهِ عَلَى الْحُصُولِ ، لِكَوْنِهِ فِعْلاً مُثْبَتاً ، دُونَ الْمُقَارَنَةِ ، لِكَوْنِهِ مَاضِياً وَلِهَذَا شُرِطَ أَنْ يَكُونَ مَعَ قَدْ ظَاهِرَةً أَوْ مُقَدَّرَةً ، وَأَمَّا الْمَنْفِيُّ فَلِدَلَالَتِهِ عَلَى الْمُقَارَنَةِ دُونَ الْحُصُولِ ، أَمَّا الْأَوَّلُ فَلِأَنَّ لَمَّا لِلِاسْتِغْرَاقِ ، وَغَيْرُهَا لِانْتِفَاءٍ مُتَقَدِّمٍ مَعَ أَنَّ الْأَصْلَ اسْتِمْرَارُهُ ، فَتَحْصُلُ بِهِ الدَّلَالَةُ عَلَيْهَا

---

* فَأَدْرَكَ لَمْ يَجْهَدْ وَلَمْ يَثْنِ شَأْوَهُ *

وقول زهير :

كَأَنَّ فُتَاتَ الْعِهْنِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ   نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الْفَنَا لَمْ يُحَطَّمِ

وقول الآخر :

فَقَالَتْ لَهُ الْعَيْنَانِ سَمْعاً وَطَاعَةً   وَحَدَّرَتَا كَالدُّرِّ لَمَّا يُثَقَّبِ

قال المصنف : والسبب فى أن جاز الأمران فيه إذا كان مثبتاً دلالته على حصول صفة غير ثابتة لكونه فعلا ، وعدم دلالته على المقارنة لكونه ماضياً ، ولهذا اشترط أن يكون مع قد ظاهرة أو مقدرة حتى تقربه إلى الحال فيصح وقوعه حالا ، وظاهر هذا يقتضى وجوب الواو فى المنفى لانتفاء المعنيين ، لكنه لم يجب فيه بل كان مثله ، أما المنفى بلما فلأنها للاستغراق ، وأما المنفى بغيرها فلأنه لما دل على انتفاء متقدم وكان الأصل استمرار ذلك حصلت

---

(١) يقول كأن قطع الصوف المصبوغ الذى زينت به الهوادج فى كل منزل نزلته هؤلاء النسوة حب عنب الثعلب فى حال كونه غير محطم لأنه إذا حطم زايله لونه .

عِنْدَ الإِطْلاَقِ ، بِخِلاَفِ الْمُثْبَتِ ، فَإِنَّ وَضْعَ الْفِعْلِ عَلَى إِفَادَةِ التَّجَدُّدِ وَتَحْقِيقُهُ أَنَّ اسْتِمْرَارَ الْعَدَمِ لاَ يَفْتَقِرُ إِلَى سَبَبٍ ؛ بِخِلاَفِ اسْتِمْرَارِ الْوُجُودِ ، وَأَمَّا الثَّانِي فَلِكَوْنِهِ مَنْفِيًّا . وَإِنْ كَانَتْ اسْمِيَّةً فَالْمَشْهُورُ جَوَازُ تَرْكِهَا لِعَكْسِ مَا مَرَّ فِي الْمَاضِي الْمُثْبَتِ ، نَحْوُ : كَلَّمْتُهُ فُوهُ إِلَى فِيَّ

الدلالة على المقارنة عند إطلاقه بخلاف المثبت ، فإن وضع الفعل على إفادة التجدد ، وتحقيق هذا أن استمرار العدم لا يفتقر إلى سبب ، بخلاف استمرار الوجود كما بين فى غير هذا العلم ، وأما ، إن كانت الجملة اسمية فالمشهور جواز الأمرين ، وأن مجيء الواو أولى ، مثال وجود الواو قوله تعالى : فلا تجعلوا لله أنداداً ، وأنتم عاكفون فى المساجد ، وقول الشاعر :

لَيَالِيَ يَدْعُونِي الْهَوَى وَأُجِيبُهُ ... وَأَعْيُنُ مَنْ أَهْوَى إِلَيَّ رَوَانِ

ومثال تركها ما رواه سيبويه كلمته فوه إلى فى ورجع عوده على بدئه ، فى قول من رفع وبيت الإصلاح :

نَصَفَ النَّهَارُ الْمَاءُ غَامِرُهُ ... وَرَفِيقُهُ بِالْغَيْبِ لاَ يَدْرِي (١)

وما أنشده أبو على فى الإغفال :

وَلَوْلاَ جِنَانُ اللَّيْلِ مَا آبَ عَامِرٌ ... إِلَى جَعْفَرٍ سِرْبَالُهُ لَمْ يُمَزَّقِ

وقول الآخر :

* مَا بَالُ عَيْنِكَ دَمْعُهَا لاَ يَرْقَأُ *

(١) يصف غائصاً على الدر ؛ يقول إنه بقى غائصاً تحت الماء من الصباح إلى الظهر ورفيقه الممسك بالحبل على البر لا يدرى .

وَأَنَّ دُخُولَهَا أَوْلَى ، لِعَدَمِ دَلَالَتِهَا عَلَى عَدَمِ الثُّبُوتِ ، مَعَ ظُهُورِ الِاسْتِئْنَافِ فِيهَا ، فَحَسُنَ زِيَادَةُ رَابِطٍ ، نَحْوُ : فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ : وَقَالَ عَبْدُ الْقَاهِرِ : إِنْ كَانَ الْمُبْتَدَأُ ضَمِيرَ ذِي الْحَالِ وَجَبَتْ ، نَحْوُ : جَاءَ زَيْدٌ وَهُوَ

قال المصنف : أما جواز الأمرين فلعكس مامر فى الماضى المثبت يعنى دلالة الاسمية على المقارنة لكونها مستمرة لا على حصول صفة غير ثابتة لدلالتها على الدوام والثبوت ، وأما أن مجىء الواو أولى فلعدم دلالة الاسمية على عدم الثبوت مع ظهور الاستئناف فيها لاستقلالها بالفائدة فتحسن زيادة رابطة ليتأكد الربط . وقال الشيخ الإمام : إن كان المبتدأ ضمير ذى الحال وجب الواو . كقولك جاء زيد وهو يسرع أو وهو مسرع ، وسبب ذلك أن الجملة لاتترك فيها الواو حتى تدخل فى صلة العامل وتنضم إليه فى الإثبات ، وتقدر تقدير المفرد فى أن لا يستأنف لها الإثبات وهذا مما يمتنع فى نحو جاء زيد وهو يسرع أو وهو مسرع ، لأنك إذا أعدت ذكر زيد وجئت بضميره المنفصل المرفوع كان بمنزلة إعادة اسمه صريحاً فى أنك لا تجد سبيلا إلى أن تدخل يسرع فى صلة المجىء وتضمه إليه فى الإثبات لأن إعادة ذكره لا تكون حتى تقصد استئناف الخبر عنه بأنه يسرع وإلا لكنت تركت المبتدأ بمضيعة وجعلته لغواً فى البين ، وجرى مجرى أن تقول : جاءنى زيد وعمرو يسرع أمامه ، ثم تزعم أنك لم تستأنف كلاما ولم تبتدىء للمسرعة إثباتاً ، وعلى هذا فالأصل والقياس أن لا تجىء الجملة الاسمية إلا مع الواو وماجاء بدونه فسبيله سبيل الشىء الخارج عن قياسه وأصله بضرب من التأويل ونوع من التشبيه فقولهم : فوه إلى فى ، معناه مشافهاً ، وقولهم : عوده على بدئه ، معناه ذاهبا فى طريقه الذى جاء منه ، وأما قوله :

يسرع أوْ وَهُوَ مُسْرِعٌ ، وَ إنْ جُعِلَ نحوُ : عَلَى كَتِفِهِ سَيْفٌ حَالاً كَثُرَ

إذا أتيت أبا مروان تسأله   وجدته حاضراه الجود والكرم

فلأنه بسبب تقديم الخبر قرب فى المعنى من قولك وجدته حاضراً عنده الجود والكرم ، وتنزيل الشيء منزلة غيره ليس بعزيز فى كلامهم ، ويجوز أن يكون جميع ذلك على إرادة لواو كما جاء الماضى على إرادة قد . (وبعد) فقد وجب علينا الآن أن نتحفك أيها القارىء بما قاله ذلك الإمام فى بيان العلل والأسباب التى اقتضت أن يختلف الأمر بالجمل الواقعة حالا هذا الاختلاف وأن يكون ههنا جملة لا تصلح إلا مع الواو ، وأخرى لا تصلح فيها الواو ، وثالثة تصلح أن تجىء فيها بالواو وأن تدعها (قال) ما فحواه إن كل جملة وقعت حالا ثم امتنعت من الواو فذاك لأجل أنك عمدت إلى الفعل الواقع فى صدرها فضممته إلى الفعل الأول فى إثبات واحد ، وكل جملة جاءت حالا ثم اقتضت الواو فذاك لأنك مستأنف بها خبراً ، فإذا قلت جاءنى زيد يسرع ، كان بمنزلة جاءنى مسرعاً فى أنك تثبت له مجيئاً فيه إسراع وتصل أحد المعنيين بالآخر ، وتجعل الكلام خبراً واحداً ، كأنك قلت جاءنى بهذه الهيئة ، وإذا قلت جاءنى زيد وهو مسرع أو وغلامه يسعى بين يديه أو وسيفه على كتفه كان المعنى على أنك بدأت فأثبت المجىء ثم استأنفت خبراً وابتدأت إثباتاً ثانياً لما هو مضمون الحال ولهذا احتيج إلى ما يربط الجملة الثانية بالأولى فجىء بالواو كما جىء بها فى قولك العلم حسن والجهل قبيح ، وتسميتنا لها واو حال لا تخرجها عن كونها مجتلبة لضم جملة إلى جملة كالفاء فى جواب الشرط ، فإنها بمنزلة العاطفة فى أنها جاءت لربط جملة ليس من شأنها أن ترتبط بنفسها ، فالجملة فى نحو : جاءنى زيد يسرع ، بمنزلة الجزاء المستغنى عن الفاء ، لأن من شأنه أن يرتبط بنفسه ، والجملة فى نحو جاءنى زيد وهو مسرع أو وغلامه

فِيها تَرْكُها ، نحو * خَرَجْتُ مَعَ الْبَازِى عَلَيَّ سَوَادُ * وَيَحْسُنُ التَّرْكُ تَارَةً لِدُخُولِ حَرْفٍ عَلَى الْمُبْتَدَإِ كَقَوْلِهِ :

فَقُلْتُ عَسَى أَنْ تُبْصِرِينِي كَأَنَّمَا   بَنِيَّ حَوَالَيَّ الْأُسُودُ الْحَوَارِدُ

يسعى بين يديه أو وسيفه على كتفه بمنزلة الجزاء الذى ليس من شأنه أن يرتبط بنفسه (ثم) قال الشيخ : وإن جعل نحو على كتفه سيف بتقديم الظرف حالا عن شيء كما فى قولنا جاءنى زيد على كتفه سيف كثر فيها أن تجيء بغير واو كقول بشار :

إِذَا أَنْكَرَتْنِي بَلْدَةٌ أَوْ نَكِرْتُها   خَرَجْتُ مَعَ الْبَازِى عَلَيَّ سَوَادُ

يعنى على بقية من الليل ، وقول أمية :

فَاشْرَبْ هَنِيئاً عَلَيْكَ التَّاجُ مُرْتَفِقاً   فِي رَأْسِ غُمْدَانَ دَاراً مِنْكَ مِحْلَالاً

وقول الآخر :

لَقَدْ صَبَرَتْ لِلذُّلِّ أَعْوَادُ مِنْبَرٍ   تَقُومُ عَلَيْهَا فِي يَدَيْكَ قَضِيبُ

ثم قال : والوجه أن يقدر الاسم فى الأمثلة مرتفعاً بالظرف فإنه جائز باتفاق من صاحب الكتاب ، وأبى الحسن لاعتماده على ما قبله . ثم ينبغى أن يقدر ههنا خصوصاً أن الظرف فى تقدير اسم الفاعل دون الفعل . اللهم إلا أن يقدر فعلا ماضياً مع قد (ومن) كلام الشيخ قوله : ومما ينبغى أن يراعى فى هذا الباب أنك ترى الجملة قد جاءت حالا بغير واو ويحسن ذلك ، ثم تنظر فترى ذلك إنما حسن من أجل حرف دخل عليها مثاله قول الفرزدق :

فقلت عسى أن تبصرينى كأنما   بنى حوالى الأسود الحوارد(١)

فإنه لولا دخول كأن عليه ، لم يحسن الكلام إلا بالواو ، كقولك عسى

---

(١) الحوارد : جمع حورد ، وهو المجتمع الخلق المهيب المنظر يرى لعزته كالغضبان .

وأُخرَى لِوُقُوعِ الْجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ بِعَقِبِ مُفْرَدٍ ، كَقَوْلِهِ :

وَاللهُ يُبْقِيكَ لَنَا سَالِماً ❊ بُرْدَاكَ تَبْجِيلٌ وَتَعْظِيمُ

﴿ الْإِيجَازُ وَالْإِطْنَابُ وَالْمُسَاوَاةُ ﴾

السكاكيُّ : أَمَّا الْإِيجَازُ وَالْإِطْنَابُ فَلِكَوْنِهِمَا نِسْبِيَّيْنِ لَا يَتَيَسَّرُ الْكَلَامُ فِيهِمَا إِلَّا بِتَرْكِ التَّحْقِيقِ وَالتَّعْيِينِ ، وَالْبِنَاءِ عَلَى أَمْرٍ عُرْفِيٍّ ، وَهُوَ مُتَعَارَفُ الْأَوْسَاطِ ، أَيْ كَلَامُهُمْ فِي مَجْرَى عُرْفِهِمْ فِي تَأْدِيَةِ الْمَعَانِي ، وَهُوَ لَا يُحْمَدُ فِي بَابِ الْبَلَاغَةِ وَلَا يُذَمُّ ؛ فَالْإِيجَازُ أَدَاءُ الْمَقْصُودِ

أن تبصريني وبني حوالى الأسود . وشبيه بهذا أن تقع حالا بعقب مفرد حال فيلطف مكانها ، بخلاف مالوا أفردت ، كقول ابن الرومى :

وَاللهُ يُبْقِيكَ لَنَا سَالِماً ❊ بُرْدَاكَ تَبْجِيلٌ وَتَعْظِيمُ

فإنه لوقال : والله يبقيك لنا برداك تبجيل لم يكن شيئاً ﴿الإيجاز والإطناب﴾ هو باب رفيع المنزلة شامخ فى الشرف بل هو أنف البلاغة الذى تعطس منه ونابها الذى تفترّ عنه وقديماً تكلم العلماء فيه وأفردوه بالقول والإيضاح ولقد أتى المصنف رحمه الله منه بجملة صالحة سنضم إليها ماتسكن إليه النفس وينثلج منه الصدر إن شاء الله (نسبيين) لأن الموجز إنما يكون موجزاً بالنسبة إلى كلام أزيد منه ، وكذا المطنب إنما يكون مطنباً بالنسبة إلى ما هو أنقص منه (الأوساط) أى الذين لم يرتقوا إلى ذروة البلاغة ولم يتدلوا إلى حضيض العى والفهاهة (وهو)

بِأَقَلَّ مِنْ عِبَارَةِ الْمُتَعَارَفِ ، وَالْإِطْنَابُ أَدَاؤُهُ بِأَكْثَرَ مِنْهَا ، ثُمَّ قَالَ : الِاخْتِصَارُ لِكَوْنِهِ نِسْبِيًّا يُرْجَعُ فِيهِ تَارَةً إِلَى مَاسَبَقَ ، وَأُخْرَى إِلَى كَوْنِ الْمَقَامِ خَلِيقًا بِأَبْسَطَ مِمَّا ذُكِرَ ؛ وَفِيهِ نَظَرٌ ، لِأَنَّ كَوْنَ الشَّيْءِ نِسْبِيًّا لَا يَقْتَضِي تَعَسُّرَ تَحْقِيقِ مَعْنَاهُ ، ثُمَّ الْبِنَاءُ عَلَى الْمُتَعَارَفِ وَالْبَسْطِ الْمَوْصُوفِ رَدٌّ إِلَى الْجَهَالَةِ ، وَالْأَقْرَبُ أَنْ يُقَالَ : الْمَقْبُولُ مِنْ طُرُقِ التَّعْبِيرِ عَنِ الْمُرَادِ تَأْدِيَةُ أَصْلِهِ بِلَفْظٍ مُسَاوٍ لَهُ أَوْ نَاقِصٍ عَنْهُ وَافٍ ، أَوْ زَائِدٍ عَلَيْهِ لِفَائِدَةٍ ؛ وَاحْتُرِزَ بِوَافٍ عَنِ الْإِخْلَالِ ، كَقَوْلِهِ :

وَالْعَيْشُ خَيْرٌ فِي ظِلَا ... لِ النُّوكِ مِمَّنْ عَاشَ كَدَّا

أى هذا الكلام الذى هو متعارف الأوساط (إلى ماسبق) أى إلى اعتبار متعارف الأوساط (مما ذكر) أى مما ذكر فى المقام (ثم البناء على المتعارف والبسط الموصوف) بأن يقال الإيجاز قد يكون لكونه أقل من المتعارف ، وقد يكون لكون المقام خليقاً بكلام أبسط من الكلام المذكور ، هذا ، وقد نصر القوم صاحب المفتاح على المصنف بما لايسعه شرحنا وليس بطالب البلاغة حاجة وحبذا صنيع المصنف لو كان كفى نفسه مؤنة الاعتراض بعدوله عن كلام السكاكى ، وقصده لأول وهلة إلى ماهو بالبلاغة أمس وبمصنفه أليق (عن الإخلال) وهو أن يكون اللفظ قاصراً عن أداء المعنى ، كقول الحرث بن حلزة اليشكرى :

والعيش خير فى ظلا ... ل النوك ممن عاش كدا

أراد والعيش الناعم خير فى ظلال النوك — بضم النون وفتحها الحمق —

أَيِ النَّاعِمُ وَفِي ظِلاَلِ الْعَقْلِ ، وَ بِفَائِدَةٍ عَنِ التَّطْوِيلِ ، نَحْوُ :

﴿ وَأَلْفَى قَوْلَهَا كَذِباً وَمَيْنَا ﴾ وَعَنِ الْحَشْوِ الْمُفْسِدِ كَالنَّدَى فِي قَوْلِهِ :

وَلاَ فَضْلَ فِيهَا لِلشَّجَاعَةِ وَالنَّدَى ﴿ وَصَبْرِ الْفَتَى لَوْلاَ لِقَاءُ شَعُوبِ

من العيش الشاق فى ظلال العقل . وليس يدل لحن كلامه على هذا ، فهو من الإيجاز المقصر ، ومن ذلك قول الآخر :

أَعَاذِلُ عَاجِلُ مَا أَشْتَهِي أَحَبُّ مِنَ الْأَكْثَرِ الرَّائِثِ

يريد عاجل ما أشتهى مع القلة ، أحب إليه من رائثه مع الكثرة ، ومثله قول عروة بن الورد

عَجِبْتُ لَهُمْ إِذْ يَقْتُلُونَ نُفُوسَهُمْ وَمَقْتَلُهُمْ عِنْدَ الْوَغَى كَانَ أَعْذَرَا

يعنى إذ يقتلون نفوسهم فى السلم (عن التطويل) وهو أن لا يتعين الزائد فى الكلام كقول عدى بن زيد العبادى من قصيدته التى أولها :

أَبُدِّلَتِ الْمَنَازِلُ أَمْ عَنِينَا بِقَادِمِ عَهْدِهِنَّ فَقَدْ بَلِينَا

وهو يذكر غدر الزباء بجذيمة الأبرش :

وَقَدَّدَتِ الْأَدِيمَ لِرَاهِشَيْهِ وَأَلْفَى قَوْلَهَا كَذِباً وَمَيْنَا

فإن الكذب والمين واحد . ولا يتعين أحدها للزيادة ، والتقديد : التقطيع ، والأديم : الجلد ، والرهشان : العرقان فى باطن الذراع (فى قوله) أى قول أبى الطيب المتنبى (ولا فضل فيها) يقول : لا فضل فى الدنيا للشجاعة والصبر والندى لولا الموت . وهذا الحكم صحيح فى الشجاعة والصبر دون الندى ، لأن الشجاع إذا علم علماً ليس بالظن أنه يخلد فى الدنيا ، هان عليه اقتحام الحروب والمعارك لأمنه من الهلاك إذ ذاك فلم يكن هنا فضل ، وكذا الصابر

وَغَيْرِ الْمُفْسِدِ ، كقوله : * وَأَعْلَمُ عِلْمَ الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ *

إذ أيقن بزوال المكروه وبقاء العمر هان عليه صبره لوثوقه بالخلاص ، وأما الندى فعلى العكس من ذلك ، لأن الباذل إذا علم أنه يموت هان عليه بذله . ولهذا يقول إذا عوتب فيه كيف لا أبذل مالا أبقى له أنى أثق بالتمتع بهذا المال . وعليه قول طرفة بن العبد :

فَإِنْ كُنْتَ لَا تَسْتَطِيعُ دَفْعَ مَنِيَّتِي فَدَعْنِي أُبَادِرْهَا بِمَا مَلَكَتْ يَدِي

وقول مهيار الديلمي :

فَكُلْ إِنْ أَكَلْتَ وَأَطْعِمْ أَخَاكَ فَلَا الزَّادُ يَبْقَى وَلَا الْآكِلُ

فلو علم أنه يخلد ثم جاد بماله كان جوده أفضل وعلى كرم الطبع أدل ، وقد تمحل بعضهم بأن المراد بالندى فى البيت ، بذل النفس لا بذل المال ، كما قال مسلم بن الوليد :

يَجُودُ بِالنَّفْسِ إِنْ ضَنَّ الْجَوَادُ بِهَا وَالْجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الْجُودِ

ورد بأن لفظ الندى لا يكاد يستعمل فى بذل النفس ، وإن استعمل فعلى وجه الإضافة ، فأما مطلقاً فلا يفيد إلا بذل المال ، نعم قال ابن جنى إن فى الخلود وتنقل الأحوال فيه من عسر إلى يسر ، ومن شدة إلى رخاء ، مايسكن النفوس ويسهل البوس فلا يظهر لبذل المال كثير فائدة ، وهو قريب (كقوله) القائل هو زهير بن أبى سلمى (وأعلم) وتمامه :

* وَلَكِنَّنِي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمِي *

فأنت ترى أن قوله قبله مستغنى عنه إلا أنه غير مفسد ، فإن قلت قد يقال أبصرته بعينى وسمعته بأذنى وضربته بيدى ، ولا يجعل مثل هذا من الحشو

﴿ المساواة ﴾ نحوُ : وَلاَ يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّئُ إلاَّ بِأَهْلِهِ ، وَقَوْلِه :

لوقوعه فى التنزيل مثل : فويل لهم مما كسبت أيديهم ، قلنا أمثال ذلك إنما تقال فى مقام يفتقر إلى التوكيد ، كما تقول لمن ينكر معرفة ما كتبه ياهذا لقد كتبت بيمينك هذه ، وأما قوله تعالى : ذلك قولهم بأفواههم . فمعناه أنه قول لايعضده برهان فما هو إلا لفظ يفوهون به فارغ من معنى تحته كالألفاظ المهملة التى هى أجراس ونغم لاتدل على معان ، وذلك أن القول الدال على معنى لفظه مفعول بالفم ومعناه مؤثر فى القلب ، ومالامعنى له مقول بالفم لاغير (نحو: ولايحيق)

ومن المساواة هذه الأبيات المشهورة :

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كُلَّ حَاجَةٍ ... وَمَسَّحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ
وَشُدَّتْ عَلَى دُهْمِ المَطَايَا رِحَالُنَا ... وَلَمْ يَنْظُرِ الْغَادِي الَّذِي هُوَ رَائِحُ
أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا ... وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ المَطِيِّ الْأَبَاطِحُ

ومنها تلك الأبيات التى قال فيها الجاحظ ، لا أعرف شعراً يفضل هذه الأبيات التى لأبى نواس :

وَدَارِ نَدَامَى عَطَّلُوهَا وَأَدْلَجُوا ... بِهَا أَثَرٌ مِنْهُمْ جَدِيدٌ وَدَارِسُ
مَسَاحِبُ مِنْ جَرِّ الزِّقَاقِ عَلَى الثَّرَى ... وَأَضْغَاثُ رَيْحَانٍ جَنِيٌّ وَيَابِسُ
حَبَسْتُ بِهَا صَحْبِي فَجَدَّدْتُ عَهْدَهُمْ ... وَإِنِّي عَلَى أَمْثَالِ تِلْكَ لَحَابِسُ
تُدَارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِي عَسْجَدِيَّةٍ ... حَبَتْهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارِسُ
قَرَارَتُهَا كِسْرَى وَفِي جَنَبَاتِهَا ... مَهًا تَدَّرِيهَا بِالْقِسِيِّ الْفَوَارِسُ

فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي * وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ

وَالْإِيجَازُ ضَرْبَانِ : إِيجازُ الْقِصَرِ وَهُوَ مَا لَيْسَ بِحَذْفٍ ، نَحْوُ :
وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ، فَإِنَّ مَعْنَاهُ كَثِيرٌ وَلَفْظَهُ يَسِيرٌ ، وَلَا حَذْفَ فِيهِ

فَلِلرَّاحِ مَا زُرَّتْ عَلَيْهِ جُيُوبُهَا * وَلِلْمَاءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْقَلَانِسُ

(فإنك كالليل) البيت للنابغة الذبيانى من قصيدة يمدح بها أبا قابوس وهو النعمان بن المنذر ملك الحيرة . يقول : إنه لا يفوت الممدوح وإن أبعد فى الهرب وسار إلى أقصى الأرض لسعة ملكه وطول يده ، ولأن له فى جميع الآفاق مطيعاً لأمره يرد الهارب إليه . وقد انتقد الأصمعى النابغة ، فقال : أما تشبيه الإدراك بالليل فقد تساوى الليل والنهار فيما يدركانه ، وإنما كان سبيله أن يأتى بما لا قسيم له حتى يأتى بمعنى منفرد ، فلو قال قائل إن قول النميرى فى ذلك أحسن منه ، لوجد مساغاً إلى ذلك حيث يقول :

فَلَوْ كُنْتُ كَالْعَنْقَاءِ أَوْ كَسُمُوِّهَا * لَخِلْتُكَ إِلَّا أَنْ تَصُدَّ تَرَانِي

(نحو ولكم فى القصاص حياة) مثله قول الله جل شأنه فيما يخاطب به نبيه صلى الله عليه وسلم : خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين . جمع مكارم الأخلاق بأسرها ، لأن قوله خذ العفو فالعفو ضد الجهد ، أى خذ ما عفا لك من أفعال الناس وأخلاقهم وما أتى منهم ، وتسهل من غير كلفة ، ولا تداقهم ، ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم حتى لا ينفروا . والعرف : المعروف والجميل من الأفعال . وأعرض عن الجاهلين : لا تكافىء السفهاء بمثل سفههم ولا تمارهم واحلم عنهم وأغض على ما يسوءك منهم . ومن

وَفَضْلُهُ عَلَى مَا كَانَ عِنْدَهُمْ أَوْجَزَ كَلامٍ فِى هَذَا الْمَعْنَى ، وَهُوَ : الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ ، بِقِلَّةِ حُرُوفِ مَايُنَاظِرُهُ مِنْهُ ، وَالنَّصِّ عَلَى الْمَطْلُوبِ وَمَا يُفِيدُهُ تَنْكِيرُ حَيَاةٍ مِنَ التَّعْظِيمِ ، لِمَنْعِهِ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ قَتْلِ جَمَاعَةٍ بِوَاحِدٍ .

هذا الضرب من الإيجاز قوله تعالى : فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا(١) ، الآية ، حار فى فصاحتها جميع البلغاء . ومثل هذا فى القرآن كثير . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : إياكم وخضراء الدمن(٢) ، وقول الشريف الرضى :

مَالُوا إِلَى شُعَبِ الرِّحَالِ وَأَسْنَدُوا ... أَيْدِى الطِّعَانِ إِلَى قُلُوبٍ تَخْفِقُ

فإنه لما أراد أن يصف هؤلاء القوم بالشجاعة فى أثناء وصفهم بالغرام ، عبر عن ذلك بقوله : أيدى الطعان (فإن معناه كثير) لأن المراد به أن الإنسان إذا علم أنه متى قتل كان ذلك داعياً له قوياً إلى أن لا يقدم على القتل فارتفع بالقتل الذى هو القصاص كثير من قتل الناس بعضهم لبعض ، فكان ارتفاع القتل حياة لهم (وفضله الخ) يقول إن قوله تعالى : ولكم فى القصاص حياة ، يفضل ماكان عند العرب أوجز كلام فى هذا المعنى وهو قولهم القتل أنفى للقتل من وجوه ، أحدها : أن عدة حروف مايناظره منه وهو فى القصاص حياة عشرة فى اللفظ وعدة حروفه أربعة عشر ، وثانيها : ما فيها من التصريح بالمطلوب الذى هو الحياة بالنص عليها ، فيكون أزجر عن القتل بغير حق ، لكونه أدعى إلى الاقتصاص ، وثالثها : ما يفيده تنكير حياة من التعظيم ، وذلك لمنعهم عما كانوا عليه من قتل جماعة بواحد أو النوعية وهى

---

(١) المعنى لما يئسوا من يوسف وإجابته إياهم ، اعتزلوا الناس خالصين لايخالطهم أحد يتناجون فى تدبير أمرهم وماذا يقولون لأبيهم فى شأن أخيهم .

(٢) تمام الحديث : قيل وماذا ، قال المرأة الحسناء فى المنبت السوء .

أَوْ النَّوْعِيَّةِ الْحَاصِلَةِ لِلْمَقْتُولِ وَالْقَاتِلِ بِالِارْتِدَاعِ ، وَاطِّرَادِهِ وَخُلُوِّهِ عَنِ التَّكْرَارِ وَاسْتِغْنَائِهِ عَنْ تَقْدِيرِ مَحْذُوفٍ ، وَالْمُطَابَقَةِ ؛ وَ إِيجَازُ الْحَذْفِ . وَالْمَحْذُوفُ إِمَّا جُزْءُ جُمْلَةٍ مُضَافٌ نَحْوُ : وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ، أَوْ مَوْصُوفٌ نَحْوُ : أَنَا ابْنُ جَلَا . أَيْ رَجُلٍ جَلَا ، أَوْ صِفَةٌ نحو وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ

الحياة الحاصلة للقاتل بانكفافه ، والمقتول بالكف عنه ، ورابعها : اطراده بخلاف قولهم فإن القتل الذى ينفى القتل هو ما كان على وجه القصاص لا غيره ، وخامسها : سلامته من التكرار الذى هو من عيوب الكلام بخلاف قولهم ، وسادسها : استغناؤه عن تقدير محذوف بخلاف قولهم ، فإن تقديره القتل أنفى للقتل من تركه ، وسابعها : أن القصاص ضد الحياة فالجمع بينهما أطباق ، وزاد فى الإيضاح وجهاً آخر وهو جعل القصاص كالمنبع والمعدن للحياة بإدخال فى عليه وهناك وجوه أخر قد تمحاها الناس (وإيجاز الحذف) عطف على إيجاز القصر (نحو واسأل القرية) مثله قوله تعالى : وأشربوا فى قلوبهم العجل . أى حبه ، وقوله عز وجل : الحج أشهر معلومات . أى وقت الحج ، وقول الحماسى :

إِذَا لَاقَيْتِ قَوْمِي فَاسْأَلِيهِمْ كَفَى قَوْمًا بِصَاحِبِهِمْ خَبِيرَا
هَلَ اعْفُو عَنْ أُصُولِ الْحَقِّ فِيهِمْ إِذَا عَسُرَتْ وَاقْتَطِعُ الصُّدُورَا

أراد أنه يقتطع ما فى الصدور من الضغائن والإحن ، أى يزيل ذلك بإحسانه وكريم خصاله . وهذا باب شائع فى كلام العرب وإن كان أبو الحسن الأخفش لا يرى القياس عليه (نحو أنا ابن جلا) هو بعض بيت للعرجى ولفظه :

أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ الثَّنَايَا مَتَى أَضَعِ الْعِمَامَةَ تَعْرِفُونِي

فالمحذوف جزء جملة موصوف (أى رجل جلا) قال بعضهم فيه نظر

كلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ، أي صَحِيحَةٍ وَنَحْوِهَا ، بِدَلِيلِ مَا قَبْلَهُ أو شَرْطٌ ، كما مَرَّ ، أو جَوَابُ شَرْطٍ ، إمَّا لِمُجَرَّدِ الاخْتِصَارِ نحوُ : وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ

لأن رجل ليس جزء جملة بل فضلة ، على أنه قيل إن جلا اسم علم فلا حذف حينئذ ، وهو مستند عيسى بن عمر فى أن فعل عنده وزن يمنع من الصرف فلذا لم ينون جلا ، وقال سيبويه : كأنه قال أنا ابن الذى جلا ، فعلى هذا الوجه يكون حذف الموصول . ومن حذف الموصوف قول البحترى من أبيات يصف بها إيوان كسرى :

وَإِذَا مَا رَأَيْتَ صُورَةَ أَنْطَا كِيَّةَ ارْتَعْتَ بَيْنَ رُومٍ وَفُرْسِ
وَالْمَنَايَا مَوَاثِلٌ وَأَنُو شِرْ وَانَ يُزْجِي الصُّفُوفَ تَحْتَ الدِّرَفْسِ
فِي اخْضِرَارٍ مِنَ اللِّبَاسِ عَلَى أَصْـ ـفَرَ يَخْتَالُ فِى صَبِيغَةِ وَرْسِ

فقوله على أصفر : أى على فرس أصفر ، وهذا مفهوم من قرينة الحال (ونحوها) كسليمة أو صالحة (بدليل ما قبله) وهو قوله تعالى : فأردت أن أعيبها ، فإنه يدل على أن الملك كان إنما يأخذ الصحيحة . ومن حذف الصفة قول الحماسى :

كُلُّ امْرِئٍ سَتَئِيمُ مِنْـ ـهُ الْعِرْسُ أَوْ مِنْهَا يَئِيمُ (١)

أراد كل امرىء متزوج ، إذ المعنى لا يصح إلا بهذا ، وبعد ، فهذا الضرب من الحذف وهو حذف الصفة قليل الوجود ، ولا يكاد يقع فى الكلام إلا نادراً لمكان استبهامه (كما مر) عند قوله فى باب الإنشاء

---

(١) أى إما أن يموت الرجل فتبقى امرأته أيما ، وتموت امرأته فيبقى الرجل أيما ، وفى المثل : كل ذات بعل ستئيم .

أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ، أَيْ أَعْرَضُوا بِدَلِيلِ مَا بَعْدَهُ ، أَوْ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ شَيْءٌ لَا يُحِيطُ بِهِ الْوَصْفُ ، أَوْ لِتَذْهَبَ نَفْسُ السَّامِعِ كُلَّ مَذْهَبٍ مُمْكِنٍ ، مِثَالُهُمَا : وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ ، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ نَحْوُ : لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ، أَيْ وَمَنْ أَنْفَقَ مِنْ بَعْدِهِ وَقَاتَلَ بِدَلِيلِ مَا بَعْدَهُ . وَإِمَّا جُمْلَةً مُسَبَّبَةً عَنْ مَذْكُورٍ ،

وهذه الأربعة يجوز تقدير الشرط بعدها . ومن حذف الشرط قولهم الناس مجزيون بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر (بدليل ما بعده) وهو قوله تعالى : وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ، ومن هذا الباب قوله تعالى : ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ، أى لكان هذا القرآن وقوله تعالى : قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم أى ألستم ظالمين بدليل قوله تعالى بعد : إن الله لايهدى القوم الظالمين . (أو لتذهب نفس السامع كل مذهب) فلا يتصور مطلوباً أو مكروهاً إلا وهو يجوز أن يكون الأمر أعظم منه ، بخلاف ما لو ذكر فإنه يتعين وربما يسهل أمره عنده ، ألا ترى أن المولى إذا قال لعبده والله لئن قمت إليك وسكت تزاحمت عليه من الظنون المعترضة للوعيد مالا يتزاحم لو نص من مؤاخذته على ضرب من العذاب ، وكذلك إذا قال المتبجح لو رأيتنى شاباً وسكت جالت الأفكار له بعالم تجل به لو أتى بالجواب (أو غير ذلك) كالمسند إليه والمسند والمفعول كما مر وكالمضاف إليه كقوله تعالى : وكل فى فلك يسبحون ، وكذلك كل ما قطع عن الإضافة معنى لا لفظا . وكالصلة مثل قولهم : جاء بعد اللتيا والتى ، وكجواب القسم مثل قوله تعالى : والفجر وليال عشر

نَحْوُ : لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ ، أَيْ فَعَلَ مَا فَعَلَ ، أَوْ سَبَبٌ لِمَذْكُورٍ نَحْوُ : فَانْفَجَرَتْ ، إِنْ قُدِّرَ فَضَرَبَهُ بِهَا ، وَيَجُوزُ أَنْ يُقَدَّرَ فَإِنْ ضَرَبْتَ بِهَا

الآية ، التقدير ليعذبن أو نحوه ، ويدل على ذلك قوله بعد : ألم تر كيف فعل ربك بعد — إلى قوله — سوط عذاب ، وجواب لما كقوله تعالى : فلما أسلما وتله للجبين الآية ، التقدير كان ما كان مما تنطق به الحال ولا يحيط به الوصف من استبشارهما واغتباطهما وحمدهما لله وشكرهما على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء العظيم بعد حلوله وما اكتسبا فى تضاعيفه بتوطين النفس عليه من الثواب ، ورضوان الله الذى ليس وراءه مطلوب ، ومما يتصل بهذا ما يجىء بعد أفعل. كقولنا : الله أكبر ، أى من كل شىء وعليه قول البحترى :

اللهُ أَعْطَاكَ الْمَحَبَّةَ فِى الْوَرَى ... وَحَبَاكَ بِالْفَضْلِ الَّذِى لاَ يُنْكَرُ

وَلأَنْتَ أَمْلأُ فِى الْعُيُونِ لَدَيْهِمِ ... وَأَجَلُّ قَدْراً فِى الصُّدُورِ وَأَكْبَرُ

(نحو ليحق الحق) ومنه قول أبى الطيب المتنبى :

أَتَى الزَّمَانَ بَنُوهُ فِى شَبِيبَتِهِ ... فَسَرَّهُمْ وَأَتَيْنَاهُ عَلَى الْهَرَمِ

أى فساءنا (نحو فانفجرت) الآية فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت ، ومثله : كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين ، أى فاختلفوا ، بدليل قوله : ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه (ويجوز أن يقدر الخ) فيكون المحذوف جزء جملة هى شرط كقوله تعالى : فالله هو الولى ، أى إن أرادوا ولياً بحق ، والفاء فى مثل قوله فانفجرت تسمى فاء فصيحة . وظاهر كلام الزمخشرى أن تسميتها فصيحة إنما هى على التقدير الثانى ، وظاهر كلام السكاكى على العكس ، وقيل إنها فصيحة على التقديرين ، والمشهور فى تمثيلها قوله :

قَالُوا خُرَاسَانُ أَقْصَى مَا يُرَادُ بِنَا ... ثُمَّ الْقُفُولُ فَقَدْ جِئْنَا خُرَاسَانَا

فَقَدِ انْفَجَرَتْ ، أَوْ غَيْرُهَا نَحْوُ : فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ عَلَى مَا مَرَّ ، وَإِمَّا أَكْثَرُ مِنْ جُمْلَةٍ نَحْوُ : أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ يُوسُفُ ، أَيْ إِلَى يُوسُفَ لِأَسْتَعْبِرَهُ الرُّؤْيَا فَفَعَلُوا فَأَتَاهُ وَقَالَ لَهُ يَا يُوسُفُ : وَالْحَذْفُ عَلَى وَجْهَيْنِ ، أَنْ لَا يُقَامَ شَيْءٌ مَقَامَ الْمَحْذُوفِ كَمَا مَرَّ وَأَنْ يُقَامَ ، نَحْوُ : وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ، أَيْ فَلَا تَحْزَنْ وَاصْبِرْ ؛ وَأَدِلَّتُهُ كَثِيرَةٌ ، مِنْهَا أَنْ يَدُلَّ الْعَقْلُ عَلَيْهِ وَالْمَقْصُودُ الْأَظْهَرُ عَلَى تَعْيِينِ الْمَحْذُوفِ نَحْوُ : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ؛ وَمِنْهَا أَنْ يَدُلَّ الْعَقْلُ عَلَيْهِمَا نَحْوُ : وَجَاءَ رَبُّكَ ؛ أَيْ أَمْرُهُ أَوْ عَذَابُهُ ؛ وَمِنْهَا أَنْ يَدُلَّ الْعَقْلُ وَالْعَادَةُ عَلَى التَّعْيِينِ نَحْوُ :

(على ما مر) فى مبحث الاستئناف من أنه على حذف المبتدأ والخبر ، فى قول من يجعل المخصوص خبر مبتدأ محذوف (نحو : أنا أنبئكم الخ) مثله فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى المعنى فضربوه بها فحيي : فحذف ذلك لدلالة قوله : كذلك يحيي الله الموتى ، وقوله : اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون قالت ياأيها الملأ ، التقدير ففعل ذلك فأخذت الكتاب فقرأته ، ثم كأن سائلا سأل فماذا قالت فقيل : قالت يا أيها الملأ . ومثال هذا النوع من الإيجاز لا يكاد يوجد إلا فى كلام الله الذى تقطعت على بلاغته أعناق العتاق السبق ، وونت عنها خطى الجياد القرح (نحو حرمت عليكم الميتة) فإن العقل يدل على الحذف إذ الأحكام إنما تتعلق بالأفعال دون الأعيان ، والمقصود الأظهر من هذه الأشياء المذكورة فى الآية تناولها الشامل للأكل وشرب الألبان ، فدل على تعيين المحذوف (عليهما) أى على الحذف والتعيين (نحو وجاء ربك) ما أحسن ما

فَذَلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ، فإِنَّهُ يَحْتَمِلُ فِى حُبِّهِ ، لِقَوْلِهِ : قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ، وفِى مُرَاوَدَتِهِ لِقَوْلِهِ : تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ، وَفِى شَأْنِهِ حَتَّى يَشْمَلَهُمَا ، وَالْعَادَةُ دَلَّتْ عَلَى الثَّانِي لِأَنَّ الْحُبَّ الْمُفْرِطَ لَا يُلَامُ صَاحِبُهُ عَلَيْهِ فِى الْعَادَةِ ، لِقَهْرِهِ إِيَّاهُ ، وَمِنْهَا الشُّرُوعُ فِى الْفِعْلِ نَحْوُ : بِسْمِ اللهِ ، فَيُقَدَّرُ مَا جُعِلَتِ التَّسْمِيَةُ مَبْدَأً لَهُ ، وَمِنْهَا الاقْتِرَانُ كَقَوْلِهِمْ لِلْمُعْرِسِ : بِالرِّفَاءِ وَالْبَنِينَ ، أَىْ أَعْرَسْتَ . وَالْإِطْنَابُ إِمَّا بِالْإِيضَاحِ بَعْدَ الْإِبْهَامِ ، لِيُرَى الْمَعْنَى فِى صُورَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ ، أَوْ لِيَتَمَكَّنَ فِى النَّفْسِ فَضْلَ تَمَكُّنٍ ،

ارتآه صاحب الكشاف فى هذه الآية الكريمة ، وما أليقه بالأسلوب البليغ قال إن هذا تمثيل لظهور آيات اقتداره وتبين آثار قهره وسلطانه مثلت حاله فى ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عساكره كلها ووزرائه وخواصه عن بكرة أبيهم (لا يلام صاحبه عليه) وإنما يلام على المراودة الداخلة تحت كسبه التى يقدر أن يدفعها عن نفسه (ومنها) أى من أدلة تعيين المحذوف (الاقتران) أى اقتران الكلام بالفعل (بالرفاء والبنين) فاقتران هذا الكلام لإعراس المخاطب دل على أن التقدير بالرفاء والبنين أعرست . والرفاء : الالتئام والاتفاق ، تقول رفأت الثوب أرفؤه : إذا أصلحت ما وهن منه (ليرى المعنى فى صورتين مختلفتين) فيكون كعرض الحسناء فى لباسين (أو ليتمكن فى النفس) فإن المعنى إذا ألقى مبهماً تاقت نفس السامع إلى معرفته مبيناً ، فتتوجه إلى ما يرد بعد ذلك ، فإذا ألقى كما تشتهى تمكن فيها فضل تمكن ، وكان شعورها به أتم

أَوْ لِتَكْمُلَ لَذَّةُ الْعِلْمِ بِهِ ، نحو : رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ، فإِنَّ اشْرَحْ لِي يُفِيدُ طَلَبَ شَرْحٍ لِشَيْءٍ مَّا لَهُ ، وَصَدْرِي يُفِيدُ تَفْسِيرَهُ ، وَمِنْهُ بَابُ نِعْمَ عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ ، إِذْ لَوْ أُرِيدَ الِاخْتِصَارُ لَكَفَى نِعْمَ زَيْدٌ ، وَوَجْهُ حُسْنِهِ سِوَى مَاذُكِرَ إِبْرَازُ الْكَلَامِ فِي مَعْرِضِ الِاعْتِدَالِ وَإِيهَامِ الْجَمْعِ بَيْنَ الْمُتَنَافِيَيْنِ : وَمِنْهُ التَّوْشِيعُ : وَهُوَ أَنْ يُؤْتَى فِي عَجُزِ الْكَلَامِ

(أو لتكمل لذة العلم به) فإن الشيء إذا حصل كمال العلم به دفعة لم يتقدم حصول اللذة به ألم ، وإذا حصل الشعور به من وجه دون وجه تشوقت النفس إلى العلم بالمجهول فيحصل لها بسبب المعلوم لذة ، وبسبب حرمانها عن الباقي ألم ، ثم إذا حصل لها العلم به حصلت لها لذة أخرى ، واللذة عقيب الألم أقوى من اللذة التي لم يتقدمها ألم . ومما يواخي ذلك ما في قوله تعالى : هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام . قال صاحب الكشاف : السبب في أن العذاب يأتيهم من الغمام ، أن الغمام مظنة الرحمة فإذا نزل منه العذاب كان الأمر أفظع وأهول ، لأن الشر إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أغم ، كما أن الخير إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أسر ، فكيف إذا جاء الشر من حيث لا يحتسب الخير ، ولذلك كانت الصاعقة من العذاب المستفظع لمجيئها من حيث يتوقع الغيث ، ومن ثمة اشتد على المتفكرين في كتاب الله قوله : وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون (ومنه) أي من الإيضاح بعد الإبهام (حسنه) أي حسن باب نعم (في معرض الاعتدال) نظراً إلى الإطناب من وجه حيث لم يقل نعم زيد ، وإلى الإيجاز من وجه حيث حذف المبتدأ الذي هو صدر الاستئناف (وإيهام الجمع بين المتنافيين) الإيجاز والإطناب والجمع بين المتنافيين من الأمور الغريبة المستطرفة التي يظهر في النفس عند

بِمُثَنًّى مُفَسَّرٍ بِاسْمَيْنِ ، ثَانِيهِمَا مَعْطُوفٌ عَلَى الْأَوَّلِ نحوَ : يَشِيبُ ابْنُ آدَمَ وَيَشِبُّ مَعَهُ خَصْلَتَانِ : الْحِرْصُ وَطُولُ الْأَمَلِ . وَإِمَّا بِذِكْرِ الْخَاصِّ بَعْدَ الْعَامِّ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى فَضْلِهِ حَتَّى كَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ جِنْسِهِ ، تَنْزِيلاً لِلتَّغَايُرِ فِى الْوَصْفِ مَنْزِلَةَ التَّغَايُرِ فِى الذَّاتِ نحوَ : حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى . وَإِمَّا بِالتَّكْرِيرِ لِنُكْتَةٍ

وجدانها تأثر عجيب (ويشب معه خصلتان) فلو أريد الاختصار لقيل ويشب معه الحرص وطول الأمل لكنه أبهم أولا ثم أوضح لما سبق ويسمى هذا توشيعاً . لأن التوشيع فى اللغة لف القطن المندوف ، فكأنه جعل التعبير عن المعنى الواحد بالمثنى المفسر باسمين ، بمنزلة لف القطن بعد الندف . ومن هذا قول الشاعر :

سَقَتْنِى فى ليلٍ شَبِيهٍ بِشَعْرِها ... شَبِيهَةُ خَدَّيْهَا بِغَيْرِ رَقِيبِ
فمازِلْتُ فى لَيْلَيْنِ شَعْرٍ وَظُلْمَةٍ ... وَشَمْسَيْنِ مِنْ خَمْرٍ وَوَجْهِ حَبِيبِ

وقول البحترى :

لمَّا مَشَيْنَ بِذِى الْأَرَاكِ تَشَابَهَتْ ... أَعْطَافُ قُضْبَانٍ بِهِ وَقُدُودِ
فى حُلَّتَىْ حِبَرٍ وَرَوْضٍ فَالْتَقَى ... وَشْيَانِ وَشْىُ رُبًى وَوَشْىُ بُرُودِ
وَسَفَرْنَ فَامْتَلَأَتْ عُيُونٌ رَاقَهَا ... وَرْدَانِ وَرْدُ جَنًى وَوَرْدُ خُدُودِ

نحو (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) (١) ، ومن هذا الباب

---

(١) أتذكر أن شيخنا الإمام رحمه الله قرر عند تفسير هذه الآية الكريمة

كِتأْكِيدِ الْإِنْذَارِ فِي : كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ

قوله تعالى : من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال ، أفرد جبريل وميكال بالذكر لفضلهما كأنهما من جنس آخر (كتأكيد الإنذار) وكزيادة التنبيه على ما ينفي التهمة ليكمل تلقى الكلام بالقبول كما فى قوله تعالى : وقال الذى آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ، ياقوم إنما هذه الدنيا متاع . وزيادة التوجع والتحسر كما فى قوله :

فَيَا قَبْرَ مَعْنٍ أَنْتَ أَوَّلُ حُفْرَةٍ ... مِنَ الْأَرْضِ خُطَّتْ لِلسَّمَاحَةِ مَضْجَعَا

وَيَا قَبْرَ مَعْنٍ كَيْفَ وَارَيْتَ جُودَهُ ... وَقَدْ كَانَ مِنْهُ الْبَرُّ وَالْبَحْرُ مُتْرَعَا

وقد يكرر ما قد بعد بسبب طول فى الكلام كما فى قوله تعالى : ثم إن ربك الذين هاجروا من بعد مافتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ، وقوله : لاتحسبن الذين يفرحون بما أوتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ، وقول الشاعر :

أن المعنى ليس كما يقول المفسرون من أن الصلاة الوسطى هى صلاة العصر أو غيرها ، وإنما المعنى أن الله جل شأنه لما أمر بحفظ الصلوات والمثابرة عليها كان للناس أن يتوهموا أن تأدية الصلاة على أى وجه وأية حال كافية عندالله . فبين لنا سبحانه أن الصلاة لا تكفى إلا إذا كانت وسطى — فضلى — وذلك بأن تكون مستصحبة بالفراغ من شواغل الدنيا ، والتوجه لله والخشوع له ، واستحضار عظمته ، واستشعار هيبته . وعلى ذلك لاتكون مما نحن فيه كما هو ظاهر .

وَفِي ثُمَّ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْإِنْذَارَ الثَّانِيَ أَبْلَغُ . وَإِمَّا بِالْإِيغَالِ ، فَقِيلَ هُوَ خَتْمُ

لَقَدْ عَلِمَ الْحَيُّ الْيَمَانُونَ أَنَّنِي   إِذَا قُلْتُ أَمَّا بَعْدُ أَنِّي خَطِيبُهَا

وقول الحماسى :

أَسِجْنًا وَقَيْدًا وَاشْتِيَاقًا وَغُرْبَةً   وَنَأْيَ حَبِيبٍ إِنَّ ذَا لَعَظِيمُ

وَإِنَّ امْرَأً دَامَتْ مَوَاثِيقُ عَهْدِهِ   عَلَى مِثْلِ هٰذَا إِنَّهُ لَكَرِيمُ

وقد يكرر اللفظ لتعدد المتعلق كالذى جاء فى سورة الرحمن من قول الله سبحانه : فبأى آلاء ربكما تكذبان ، لأنه تعالى ذكر نعمة بعد نعمة وعقب كل نعمة بهذا القول ، ومعلوم أن الغرض من ذكره عقيب نعمة غير الغرض من ذكره عقيب نعمة أخرى (وفى ثم دلالة على أن الإنذار الثانى أبلغ) كما تقول للمنصوح أقول لك ثم أقول لك ، والسر فى ذلك أن أصل ثم الدلالة على تراخى الزمان ، لكنها قد تجىء لمجرد التدرج فى درج الارتقاء من غير اعتبار التراخى والبعد بين تلك الدرج ، وإن الثانى بعد الأول فى الزمان وذلك إذا تكرر الأول بلفظه نحو : والله ثم والله (وإما بالإيغال) وأصله من قولهم أوغل فى الأمر : إذا أبعد الذهاب فيه . سئل الأصمعى من أشعر الناس : فقال من يمضى كلامه قبل انقضاء القافية ، فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى قيل نحو من : قال ذو الرمة حيث يقول :

قِفِ الْعِيسَ فِي أَطْلَالِ مَيَّةَ فَاسْأَلِ   رُسُومًا كَأَخْلَاقِ الرِّدَاءِ الْمُسَلْسَلِ

فتم كلامه بالرداء ، ثم قال المسلسل فزاد به شيئاً ثم قال :

أَظُنُّ الَّذِي يُجْدِي عَلَيْكَ سُؤَالُهَا   دُمُوعًا كَتَبْذِيرِ الْجُمَانِ الْمُفَصَّلِ

فتم كلامه بالجمان . ثم قال المفصل فزاد شيئاً . قيل ونحو من قول الأعشى :

الْبَيْتِ بِمَا يُفِيدُ نُكْتَةً يَتِمُّ الْمَعْنَى بِدُونِهَا ، كَزِيَادَةِ الْمُبَالَغَةِ فِى قَوْلِهَا :

وَإِنَّ صَخْراً لَتَأْتَمُّ الْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِى رَأْسِهِ نَارُ

وَتَحْقِيقُ التَّشْبِيهِ فِى قَوْلِهِ :

كَأَنَّ عُيُونَ الْوَحْشِ حَوْلَ خِبَائِنَا وَأَرْحُلِنَا الْجَزْعُ الَّذِى لَمْ يُثَقَّبِ

كَنَاطِحٍ صَخْرَةً يَوْماً لِيَفْلِقَهَا فَلَمْ يَضِرْهَا وَأَوْهَى قَرْنَهُ الْوَعِلُ

فتم كلامه بيضرها ، فلما احتاج إلى القافية قال : وأوهى قرنه الوعل ، فزاد معنى ، قال السائل وكيف صار الوعل مفضلا على كل ماينطح ، قال لأنه ينحط من قلة الجبل على قرنيه فلا يضره (فى قولها) أى قول الخنساء فى مرثية أخيها صخر . ولم ترض أن تشبهه بالعلم الذى هو الجبل المرتفع المعروف بالهداية حتى جعلت فى رأسه ناراً (فى قوله) أى قول امرىء القيس . فإنه لما أتى على التشبيه قبل ذكر القافية واحتاج إليها جاء بزيادة حسنة فى قوله لم يثقب لأن الجزع إذا كان غير مثقوب كان أشبه بالعيون (كأن عيون الخ) الجزع الخرز اليمانى الذى فيه سواد وبياض يشبه به عيون الوحش قال الأصمعى : الظبى والبقرة إذا كانا حيين فعيونهما كلها سود فإذا ماتا بدا بياضها وإنما شبهها بالجزع وفيه سواد وبياض بعد ماموتت ، والمراد كثرة الصيد يعنى مما أكلنا كثرت العيون عندنا ومن هذا النوع قول زهير :

كَأَنَّ فُتَاتَ الْعِهْنِ فِى كُلِّ مَنْزِلٍ نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الْفَنَا لَمْ يُحَطَّمِ

فإن حب الفنا أحمر الظاهر أبيض الباطن ، فهو لا يشبه الصوف الأحمر إلا مالم يحطم ، وقول امرىء القيس :

إِذَا مَاجَرَى شَأْوَيْنِ وَابْتَلَّ عِطْفُهُ تَقُولُ هَزِيزُ الرِّيحِ مَرَّ بِأَثْأَبِ

التشبيه تم عند قوله هزيز الريح ، وزاد بقوله مر بأثاب . لأنه أخبر به

وقِيلَ لاَ يَخْتَصُّ بِالشِّعْرِ وَمُثِّلَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وهُمْ مُهْتَدُونَ . وَإِمَّا بِالتَّذْيِيلِ ، وَهُوَ تَعْقِيبُ الْجُمْلَةِ بِجُمْلَةٍ أُخْرَى تَشْتَمِلُ على مَعْنَاهَا لِلتَّأْكِيدِ ، وَهُوَ ضَرْبَانِ : ضَرْبٌ لَمْ يَخْرُجْ مُخْرَجَ الْمَثَلِ نَحْوُ . ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِى إِلَّا الْكَفُورُ ، عَلَى وَجْهٍ

عن شدة حفيف الفرس وللريح فى أغصان الأثأب حفيف شديد ، والأثأب : شجر . وكان الرشيد يعجب بقول مسلم بن الوليد :

إذا ما عَلَتْ مِنَّا ذُؤَابَةَ شَارِبٍ تَمَشَّتْ بِهِ مَشْىَ الْمُقَيَّدِ فى الْوَحْلِ

وكان يقول قاتله الله أما كفاه أن يجعله مقيداً حتى جعله فى وحل (ومثل بقوله تعالى الخ) فإن قوله : وهم مهتدون ، مما يتم المعنى بدونه لأن الرسول مهتد لا محالة ، لكن فيه زيادة حث على الاتباع وترغيب فى الرسل . وكتب بعض الكتاب : نبو الطرف من الوزير دليل على تغيير الحال عنده ، ولاصبر على الجفاء ممن عود الله منه البر ، وقد استدللت بإزالة الوزير إياى عن المحل الذى كان يحلنيه بتطوله على ما سوت له ظناً بنفسى ، وما أخاف عتباً لأنى لم أجن ذنباً ، فإن رأى الوزير أن يقومنى لنفسى ويدلنى على ما يراد منى فعل . تمم كلامه بقوله يقومنى وزاد بالمقطع وهو قوله لنفسى معنى (وأما بالتذييل) وللتذييل فى الكلام موقع جليل ومكان شريف خطير لأن المعنى يزداد به انشراحاً والمقصد اتضاحاً ، وينبغى أن يستعمل فى المواطن الجامعة والمواقف الحافلة . لأن تلك المواطن تجمع البطىء الفهم والبعيد الذهن والثاقب القريحة والجيد الخاطر ، فإذا تكررت الألفاظ على المعنى الواحد تأكد عند الذهن اللقن وصح للكليل البليد (لم يخرج مخرج المثل) لعدم استقلاله بإفادة المراد وتوقفه على ما قبله (على وجه) وهو أن يراد وهل يجازى ذلك

وَضَرْبٌ أُخْرِجَ مُخْرَجَ المَثَلِ ، نحو : وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً . وَهُوَ أَيْضاً إِمَّا لِتَأْكِيدِ مَنْطُوقٍ كَهٰذِهِ الآيَةِ ، وَإِمَّا لِتَأْكِيدِ مَفْهُومٍ ، كَقَوْلِهِ :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخاً لاَ تَلُمُّهُ ... عَلَى شَعَثٍ أَيُّ الرِّجَالِ الْمُهَذَّبُ

الجزاء ، قال الزمخشري وفيه وجه آخر وهو أن الجزاء عام الكل مكافأة يستعمل تارة في معنى المعاقبة ، وأخرى في معنى الإثابة ، فلما استعمل في معنى المعاقبة في قوله : جزيناهم بما كفروا ، بمعنى عاقبناهم بكفرهم . قيل : وهل يجازى إلا الكفور بمعنى وهل يعاقب فعلى هذا يكون من الضرب الثاني ومن الأول قول الحماسي :

فَدَعَوْا نَزَالِ فَكُنْتُ أَوَّلَ نَازِلٍ ... وَعَلاَمَ أَرْكَبُهُ إِذَا لَمْ أَنْزِلِ

وقول أبي الطيب :

وَمَا حَاجَةُ الأَظْعَانِ حَوْلَكَ فِي الدُّجَى ... إِلَى قَمَرٍ مَا وَاجِدٌ لَكَ عَادِمُهْ

وقوله أيضاً :

تَمَسِّي الأَمَانِيُّ صَرْعَى دُونَ مَبْلَغِهِ ... فَمَا يَقُولُ لِشَيْءٍ لَيْتَ ذَلِكَ لِي

وقول ابن نباتة السعدي :

لَمْ يُبْقِ جُودُكَ لِي شَيْئاً أُؤَمِّلُهُ ... تَرَكْتَنِي أَصْحَبُ الدُّنْيَا بِلاَ أَمَلِ

قيل نظر فيه إلى قول أبي الطيب وقد أربى عليه في المدح والأدب مع الممدوح حيث لم يجعله في خير من تمنى شيئاً (نحو وقل جاء الحق الآية) ومن هذا قول الحطيئة :

تَزُورُ فَتًى يُعْطِي عَلَى الْحَمْدِ مَالَهُ ... وَمَنْ يُعْطِ أَثْمَانَ الْمَكَارِمِ يُحْمَدِ

وَ إِمَّا بِالتَّكْمِيلِ ، وَ يُسَمَّى الِاحْتِرَاسَ أَيْضًا ، وَهُوَ أَنْ يُؤْتَى فِي كَلَامٍ يُوهِمُ خِلَافَ الْمَقْصُودِ بِمَا يَدْفَعُهُ ، كَقَوْلِهِ :

(كقوله) أى قول النابغة الذبيانى من قصيدة يخاطب بها الملك النعمان ابن المنذر . فأنت ترى أن صدر البيت دل بمفهومه على نفى الكامل من الرجال فحقق ذلك وقرره بعجزه . ومعنى البيت ظاهر . ومما ينظر إليه قول بعضهم :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَتْرُكْ أَخَاكَ وَزَلَّةً ... أَرَادَ لَهَا أَوْشَكْتُمَا أَنْ تَفَرَّقَا

وهو معنى طرقه الشعراء كثيراً (بما يدفعه) وهذا الدافع قد يكون فى وسط الكلام ، وقد يكون فى آخره فالأول كقول طرفة بن العبد من قصيدة يمدح بها قتادة بن مسلمة الحنفى وكان قد أصاب قومه سنة فأتوه فبذل لهم :

فَسَقَى دِيَارَكَ غَيْرَ مُفْسِدِهَا ... صَوْبُ الرَّبِيعِ وَدِيمَةٌ تَهْمِي [1]

لما كان المطر قد يفضى بالديار إلى الفساد تحرز عن ذلك بقوله غير مفسدها ولم يقع فيما وقع فيه ذو الرمة فى قوله :

أَلَا يَااسْلَمِي يَا دَارَ مَيَّ عَلَى الْبِلَى ... وَلَا زَالَ مُنْهَلًّا بِجَرْعَائِكِ الْقَطْرُ

فهذا بالدعاء عليها أشبه منه بالدعاء لها . ومن هذا الضرب قول الرمادى فى وصف فرس :

قَامَتْ قَوَائِمُهُ لَنَا بِطَعَامِنَا ... غَضًّا وَقَامَ الْعُرْفُ بِالْمِنْدِيلِ

فقوله غضاً احتراس عجيب ، إذ لو لم يذكر لتوهم أنهم ينقلون عليه أزوادهم ، وقول نافع بن خليفة الغنوى :

رِجَالٌ إِذَا لَمْ تُقْبَلِ الْحَقَّ مِنْهُمُ ... وَيُعْطَوْهُ عَادُوا بِالسُّيُوفِ الْقَوَاضِبِ

(١) الديمة : المطر يدوم ، وتهمى : تسيل .

فَسَقَى دِيَارَكِ غَيْرَ مُفْسِدِهَا ٭ صَوْبُ الرَّبِيعِ وَدِيمَةٌ تَهْمِي

وَنَحْوُ : أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ . وَإِمَّا بِالتَّتْمِيمِ

وقول الآخر :

لَوْ أَنَّ عِزَّةَ خَاصَمَتْ شَمْسَ الضُّحَى ... فِي الْحُسْنِ عِنْدَ مُوَفَّقٍ لَقَضَى لَهَا

فقوله عند موفق : تكميل لطيف ، والثانى كقوله تعالى : فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين . فإنه لو اقتصر على وصفهم بالذلة على المؤمنين لتوهم ان ذلتهم لضعفهم ، فلما قيل أعزة على الكافرين علم أنها منهم تواضع لهم ، ولهذا عدى الذل بعلى لتضمنه معنى العطف كأنه قيل عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع ويجوز أن تكون التعدية بعلى ، لأن المعنى أنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم . ومنه قول ابن الرومى فيما كتب به إلى صديق له: إنى وليك الذى لا يزال تنقاد إليك مودته عن غير طمع ولا جزع ، وإن كنت لذى الرغبة مطلباً ولذى الرهبة مهرباً ، ومثله حماسى :

رَهَنْتُ يَدِي بِالْعَجْزِ عَنْ شُكْرِ بِرِّهِ ... وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشَّكُورِ مَزِيدُ

وكذا قول كعب بن سعد الغنوى :

حَلِيمٌ إِذَا مَا الْحِلْمُ زَيَّنَ أَهْلَهُ ... مَعَ الْحِلْمِ فِي عَيْنِ الْعَدُوِّ مَهِيبُ

فإنه لو اقتصر على وصفه بالحلم لأوهم أن ذلك عن ضعف وخور . فأزال ذلك بقوله إذا ما الحلم زين أهله ، ومعلوم أن الحلم لا يزين أهله إلا عند القدرة عليه . ولما كان كونه حليما فى حال يحسن فيها الحلم يوهم أنه فى تلك الحال ليس مهيباً لما به من البشر وطلاقة الوجه وعدم آثار الغضب والوقار نفى ذلك بقوله : مع الحلم فى عين العدو مهيب فهو تكميل آخر . ومن هذا أيضاً قول السموأل .

وَهُوَ : أَنْ يُؤْتَى فِي كَلَامٍ لَا يُوهِمُ خِلَافَ الْمَقْصُودِ بِفَضْلَةٍ ، لِنُكْتَةٍ كَالْمُبَالَغَةِ ، نَحْوُ : وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ ، فِي وَجْهٍ ، أَيْ مَعَ حُبِّهِ . وَإِمَّا بِالِاعْتِرَاضِ ، وَهُوَ : أَنْ يُؤْتَى فِي أَثْنَاءِ الْكَلَامِ أَوْ بَيْنَ كَلَامَيْنِ مُتَّصِلَيْنِ مَعْنًى بِجُمْلَةٍ أَوْ أَكْثَرَ لَا مَحَلَّ لَهَا مِنَ الْإِعْرَابِ لِنُكْتَةٍ سِوَى دَفْعِ الْإِيهَامِ ، كَالتَّنْزِيهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ

وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ فِي فِرَاشِهِ ... وَلَا طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قَتِيلُ

فإنه لو اقتصر على وصف قومه بشمول القتل إياهم ، لأوهم أن ذلك لضعفهم وقلتهم ، فأزال هذا الوهم بوصفهم بالانتصار من قاتليهم (كالمبالغة) وكالدلالة على تقليل المدة فى قوله تعالى : سبحان الذى أسرى بعبده ليلا ، ذكر ليلا والإسراء لايكون إلا بالليل للدلالة على تقليل مدة الإسراء ، وأنه أسرى به فى بعض الليل ، لأن التنكير فيه قد دل على معنى البعضية (فى وجه أى مع حبه) أى مع اشتهاء الطعام والحاجة إليه . أما إذا جعل الضمير لله أى على حب الله كما قال الفضيل بن عياض ، فلا يكون مما نحن فيه ، لأنه لتأدية أصل المراد وهذا الوجه بعيد كما لايخفى . ومن هذا الباب قول زهير :

مَنْ يَلْقَ يَوْمًا عَلَى عِلَّاتِهِ هَرِمًا ... يَلْقَ السَّمَاحَةَ مِنْهُ وَالنَّدَى خُلُقَا

فقوله على علاته : تتميم جميل . وقول الآخر :

إِنِّي عَلَى مَا تَرَيْنَ مِنْ كِبَرِي ... أَعْرِفُ مِنْ أَيْنَ تُؤْكَلُ الْكَتِفُ

قوله على ماترين من كبرى : تتميم أصحاب الحز (سوى دفع الإيهام) أى الذى ذكر فى التكميل (كالتنزيه) وكتخصيص أحد المذكورين بزيادة التوكيد فى أمر عاق بهما كقوله تعالى : ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك ، فقوله أن اشكر لى : تفسير

مَا يَشْتَهُونَ ، وَالدُّعَاء فِي قَوْلِهِ :

إِنَّ الثَّمَانِينَ وَبُلِّغْتَهَا ✽ قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تُرْجُمَانِ

وَالتَّنْبِيهِ فِي قَوْلِهِ :

وَاعْلَمْ فَعِلْمُ الْمَرْءِ يَنْفَعُهُ ✽ انْ سَوْفَ يَأْتِي كُلُّ مَا قُدِرَا

لوصينا ، وقوله جملته اعتراض بينهما إيجاباً للتوصية بالوالدة خصوصاً وتذكيراً لحقها العظيم مفرداً ، وكالمطابقة مع الاستعطاف فى قول أبى الطيب :

وَخُفُوقُ قَلْبٍ لَوْ رَأَيْتِ لَهِيبَهُ ✽ يَا جَنَّتِي لَرَأَيْتِ فِيهِ جَهَنَّمَا

فقوله ياجنتى : اعتراض للمطابقة مع جهنم والاستعطاف . وكبيان السبب لأمر فيه غرابة كما فى قوله بن ميادة :

فَلَا هَجْرُهُ يَبْدُو وَفِي الْيَأْسِ رَاحَةٌ ✽ وَلَا وَصْلُهُ يَبْدُو لَنَا فَنُكَارِمُهْ

فإن قوله فلا هجره يبدو يشعر بأن هجر الحبيب أحد مطلوبيه وغريب أن يكون هجر الحبيب مطلوباً للمحب فقال وفى اليأس راحة ليبين سببه (ويجعلون لله البنات الخ) فقوله سبحانه جملة لكونه بتقدير الفعل وقعت فى أثناء الكلام لأن قوله ولهم مايشتهون معطوف على قوله لله البنات . والنكتة فيه تنزيه الله سبحانه وتقديسه عما ينسبون إليه (فى قوله) أى قول عوف بن محلم الشيبانى يشكو كبره وضعفه . فقوله وبلغتها : جملة معترضة بين اسم إن وخبرها لقصد الدعاء والواو فى مثله اعتراضية ليست عاطفة ولا حالية ، ومثل هذا قول أبى الطيب :

وَتَحْتَقِرُ الدُّنْيَا احْتِقَارَ مُجَرِّبٍ ✽ يَرَى كُلَّ مَا فِيهَا وَحَاشَاكَ فَانِيَا

فقوله وحاشاك دعاء حسن فى موضعه (واعلم الخ) فقوله فعلم المرء ينفعه اعتراض بين اعلم ومفعوله ، والمعنى أن المقدور آت لا محالة وإن وقع فيه تأخير ، وفى هذا تسلية وتسهيل الأمر ، وهذا البيت أنشده أبو على الفارسى

وَمِمَّا جَاءَ بَيْنَ كَلَامَيْنِ وَهُوَ أَكْثَرُ مِنْ جُمْلَةٍ أَيْضاً قَوْلُهُ تَعَالَى : فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ، فَإِنَّ قَوْلَهُ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ بَيَانٌ لِقَوْلِهِ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ ، وَقَالَ قَوْمٌ : قَدْ تَكُونُ النُّكْتَةُ فِيهِ غَيْرَ مَا ذُكِرَ ، ثُمَّ جَوَّزَ بَعْضُهُمْ وُقُوعَهُ آخِرَ جُمْلَةٍ لَا تَلِيهَا جُمْلَةٌ مُتَّصِلَةٌ بِهَا فَيَشْمَلُ التَّذْيِيلَ ، وَبَعْضَ صُوَرِ التَّكْمِيلِ ، وَبَعْضُهُمْ كَوْنَهُ غَيْرَ جُمْلَةٍ

ولم يعزه على أحد (وهو) أى والاعتراض نفسه الواقع بين الكلامين أكثر من جملة (أيضاً) كما أن الكلام الذى يقع الاعتراض فى أثنائه أكثر من جملة (بيان لقوله فأتوهن من حيث أمركم الله) لأن الغرض الأصلى من الإتيان هو طلب النسل لاقضاء الشهوة ، فلا تأتوهن إلا من حيث يأتى فيه هذا الغرض . فالنكتة فى هذا الاعتراض الترغيب فيما أمروا به والتنفير عما نهوا عنه (وقال قوم الخ) يقول غفر الله له : إن قوماً ذهبوا إلى أن الاعتراض لا تقيد فائدته بما ذكر ، بل يجوز أن تكون دفع توهم ما يخالف المقصود وهؤلاء افترقوا فرقتين فرقة لاتشترط فيه أن يكون واقعاً فى أثناء كلام أو بين كلامين متصلين معنى ، بل يجوز أن يقع فى آخر كلام لا يليه كلام أو يليه كلام غير متصل به معنى وبهذا يشعر كلام الزمخشرى فى مواضع من الكشاف ، فالاعتراض عند هؤلاء يشمل التذييل ويشمل من التكميل مالا محل له من الإعراب جملة كان أو أكثر من جملة . وفرقة تشترط فيه ذلك لكن لاتشترط أن يكون جملة أو أكثر من جملة ، فالاعتراض عند هؤلاء يشمل من التتميم ما كان واقعاً فى أحد الموقعين ، ومن التكميل ما كان واقعاً فى أحدهما ولا محل له من الإعراب جملة كان أو أقل أو

فَيَشْمَلُ بَعْضَ صُوَرِ التَّتْمِيمِ وَالتَّكْمِيلِ . وَ إِمَّا بِغَيْرِ ذَلِكَ ، كقوله تعالى : الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ، فإِنَّهُ لَوِ اخْتُصِرَ لَمْ يُذْكَرْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ، لِأَنَّ إِيمَانَهُمْ لاَ يُنْكِرُهُ مَنْ يُثْبِتُهُمْ ، وَحَسَّنَ ذِكْرَهُ إِظْهَارُ شَرَفِ الْإِيمَانِ تَرْغِيباً فِيهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ يُوصَفُ الْكَلامُ بِالْإِيجَازِ وَالْإِطْنَابِ بِاعْتِبَارِ كَثْرَةِ حُرُوفِهِ وَقِلَّتِهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى كَلامٍ آخَرَ مُسَاوٍ لَهُ فِى أَصْلِ الْمَعْنَى كقوله :

* يَصُدُّ عَنِ الدُّنْيَا إِذَا عَنَّ سُودَدٌ * وقوله :

وَلَسْتُ بِنَظَّارٍ إِلَى جَانِبِ الْغِنَى إِذَا كَانَتِ الْعَلْيَاءُ فِى جَانِبِ الْفَقْرِ

أكثر (وإما بغير ذلك) معطوف على قوله إما بالإيضاح بعد الإبهام (كقوله) أى قول أبى تمام من أبيات يرثى أبا الحسين محمد بن الهيثم . وتمام البيت :

* وَلَوْ بَرَزَتْ فِى زِيِّ عَذْرَاءَ نَاهِدِ *

وأنت ترى أن هذا المصراع إيجاز بالنسبة إلى بيت المعذل بن غيلان :

ولست بنظار إلى جانب الغنى إذا كانت العلياء فى جانب الفقر

لمساواته له فى أصل المعنى وقلة حروفه ، والبيت إطناب بالنسبة إليه . وكذا بيت الشماخ :

إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ تَلَقَّاهَا عَرَابَةُ بِالْيَمِينِ

فإنه إيجاز بالنسبة لقول بشر بن أبى خازم :

إِذَا مَا الْمَكْرُمَاتُ رُفِعْنَ يَوْماً وَقَصَّرَ مُبْتَغُوهَا عَنْ مَدَاهَا

وَ يَقْرُبُ مِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : لاَ يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ، وَقَوْلُ الْحَمَاسِيِّ :

وَنُنْكِرُ إِنْ شِئْنَا عَلَى النَّاسِ قَوْلَهُمْ * وَلاَ يُنْكِرُونَ الْقَوْلَ حِينَ نَقُولُ

الفنُّ الثانى عِلْمُ البيان

وَهُوَ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ إِيرَادُ الْمَعْنَى الْوَاحِدِ بِطُرُقٍ مُخْتَلِفَةٍ فى وُضُوحِ

وَضَاقَتْ أَذْرُعُ الْمُثْرِينَ عَنْهَا . سَمَا أَوْسٌ إِلَيْهَا فَاحْتَوَاهَا

وشعر بشر إطناب بالنسبة إليه ، قال ، ويقرب من هذا الباب قوله تعالى : لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون وقول السموأل :

وننكر إن شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقول

(وهو علم الخ) قد مهد السكاكى لهذا النوع من علوم البلاغة بمقدمات هى بالعلوم النظرية أليق وللبليغ بغيرها عنها غنية ولكن لامحيص أيها القارىء عن شرحها بما ينظر للأسلوب العربى فنقول : البيان علم يعرف به إبراز المعنى الواحد فى صور مختلفة وتراكيب متفاوتة بالزيادة والنقصان فى وضوح الدلالة عليه ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ فى مطابقة الكلام لتمام المراد منه ثم مما يكاد يكون معروفاً أن إبراز المعنى الواحد فى صور مختلفة غير ممكن بالدلالة اللغوية . وهى التى يسمونها الدلالة الوضعية . لأن من المحال أن يتطرق الكمال والنقصان إليها، فإن السامع للفظ إما أن يكون عالماً بكونه موضوعاً لمسماه أولا يكون ، فإن كان عالماً به عرف مفهومه بتمامه وإن لم يكن عالماً به لم يعرف منه شيئاً ألبته . فالألفاظ فى دلالتها اللغوية إما أن تفيد مسمياتها بالكمال أو لاتفيد شيئاً منها ، فأما أن تفيد إفادة ناقصة فذلك غير معقول ، مثاله

الدَّلَالَةِ عَلَيْهِ ، وَدَلَالَةُ اللَّفْظِ إِمَّا عَلَى تَمَامِ مَا وُضِـعَ لَهُ ، أَوْ عَلَى جُزْئِهِ ، أَوْ عَلَى خَارِجٍ عَنْهُ ، وَتُسَمَّى الْأُولَى وَضْعِيَّةً ، وَكُلٌّ مِنَ الْأَخِيرَتَيْنِ عَقْلِيَّةً

إذا أردت تشبيه زيد بالأسد فى الشجاعة ، فإن أفدت هذا بالدلالة اللغوية وقلت زيد يشبه الأسد فى الشجاعة ، فقد أفدت مقصودك بألفاظ دالة عليه دلالة لغوية ، وهذه الإفادة تمتنع من تطرق الزيادة والنقصان إليها ، لأنك إذا نقصت فى هذه الألفاظ شيئاً فقد نقصت من المعنى لا محالة . وإن زدت فيها فقد زدت فى المعنى لا محالة ، وإن أقمت مقام كل لفظ منها ما يرادفه امتنع أن تزداد تلك الإفادة قوة بسبب ذلك ، لأن السامع إذا عرف كونها موضوعة بإزاء مفهومات الألفاظ الأول كان فهمه منها كفهمه من تلك الألفاظ الأول وإن لم يعرف ذلك لم يعرف منها ذلك المعنى . وأما الدلالة العقلية فلأجل أن حاصلها عائد إلى انتقال الذهن من مفهوم اللفظ إلى ما يلازمه من اللوازم ، ثم اللوازم كثيرة ، وهى تارة تكون قريبة وأخرى تكون بعيدة ، فلا جرم صح إبراز المعنى الواحد فى صور كثيرة ، وصح فى تلك الصور أن يكون بعضها أكمل من بعض فى إفادة ذلك المعنى وتأديته وبعضها أنقص وأضعف . . .

إذا عرفت هذا فنقول : دلالة اللفظ على المعنى إما أن تكون وضعية أو عقلية. فالوضعية كدلالة الألفاظ على المعانى التى هى موضوعة بإزائها وذلك كدلالة السماء والأرض والجدار والحائط على مسمياتها ، ولا شك فى كونها وضعية ، وإلا لامتنع اختلاف دلالتها باختلاف الأوضاع وأما العقلية فإما على ما يكون داخلا فى مفهوم اللفظ كدلالة لفظ البيت على السقف الذى هو جزء مفهوم البيت ولا شك فى كونها عقلية لامتناع وضع اللفظ بإزاء حقيقة مركبة ولا يكون متناولا لأجزائها ، وإما على ما يكون خارجاً عنه كدلالة لفظ السقف على الحائط ، فإنه لما امتنع انفكاك السقف عن الحائط عادة كان اللفظ المفيد -

وَتَخْتَصُّ الْأُولَى بِالْمُطَابَقَةِ ، وَالثَّانِيَةُ بِالتَّضَمُّنِ ، وَالثَّالِثَةُ بِالِالْتِزَامِ وَشَرْطُهُ اللُّزُومُ الذِّهْنِيُّ ، وَلَوْ لِاعْتِقَادِ الْمُخَاطَبِ بِعُرْفٍ أَوْ غَيْرِهِ ، وَالْإِيرَادُ الْمَذْكُورُ لَا يَتَأَتَّى بِالْوَضْعِيَّةِ ، لِأَنَّ السَّامِعَ إِذَا كَانَ عَالِمًا بِوَضْعِ الْأَلْفَاظِ لَمْ يَكُنْ بَعْضُهَا أَوْضَحَ ، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ كُلٌّ وَاحِدٍ دَالًّا عَلَيْهِ وَيَتَأَتَّى بِالْعَقْلِيَّةِ ، لِجَوَازِ أَنْ تَخْتَلِفَ مَرَاتِبُ اللُّزُومِ فِي الْوُضُوحِ ، ثُمَّ اللَّفْظُ الْمُرَادُ بِهِ لَازِمُ مَا وُضِعَ لَهُ إِنْ قَامَتْ قَرِينَةٌ عَلَى عَدَمِ إِرَادَتِهِ فَمَجَازٌ ،

لحقيقة السقف مفيداً للحائط بواسطة دلالة الأول ، فتكون هذه الدلالة عقلية ، والقوم قد اصطلحوا على تسمية الأولى بدلالة المطابقة والثانية بدلالة التضمن والثالثة بدلالة الالتزام ، قال المصنف : وشرط الالتزام اللزوم الذهنى بين الموضوع له والخارج عنه يعنى أن يكون حصول ما وضع اللفظ له فى الذهن ملزوماً لحصول الخارج فيه لئلا يلزم ترجيح أحد المتساويين على الآخر لكون نسبة الخارج إليه حينئذ كنسبة سائر المعانى الخارجة ، ولا يشترط فى هذا اللزوم أن يكون مما يثبته العقل بل يكفى أن يكون مما يثبته اعتقاد المخاطب ، إما لعرف عام أو لغيره ، لإمكان الانتقال حينئذ من المفهوم الأصلى إلى الآخر .
قال : ثم اللفظ المراد به لازم ما وضع له إن قامت قرينة على عدم إرادة ما وضع له فهو مجاز وإلا فكناية . . . وهذا مبنى على ما سيجىء أول باب الكناية من أن الانتقال فى المجاز والكناية كليهما إنما هو من اللزوم إلى اللازم ، وأن ما ذكره السكاكى من أن مبنى الكناية على الانتقال من اللازم إلى الملزوم ليس بصحيح ، إذ لا دلالة اللازم من حيث أنه لازم على الملزوم

وَإِلاَّ فَكِنَايَةٌ ، وَقُدِّمَ عَلَيْهَا لِأَنَّ مَعْنَاهُ كَجُزْءِ مَعْنَاهَا ، ثُمَّ مِنْهُ مَا يُبْنَى عَلَى التَّشْبِيهِ ، فَتَعَيَّنَ التَّعَرُّضُ لَهُ ، فَانْحَصَرَ فِي الثَّلَاثَةِ .

﴿ التَّشْبِيهُ ﴾

- التَّشْبِيهُ الدِّلَالَةُ عَلَى مُشَارَكَةِ أَمْرٍ لِأَمْرٍ فِي مَعْنًى ، وَالْمُرَادُ هُهُنَا

والالتزام إنما هو الدلالة على لازم المسمى لا على ملزومه . قال : وقدم المجاز على الكناية لأن معناه كجزء معناها ، أي لأن المراد فى المجاز هو اللازم فقط لقيام القرينة على عدم إرادة الملزوم وفى الكناية يجوز أن يراد اللازم والملزوم جميعاً . قال : ثم من المجاز ما يبنى على التشبيه . وهو الاستعارة . فتعين التعرض له فانحصر المقصود من علم البيان فى الثلاثة : التشبيه والمجاز والكناية . هذا ما أمكن أن نثبته فى هذا المقام وهو بعد موضع نظر(١) .

- ﴿ التشبيه ﴾ اعلم أن التشبيه مما اتفق العقلاء على شرف قدره وإن تعقيب المعانى به لاسيما قسم التمثيل منه يكسبها أبهة ويكسبها منقبة ويرفع من أقدارها ويشب من نارها ويضاعف قواها فى تحريك النفوس لها ويدعو القلوب إليها ويستثير لها من أقاصى الأفئدة صبابة وكلفاً ، ويقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً فإن كان مدحاً كان أبهى وأفخم وأنبل فى النفوس وأعظم ، وأهز للعطف وأسرع للألف ، وأجلب للفرح ، وأغلب على الممتدح وأوجب شفاعة المادح ، وأقضى له بغر المواهب والمنائح ، وأسير على الألسن وأذكر ، وأولى بأن تعلقه القلوب

---

(١) وذلك لأمور : منها أنه ليس بصحيح قولهم إن الاختلاف بالوضوح والخفاء غير ممكن فى الدلالة الوضعية ، ولقد شنع شيخنا الإمام حفظه الله على هذا القول بما يؤيده الحس وينصره العقل ، وليس فى وسعنا إثبات ذلك الآن وربما أثبتناه فى مكان آخر إن شاء الله ، وأمور أخرى نبه عليها القوم فيما كتبوا فانظرها ثمت إن شئت .

وأجدر . وإن كان ذماً كان مسه أوجع وميسمه ألذع ووقعه أشد وحده أحد ، وإن كان حجاجاً كان برهانه أنور وسلطانه أقهر وبيانه أبهر . وإن كان افتخاراً كان شأوه أبعد وشرفه أجد ولسانه ألد . وإن كان اعتذاراً كان إلى القبول أقرب وللقلوب أخلب وللسخائم أسل ولغرب الغضب أفل ، وفى عقد العقود أنفث وعلى حسن الرجوع أبعث . وإن كان وعظاً كان أشفى للصدر وأدعى إلى الفكر وأبلغ فى التنبيه والزجر وأجدر، بأن يجلى الغياية ويبصر الغاية ويبرىء العليل ويشفى الغليل . وهكذا الحكم إذا استقريت فنون القول وضروبه ، وتتبعت أبوابه وشعوبه . وإن أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى قول البحترى :

دَانٍ عَلَى أَيْدِى الْعُفَاةِ وَشَاسِعٌ … عَنْ كُلِّ نِدٍّ فى النَّدَى وَضَرِيبِ
كَالْبَدْرِ أَفْرَطَ فى الْعُلُوِّ وَضَوْؤُهُ … لِلْعُصْبَةِ السَّارِينَ جِدُّ قَرِيبِ

أو قول ابن لنكك :

إِذَا أَخُو الْحُسْنِ أَضْحَى فِعْلُهُ سَمِجًا … رَأَيْتَ صُورَتَهُ مِنْ أَقْبَحِ الصُّوَرِ
وَهَبْهُ كَالشَّمْسِ فى حُسْنٍ أَلَمْ تَرَنَا … نَفِرُّ مِنْهَا إِذَا مَالَتْ إِلَى الضَّرَرِ

أو قول ابن الرومى :

بَذَلَ الْوَعْدَ لِلْأَخِلَّاءِ سَمْحًا … وَأَبَى بَعْدَ ذَاكَ بَذْلَ الْعَطَاءِ
فَغَدَا كَالْخِلَافِ يُورِقُ لِلْعَيْــنِ وَيَأْبَى الْإِثْمَارَ كُلَّ الْإِبَاءِ

أو قول أبى تمام :

وَإِذَا أَرَادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ … طُوِيَتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ
لَوْلَا اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ … مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ الْعُودِ

وقوله أيضاً :

وَطُولُ مُقَامِ الْمَرْءِ فِى الْحَىِّ مُخْلِقٌ … لِدِيبَاجَتَيْهِ فَاغْتَرِبْ تَتَجَدَّدِ

مَا لَمْ تَكُنْ عَلَى وَجْهِ الاسْتِعَارَةِ التَّحْقِيقِيَّةِ وَالاسْتِعَارَةِ بِالكِنَايَةِ

فَإِنِّي رَأَيْتُ الشَّمْسَ زِيدَتْ مَحَبَّةً إِلَى النَّاسِ أَنْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمَدِ

وفكر فى حالك وحال المعنى معك وأنت فى البيت الأول لم تنته إلى الثانى ثم قسها على الحال وقد وقفت عليه وتأملت طرفيه ، فإنك تعلم بعد ما بين حالتيك وشدة تفاوتهما ، فى تمكن المعنى لديك وتحببه إليك ونبله فى نفسك وتوفيره لأنسك ، وتحكم لى بالصدق فيما قلت والحق فيما ادعيت وكذلك فتعهد الفرق بين أن تقول أرى قوماً لهم بهاء ومنظر ، وليس هناك مخبر ، وتقطع الكلام ، وبين أن تتبعه قول ابن خلكان :

فِى شَجَرِ السَّرْوِ مِنْهُمْ مَثَلٌ لَهُ رُوَاءٌ وَمَا لَهُ ثَمَرُ

وانظر إلى المعنى فى الحالة الثانية كيف يورق شجره ويثمر ويفتر ثغره ويبسم ، وكيف تشتار الأرى من مذاقه كما ترى الحسن فى شارته . هذا ولذلك أسباب وعلل فنها مايحصل للنفس من الإنس إخراجها من خفى إلى جلى كالانتقال مما يحصل لها بالفكرة إلى مايعلم بالفطرة أو بإخراجها عما لم تألفه إلى ماألفته كما قيل : ماالحب إلا للحبيب الأول . أو مما لم تعلمه إلى ماهى به أعلم كالانتقال من المعقول إلى المحسوس . فإنك قد تعبر عن المعنى بعبارة تؤديه وتبالغ حتى لاتدع فى النفوس منزعاً ، نحو أن تقول وأنت تصف اليوم بالقصر يوم كأقصر مايتصور . فلا يجد السامع له من الأنس مايجده لنحو قولهم أيام كأباهيم[1] القطا وقول بن المعتز :

تَدَلَّتْ مِنْ يَوْمٍ كَظِلِّ حَصَاةٍ لَيْلاً كَظِلِّ الرُّمْحِ غَيْرَ مُوَاتِ

وقول الآخر .

ظَلِلْنَا عِنْدَ بَابِ أَبِى نُعَيْمٍ بِيَوْمٍ مِثْلِ سَالِفَةِ الذُّبَابِ[1]

(١) جمع إبهام . (٢) هى ناحية مقدم العنق من لدن معلق القرط إلى الترقوه .

وكذا تقول فلان إذا هم بالشيء لم يزل ذلك عن ذكره وقلبه ، وقصر خواطره على إمضاء عزمه فيه ، ولم يشغله عنه شيء ، ثم لاترى فى نفسك له هزة ولا تصادف لما تسمعه أريحية حتى إذا قلت :

* إِذَا هَمَّ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ *(١)

امتلأت نفسك سروراً وأدركتك طربة لاتملك دفعها عنك . ومن الدليل على أن للتشبيه من التحريك للنفس وتمكين المعنى ما ليس لغيره ، أنه لو كان الرجل مثلا على طرف نهر فى وقت مخاطبة صاحبه ، وإخباره له بأنه لايحصل من سعيه على شيء ، فأدخل يده فى الماء وقال انظر هل حصل فى كفى من الماء شيء ، فكذلك أنت فى أمرك ، كان لذلك ضرب من التأثير زائد على القول المجرد . ومن فضائل التشبيه أنه يأتيك من الشيء الواحد بأشياء عدة نحو : أن يعطيك من الزند بإيرائه ، شبه الجواد والزكى والنجح فى الأمور ، بإصلاده شبه البخيل والبليد والخيبة فى السعى ، ومن القمر الكمال عن النقصان كما قال أبو تمام(٢) :

لَهَفِى عَلَى تِلْكَ الشَّوَاهِدِ فِيهِما ... لَوْ أُمْهِلَتْ حَتَّى تَصِيرَ شَمَائِلَا
لَغَدَا سُكُونُهُمَا حِجًى وَصِبَاهُمَا ... حِلْمًا وَتِلْكَ الأَرْيَحِيَّةُ نَائِلَا
إِنَّ الهِلَالَ إِذَا رَأَيْتَ نُمُوَّهُ ... أَيْقَنْتَ أَنْ سَيَصِيرُ بَدْرًا كَامِلَا

والنقصان بعد الكمال كقول أبا العلاء المعرى :

---

(١) الشطر لسعد بن ناشب وتمامه :

* وَنَكَّبَ عَنْ ذِكْرِ الْعَوَاقِبِ جَانِبَا *

(٢) يرثى ولدين لعبد الله بن طاهر ماتا فى يوم واحد .

وَالتجْرِيدِ ، فَدَخَلَ فِيهِ نحوُ قَوْلِنَا زَيْدٌ أَسَدٌ ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ

وَإِنْ كُنْتَ تَبْغِي الْعَيْشَ فَابْغِ تَوَسُّطاً ... فَعِنْدَ التَّنَاهِي يَقْصُرُ الْمُتَطَاوِلُ
تُوَقَّى الْبُدُورُ النَّقْصَ وَهْيَ أَهِلَّةٌ ... وَيُدْرِكُهَا النُّقْصَانُ وَهْيَ كَوَامِلُ

وتتفرع من حالتي كماله ونقصه فروع لطيفة ، فمن ذلك قول ابن بابك :

وَأَعَرْتَ شَطْرَ الْمُلْكِ ثَوْبَ كَمَالِهِ ... وَالْبَدْرُ فِي شَطْرِ الْمَسَافَةِ يَكْمُلُ

قاله فى الأستاذ أبي على وقد استوزره فخر الدولة بعد وفاة الصاحب وأبا العباس الضبي وخلع عليهما ، وقول أبو بكر الخوارزمى .

أَرَاكَ إِذَا أَيْسَرْتَ خَيَّمْتَ عِنْدَنَا ... مُقِيماً وَإِنْ أَعْسَرْتَ زُرْتَ لِمَامَا
فَمَا أَنْتَ إِلَّا الْبَدْرُ إِنْ قَلَّ ضَوْءُهُ ... أَغَبَّ وَإِنْ زَادَ الضِّيَاءُ أَقَامَا

المعنى لطيف وإن لم تساعده العبارة على الوجه الذى يجب ، فإن الإغباب أن يتخلل وقتى الحضور وقت يخلو منه ، وإنما يصلح لأن يراد أن القمر إذا نقص نوره لم يوال الطلوع كل ليلة بل يظهر فى بعض الليالى دون بعض وليس الأمر كذلك لأنه على نقصانه يظهر كل ليلة حتى يكون السرار ، وبعد ، فهذا الضرب من البيان على حدته كنز من كنوز البلاغة ومادة الشاعر المفلق والكاتب البليغ فى الإبداع والإحسان والاتساع فى طرق البيان وأن يضع الكلام بعيد المرام قريباً من الأفهام ، ولا يغرنك من أمره أنك ترى الرجل يشبه الجواد بالبحر والشجاع بالأسد والحسن بالشمس ، وما ماثل ذلك مما اشتهر أمره وجرى لذلك مجرى الحقيقة وإنما هو يدق ويلطف حتى يأتيك بما يخلب القلوب ويرقص الهام ، وحتى يخرج مثله عن طوق البشر جميعاً (التجريد) سيمر بك فى البديع (فدخل فيه نحو قولنا زيد أسد)

وَالنَّظَرُ هٰهُنَا فِي أَرْكَانِهِ ، وَهِيَ طَرَفَاهُ وَوَجْهُهُ وَأَدَاتُهُ ، وَفِي الْغَرَضِ مِنْهُ وَفِي أَقْسَامِهِ : طَرَفَاهُ إِمَّا حِسِّيَّانِ ، كَالْخَدِّ وَالْوَرْدِ ، وَالصَّوْتِ الضَّعِيفِ وَالْهَمْسِ ، وَالنَّكْهَةِ وَالْعَنْبَرِ ، وَالرِّيقِ وَالْخَمْرِ ، وَالْجِلْدِ النَّاعِمِ وَالْحَرِيرِ : أَوْ عَقْلِيَّانِ : كَالْعِلْمِ وَالْحَيَاةِ ، أَوْ مُخْتَلِفَانِ : كَالْمَنِيَّةِ وَالسَّبُعِ ، وَالْعِطْرِ وَخُلُقٍ كَرِيمٍ ، وَالْمُرَادُ بِالْحِسِّيِّ الْمُدْرَكُ هُوَ أَوْ مَادَّتُهُ بِإِحْدَى الْحَوَاسِّ الْخَمْسِ

وسيأتى آخر التشبيه تحقيق ذلك إن شاء الله (كالخد والورد) والقامة والرمح والقد والغصن والفيل والجبل ، يعنى حيث يشبه الأول بالثانى فى جميع ذلك وقس على هذا ما يأتى (والهمس) وهو الصوت الذى أخفى حتى كأنه لا يخرج عن فضاء الفهم (والنكهة) هى ريح الفم (كالمنية والسبع) فالمشبه وهو المنية عقلى والمشبه به وهو السبع حسى (والعطر وخلق كريم) فالمشبه وهو العطر محسوس بالشم ، والمشبه به وهو الخلق عقلى . قال الرازى اعلم أن تشبيه المحسوس بالمعقول غير جائز لأن العلوم العقلية مستفادة من الحواس ومنتهية إليها ، ولذلك قيل من فقد حساً فقد فقد علماً ، واذا كان المحسوس أصلا للمعقول فتشبيهه به يكون جعلا للفرع أصلا وللأصل فرعاً وهو غير جائز ولذلك لو حاول محاول المبالغة فى وصف الشمس بالظهور والمسك بالطيب ، فقال الشمس كالحجة فى الظهور والمسك كخلق فلان فى الطيب ، كان سخيفاً من القول ، أما ما جاء فى الكلام البليغ من هذا الجنس ، فوجهه أن يقدر المعقول محسوساً ويجعل كالأصل لذلك المحسوس على المبالغة ، وذلك مثل قول البحترى :

وكأن النجوم بين دجاها   سنن لاح بينهن ابتداع

الظَّاهِرَةِ ، فَدَخَلَ فِيهِ الْخَيَالِيُّ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ :

وَكَأَنَّ مُحْمَرَّ الشَّقِيـــقِ إِذَا تَصَوَّبَ أَوْ تَصَعَّدْ
أَعْلَامُ يَاقُوتٍ نُشِرْ نَ عَلَى رِمَاحٍ مِنْ زَبَرْجَدْ

وَ بِالْعَقْلِيِّ مَا عَدَا ذَلِكَ ، فَدَخَلَ فِيهِ الْوَهْمِيُّ ، أَيْ مَا هُوَ غَيْرُ مُدْرَكٍ بِهَا وَلَوْ أُدْرِكَ لَكَانَ مُدْرَكًا بِهَا ، كَمَا فِي قَوْلِهِ ٭ وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ ٭

كما سيأتى قريباً (الخيالى) هو المركب من أمور كل واحد موجود يدرك بالحس لكن هيئته التركيبية لم توجد . والتشبيه متى كان كذلك كان مصبوغاً بالحسن مكسياً روع الإعجاب (وكأن الخ) محمر الشقيق ، يراد به شقائق النعمان وهو ورد أحمر فى وسطه سواد ، وإنما أضيف إلى النعمان لأنه حمى أرضاً كثر فيها ذلك ، وتصوب : مال إلى أسفل ، وتصعد : مال إلى أعلى ، ومثله قول بعضهم فى النيلوفر [1] :

كُلُّنَا بَاسِطُ الْيَدِ نَحْوَ نِيلُوفَرٍ نَدِى
كَدَبَابِيسِ عَسْجَدٍ قُضْبُهَا مِنْ زَبَرْجَدِ

وقول أبى الغنائم الحمصى :

خَوْدٌ كَأَنَّ بَنَانَهَا فِى خُضْرَةِ النَّقْشِ الْمُزَرَّدْ
سَمَكٌ مِنَ الْبَلُّورِ فِى شَبَكٍ تَكَوَّنَ مِنْ زَبَرْجَدْ

(كما فى قوله ومسنونة) وعليه قوله تعالى: طلعها كأنه رؤس الشياطين وصدر البيت

٭ أَيَقْتُلُنِي وَالْمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي ٭

---

(١) هو البشنين نبت معروف .

وَمَا يُدْرَكُ بِالْوُجْدَانِ كَاللَّذَّةِ وَالْأَلَمِ : وَوَجْهُهُ مَا يَشْتَرِكَانِ فِيهِ تَحْقِيقاً أَوْ تَخْيِيلاً ، وَالْمُرَادُ بِالتَّخْيِيلِ نَحْوُ مَا فِى قَوْلِهِ :

وَكَأَنَّ النُّجُومَ بَيْنَ دُجَاهَا سُنَنٌ لَاحَ بَيْنَهُنَّ ابْتِدَاعُ

وهو لامرىء القيس من القصيدة التى مطلعها :

* أَلَا عِمْ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِى *

والمشرفى نسبة إلى مشارف الشام : وهى قرى من أرض العرب تدنو من الريف منها السيوف المشرفية والمسنونة المحددة المصقولة يريد السهام (نحو مافى قوله وكأن) نحوه كل مالا يمكن وجوده فى المشبه به إلا على تأويل ، ومن هذا قول أبى طالب الرقى :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالزَّمَانُ كَأَنَّهُ يَوْمُ النَّوَى وَفُؤَادُ مَنْ لَمْ يَعْشَقِ

لما كانت أيام المكاره توصف : بالسواد فيقال اسود النهار فى عينى وأظلمت الدنيا على ، جعل يوم النوى كأنه أعرف وأشهر بالسواد من الظلام فشبه به ، ثم عطف عليه فؤاد من لم يعشق تظرفاً وإتماماً للصفة ، وذلك أن الغزل يدعى القسوة على من لم يعرف العشق والقلب القاسى يوصف بشدة السواد ، فصار هذا المطلب عنده أصلا فى الكدرة والسواد فقاس عليه ومنه قول ابن بابك :

وَأَرْضٍ كَأَخْلَاقِ الْكَرِيمِ قَطَعْتُهَا وَقَدْ كَحَلَ اللَّيْلُ السِّمَاكَ فَأَبْصَرَا

لما كانت الأخلاق توصف بالسعة والضيق وكثر ذلك توهمه حقيقة فقابل بين سعة الأرض التى هى سعة حقيقية وأخلاق الكريم ، وكذا قول التنوخى فى قطعة وهى قوله :

أَمَا تَرَى الْبَرْدَ قَدْ وَافَتْ عَسَاكِرُهُ وَعَسْكَرَ الْحَرِّ كَيْفَ انْصَاعَ مُنْطَلِقا

فَإِنَّ وَجْهَ الشَّبَهِ فِيهِ هُوَ الْهَيْئَةُ الْحَاصِلَةُ مِنْ حُصُولِ أَشْيَاءَ مُشْرِقَةٍ بِيضٍ فِى جَوَانِبِ شَىْءٍ مُظْلِمٍ أَسْوَدَ ، فَهِىَ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ فِى الْمُشَبَّهِ بِهِ إِلاَّ عَلَى طَرِيقِ التَّخْيِيلِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَتِ الْبِدْعَةُ وَكُلُّ مَاهُوَ جَهْلٌ تَجْعَلُ صَاحِبَهَا كَمَنْ يَمْشِى فِى الظُّلْمَةِ فَلاَ يَهْتَدِى لِلطَّرِيقِ وَلاَ يَأْمَنُ أَنْ

فَالْأَرْضُ تَحْتَ ضَرِيبِ الثَّلْجِ تَحْسَبُهَا ... قَدْ أُلْبِسَتْ حَبَكاً أَوْ غُشِّيَتْ وَرِقَا

فَانْهَضْ بِنَارٍ إِلَى فَحْمٍ كَأَنَّهُمَا ... فِى الْعَيْنِ ظُلْمٌ وَإِنْصَافٌ قَدِ اتَّفَقَا

جَاءَتْ وَنَحْنُ كَقَلْبِ الصَّبِّ حِينَ سَلاَ ... بَرْداً فَصِرْنَا كَقَلْبِ الصَّبِّ إِذْ عَشِقَا

المقصود فانهض بنار إلى فحم فإنه لما كان يقال فى الحق إنه منير واضح لائح فتستعار له أوصاف الأجسام المنيرة ، وفى الظلم خلاف ذلك تخيلهما شيئين لهما إنارة وإظلام وابيضاض واسوداد فشبه النار والفحم بهما ، ومما حسن من هذا الباب ما كتب به الصاحب إلى القاضى أبى الحسن وقد أهدى له الصاحب عطر الفطر :

يَا أَيُّهَا الْقَاضِى الَّذِى نَفْسِى لَهُ ... مَعَ قُرْبِ عَهْدِ لِقَائِهِ مُشْتَاقَهْ

أَهْدَيْتُ عِطْراً مِثْلَ طِيبِ ثَنَائِهِ ... فَكَأَنَّمَا أُهْدِى لَهُ أَخْلاَقَهْ

فالعادة أن يشبه الثناء بالعطر وقد عكس كما ترى وذلك على ادعاء أن ثناءه أحق بصفة العطر وطيبه من العطر وأنه قد صار أصلا ، حتى إذا قيس نوع من العطر عليه فقد بولغ فى صفته بالطيب وجعل له فى الشرف والفضل على جنسه أوفر نصيب ، ومما حقه أن يعد فى هذا الباب قول القائل :

كَأَنَّ انْتِضَاءَ الْبَدْرِ مِنْ تَحْتِ غَيْمِهِ ... نَجَاءٌ مِنَ الْبَأْسَاءِ بَعْدَ وُقُوعِ

يَنَالَ مَكْرُوهاً شَبَّهَتِ الْبِدْعَةُ بِهَا ، وَلَزِمَ بِطَرِيقِ الْعَكْسِ أَنْ تُشَبَّهَ السُّنَّةُ وَكُلُّ مَا هُوَ عِلْمٌ بِالنُّورِ ، وَشَاعَ ذَلِكَ حَتَّى تُخُيِّلَ أَنَّ الثَّانِيَ مِمَّا لَهُ بَيَاضٌ وَإِشْرَاقٌ ، نَحْوُ : أَتَيْتُكُمْ بِالْحَنِيفَةِ الْبَيْضَاءِ ، وَأَنَّ الْأَوَّلَ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ ، كَقَوْلِكَ : شَاهَدْتُ سَوَادَ الْكُفْرِ مِنْ جَبِينِ فُلَانٍ ، فَصَارَ تَشْبِيهُ النُّجُومِ بَيْنَ الدُّجَى بِالسُّنَنِ بَيْنَ الِابْتِدَاعِ كَتَشْبِيهِهَا بِبَيَاضٍ

وذلك أن العادة أن يشبه المتخلص من البأساء بالبدر الذى ينحسر عنه الغمام ، والشبه بين البأساء والغمام والظلماء من طريق العقل لا من طريق الحس ، ذكر هذا الإمام عبد القاهر ، هذا وإليك ماقبل البيت :

رُبَّ لَيْلٍ قَطَعْتُهُ بِصُدُودٍ ... وَفِرَاقٍ مَا كَانَ فِيهِ وَدَاعُ
مُوحِشٍ كَالثَّقِيلِ تَقْذَى بِهِ الْعَيْنُ ... وَتَأْبَى حَدِيثَهُ الْأَسْمَاعُ

وبعده :

مُشْرِقَاتٌ كَأَنَّهُنَّ حِجَاجٌ ... تَقْطَعُ الْخَصْمَ وَالظَّلَامُ انْقِطَاعُ
وَكَأَنَّ السَّمَاءَ خَيْمَةُ وَشْيٍ ... وَكَأَنَّ الْجَوْزَاءَ فِيهَا شِرَاعُ

والأبيات للقاضى أبى القاسم التنوخى شيخ له القدح المعلى فى الأدب ، ومن جيد شعره — وهو مما وجد فيه التشبيه الحسن ولذلك أثبتناه :

وَلَيْلَةِ مُشْتَاقٍ كَأَنَّ نُجُومَهَا ... قَدِ اغْتَصَبَتْ عَيْنَ الْكَرَى وَهْيَ نُوَّمُ
كَأَنَّ عُيُونَ السَّاهِرِينَ لِطُولِهَا ... إِذَا شَخَصَتْ لِلْأَنْجُمِ الزُّهْرِ أَنْجُمُ
كَأَنَّ سَوَادَ اللَّيْلِ وَالْفَجْرُ ضَاحِكٌ ... يَلُوحُ وَيَخْفَى أَسْوَدٌ يَتَبَسَّمُ

الشَّيْبِ فى سَوَادِ الشَّبَابِ أَوْ بِالْأَنْوَارِ مُؤْتَلِقَةً بَيْنَ النَّبَاتِ الشَّدِيدِ الْخُضْرَةِ فَعُلِمَ فَسَادُ جَعْلِهِ فى قَوْلِ الْقَائِلِ : النَّحْوُ فى الْكَلَامِ كَالْمِلْحِ فى الطَّعَامِ ، كَوْنَ الْقَلِيلِ مُصْلِحاً ، وَالْكَثِيرِ مُفْسِداً ، لِأَنَّ النَّحْوَ لاَ يَحْتَمِلُ الْقِلَّةَ

(أو بالأنوار) جمع نور بفتح النون وهو الزهر (مؤتلقة) لامعة ، وبعد ، فقد علمت من كلام المصنف أن التأويل فى البيت هو تخييل ماليس بمتلون متلوناً . وإن تأولت فى البيت أنه أراد معنى قولهم إن سواد الظلام يزيد النجوم حسناً وبهاء كان له مذهب ، وذلك أنه لما كان وقوف العاقل على بطلان الباطل وعوار البدعة يزيد الحق نبلا فى نفسه وحسناً فى مرآة عقله ، جعل هذا الأصل من المعقول مثالا للشاهد المبصر هناك إلا أنه على ذلك لايخرج من أن يكون خارجاً عن الظاهر أن يمثل المعقول فى ذلك بالمحسوس كما فعل البحترى فى قوله :

وَقَدْ زَادَهَا إِفْرَاطَ حُسْنٍ جِوَارُهَا ... خَلَائِقَ أَصْفَارٍ مِنَ الْمَجْدِ خُيَّبِ (1)

وَحُسْنُ دَرَارِيِّ النُّجُومِ بِأَنْ تُرَى ... طَوَالِعَ فى دَاجٍ مِنَ اللَّيْلِ غَيْهَبِ

(فعلم الخ) قد علمت أن وجه الشبه هو مايشترك فيه الطرفان ، وحينئذ يكون معنى قولهم النحو فى الكلام كالملح فى الطعام إن الكلام لا يستقيم ولا ينتفع به إلا بمراعاة أحكام النحو فيه من الإعراب والترتيب الخاص كما لا يجدى الطعام ، ولا تحصل المنفعة المطلوبة منه مالم يصلح بالملح ، أما ماتخيله بعضهم من أن معناه : أن القليل من النحو مغن والكثير مفسد كما يفسد الملح الطعام إذا كثر فيه فتخريف وقول هراء وذلك أنه لايتصور الزيادة والنقصان

---

(١) الأصفار جمع صفر : بمعنى خال .

وَالْـكَثْرَةَ ، بِخِلَافِ الْمِلْحِ . وَهُوَ إِمَّا غَيْرُ خَارِجٍ عَنْ حَقِيقَتِهِمَا ، كَمَا فِي

فى جريان أحكام النحو فى الكلام ، فقولنا كان زيد ذاهباً لا بد فيه من رفع الاسم ونصب الخبر وهذا إن وجد فقد حصل النحو وتمتنع الزيادة عليه وإن لم يحصل كان الكلام فاسداً لا يفيد السامع فائدة بل يضره لوقوعه فى عمياء وهجوم الوحشة عليه ، فقول أبى بكر الخوارزمى :

* وَالْبُغْضُ عِنْدِي كَثْرَةُ الْإِعْرَابِ *

كلام لا تحصل منه على طائل لما علمت ، ولعلهم يريدون بكثرة النحو استعمال الوجوه الغريبة والأقوال الضعيفة ونحو ذلك مما يفسد الكلام . هذا ومما هو فاسد لعدم اشتراك الطرفين فى وجه الشبه قول ابن شرف القيروانى :

غَيْرِي جَنَى وَأَنَا الْمُعَاقَبُ فِيكُمُ ... فَكَأَنَّنِي سَبَّابَةُ الْمُتَنَدِّمِ

حكى أنه لما أنشده ابن رشيق وقال له هل سمعت هذا المعنى ، قال ابن رشيق سمعته وأخذته وأفسدته ، أما الأخذ فمن النابغة الذبيانى حيث يقول :

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً ... وَهَلْ يَأْثَمَنْ ذُو أُمَّةٍ[1] وَهْوَ طَائِعُ

لَكَلَّفْتَنِي ذَنْبَ امْرِئٍ وَتَرَكْتَهُ ... كَذِي الْعُرِّ يُكْوَى غَيْرُهُ وَهْوَ رَاتِعُ[2]

وأما الإفساد فلأن سبابة المتندم أول شيء يتألم منه ، فلا يكون المعاقب غير الجانى ، وهذا بخلاف بيت النابغة فإن المكوى من الإبل يألم وما به أعر ألبتة ، وصاحب العر لا يألم بجمله (وهو إما غير خارج الخ) هذا تقسيم آخر لوجه الشبه وأصله للسكاكى ، حذاه المصنف فيه حذو القذة بالقذة ، ويعجبنى قول الشيخ التفتازانى فى شرحه المطول إن أمثال هذه التقسيمات

(١) الأمة : الدين . (٢) العر : الجرب .

تَشْبِيهِ ثَوْبٍ بِآخَرَ فِى نَوْعِهِمَا أَوْ جِنْسِهِمَا ، أَوْ خَارِجٌ صِفَةٌ ، إِمَّا حَقِيقِيَّةٌ حِسِّيَّةٌ ، كَالْكَيْفِيَّاتِ الْجِسْمِيَّةِ ، مِمَّا يُدْرَكُ بِالْبَصَرِ مِنَ الْأَلْوَانِ وَالْأَشْكَالِ وَالْمَقَادِيرِ وَالْحَرَكَاتِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا ، أَوْ بِالسَّمْعِ مِنَ الْأَصْوَاتِ الْقَوِيَّةِ

التى لاتتفرع على أقسامها أحكام متفاوتة قليلة الجدوى ، وكأن هذا ابتهاج من السكاكى باطلاعه على اصطلاحات المتكلمين فلله در الإمام عبد القاهر وإحاطته بأسرار كلام العرب وخواص تراكيب البلغاء ، فإنه لم يزد فى هذا المقام على التكثير من أمثلة أنواع التشبيهات وتحقيق اللطائف المودعة فيها . هذا والبلغاء قاطبة برآء من التشبيه فى مفهوم داخل فى الحقيقة ، وليس وجه الشبه عندهم إلا المعانى القائمة بالطرفين ، وليس الجنس والنوع عندهم إلا الأخص والأعم ، فأمثال هذا التقسيم من تفلسف السكاكى والبهتان العظيم (حقيقية) أى موجودة فى الطرفين لا بالقياس إلى شىء (الألوان) كتشبيه الخد بالورد والشعر بخافية الغراب والوجه بالنهار (والأشكال) نحو أن يشبه الشىء إذا استدار بالكرة فى وجه وبالحلقة فى وجه آخر (والمقادير) كتشبيه العظيم الجثة بالجبل والفيل وتشبيه الناقة بالقصر (والحركات) كتشبيه الذاهب على الاستقامة بالسهم السديد ومن تأخذه الأريحية فيهتز بالغصن تحت البارح (ومايتصل بها) كالحسن والقبح والضحك والبكاء وغير ذلك (الأصوات) كتشبيه صوت الجهورى بالرعد ، وتشبيه أطيط الرحل بأصوات الفراريج ، وتشبيه صريف أنياب البعير بصياح البوازى كما قال :

كَأَنَّ عَلَى أَنْيَابِهَا كُلَّ سُحْرَةٍ ... صِيَاحَ الْبَوَازِى مِنْ صَرِيفِ اللَّوَائِكِ (1)

(1) السحرة : السحر . واللوائك جميع لائكة من اللوك : وهو المضغ

وَالضَّعِيفَةِ ، وَالَّتِي بَيْنَ بَيْنَ ، أَوْ بالذَّوْقِ مِنَ الطُّمُومِ ، أَوْ بالشَّمِّ مِنَ الرَّوَائِحِ أَوْ باللَّمْسِ مِنَ الْحَرَارَةِ وَالْبُرُودَةِ وَالرُّطُوبَةِ وَالْيُبُوسَةِ وَالْخُشُونَةِ وَالْمُلَاسَةِ وَاللِّينِ وَالصَّلَابَةِ وَالْخِفَّةِ وَالثِّقَلِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا ، أَوْ عَقْلِيَّةٌ كَالْكَيْفِيَّاتِ النَّفْسَانِيَّةِ مِنَ الذَّكَاءِ وَالْعِلْمِ وَالْغَضَبِ وَالْحِلْمِ وَسَائِرِ الْغَرَائِزِ ، وَإِمَّا إِضَافِيَّةٌ : كَإِزَالَةِ الْحِجَابِ فِى تَشْبِيهِ الْحُجَّةِ بِالشَّمْسِ ، وَأَيْضًا

(الطعوم) كتشبيه بعض الفواكه الحلوة بالعسل والسكر (الروائح) كتشبيه رائحة بعض الرياحين برائحة الكافور (من الحرارة الخ) كتشبيه القيظ بفيح جهنم واللين الناعم بالخز والخشن بالمسح والخفيف بالريش والبارد بالثلج وهكذا (وما يتصل بها) كالبلة والجفاف واللزوجة والهشاشة واللطاقة والكثافة وغير ذلك (أو عقلية) هو معطوف على حسية (النفسانية) أى المختصة بذوات الأنفس الناطقة (من الذكاء) كتشبيه الذكى بإياس (والعلم) كتشبيه العالم بالخليل (والغضب) كتشبيه الغضوب بالمغربى (والحلم) كتشبيه الحليم بمعاوية أو الأحنف أو معن بن زائدة (وسائر الغرائز) كالكرم ، تقول فلان كأنه كعب بن مامة ، أو هرم بن سنان ، أو حاتم طيء والشجاعة نحو : فلان كأنه عنترة ، والبخل تقول هذا كأنه صبى أو كلب من كلاب بنى زياد والجبن نحو هذا كأنه صافر (إضافية) أى نسبية يتوقف تعقلها على تعقل الغير (كإزالة الحجاب الخ) فإن الإزالة أمر إضافى يتعقل فيما بين المزيل والمزال (وأيضاً) هذا تقسيم آخر ، يقول : وجه الشبه إما واحد أو غير واحد ، والواحد إما حسى أو عقلى ، وغير الواحد إما بمنزلة الواحد لكونه مركباً بأن يكون هيئة منتزعة انتزعها العقل من عدة أمور ، أو متعدد غير مركب بأن ينظر إلى عدة أمور ويقصد اشتراك الطرفين فى

إِمَّا وَاحِدٌ ، وَ إِمَّا بِمَنْزِلَةِ الْوَاحِدِ ، لِكَوْنِهِ مُرَكَّباً مِنْ مُتَعَدِّدٍ ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا حِسِّيٌّ أَوْ عَقْلِيٌّ ، وَ إِمَّا مُتَعَدِّدٌ كَذَلِكَ ، أَوْ مُخْتَلِفٌ ، وَالْحِسِّيُّ طَرَفَاهُ حِسِّيَّانِ لاَ غَيْرُ ، لِامْتِنَاعِ أَنْ يُدْرَكَ بِالْحِسِّ مِنْ غَيْرِ الْحِسِّيِّ شَيْءٌ ، وَالْعَقْلِيُّ أَعَمُّ ، لِجَوَازِ أَنْ يُدْرَكَ بِالْعَقْلِ مِنَ الْحِسِّيِّ شَيْءٌ ، وَ لِذَلِكَ يُقَالُ التَّشْبِيهُ بِالْوَجْهِ العقلِيِّ أَعَمُّ ، فَإِنْ قِيلَ : هُوَ مُشْتَرَكٌ فِيهِ فَهُوَ كُلِّيٌّ ، وَالْحِسِّيُّ لَيْسَ

كل منها ليكون كل منها وجه شبه . والذى بمنزلة الواحد إما حسى أو عقلى ، والمتعدد إما حسى أو عقلى أو مختلف (لا غير) فلايجوز أن يكونا معاً عقليين أو أحدهما (لامتناع الخ) فإن وجه التشبيه أمر مأخوذ من الطرفين موجود فيها ، وكل ما يؤخذ من العقلى ويوجد فيه يجب أن يدرك بالعقل لا بالحس ، لان المدرك بالحس لا يكون إلا جسما أو قائماً بالجسم (أعم) يعنى يجوز أن يكون طرفاه عقليين وأن يكونا حسيين وأن يكون أحدهما حسياً والآخر عقلياً (لجواز الخ) بل كل محسوس فله أوصاف بعضها حسى وبعضها عقلى (أعم) فكل طرفين يتحقق فيها التشبيه بوجه حسى يتحقق فيهما بوجه عقلى ولا عكس (فإن قيل) هذا إشارة إلى إشكال أورده السكاكى على كون وجه الشبه قد يكون حسياً وهاك عبارته . وههنا نكتة لا بد من التنبه لها وهى أن التحقيق فى وجه الشبه يأبى أن يكون غير عقلى ، وذلك أنه متى كان حسياً ، وقد عرفت أنه يجب أن يكون موجوداً فى الطرفين ، وكل موجود فله تعين ، فوجه الشبه مع المشبه متعين فيمتنع أن يكون هو بعينه موجوداً مع المشبه به لامتناع حصول المحسوس المعين ههنا مع كونه بعينه هناك بحكم الضرورة وبحكم التنبه على امتناعه إن شئت وهو استلزامه إذا

بِكُلِّيٍّ ، قُلْنَا : الْمُرَادُ أَنَّ أَفْرَادَهُ مُدْرَكَةٌ بِالْحِسِّ ، فَالْوَاحِدُ الْحِسِّيُّ كَالْحُمْرَةِ وَالْخَفَاءِ وَطِيبِ الرَّائِحَةِ وَلَذَّةِ الطَّعْمِ وَلِينِ الْمَلْمَسِ فِيمَا مَرَّ ، وَالْعَقْلِيُّ كَالْعَرَاءِ عَنِ الْفَائِدَةِ وَالْجُرْأَةِ وَالْهِدَايَةِ وَاسْتِطَابَةِ النَّفْسِ فِى تَشْبِيهِ وُجُودِ الشَّىْءِ الْعَدِيمِ النَّفْعِ بِعَدَمِهِ ، وَالرَّجُلِ الشُّجَاعِ بِالْأَسَدِ ، وَالْعِلْمِ بِالنُّورِ وَالْعِطْرِ بِخُلُقٍ كَرِيمٍ ؛ وَالْمُرَكَّبُ الْحِسِّىُّ فِيمَا طَرَفَاهُ مُفْرَدَانِ كَمَا فِى قَوْلِهِ :

وَقَدْ لَاحَ فِى الصُّبْحِ الثُّرَيَّا كَمَا تَرَى ... كَعُنْقُودِ مُلَّاحِيَّةٍ حِينَ نَوَّرَا

عدمت حمرة الخد دون حمرة الورد أو بالعكس كون الحمرة معدومة موجودة معاً ، وهكذا فى أخواتها بل يكون مثله مع المشبه به لكن المثلين لا يكونان شيئاً واحداً ، ووجه الشبه بين الطرفين كما عرفت واحداً ، فيلزم أن يكون أمراً كلياً مأخوذاً من المثلين بتجريدهما عن التعين ، لكن ما هذا شأنه فهو عقلى ، ويمتنع أن يقال فالمراد بوجه الشبه ، حصول المثلين فى الطرفين ، فإن المثلين متشابهان فعهما وجه تشبيه فإن كان عقلياً كان المرجع فى وجه الشبه العقل فى المآل وإن كان حسياً استلزم أن يكون مع المثلين مثلان آخران وكان الكلام فيهما كالكلام فيما سواهما ويلزم التسلسل . وقال ، المصنف إنا نعترف بصحة هذا الإشكال غير أن المراد بكون وجه الشبه حسياً أن تكون أفراده مدركة بالحس كالسواد ، فإن أفراده مدركة بالبصر ، وإن كان هو فى نفسه غير مدرك به ولا بغيره من الحواس ، نقول وهذا ضرب من التسامح (والخفاء) يعنى خفاء الصوت (فيما مر) يعنى فى تشبيه الخد بالورد والصوت الضعيف بالهمس ، والنكهة بالعنبر ، والريق بالخمر ، والجلد الناعم بالحرير (وقد لاح) هو لأبى قيس بن الأسلت ، وقيل لأحيحة بن الجلاح ، والأول شاعر جاهلى

مِنَ الْهَيْئَةِ الْحَاصِلَةِ مِنْ تَقَارُنِ الصُّوَرِ الْبِيضِ الْمُسْتَدِيرَةِ الصِّغَارِ الْمَقَادِيرِ فِي الْمَرْأَى عَلَى الْكَيْفِيَّةِ الْمَخْصُوصَةِ إِلَى الْمِقْدَارِ الْمَخْصُوصِ ، وَفِيمَا طَرَفَاهُ مُرَكَّبَانِ كَمَا فِي قَوْلِ بَشَّارٍ :

كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا ✻ وَأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهْ

مِنَ الْهَيْئَةِ الْحَاصِلَةِ مِنْ هَوِيِّ أَجْرَامٍ مُشْرِقَةٍ مُسْتَطِيلَةٍ مُتَنَاسِبَةِ

مجيد أسلم ابنه عقبة بن أبي قيس (ملاحية) هي عنب أبيض في حبه طول وهو في البيت بتشديد اللام والتخفيف فيه أكثر . قال ابن قتيبة : لا أعلم هل التشديد في البيت ضرورة أو لغة فيه (نوراً) تفتح نوره (كما في قول بشار) مثله ما في قول أبي طالب الرقي :

وَكَأَنَّ أَجْرَامَ النُّجُومِ لَوَامِعاً ✻ دُرَرٌ نُثِرْنَ عَلَى بِسَاطٍ أَزْرَقِ

من الهيئة الحاصلة من تفرق أجرام متلألئة مستديرة ، صغار المقادير في المرأى على سطح جسم أزرق صافي الزرقة . وبيت بشار من قصيدة يمدح بها ابن هبيرة يقول فيها :

إِذَا كُنْتَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ مُعَاتِباً ✻ صَدِيقَكَ لَمْ تَلْقَ الَّذِي لَا تُعَاتِبُهْ

فَعِشْ وَاحِداً أَوْ صِلْ أَخَاكَ فَإِنَّهُ ✻ مُقَارِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً وَمُجَانِبُهْ

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَاراً عَلَى الْقَذَى ✻ ظَمِئْتَ وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهْ

(مثار النقع) النقع : الغبار ، ومثار : من أثار الغبار هيجه (تهاوى كواكبه) أي يتساقط بعضها أثر بعض والأصل تتهاوى حذفت إحدى التاءين (من الهيئة) فوجه الشبه مركب كما ترى وكذا طرفاه ، وذلك لأن الشاعر كما قال

الْمِقْدَارِ مُتَفَرِّقَةٍ فى جَوَانِبِ شَىْءٍ مُظْلِمٍ ، وَفِيمَا طَرَفَاهُ مُخْتَلِفَانِ كَمَا مَرَّ فى تَشْبِيهِ الشَّقِيقِ ؛ وَمِنْ بَدِيعِ الْمُرَكَّبِ الْحِسِّىِّ مَا يَجِىءُ فى الْهَيْئَاتِ الَّتِى تَقَعُ عَلَيْهَا الْحَرَكَةُ ، وَيَكُونُ عَلَى وَجْهَيْنِ ، أَحَدُهُمَا أَنْ يُقْرَنَ بِالْحَرَكَةِ

الشيخ الإمام لم يقصد تشبيه النقع بالليل من جانب ، والسيوف بالكواكب من جانب ، بل عمد إلى تشبيه هيئة السيوف وقد سلت من الأغماد وهى تعلو وترسب وتجىء وتذهب ، ولم يقتصر على أن يريك لمعانها فى أثناء العجاجة كما فعل عمرو بن كلثوم بقوله :

تَبْنِى سَنَابِكُهَا مِنْ فَوْقِ أَرْؤُسِهِمْ ... سَقْفًا كَوَاكِبُهُ الْبِيضُ الْمَبَاتِيرُ

وهذه الزيادة وهى إفادة هيئة السيوف فى حركاتها ، زادت التشبيه تفصيلا لأنها لاتقوم فى النفس إلا بالنظر إلى أكثر من جهة واحدة ، وذلك أن تعلم أن لها فى حال احتدام الحرب واختلاف الأيدى بها فى الضرب اضطرابا شديداً وحركات بسرعه ثم إن لتلك الحركات جهات مختلفة وأحوالا تنقسم بين الاعوجاج والاستقامة والارتفاع والانخفاض ، وأن السيوف باختلاف هذه الأمور تتلاقى وتتداخل ويصدم بعضها بعضاً ، ثم إن أشكال السيوف مستطيلة فنبه على هذه الدقائق بكلمة واحدة وهى قوله فى تهاويها تدافع وتداخل ، ثم إنها بالتهاوى تستطيل أشكالها ، فأما إذا لم تزل عن أماكنها فهى على صورة الاستدارة (فى تشبيه الشقيق) وتشبيه النيلوفر الذى ذكرناه ثمت (ومن بديع الخ) أصل هذا الكلام الإمام عبد القاهر رحمه الله قال : اعلم أن مما يزداد به التشبيه دقة وسحراً أن يجىء فى الهيئات التى تقع عليها الحركات

غَيْرُهَا مِنْ أَوْصَافِ الْجِسْمِ ، كَالشَّكْلِ وَاللَّوْنِ كما فى قوله :

* وَالشَّمْسُ كَالْمِرْآةِ فِى كَفِّ الْأَشَلّْ * مِنَ الْهَيْئَةِ الْحَاصِلَةِ مِنَ الِاسْتِدَارَةِ مَعَ الْإِشْرَاقِ وَالْحَرَكَةِ السَّرِيعَةِ الْمُتَّصِلَةِ مَعَ تَمَوُّجِ الْإِشْرَاقِ حَتَّى يُرَى الشُّعَاعُ كَأَنَّهُ يَهُمُّ بِأَنْ يَنْبَسِطَ حَتَّى يَفِيضَ مِنْ جَوَانِبِ

والهيئة المقصودة فى التشبيه على وجهين أحدهما أن تقترن بغيرها من الأوصاف كالشكل واللون ونحوهما . والثانى أن تجرد هيئة الحركة حتى لايراد غيرها ، فمن الأول قول ابن المعتز :

ه والشمس كالمرآة فى كف الأشل ه

أراد أن يريك مع الاستدارة والإشراق الحركة التى تراها للشمس إذا أنعمت التأمل ثم ، مايحصل فى نورها من أجل تلك الحركة وذلك أن للشمس حركة متصلة دائمة ولنورها بسبب ذلك تموج واضطراب ولا يتحصل هذا الشبه إلا بأن تكون المرآة فى يد الأشل لأن حركته تدوم وتتصل ويكون منها سرعة وبدوام الحركة يتموج نور المرآة وتلك حال الشمس فإنك ترى شعاعها كأنه يهم بان ينبسط حتى يفيض من جوانبها ثم يبدو له فيرجع من الانبساط الذى تراه إلى انقباض كأنه يجمعه من جوانب الدائرة إلى الوسط ، ومثل هذا التشبيه وإن صور فى غير المرآة قول المهلبى الوزير :

وَالشَّمْسُ مِنْ مَشْرِقِهَا قَدْ بَدَتْ ... مُشْرِقَةً لَيْسَ لَهَا حَاجِبْ
كَأَنَّهَا بُوتَقَــةٌ أُحْمِيَتْ ... يَجُولُ فِيهَا ذَهَبٌ ذَائِبْ

وذلك أن الذهب إذا ذاب تشكل بشكل البوتقة فى الاستدارة وأخذ يتحرك فيها بجملته تلك الحركة العجيبة كأنه يهم بأن ينبسط حتى يفيض من

الدَّائِرَةِ ثُمَّ يَبْدُو لهُ فيَرْجِعُ إلَى الاِنْقِبَاضِ ، وَالثَّانِي : أَنْ تُجَرَّدَ الْحَرَكَةُ عَنْ غَيْرِهَا ، فَهُنَالِكَ أَيْضًا لاَ بُدَّ مِن اخْتِلاَطِ حَرَكَاتٍ إِلَى جِهَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ ، فَحَرَكَةُ الرَّحَى وَالسَّهْمِ لاَ تَرْكِيبَ فِيهَا ، بِخلاَفِ حَرَكَةِ الْمُصْحَفِ فِي قَوْلِهِ :

جوانبها لما فى طبعه من النعومة ، ثم يبدو له فيرجع إلى الانقباض لما بين أجزائه من شدة الاتصال والتلاحم ، ولذلك لا يقع فيه غليان على الصفة التى تكون فى الماء ونحوه مما يتخلله الهواء ، ومن عجيب ذلك قول الصنوبرى :

كَأَنَّ فِي غُدْرَانِهَا حَوَاجِباً ظَلَّتْ تُمَطْ[1]

أراد ما يبدو فى صفحة الماء من أشكال كأنصاف دوائر صغار ، ثم تمتد امتداداً ينقص من انحنائها فينقلها من التقوس إلى الاستواء وذلك أشبه شىء بالحواجب إذا امتدت ، لأن للحاجب كما لايخفى تقويساً ومده ينقص من تقويسه ، ومن لطيف ذلك أيضاً قول ابن المعتز يصف وقوع القطر على الأرض :

بَكَرَتْ تُعِيرُ الْأَرْضَ ثَوْبَ شَبَابِ زَرَجِيبَةٌ[2] مَحْمُودَةُ الْإِسْكَابِ
نَثَرَتْ أَوَائِلُهَا حَيًّا[3] فَكَأَنَّهُ نَقْطٌ عَلَى عَجَلٍ بِبَطْنِ كِتَابِ

وأما الوجه الثانى : وهو أن تجرد هيئة الحركة من كل وصف يكون فى

---

(١) يصف أرضاً بالطيب فيقول فيها غدران تهب عليها الريح فتبدو على صفحات غدرانها أشكال كأنها حواجب لها تقوس وامتداد .

(٢) يريد سحابة (٣) الحيا : المطر .

وَكَأَنَّ الْبَرْقَ مُصْحَفُ قَارٍ   فَانْطِبَاقًا مَرَّةً وَانْفِتَاحَا

وَقَدْ يَقَعُ التَّرْكِيبُ فِى هَيْئَةِ السُّكُونِ، كَمَا فِى قَوْلِهِ فِى صِفَةِ الْكَلْبِ

الجسم ، فهناك أيضاً لابد من اختلاط حركات كثيرة للجسم إلى جهات مختلفة له كأن يتحرك بعضه إلى اليمين وبعضه إلى الشمال وبعضه إلى العلو وبعضه إلى السفل ونحو ذلك ، وكلما كان التفاوت فى الجهات التى تتحرك أبعاض الجسم إليها أشد ، كان التركيب فى هيئة المتحرك أكثر ، فحركة الرحى والدولاب وحركة السهم لا تركيب فيها ، لأن الجهة واحدة ، ولكن فى حركة المصحف فى قول ابن المعتز :

وكان البرق مصحف قار(١)   فانطباقاً مرة وانفتاحا

تركيباً لأنه يتحرك فى الحالتين إلى جهتين فى كل حالة إلى جهة ، ومن لطيفه ذلك قول الأعشى يصف السفينة فى البحر وتقاذف الأمواج بها :

تَقِصُ السَّفِينُ بِجَانِبَيْهِ كَمَا   يَنْزُو الرُّبَاحُ خَلَالَهُ كَرَعُ

الرباح : الفصيل ، الكرع : ماء السماء ، شبه السفينة فى انحدارها وارتفاعها بحركات الفصيل فى نزوه ، وذلك أن الفصيل إذا نزا ولاسيما فى الماء وحين يعتريه ما يعترى المهر ونحوه من الحيوانات التى هى فى أول النشء كانت له حركات متفاوتة تصير لها أعضاؤه فى جهات مختلفة . ويكون هناك تسفل وتصعد على غير ترتيب وبحيث تكاد تدخل إحدى الحركتين فى الأخرى فلا يثبته الطرف مرتفعاً حتى يراه منحطاً متسفلا ، ويهوى مرة نحو الرأس ومرة نحو الذنب ، وذلك أشبه شيء بحال السفينة وهيئة حركاتها حين يتدافعها الموج . » قال » وكما يقع التركيب فى هيئة الحركة قد يقع فى هيئة السكون ، فمن ذلك قول ابن المعتز يصف سيلا :

---

(١) بحذف الهمزة والأصل قارىء .

* يُقْعِى جُلُوسَ الْبَدَوِىِّ الْمُصْطَلِى * مِنَ الْهَيْئَةِ الخاصلة مِنْ مَوْقِعِ كُلِّ

فَلَمَّا طَغَى مَاؤُهُ فِى الْبِلاَ ... دِ وَغَصَّ بِهِ كُلُّ وَادٍ صَدِ
نَرَى الثَّوْرَ فِى مَتْنِهِ طَافِياً ... كَضِجْعَةِ ذِى التَّاجِ فِى الْمَرْقَدِ

وقول المتنبي فى صفة الكلب :

يُقْعِى جُلُوسَ الْبَدَوِىِّ الْمُصْطَلِى ... بِأَرْبَعٍ مَجْدُولَةٍ لَمْ تُجْدَلِ[1]

لم ينل التشبيه حظاً من الحسن إلا بأن فيه تفصيلا من حيث كان بكل عضو من الكلب فى إقعائه موقع خاص وكان مجموع تلك الجهات فى حكم أشكال مختلفة تؤلف فيجيء منها صورة خاصة ، ومن لطيف هذا الجنس قول الشاعر فى صفة المصلوب :

كَأَنَّهُ عَاشِقٌ قَدْ مَدَّ صَفْحَتَهُ ... يَوْمَ الْوَدَاعِ إِلَى تَوْدِيعِ مُرْتَحِلِ
أَوْ قَائِمٌ مِنْ نُعَاسٍ فِيهِ لُوثَتُهُ ... مُوَاصِلٌ لِتَمَطِّيهِ مِنَ الْكَسَلِ

والتفصيل فيه أنه شبهه بالمتمطى إذا واصل تمطيه مع التعرض لسببه وهو اللوثة والكسل فيه ، فنظر إلى هذه الجهات الثلاث ، ولو اقتصر على أنه كالمتمطى كان قريب التناول ، لأن هذا القدر يقع فى نفس الرائى للمصلوب ابتداء لأنه من حد الجملة ، وشبيه بهذا فى الاستقصاء قول ابن الرومى :

كَأَنَّ لَهُ فِى الْجَوِّ حَبْلاً يَبُوعُهُ ... إِذَا مَا انْقَضَى حَبْلٌ أُتِيحَ لَهُ حَبْلُ
يُعَانِقُ أَنْفَاسَ الرِّيَاحِ مُوَدِّعاً ... وَدَاعَ رَحِيلٍ لاَ يُحَطُّ لَهُ رَحْلُ

---

(١) الإقعاء : الجلوس ، والاصطلاء : الاستدفاء بالنار ، وبأربع مجدولة فالمجدولة المفتولة : يريد بقوائم محكمة الخلق ثم يجدلها أحد وإنما هى كذلك .

عُضْوٍ فِى إِقْمَائِهِ ، وَالْعَقْلِىُّ كَحِرْمَانِ الِانْتِفَاعِ بِأَبْلَغِ نَافِعٍ مَعَ تَحَمُّلِ التَّعَبِ فِى اسْتِصْحَابِهِ فِى قَوْلِهِ تَعَالَى : مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً . وَاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ يُنْتَزَعُ مِنْ مُتَعَدِّدٍ

فاشتراطه أن يكون له بعد الحبل الذى ينتهى ذرعه حبل آخر يخرج من بوع الأول إليه كقوله : مواصل لتمطيه من الكسل ، فى استيفاء الشبه والتنبيه على استدامته ، لأنه إذا كان لايزال يبوع حبلا لم يقبض باعه ولم يرسل يده ، وفى ذلك بقاء شبه المصلوب على الاتصال (كحرمان[1] الانتفاع الخ) فإنه منتزع من أمور مجموعة قرن بعضها إلى بعض ، وذلك أنه روعى من الحمار فعل مخصوص وهو الحمل ، وأن يكون المحمول شيئاً مخصوصاً وهى الأسفار التى هى أوعية العلوم ، وأن الحمار جاهل بما فيها ، وكذا فى جانب المشبه (واعلم) قال الشيخ الإمام : قد يجىء بعد أداة التشبيه أمور يظن أن المقصود أمر منتزع من بعضها ، فيقع الخطأ لكونه أمراً منتزعاً من جميعها كقوله :

كما أبرقت قوماً عطاشاً غمامة ... فلما رأوها أقشعت وتجلت

فإنه ربما يظن أن الشطر الأول منه تشبيه مستقل بنفسه لا حاجة له إلى الثانى على أن المقصود به ظهور أمر مطمع لمن هو شديد الحاجة إليه ، لكن بالتأمل يظهر أن مغزى الشاعر فى التشبيه أن يثبت ابتداء مطمعاً متصلا بانتهاء

---

(١) وكالمنظر المطمع مع المخبر المؤيس الذى هو على عكس ما قدر فى قوله تعالى : والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه . السراب : مايرى فى الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجرى . والقيعة بمعنى القاع أو جمع قاع : وهو المنبسط المستوى .

فَيَقَعُ الْخَطَأُ لِوُجُوبِ انْتِزَاعِهِ مِنْ أَكْثَرَ ، كَمَا إِذَا انْتُزِعَ مِنَ الشَّطْرِ الْأَوَّلِ مِنْ قَوْلِهِ :

كَمَا أَبْرَقَتْ قَوْمًا عِطَاشًا غَمَامَةٌ * فَلَمَّا رَأَوْهَا أَقْشَعَتْ وَتَجَلَّتِ

لِوُجُوبِ انْتِزَاعِهِ مِنَ الْجَمِيعِ ، فَإِنَّ الْمُرَادَ التَّشْبِيهُ بِاتِّصَالِ ابْتِدَاءٍ مُطْمِعٍ بِانْتِهَاءٍ مُؤْيِسٍ . وَالْمُتَعَدِّدُ الْحِسِّيُّ كَاللَّوْنِ وَالطَّعْمِ وَالرَّائِحَةِ فِي تَشْبِيهِ فَاكِهَةٍ بِأُخْرَى . وَالْعَقْلِيُّ كَحِدَّةِ النَّظَرِ وَكَمَالِ الْحَذَرِ

مؤيس ، وذلك يتوقف على البيت كله ، فإن قيل هذا يقتضى أن يكون بعض التشبيهات المجتمعة كقولنا زيد يصفو ويكدر تشبيها واحداً ، لأن الاقتصار على أحد الخبرين يبطل الغرض من الكلام ، لأن الغرض منه وصف المخبر عنه بأنه يجمع الصفتين وأن إحداهما لاتدوم ، قلنا الفرق بينهما أن الغرض فى البيت أن يثبت ابتداء مطمعاً متصلا بانتهاء مؤيس كما مر وكون الشىء ابتداء لآخر زائد على الجمع بينهما وليس فى قولنا يصفو ويكدر أكثر من الجمع بين الصفتين ، ونظير البيت قولنا يصفو ثم يكدر لإفادة الترتيب المقتضى ربط أحد الوصفين بالآخر وقد ظهر من هذا أن التشبيهات المجتمعة تفارق التشبيه المركب فى مثل ماذكر بأمرين ، أحدهما أنه لايجب فيها ترتيب ، والثانى أنه إذا حذف بعضها لا يتغير حال الباقى فى إفادة ما كان يفيده قبل الحذف ، فإذا قلنا زيد كالأسد بأساً ، والبحر جوداً والسيف مضاء ، لا يجب أن يكون لهذه التشبيهات نسق مخصوص بل لو قدم التشبيه بالبحر أو التشبيه بالسيف جاز ، ولو أسقط واحد من الثلاثة لم يتغير حال غيره فى إفادة معناه ، أفاد ذلك الشيخ الإمام رحمه الله (باتصال) أى باعتبار اتصال الخ ، فالباء ههنا مثلها فى قولك : تجرت

وَإِخْفَاء السِّفَادِ فِى تَشْبِيهِ طَائِرٍ بِالْغُرَابِ ، وَالْمُخْتَلِفُ كَحُسْنِ الطَّلْعَةِ وَنَبَاهَةِ الشَّأْنِ فِى تَشْبِيهِ إِنْسَانٍ بِالشَّمْسِ . وَاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ يُنْتَزَعُ الشَّبَهُ مِنْ نَفْسِ التَّضَادِّ لِاشْتِرَاكِ الضِّدَّيْنِ فِيهِ ، ثُمَّ يُنَزَّلُ مَنْزِلَةَ التَّنَاسُبِ بِوَاسِطَةِ تَمْلِيحٍ أَوْ تَهَكُّمٍ ، فَيُقَالُ لِلْجَبَانِ : مَا أَشْبَهَهُ بِالْأَسَدِ ، وَلِلْبَخِيلِ : هُوَ حَاتِمٌ . وَأَدَاتُهُ الْكَافُ وَكَأَنَّ وَمِثْلُ وَمَا فِى مَعْنَاهَا ، وَالْأَصْلُ فِى نَحْوِ الْكَافِ أَنْ يَلِيَهُ الْمُشَبَّهُ بِهِ ، وَقَدْ يَلِيهِ غَيْرُهُ ، نَحْوُ : وَاضْرِبْ لَهُمْ

بالقدوم : أى بواسطته (السفاد) : نزو الذكر على الأنثى (نباهة الشأن) : شرفه واشتهاره (ينتزع الشبه من نفس التضاد) : أى يجعل التضاد وسيلة لجعل الشىء وجه شبه (فيه) : أى فى التضاد (تمليح) : أى إتيان بشىء مليح يستظرف عند السامع . « هذا » وهناك مذهب آخر للتضاد ذكره بعضهم ، قال قد يشبه أحد الضدين بالآخر إذا كان أحدهما أظهر ، كما يقال : العسل فى حلاوته كالصبر فى مرارته ، وأنشد لابن المهدى يعتذر للمأمون :

لَئِنْ جَحَدْتُكَ مَعْرُوفاً مَنَنْتَ بِهِ ... إِنِّى لَفِى اللُّؤْمِ أَحْظَى مِنْكَ فِى الْكَرَمِ

(وما فى معناه) كلفظة نحو وما يشتق من لفظة مثل وشبه ونحوهما (وقد يليه غيره) وذلك حيث يكون المشبه به مركباً كقوله تعالى : واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح ، إذ ليس المراد تشبيه حال الدنيا بالماء ولا بمفرد آخر يتمحل لتقديره بل المراد تشبيه حالها فى نضرتها وبهجتها ، وما يتعقبها من الهلاك والفناء بحال النبات يكون أخضر وارقاً ثم يهيج فتطيره الرياح كأن لم يكن وبما هو بين

مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ . وَقَدْ يُذْكَرُ فِعْلٌ يُنْبِئُ عَنْهُ كَمَا فِى : عَلِمْتُ زَيْدًا أَسَدًا ، إِنْ قَرُبَ ، وَحَسِبْتُ ، إِنْ بَعُدَ * وَالْغَرَضُ مِنْهُ فِى الْأَغْلَبِ يَعُودُ إِلَى الْمُشَبَّهِ ، وَهُوَ بَيَانُ إِمْكَانِهِ ، كَمَا فِى قَوْلِهِ :

فَإِنْ تَفُقِ الْأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ ... فَإِنَّ الْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ

فى هذا قول لبيد :

وَمَا النَّاسُ إلا كَالدِّيَارِ وَأَهْلِهَا ... بِهَا يَوْمَ حَلُّوهَا وَتَغْدُو بَلَاقِعُ

لم يشبه الناس بالديار ، وإنما شبه وجودهم فى الدنيا وسرعة زوالهم وفنائهم بحلول أهل الديار فيها وسرعة نهوضهم عنها وتركها خالية (ينبىء عنه) أى عن التشبيه كما فى علمت (الخ) قال بعضهم فى كون هذا الفعل منبئاً عن التشبيه نظر للقطع بأنه لادلالة للعلم والحسبان على ذلك ، وإنما يدل عليه علمنا بأن أسداً لا يمكن حمله على زيد تحقيقاً ، وإنه إنما يكون على تقدير أداة التشبيه ، سواء ذكر الفعل أو لم يذكر ، ولو قيل إنه ينبىء عن حال التشبيه من القرب والبعد لكان أصوب (بيان إمكانه) وذلك فى كل أمر غريب يمكن أن يخالف فيه ويدعى امتناعه ، كما فى قول أبى الطيب يمدح سيف الدولة : فإن تفق الأنام ، البيت ، أراد أنه فاق الأنام فى الأوصاف الفاضلة إلى حد بطل معه أن يكون واحداً منهم بل صار نوعاً آخر برأسه أشرف من الإنسان ، وهذا أعنى أن يتناهى بعض أفراد النوع فى الفضائل إلى أن يصير كأنه ليس منها أمر غريب يفتقر من يدعيه إلى إثبات جواز وجوده على الجملة حتى يجىء إلى إثبات وجوده فى الممدوح ، فقال فإن المسك بعض دم الغزال ، أى ولا يعد فى الدماء لما فيه من الأوصاف الشريفة التى لا يوجد شىء منها فى الدم ، وخلوه من الأوصاف التى لها كان الدم دماً ، فأبان أن لما ادعاه أصلا فى الوجود

أَوْ حَالِهِ ، كَمَا فِي تَشْبِيهِ ثَوْبٍ بِآخَرَ فِي السَّوَادِ ، أَوْ مِقْدَارِهَا ، كَمَا فِي تَشْبِيهِهِ بِالْغُرَابِ فِي شِدَّتِهِ ، أَوْ تَقْرِيرُهَا ، كَمَا فِي تَشْبِيهِ مَنْ لَا يَحْصُلُ مِنْ سَعْيِهِ عَلَى طَائِلٍ بِمَنْ يَرْقُمُ [illegible] ـاءِ ، وَهٰذِهِ الْأَرْبَعَةُ تَقْتَضِي أَنْ

على الجملة فإن قلت أين التشبيه فى البيت ، قلنا يدل البيت عليه ضمناً وإن لم يدل عليه تصريحاً (كما فى تشبيه ثوب بآخر فى السواد) إذا علم السامع لون المشبه به دون المشبه (أو مقدارها) أى أو بيان مقدار حال المشبه فى القوة والضعف والزيادة والنقصان (فى تشبيهه) أى الثوب الأسود (فى شدته) أى شدة السواد (أو تقريرها) هو معطوف على بيان أى تقرير حال المشبه فى نفس السامع وتقوية شأنه لديه (الأربعة) بيان الإمكان ، وبيان الحال وبيان المقدار ، والتقرير (تقتضى الخ) ومن هنا ضعف قول البحترى :

عَلَى بَابِ[1] قِنَّسْرِينَ وَاللَّيْلُ لَاطِخٌ جَوَانِبَهُ مِنْ ظُلْمَةٍ بِمِدَادِ

وذاك أن المداد ليس من الأشياء التى لا مزيد عليها فى السواد ، كيف ورب مداد فاقد اللون والليل بالسواد وشدته أحرى ، ولهذا قال ابن الرومى :

حِبْرُ أَبِي حَفْصٍ لُعَابُ اللَّيْلِ يَسِيلُ لِلْإِخْوَانِ أَيَّ سَيْلِ

فبالغ فى وصف الحبر بالسواد حين شبهه الليل ، فكأنه نظر إلى قول

(١) على باب متعلق بما فى البيت قبله وهو :

وَلَيْلَتِنَا وَالرَّاحُ عَجْلَى تَحُثُّهَا فُنُونُ غِنَاءٍ لِلزُّجَاجَةِ حَادِ

أى كان مع حبيبته فى إدارة الكئوس ، واستماع الغناء طول الليل ، على باب قنسرين .

يكُونَ وَجْهُ الشَّبَهِ فى الْمُشَبَّهِ بِهِ أَتَمَّ وَهُوَ بِهِ أَشْهَرَ ، أَوْ تَزْيِينُهُ ، كما فى تَشْبِيهِ وَجْهٍ أَسْوَدَ بِمُقْلَةِ الظَّبْىِ ، أَوْ تَشْوِيهُهُ ، كما فى تَشْبِيهِ وَجْهٍ مَجْدُورٍ بِسَلْحَةٍ جَامِدَةٍ قَدْ نَقَرَتْهَا الدِّيَكَةُ ، أَوِ اسْتِطْرَافُهُ ، كما فى تَشْبِيهِ فَحْمٍ فِيهِ جَمْرٌ مُوقَدٌ بِبَحْرٍ مِنَ الْمِسْكِ مَوْجُهُ الذَّهَبُ ، لِإِبْرَازِهِ فى صُورَةِ الْمُمْتَنِعِ عَادَةً ؛ وَلِلِاسْتِطْرَافِ وَجْهٌ آخَرُ ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْمُشَبَّهُ بِهِ نَادِرَ الْحُضُورِ فى الذِّهْنِ ، إِمَّا مُطْلَقاً كما مَرَّ ، وَإِمَّا عِنْدَ حُضُورِ الْمُشَبَّهِ كما فى قوله :

وَلاَ زَوَرْدِيَّةٍ تَزْهُو بِزُرْقَتِهَا ... بَيْنَ الرِّيَاضِ عَلَى حُمْرِ الْيَوَاقِيتِ

كَأَنَّهَا فَوْقَ قَامَاتٍ ضَعُفْنَ بِهَا ... أَوَائِلُ النَّارِ فى أَطْرَافِ كِبْرِيتِ

العامة فى الشىء الأسود هو كالنقس[1] ، ثم تركه للقافية إلى المداد (أو تزيينه) عطف على بيان إمكانه ، وقد أشار ابن الرومى إلى التزيين والتشويه فى قوله :

تَقُولُ هٰذَا مُجَاجُ النَّحْلِ تَمْدَحُهُ ... وَإِنْ تَعِبْ قُلْتَ ذَا قَىْءُ الزَّنَابِيرِ

(كما مر) فى تشبيه فحم فيه جمر موقد (كما فى قوله ولازوردية) فأنت ترى أن صورة اتصال النار بأطراف الكبريت لا يندر حصولها فى الذهن ندرة صورة بحر من المسك موجه الذهب ، وإنما النادر حضورها عند حضور صورة البنفسج ، فإذا أحضر مع صحة الشبه ، استطرف لمشاهدة عناق بين صورتين لا تتراءى نارهما . ومما يؤيد هذا ما يحكى أن جريراً قال أنشد عدى بن الرقاع :

---

(١) النقس : المداد الذى يكتب به .

وَقَدْ يَعُودُ إِلَى الْمُشَبَّهِ بِهِ ، وَهُوَ ضَرْبَانِ : أَحَدُهُمَا إِيهَامُ أَنَّهُ أَتَمُّ مِنَ الْمُشَبَّهِ وَذَلِكَ فِى التَّشْبِيهِ الْمَقْلُوبِ ، كقوله :

وَبَدَا الصَّبَاحُ كَأَنَّ غُرَّتَهُ ✱ وَجْهُ الْخَلِيفَةِ حِينَ يُمْتَدَحُ

✱ عَرَفَ الدِّيَارَ تَوَهُّمًا فَاعْتَادَهَا ✱

فلما بلغ إلى قوله :

✱ تُزْجِى أَغَنَّ كَأَنَّ إِبْرَةَ رَوْقِهِ ✱

رحمته، وقلت قد وقع ماعساه يقول وهو أعرابى جلف جاف ، فلما قال :

✱ قَلَمٌ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا ✱

استحالت الرحمة حسداً فهل كانت رحمته فى الأولى والحسد فى الثانية إلا لأنه رآه حين افتتح التشبيه قد ذكر مالا يحضر له فى أول الفكر شبه ، وحين أتمه صادفه قد ظفر بأقرب صفة من أبعد موصوف . وذكر الشيخ عبد القاهر رحمه الله للاستطراف فى تشبيه البنفسج بنار الكبريت وجهاً آخر وهو أنه أراك شبهاً لنبات غض يرف ، وأوراق رطبة من لهب نار فى جسم مستول عليه اليبس ، ومبنى الطباع وموضوع الجبلة ، على أن الشىء إذا ظهر من مكان لم يعهد ظهوره منه ، وخرج من موضع ليس بمعدن له ، كانت صبابة النفوس به أكثر ، وكان الشغف به أجدر . هذا وقوله ولازوردية : أى ورب بنفسجة شبيهة باللازورد — الحجر المعروف ، والأكثر أن يقال زهى الرجل فهو مزهو : أى تكبر ، وقد يقال زها يزهو ، وبحمر اليواقيت : يعنى الأزهار والشقائق : الحمر ، والبيتان لابن الرومى (كقوله وبدا الصباح) فإن الشاعر وهو محمد بن وهيب قصد إيهام أن وجه الخليفة أتم من الصباح فى الوضوح والضياء

وَالثَّانِي بَيَانُ الِاهْتِمَامِ بِهِ ، كَتَشْبِيهِ الْجَائِعِ وَجْهاً كَالْبَدْرِ فِي الْإِشْرَاقِ وَالِاسْتِدَارَةِ بِالرَّغِيفِ وَيُسَمَّى هٰذَا إِظْهَارَ الْمَطْلُوبِ ، هٰذَا إِذَا أُرِيدَ إِلْحَاقُ

واعلم أن هذا وإن كان فى الظاهر يشبه قولهم لا أدرى أوجهه أنور أم الصبح ، وغرته أضوأ أم البدر ، وقولهم إذا أفرطوا : نور الصباح يخفى فى ضوء وجهه ، أو نور الشمس مسروق من نور جبينه ، ونحو ذلك من وجوه المبالغة ، فإن فى الأول خلابة وشيئاً من السحر ليس فى ، الثانى وهو كأنه يستكثر للصباح أن يشبهه بوجه الخليفة ، ويوهم أنه احتشد له واجتهد فى تشبيه يفخم به أمره فيوقع المبالغة فى نفسك من حيث لا تشعر ، ويفيدكها من غير أن يظهر ادعاؤه لها ، لأنه وضع كلامه وضع من يقيس على أصل متفق عليه لا يشفق من خلاف مخالف وتهكم متهكم ، والمعانى إذا وردت على النفس هذا المورد ، كان لها نوع من السرور عجيب فكانت كالنعمة لا تدركها المنة وكالغنيمة من حيث لا تحتسب ، وفى قوله حين يمتدح فائدة شريفة ، وهى الدلالة على اتصاف الممدوح بما لا يوجد إلا فيمن هو كامل فى الكرم من معرفة حق المادح على ما احتشد له من تزيينه وقصده من تفخيم شأنه فى عيون الناس بالإصغاء إليه والارتياح له ، والدلالة بالبشر والطلاقة على حسن موقعه عنده (ويسمى هذا إظهار المطلوب) قال السكاكى : ولا يحسن المصير إليه إلا فى مقام الطمع فى تسنى المطلوب ، كما يحكى عن الصاحب رحمه الله أن قاضى سجستان دخل عليه فوجد الصاحب متفنناً فأخذ يمدحه حتى قال وعالم يعرف بالسجزى وأشار للندماء أن ينظموا على أسلوبه ففعلوا واحداً بعد واحد إلى أن انتهت النوبة إلى شريف فى البين فقال أشهى إلى النفس من الخبز فأمر الصاحب أن يقدم له مائدة

النَّاقِصِ ، حَقِيقَةً أَوِ ادِّعَاءً ، بِالزَّائِدِ ، فَإِنْ أُرِيدَ الْجَمْعُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ فِى أَمْرٍ فَالأَحْسَنُ تَرْكُ التَّشْبِيهِ إِلَى الْحُكْمِ بِالتَّشَابُهِ ، احْتِرَازاً مِنْ تَرْجِيحِ أَحَدِ الْمُتَسَاوِيَيْنِ ، كقوله :

تَشَابَهَ دَمْعِى إِذْ جَرَى وَمُدَامَتِى ... فَمِنْ مِثْلِ مَا فِى الْكَأْسِ عَيْنِى تَسْكُبُ

فَوَاللهِ مَا أَدْرِى أَبِالْخَمْرِ أَسْبَلَتْ ... جُفُونِىَ أَمْ مِنْ عَبْرَتِى كُنْتُ أَشْرَبُ

وَيَجُوزُ التَّشْبِيهُ أَيْضاً كَتَشْبِيهِ غُرَّةِ الْفَرَسِ بِالصُّبْحِ ، وَعَكْسِهِ مَتَى أُرِيدَ ظُهُورُ

(فإن أريد الجمع بين شيئين فى أمر) يعنى من غير قصد إلى أن أحدهما ناقص فى ذلك والآخر زائد (كقوله تشابه) ومما هو حسن فى هذا المعنى قول الصاحب بن عباد :

رَقَّ الزُّجَاجُ وَرَاقَتِ الْخَمْرُ ... وَتَشَابَهَا فَتَشَاكَلَ الأَمْرُ

فَكَأَنَّمَا خَمْرٌ وَلاَ قَدَحٌ ... وَكَأَنَّمَا قَدَحٌ وَلاَ خَمْرُ

والبيتان لأبى إسحاق الصابى . ويقال أسبل الدمع والمطر : إذا هطل ، أى سال كثيراً ، وأسبلت السماء كذلك (ويجوز التشبيه أيضاً) يعنى عند إرادة الجمع بين شيئين فى أمر . قال الشيخ فى أسرار البلاغة : جملة القول إنه متى لم يقصد ضرب من المبالغة فى إثبات الصفة للشىء ولم يقصد إلا إيهام فى الناقص أنه كالزائد ، اقتصر على الجمع بين الشيئين فى مطاق الصورة والشكل واللون ، أو جمع بين وصفين على وجه يوجد فى الفرع على حدة أو قريب منه فى الأصل ، فإن العكس يستقيم فى التشبيه ، ومتى أريد شىء من ذلك لم يستقم (كتشبيه غرة الفرس بالصبح وعكسه) مثله تشبيه الشمس بالمرآة المجلوة ، أو الدينار الخارج من السكة ، كما قال ابن المعتز :

مُنِيرٍ فى مُظْلِمٍ أَكْثَرَ مِنْهُ. وَهُوَ بِاعْتِبَارِ طَرَفَيْهِ إِمَّا تَشْبِيهُ مُفْرَدٍ بِمُفْرَدٍ، وَهُمَا غَيْرُ مُقَيَّدَيْنِ، كَتَشْبِيهِ الْخَدِّ بِالْوَرْدِ، أَوْ مُقَيَّدَانِ كَقَوْلِهِمْ : هُوَ كَالرَّاقِمِ

وَكَأَنَّ الشَّمْسَ الْمُنِيرَةَ دِينَا   رٌ جَلَتْهُ حَدَائِدُ الضَّرَّابِ

وعكسه متى قصد إلى مستدير يتلألأ ويلمع ثم خصوص فى جنس اللون يوجد فى المرآة المجلوة والدينار المتخلص من حمى السكة كما يوجد فى الشمس، وإن عظم التفاوت بين نور الشمس ونور المرآة والدينار، وبين الجرمين، فإنه ليس شىء من ذلك بمنظور إليه فى التشبيه، وعلى هذا ورد تشبيه الصبح فى الظلام بعلم أبيض على ديباج أسود فى قول ابن المعتز :

وَاللَّيْلُ كَالْحُلَّةِ السَّوْدَاءِ لَاحَ بِهِ   مِنَ الصَّبَاحِ طِرَازٌ غَيْرُ مَرْقُومِ (١)

فإنه تشبيه حسن مقبول وإن كان التفاوت فى المقدار بين الصبح والطراز فى الامتداد والانبساط شديداً (متى أريد ظهور منير فى مظلم أكثر منه) يعنى ولم يرد المبالغة فى وصف غرة الفرس بالضياء والانبساط وفرط التلألؤ ونحو ذلك، إذ لو أريد شىء من هذا لوجب جعل الغرة مشبهاً والصبح مشبهاً به (كتشبيه الخد بالورد) ومن هذا قوله تعالى : هن لباس لكم وأنتم لباس لهن، قال الزمخشرى : لما كان الرجل والمرأة يعتنقان ويشتمل كل منهما على صاحبه فى عناقه، شبه باللباس المشتمل عليه، قال الجعدى :

إذا ما الضجيع ثنى عطفها   تثنت فكانت عليه لباسا

(كقولهم هو كالراقم على الماء) فإن المشبه هو الساعى المقيد بأن

(١) به : أى فيه، والضمير لليل.

عَلَى الْمَاءِ ، أَوْ مُخْتَلِفَانِ كَقَوْلِهِ : وَالشَّمْسُ كَالْمِرْآةِ وَعَكْسِهِ ، وَإِمَّا تَشْبِيهُ

لا يحصل من سعيه على طائل . والمشبه به هو الراقم المقيد بأن رقمه على الماء ، لأن وجه الشبه فيهما هو التسوية بين الفعل وعدمه ، وهو موقوف على اعتبار هذين القيدين . هذا ومما طرفاه مقيدان قولهم : هو كمن يجمع سيفين فى غمد ، وقولهم : هو كمبتغى الصيد فى عرينة الأسد ، وقولهم : هو كالحادى وليس له بعير ، وقول الشاعر :

إِنِّى وَتَزْيِينِى بِمَدْحِى مَعْشَرًا   كَمُعَلِّقٍ دُرًّا عَلَى خِنْزِيرِ

فإن المشبه فيه هو المتكلم بقيد اتصافه بتزيينه بمدحه معشراً ، فمتعلق التزيين أعنى قوله بمدحى داخل فى المشبه والمشبه به من يعلق دراً بقيد أن يكون تعليقه إياه على خنزير ، فالشبه مأخوذ من مجموع المصدر ومافى صلته ، وهو أن كل واحد منهما يضع الزينة حيث لا يظهر لها أثر لأن الشىء غير قابل للتزيين ، فالواو فى قوله وتزيينى بمعنى مع ، إذ لا يمكن أن يقال إنى كذا وأن تزيينى كذا لأنه ليس معنا شيئان يكون أحدهما خبراً عن ضمير المتكلم والآخر عن تزيينى لا يقال تقديره : إنى كمعلق دراً على خنزير ، وأن تزيينى بمدحى معشراً كتعليق در على خنزير ، لأنه لا يتصور أن يشبه المتكلم نفسه من حيث هو هو بمعلق دراً على خنزيراً ، بل لا بد أن يكون يشبه نفسه باعتبار تزيينه بمدحه معشراً (أو مختلفان) أى أحدهما مقيد والآخر غير مقيد (كقوله والشمس كالمرآة) فإن المشبه هو الشمس على الإطلاق ، والمشبه به هو المرآة ، بقيد أنها فى كف الأشل (وعكسه) أى تشبيه المرآة فى كف الأشل بالشمس (وأما تشبيه مركب بمركب) ويجب فى هذا أن يكون كل من المشبه والمشبه به هيئة

مُرَكَّبٍ بِمُرَكَّبٍ كما فِي بَيْتِ بَشَّارٍ ، وَإِمَّا تَشْبِيهُ مَفْرَدٍ بِمُرَكَّبٍ ،

حاصلة من عدة أمور ، قال الزمخشرى : إن العرب تأخذ أشياء فرادى معزولا بعضها عن بعض لم يأخذ هذا بحجزة ذاك فتشبهها بنظائرها وتشبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامنت وتلاصقت حتى عادت شيئاً واحداً بأخرى مثلها .
اعلم أن هذا القسم ضربان أحدهما مالا يصح تشبيه كل جزء من أحد طرفيه بما يقابله من الطرف الآخر كقوله :

غَدَا وَالصُّبْحُ تَحْتَ اللَّيْلِ بَادٍ ... كَطِرْفٍ أَشْهَبٍ مُلْقَى الجِلَالِ

فإن الجلال فيه فى مقابلة الليل ولو شبهه به لم يكن شيئاً وكقول الآخر :

كَأَنَّمَا المِرِّيخُ وَالْمُشْتَرِى ... قُدَّامَهُ فِي شَامِخِ الرِّفْعَهْ
مُنْصَرِفٌ بِاللَّيْلِ عَنْ دَعْوَةٍ ... قَدْ أُسْرِجَتْ قُدَّامَهُ شَمْعَهْ

فإن المريخ فى مقابلة المنصرف عن الدعوة ، ولو قيل كأن المريخ منصرف بالليل عن دعوة ، كان خلفاً من القول ، والثانى مايصح تشبيه كل جزء من أجزاء أحد طرفيه بما يقابله من أجزاء الطرف الآخر ، غير أن الحالة تتغير مثاله قوله :

وَكَأَنَّ أَجْرَامَ النُّجُومِ لَوَامِعاً ... دُرَرٌ نُثِرْنَ عَلَى بِسَاطٍ أَزْرَقِ

فإنه لو قيل كأن النجوم درر وكأن السماء بساط أزرق ، كان تشبيهاً صحيحاً لكن أين يقع من التشبيه الذى يريك الهيئة التى تملأ القلوب سروراً وعجباً من طلوع النجوم مؤتلقة متفرقة فى أديم السماء وهى زرقاء زرقتها الصافية (كما فى بيت بشار) وهو قوله :

كأن مثار النقع فوق رؤسنا ... وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

كما مرَّ ، مِنْ تَشْبِيهِ الشَّقِيقِ ، وَإِمَّا تَشْبِيهُ مُرَكَّبٍ بِمُفْرَدٍ ، كَقَوْلِهِ :

يَا صَاحِبَيَّ تَقَصَّيَا نَظَرَيْكُمَا ... تَرَيَا وُجُوهَ الْأَرْضِ كَيْفَ تَصَوَّرُ

تَرَيَا نَهَارًا مُشْمِسًا قَدْ شَابَهُ ... زَهْرُ الرُّبَى فَكَأَنَّمَا هُوَ مُقْمِرُ

وَأَيْضًا إِنْ تَعَدَّدَ طَرَفَاهُ فَإِمَّا مَلْفُوفٌ ، كَقَوْلِهِ :

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا ... لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَّابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي

وقد سبق شرحه ، ومثله فى ذلك قول البحترى :

تَرَى أَحْجَالَهُ يَصْعَدْنَ فِيهِ ... صُعُودَ الْبَرْقِ فِي الْغَيْمِ الْجَهَامِ (١)

لا يريد به تشبيه بياض الحجول على الانفراد بالبرق ، بل مقصود الهيئة الحاصلة من مخالطة أحد الشيئين بالآخر (من تشبيه الشقيق) أى وهو مفرد بأعلام ياقوت نشرن على رماح من زبرجد ، وهو مركب من عدة أمور (كقوله ياصاحبى) البيتان لأبى تمام من قصيدة يمدح بها المعتصم . قوله تقصيا : أبلغا أقصى نظريكما بالمبالغة فى تحقيق النظر . وقوله تصور : أصله تتصور حذفت التاء ، وشابه : خالطه ، والربا جمع ربوة : وهى المكان المرتفع ، وقوله فكأنما هو مقمر : معناه أن النبات من شدة خضرته مع كثرته وتكاثفه قد صار لونه إلى الاسوداد فنقص من ضوء الشمس حتى صار كضوء القمر (ملفوف) وهو ما أتى فيه بالمشبهات ثم بالمشبهات بها (كقوله) أى قول امرىء القيس يصف عقاباً بكثرة اصطياد الطيور . فقد شبه الرطب الطرى من قلوب الطير بالعناب واليابس العتيق منها بالحشف (٢) البالى ، إذ ليس فى اجتماعهما

(١) الجهام : السحاب لا ماء فيه ، ويصعدن فيه : أى فى الفرس المحجل .
(٢) الحشف : أردأ التمر ، ووصفه بالبالى تأكيداً .

أو مفروقٌ ، كقوله :

النَّشْرُ مِسْكٌ وَالْوُجُوهُ دَنَا نِيرٌ وَأَطْرَافُ الْأَكُفِّ عَنَمْ

وَإِنْ تَعَدَّدَ طَرَفُهُ الْأَوَّلُ فَتَشْبِيهُ التَّسْوِيَةِ ، كقوله :

صُدْغُ الحبيبِ وَحَالِي كِلاهُمَا كَاللَّيَالِي

وَإِنْ تَعَدَّدَ طَرَفُهُ الثَّانِي فَتَشْبِيهُ الْجَمْعِ ، كقوله :

هيئة مخصوصة يعتد بها ويقصد تشبيهها ، ولذا قال الشيخ فى أسرار البلاغة : إنه إنما يستحق الفضيلة من حيث اختصار اللفظ وحسن الترتيب فيه لا لأن للجمع فائدة فى عين التشبيه (أو مفروق) وهو أن يؤتى بمشبه ومشبه به ، ثم آخر وآخر ، كقول المرقش الأكبر :

النشر مسك والوجوه دنا نير وأطراف الأكف عنم

النشر : الرائحة ، والعنم شجر أحمر لين الأغصان يشبه به أكف الجوارى المخضبة . ومنه قول أبى الطيب :

بَدَتْ قَمَراً وَمَالَتْ خُوطَ بَانٍ وَفَاحَتْ عَنْبَراً وَرَنَتْ غَزَالَا

(الأول) أى المشبه (الثانى) أى المشبه به (كقول) البحترى من قصيدة أولها :

بَاتَ نَدِيماً لِي حَتَّى الصَّبَاحِ أَغْيَدُ مَجْدُولُ مَكَانِ الْوِشَاحِ

كأنما يبسم البيت فقد شبه ثغر أغيده كما ترى بثلاثة أشياء ، ومنضد : منظم ، والبرد : هو حب الغمام ، والأقاح جمع أقحوان : نور يتفتح كالورد وأوراقه

كَأَنَّمَا يَبْسِمُ عَنْ لُؤْلُؤٍ مُنَضَّدٍ أَوْ بَرَدٍ أَوْ أَقَاحِ

وَبِاعْتِبَارِ وَجْهِهِ إِمَّا تَمْثِيلٌ ، وَهُوَ مَا وَجْهُهُ مُنْتَزَعٌ مِنْ مُتَعَدِّدٍ ، كَمَا مَرَّ ، وَقَيَّدَهُ السَّكَّاكِيُّ بِكَوْنِهِ غَيْرَ حَقِيقِيٍّ ، كَمَا فِي تَشْبِيهِ مَثَلِ الْيَهُودِ بِمَثَلِ الْحِمَارِ ، وَإِمَّا غَيْرُ تَمْثِيلٍ وَهُوَ بِخِلَافِهِ . وَأَيْضاً إِمَّا مُجْمَلٌ ، وَهُوَ مَالَمْ

فى شكلها أشبه شىء بالأسنان فى اعتدالها . هذا ومن تشبيه الجمع قول الصاحب ابن عباد فى وصف أبيات أهديت إليه :

أَتَتْنِىَ بِالْأَمْسِ أَبْيَاتُهُ تُعَلِّلُ رُوحِى بِرَوْحِ الْجِنَانِ
كَبَرْدِ الشَّبَابِ وَبَرْدِ الشَّرَابِ وَظِلِّ الْأَمَانِ وَنَيْلِ الْأَمَانِى
وَعَهْدِ الصِّبَا وَنَسِيمِ الصَّبَا وَصَفْوِ الدِّنَانِ وَرَجْعِ الْقِيَانِ

ومنه قول امرىء القيس :

كَأَنَّ الْمُدَامَ وَصَوْبَ الْغَمَامِ وَرِيحَ الْخُزَامَى وَنَشْرَ الْقُطُرْ
يُعَلُّ بِهِ بَرْدُ أَنْيَابِهَا إِذَا طَرَّبَ الطَّائِرُ الْمُسْتَحِرْ

إلا أن فيه شوباً من القصد إلى هيئة الاجتماع (كما مر) من نحو تشبيه المرآة فى كف الأشل ، والتشبيه فى بيت بشار :

كأن مثار النقع فوق رؤسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

(وقيده السكاكى بكونه غير حقيقى) وإليك عبارته . اعلم أن التشبيه متى كان وجهه وصفاً غير حقيقى وكان منتزعاً من عدة أمور ، خص باسم التمثيل كالذى فى قوله :

اصْبِرْ عَلَى مَضَضِ الْحَسُوْ دِ فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهْ

يذكر وجهه ، فمنه ظاهر يفهمه كل أحد نحو : زيد أسد ، ومنه خفي لا يدركه إلا الخاصة ، كقول بعضهم : هم كالحلقة المفرغة لا يدرى

فالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله

فإن تشبيه الحسود الذى يحرم القول بالنار التى لا تمد بالحطب فيسرع فيها الفناء ، ليس إلا فى أمر متوهم له . وهو ما تتوهم إذا لم تأخذ معه فى القول مع علمك بتطلبه إياه ، عسى أن يتوصل به إلى نفثة مصدور من قيامه إذ ذاك مقام أن تمنعه ما يمد حياته ليسرع فيه الهلاك ، وأنه كما ترى منتزع من عدة أمور وكالذى فى قوله :

وإن من أدبته فى الصبا كالعود يسقى الماء فى غرسه
حتى تراه مورقاً ناضراً بعد الذى أبصرت من يبسه

فإن تشبيه المؤدب فى صباه بالعود المسقى ، أو أن الغرس المونق بأوراقه ونضرته ليس إلا فيما يلازم كونه مهذب الأخلاق مرضى السيرة حميد الفعال لتأدية المطلوب بسبب التأديب المصادف وقته من تمام الميل إليه وكمال المستحسان حاله ، وإنه كما ترى أمر تصورى لا صفة حقيقية وهو مع ذلك منتزع من عدة أمور (ومنه خفى) قال الشيخ الإمام : وأما ما يدق ويغمض حتى يحتاج فى استخراجه إلى فضل روية ولطف فكرة ، فنحو قول كعب الأشقرى وقد أوفده المهلب على الحجاج فوصف له بنيه وذكر مكانهم من الفضل والبأس ، فسأله فى آخر القصة ، قال فكيف كان بنو المهلب فيهم[1] ، قال كانوا حماة السرح نهاراً فإذا أليلوا ففرسان البيات ، قال فأيهم كان أنجد ، قال كانوا كالحلقة المفرغة

---

(١) أى فى القوم المحاربين .

أَيْنَ طَرَفَاهَا ، أَىْ هُمْ مُتَنَاسِبُونَ فى الشَّرَفِ ، كَمَا أَنَّهَا مُتَنَاسِبَةَ الْأَجزَاءِ فى الصُّورَةِ . وَأَيْضًا مِنْهُ مَا لَمْ يُذْكَرْ فِيهِ وَصْفُ أَحَدِ الطَّرَفَيْنِ ، وَمِنْهُ مَا ذُكِرَ فِيهِ وَصْفُ الْمُشَبَّهِ بِهِ وَحْدَهُ ، وَمِنْهُ مَا ذُكِرَ فِيهِ وَصْفُهُمَا ، كَقَوْلِهِ :

صَدَفْتُ عَنْهُ وَلَمْ تَصْدِفْ مَوَاهِبُهُ عَنِّى وَعَاوَدَهُ ظَنِّى فَلَمْ يَخِبِ
كَالْغَيْثِ إِنْ جِئْتَهُ وَافَاكَ رَيِّقُهُ وَإِنْ تَرَحَّلْتَ عَنْهُ لَجَّ فى الطَّلَبِ

لايدرى أين طرفاها ، فهذا كما ترى ظاهر الأمر فى فقره إلى فضل الرفق به والنظر ، ألا ترى أنه لا يفهمه حق فهمه إلا من له ذهن ونظر يرتفع به عن طبقة العامة ، انتهى كلام الشيخ . وأصل المثل لفاطمة بنت الخرشب الأنمارية إحدى المنجبات فى الجاهلية سألها أبو سفيان أى بنيك أفضل ، فقالت الربيع لا بل عمارة لا بل أنس الفوارس ، ثكلتهم إن كنت أدرى أيهم أفضل ، هم كالحلقة إلى آخره ، أخذه كعب الأشقرى ووصف به بنى المهلب (كما أنها) أى الحلقة المفرغة (متناسبة الأجزاء فى الصورة) فيمتنع تعيين بعضها طرفاً وبعضها وسطاً لكونها مفرغة مصمتة الجوانب كالدائرة (منه) ، أى من المجمل (كقوله) أى قول أبى تمام يمدح الحسن بن سهل وقبل البيتين :

سَتُصْبِحُ الْعِيسُ بِى وَاللَّيْلُ عِنْدَ فَتًى كَثِيرِ ذِكْرِ الرِّضَى فِى سَاعَةِ الْغَضَبِ

قوله صدفت : معناه أعرضت ، وقوله ريقه : معناه أوله وأحسنه ، يقال فعله فى ورق شبابه وريقه : أى أوله ، وأصابه ريق المطر وريق كل شىء : أفضله . فالشاعر قد وصف الممدوح كما ترى بأن عطاياه فائضة عليه ، أعرض أو لم يعرض ، وكذا وصف الغيث بأنه يصيبك جئته أو ترحلت عنه ، والوصفان

وَإِمَّا مُفَصَّلٌ ، وَهُوَ مَا ذُكِرَ وَجْهُهُ ، كَقَوْلِهِ :

وَثَغْرُهُ فِي صَفَاءٍ ✲ وَأَدْمُعِي كَاللَّآلِي

وَقَدْ يُتَسَامَحُ بِذِكْرِ مَا يَسْتَتْبِعُهُ مَكَانَهُ ، كَقَوْلِهِمْ لِلْكَلَامِ

دالان على وجه الشبه ، أعنى الإفاضة فى حالتى الطلب وعدمه ، وحالتى الإقبال عليه والإعراض عنه (كقوله وثغره) مثله قول أبى بكر الخالدى :

يَا شَبِيهَ الْبَدْرِ حُسْنًا وَضِيَاءً وَمَنَالاَ
وَشَبِيهَ الْغُصْنِ لِينًا وَقَوَامًا وَاعْتِدَالاَ
أَنْتَ مِثْلَ الْوَرْدِ لَوْنًا وَنَسِيمًا وَمَلاَلاَ
زَارَنَا حَتَّى إِذَا مَا سَرَّنَا بِالْقُرْبِ زَالاَ

وقول ابن الرومى :

يَاشَبِيهَ الْبَدْرِ فِي الْحُسْنِ وَفِي بُعْدِ الْمَنَالْ
جُدْ فَقَدْ تَنْفَجِرُ الصَّخْرَةُ بِالْمَاءِ الزُّلاَلْ

(وقد يتسامح بذكر مايستتبعه مكانه) قال السكاكى : اعلم أنه ليس بملتزم فيما بين أصحاب علم البيان أن يتكلفوا التصريح بوجه التشبيه على ماهو به ، بل قد يذكرون على سبيل التسامح ما إذا أنعمت فيه النظر لم تجده إلا شيئاً مستتبعاً لما يكون وجه التشبيه فى المآل فلا بد من التنبيه عليه ، من ذلك قولهم فى الألفاظ إذا وجدورها لاتثقل على اللسان ولا تكده بتنافر حروفها أو تكرارها ، ولا تكون غريبة وحشية تستكره لكونها غير مألوفة ، ولاثما تشتبه معانيها وتستغلق فيصعب الوقوف عليها وتشمئز عنها النفس : هى كالعسل

الْفَصِيحِ : هُوَ كَالْعَسَلِ فِي الْحَلَاوَةِ ، فَإِنَّ الْجَامِعَ فِيهِ لَازِمُهَا ، وَهُوَ مَيْلُ الطَّبْعِ ، وَأَيْضًا إِمَّا قَرِيبٌ مُبْتَذَلٌ ، وهُوَ مَا يُنْتَقَلُ فِيهِ مِنَ الْمُشَبَّهِ إِلَى

فى الحلاوة وكالماء فى السلاسة وكالنسيم فى الرقة ، وقولهم فى الحجة المطلوب بها قلع الشبهة متى صادفوها ، معلومة الأجزاء يقينية التأليف قطعية الاستلزام ، هى كالشمس فى الظهور ، فيذكرون الحلاوة والسلاسة والرقة والظهور لوجه الشبه ، على أن وجه الشبه فى المآل هناك شىء غيرها ، وذلك لازم الحلاوة وهو ميل الطبع إليها ومحبة النفس ورودها عليها ، ولازم السلامة والرقة وهو إفادة النفس نشاطاً والإهداء إلى الصدر انشراحاً وإلى القلب روحاً ، فشأن النفس مع الألفاظ الموصوفة بتلك الصفات كشأنها مع العسل الشهى الذى يلذ طعمه فتهش النفس له ويميل الطبع إليه ويحب وروده عليه ، أو كشأنها مع الماء الذى ينساغ فى الحلق وينحدر فيه أجلب انحدار للراحة ، ومع النسيم الذى يسرى فى البدن ، فيتخلل المسالك اللطيفة منه ، فيفيدان النفس نشاطاً ويهديان إلى الصدر انشراحاً وإلى القلب روحاً ، ولازم الظهور وهو إزالة الحجاب ، فشأن البصيرة مع الشبهة كشأن البصر مع الظلمة فى كونهما معهما كالمحجوبين ، وانقلاب حالها إلى خلاف ذلك مع الحجة إذا بهرت والشمس إذا ظهرت ، وتسامحهم هذا لا يقع إلا حيث يكون التشبيه فى وصف اعتبارى كالذى نحن فيه ، وأقول يشبه أن يكون تركهم التحقيق فى وجه التشبيه على ماسبق التنبيه عليه من تسامحهم هذا (وأيضاً إما قريب) اعلم أن معرفة الشىء من طريق الجملة كما قيل غير معرفته من طريق التفصيل . فكلام المصنف هنا وإن كاد يكون مفهوماً فإن لتمام البيان فائدة لا ينكرها المميز ، وذلك أتم للغرض وأشفى للنفس فنقول : إن التشبيه إما قريب يقع فى الوهم من أول النظر

الْمُشَبَّهِ بِهِ مِنْ غَيْرِ تَدْقِيقِ نَظَرٍ ، لِظُهُورِ وَجْهِهِ فِي بَادِىءِ الرَّأْيِ ، لِكَوْنِهِ أَمْرًا جُمْلِيًّا ، فَإِنَّ الْجُمْلَةَ أَسْبَقُ إِلَى النَّفْسِ ، أَوْ قَلِيلَ التَّفْصِيلِ مَعَ غَلَبَةِ

وإما غريب لا ينزع إليه الخاطر إلا بعد تثبت وتذكر وفكر للنفس وتحريك للوهم ، فالقريب مثل ما إذا أخطرت بالبال استدارة الشمس ونورها وقعت المرآة المجلوة فى قلبك وترآى لك الشبه منها فيها ، وكذلك إذا نظرت إلى الوشى منشوراً وتطالبت لحسنة ونقشه واختلاف الأصباغ فيه شبهاً حضرك ذكر الروض ممطوراً مفتراً عن أزهاره متبسماً عن أنواره ، وكذلك إذا نظرت إلى السيف الصقيل عند سله وبريق متنه لم يتباعد عنك أن تذكر لمعان البرق وإن كان هذا أقل ظهوراً ، وأما الغريب فهو مثل تشبيه الشمس بالمرآة فى كف الأشل ، وتشبيه البرق بأصبع السارق فى قول كشاجم :

أَرِقْتَ أَمْ نِمْتَ لِضَوْءِ بَارِقِ ... مُؤْتَلِقٍ مِثْلِ فُؤَادِ الْعَاشِقِ

كَأَنَّهُ إِصْبَعُ كَفِّ السَّارِقِ

وإن أردت أن تعلم السبب فى سرعة بعض الشبه إلى الفكر وإباء بعض أن يكون له ذلك الإسراع فإن ههنا ضربين من العبرة أولها أنا نعلم أن الجملة أبداً أسبق إلى النفوس من التفصيل ، وأنك تجد الروية نفسها لا تصل بالبديهة إلى التفصيل ، ولكنك ترى بالنظر الأول الوصف على الجملة ثم ترى التفصيل عند إعادة النظر ، ولذلك قالوا النظرة الأولى حمقاء ، وقالوا لم ينعم النظر ولم يستقص التأمل ، وهكذا الحكم فى السمع وغيره من الحواس ، فإنك تدرك من تفاصيل الصوت والذوق فى المرة الثانية ما لم تدرك فى الأولى ، فمن يروم التفصيل كمن يبتغى الشىء من بين جملة يريد تمييزه مما اختلط به ومن يروم

حُضُورِ الْمُشَبَّهِ بِهِ فِى الذِّهْنِ ، إِمَّا عِنْدَ حُضُورِ الْمُشَبَّهِ ، لِقُرْبِ الْمُنَاسَبَةِ

الإجمال كمن يريد أخذ الشيء جزافاً وجرفاً ، وكذا حكم ما يدرك بالعقل ترى الجمل أبداً تسبق إلى الذهن وتقع فى الخاطر أولا ، وترى التفاصيل مغمورة فيما بينها لاتحضر إلا بعد إعمال الرويه واستعانة بالتذكر ، ويتفاوت الحال فى الحاجة إلى الفكر بحسب مكان الوصف ومرتبته من حد الجملة وحد التفصيل وكلما كان أوغل فى التفصيل كانت الحاجة إلى التوقف والتذكر أكثر والفقر إلى التأمل والتمهل أشد ، وإذ قد عرفت هذه العبرة فالاشتراك فى الصفة إذا كان من جهة الجملة على الإطلاق بحيث لا يشوبه شيء من التفصيل نحوه : إن كلا الشيئين أسود أو أحمر فهو يقل عن أن يحتاج فيه إلى قياس وتشبيه فإن دخل فى التفصيل شيئاً نحو : إن هذا السواد صاف براق والحمرة دقيقة ناصعة ، احتجت بقدر ذلك إلى ادارة الفكر ، وذلك مثل تشبيه حمرة الخد بحمرة التفاح والورد ، فإن زاد تفصيله بخصوص تدق العبارة عنه ويتعرف بفضل تأمل ، ازداد الأمر قوة فى اقتضاء الفكر ، وذلك نحو تشبيه سقط النار بعين الديك فى قول غيلان :

وَسِقْطٍ كَعَيْنِ الدِّيكِ عَاوَرْتُ صُحْبَتِى ⁂ أَبَاهَا وَهَيَّأْنَا لِمَوْضِعِهَا وَكْرَا

والعبرة الثانية أن مما يقتضى كون الشيء على الذكر وثبوت صورته فى النفس أن يكثر دورانه على العيون ويدوم تردده فى مواقع الإبصار ، وإن تدركه الحواس فى كل وقت أو فى أغلب الأوقات ، وبالعكس وهو أن من سبب بعد ذلك الشيء عن أن يقع ذكره بالخاطر وتعرض صورته فى النفس قلة رؤيته وأنه مما يحس على طريق الندرة ، وإذا كان ذلك كذلك بأن منه أن كل شبه رجع إلى وصف أو صورة أو هيئة من شأنها أن ترى وتبصر أبداً ، فالتشبيه

كَتَشْبِيهِ الْجُرَّةِ الصَّغِيرَةِ بِالْكُوزِ فِي الْمِقْدَارِ وَالشَّكْلِ ، أَوْ مُطْلَقاً

المعقود عليه نازل مبتذل وما كان بالضد من هذا ، وفي الغاية القصوى من مخالفته ، فالتشبيه المردود إليه غريب نادر بديع ، ثم إن التفصيل وإن كانت دقائقه لا تكاد تضبط ، إلا أن الأغلب الأعرف منها وجهان : أحدهما أن تأخذ بعضاً وتضع بعضاً ، كما فعل امرؤ القيس في قوله :

حَمَلْتُ رُدَيْنِيّاً كَأَنَّ سِنَانَهُ سَنَا لَهَبٍ لَمْ يَتَّصِلْ بِدُخَانِ

فعزل الدخان عن السنا وأثبته مفرداً كما ترى وكما فعل الآخر حين فصل الحدق عن الجفون وأثبتها مفردة فيما شبه وذلك قوله :

* لَهَا حَدَقٌ لَمْ تَتَّصِلْ بِجُفُونِ *

والثاني أن تنظر من المشبه في أمور لتعتبرها كلها وتطلبها في المشبه به كاعتبارك في تشبيه الثريا بالعنقود الأنجم أنفسها والشكل واللون والمقدار واجتماعها على المسافة المخصوصة في القرب ، ثم اعتبارك في العنقود المنور من الملاحية مثل ذلك »وبعده« فإن تاقت نفسك إلى شيء من الشرح لعبارة المصنف فإليك ذلك . قوله أو قليل : التفصيل معطوف على أمراً جملياً ، وقوله : لقرب المناسبة ، يعني بين المشبه والمشبه به ، وقوله أو مطلقاً : معطوف على قوله عند حضور المشبه ، وقوله لتكرره : علة لغلبة المشبه به مطلقاً ، وقوله: لمعارضة الخ ، يعني وإنما كانت قلة التفصيل في وجه الشبه مع غلبة حضور المشبه به بسبب قرب المناسبة أو التكرار على الحس سبباً لظهوره المؤدي إلى الابتذال مع أن التفصيل من أسباب الغرابة ، لأن قرب المناسبة في الصورة الأولى والتكرار على الحس في الثانية ، يعارض كل منهما التفصيل بواسطة اقتضائهما سرعة الانتقال من المشبه إلى المشبه به ، فيصير وجه الشبه كأنه أمر جملي لا تفصيل فيه ، فيصير سبباً للابتذال ، وقوله كما مر : يعني في تشبيه البنفسج بنار

لِتَكَرُّرِهِ عَلَى الْحِسِّ ، كَالشَّمْسِ بِالْمِرْآةِ الْمَجْلُوَّةِ ، فِي الاسْتِدَارَةِ وَالاسْتِنَارَةِ ،

الكبريت ، وقوله لكونه وهمياً الخ : فالوهمى كتشبيه نصال السهام بأنياب الأغوال ، والخيالى كتشبيه الشقيق بأعلام ياقوت منشورة على رماح من الزبرجد ، والعقلى كتشبيه مثل أحبار اليهود بمثل الحمار يحمل أسفاراً ، وقد مر ذلك ، فأنت ترى أن كلا سبب لندرة حضور المشبه به فى الذهن ، وقوله أو لقلة : معطوف على قوله لكونه وهمياً ، وقوله فالغرابة فيه : أى فى تشبيه الشمس بالمرآة فى كف الأشل ، وقوله من وجهين : فأحد الوجهين كثرة التفصيل ، وثانيهما : قلة تكرره على الحس . هذا ومن أبلغ الاستقصاء فى التفصيل وعجيبه قول ابن المعتز :

كَأَنَّا وَضَوْءُ الصُّبْحِ يَسْتَعْجِلُ الدُّجَى نُطِيرُ غُرَاباً ذَا قَوَادِمَ جُونِ[1]

شبه ظلام الليل حين يظهر فيه الصبح بأشخاص الغربان ، ثم شرط أن تكون قوادم ريشها بيضاً ، لأن تلك الفرق من الظلمة يقع فى حواشيها من حيث تلى معظم الصبح وعموده لمع نور يتخيل فيها فى العين كشكل قوادم إذا كانت بيضاء ، وتمام التدقيق والسحر فى هذا التشبيه فى شىء آخر وهو أن جعل ضوء الصبح لقوة ظهوره ودفعه لظلام الليل كأنه يحفز الدجى ويستعجلها ، ولا يرضى منها أن تتمهل فى حركتها ، ثم لما بدأ بذلك أولا اعتبره فى التشبيه آخراً ، فقال : نطير غراباً ولم يقل غراباً يطير مثلا ، وذلك أن الغراب وكل طائر إذا كان واقعاً هادئاً فى مكان فأزعج وأخيف وأطير منه

---

(١) قوادم الطير : مقاديم ريشه ، وهى عشرة فى كل جناح ، والجون بالضم : جمع جون بالفتح ، والمراد به هنا الأبيض .

لِمُعَارَضَةِ كُلٍّ مِنَ الْقُرْبِ وَالتَّكْرَارِ التَّفْصِيلَ ، وَإِمَّا بَعِيدٌ غَرِيبٌ وَهُوَ بِخِلَافِهِ لِعَدَمِ الظُّهُورِ ، وَإِمَّا لِكَثْرَةِ التَّفْصِيلِ كقوله * وَالشَّمْسُ كَالْمِرْآةِ

أو كان قد حبس فى يد أو قفص فأرسل ، كان ذلك لا محالة أسرع لطيرانه وأعجل ، وأمد له وأبعد لأمده ، فإن تلك الفزعة التى تعرض له من تنفيره أو الفرحة التى تدركه وتحدث فيه من خلاصه وانفلاته ، مما دعته إلى أن يستمر حتى يغيب عن الأفق ويصير إلى حيث لاتراه العيون ، وليس كذلك إذا طار عن الاختيار ، لأنه يجوز حينئذ أن يصير إلى مكان قريب من مكانه الأول ، وأن لا يسرع فى طيرانه بل يمشى على هيئة ويتحرك حركة غير المتعجل واعلم أن هذا الأمر وهو التفصيل يتفاوت حاله ، فمنه ما يبلغ من كرم الموقع ولطف التأثير فى النفس مبلغاً لايدرك شأوه ، ومنه مادون ذلك ، ويبين هذا بالمقابلة ، فأنت إذا قابلت قول بشار : كأن مثار النقع البيت ، بقول المتنبى :

يَزُورُ الْأَعَادِي فِي سَمَاءِ عَجَاجَةٍ أَسِنَّتُهُ فِي جَانِبَيْهَا الْكَوَاكِبُ

أو قول عمرو بن كلثوم :

تَبْنِي سَنَابِكُهَا مِنْ فَوْقِ أَرْؤُسِهِمْ سَقْفاً كَوَاكِبُهُ الْبِيضُ الْمَبَاتِيرُ

وجدت لبيت بشار من الفخامة والنبل والرفعة والشرف ، مالا يوجد لصاحبيه ، ذلك لأن كلا منهما وإن راعى التفصيل فى التشبيه ، إلا أنه اقتصر على أن أراك لمعان الأسنة والسيوف فى أثناء العجاجة ، بخلاف بشار فإنه لم يقتصر على ذلك كما بيناه فيما تقدم ، وكذلك تجد قول ابن المعتز فى الآذريون :

مَدَاهِنٌ مِنْ ذَهَبٍ فِيهَا بَقَايَا غَالِيَهْ

أعلى وأفضل من قوله :

فى كَفِّ الْأَشَلِّ * أَوْ نُدُورِ حُضُورِ الْمُشَبَّهِ بِهِ ، إِمَّا عِنْدَ حُضُورِ الْمُشَبَّهِ لِبُعْدِ الْمُنَاسَبَةِ كَمَا مَرَّ ، وَإِمَّا مُطْلَقًا لِكَوْنِهِ وَهْمِيًّا أَوْ مُرَكَّبًا خَيَالِيًّا أَوْ عَقْلِيًّا كَمَا مَرَّ ، أَوْ لِقِلَّةِ تَكَرُّرِهِ عَلَى الْحِسِّ كقوله : وَالشَّمْسُ كَالْمِرْآةِ ، فَالْغَرَابَةُ فِيهِ مِنْ وَجْهَيْنِ ، وَالْمُرَادُ بِالتَّفْصِيلِ أَنْ تَنْظُرَ فى أَكْثَرَ مِنْ وَصْفٍ ، وَيَقَعُ عَلَى وُجُوهٍ ، أَعْرَفُهَا أَنْ تَأْخُذَ بَعْضًا وَتَدَعَ بعضاً كما فى قوله :

حَمَلْتُ رُدَيْنِيًّا كَأَنَّ سِنَانَهُ * سَنَا لَهَبٍ لَمْ يَتَّصِلْ بِدُخَانِ

وَأَنْ تَعْتَبِرَ الْجَمِيعَ ، كَمَا مَرَّ ، مِنْ تَشْبِيهِ الثُّرَيَّا ، وَكُلَّمَا كَانَ التَّرْكِيب

وَطَافَ بِهَا سَاقٍ أَدِيبٌ بِمِبْزَلٍ كَخِنْجَرِ عَيَّارٍ صِنَاعَتُهُ الْفَتْكُ(1)

وَحَمَّلَ آذَرْيُونَةً فَوْقَ أُذْنِهِ كَكَأْسِ عَقِيقٍ فى قَرَارَتِهَا مِسْكُ

ذاك لأن السواد الذى فى باطن الآذريونة الموضوع بإزائه الغالية ، والمسك فيه أمران أحدهما أنه ليس بشامل لها ، والثانى أنه لم يستدر فى قعرها بل ارتفع منه حتى أخذ شيئاً من سمكها من كل الجهات وله فى منقطعه هيئة تشبه آثار الغالية فى جوانب المدهن إذا كانت بقية بقيت عن الأصابع ، وقوله فى قراراتها مسك : يبين الأمر الأول ، ويؤمن من دخول النقص عليه كما كان يدخل لو قال فيها مسك ولم يشترط أن يكون فى القرارة ، وأما الثانى فلا يدل عليه كما يدل قوله : بقايا غالية ، لأن من شأن المسك والشىء اليابس إذا فصل فى شىء مستدير له قعر أن يستدير فى القعر ولا يرتفع ، فى الجوانب والارتفاع

(١) يصف الخمر : المبزل ما يصفى به الشراب ، والآذريونة : ورد له أوراق حمر فى وسطه سواد له نبو وارتفاع وقد يكون أصفر .

مِنْ أُمُورٍ أَكْثَرَ كَانَ التَّشْبِيهُ أَبْعَدَ ، وَالْبَلِيغُ ما كَانَ مِنْ هٰذَا الضَّرْبِ ، لِغَرَابَتِهِ ، وَلِأَنَّ نَيْلَ الشَّيْءِ بَعْدَ طَلَبِهِ أَلَذُّ ، وَقَدْ يُتَصَرَّفُ فِى الْقَرِيبِ بِمَا يَجْعَلُهُ غَرِيباً كقوله :

الذى فى سواد الآذريونة ، بخلاف الغالية فإنها رطبة ثم تأخذ بالأصابع فلا بد فى البقية منها أن ترتفع عن القرارة ذلك الارتفاع ، ثم هى لنعومتها ترق فتكون كالصبغ الذى لا يظهر له جرم وذلك أصدق للشبه (والبليغ ما كان من هذا الضرب) لا يقال عدم الظهور ضرب من التعقيد والتعقيد كما علمنا مذموم ، لأننا نقول التعقيد كما سبق له سببان : الأول : سوء ترتيب الألفاظ ، والثانى : اختلال الانتقال من المعنى الأول إلى المعنى الثانى الذى هو المقصود باللفظ ، والمراد بعدم الظهور فى التشبيه ما كان سببه لطف المعنى ودقته ، أو ترتيب بعض المعانى على بعض ، فإن المعانى الشريفة لابد فيها فى غالب الأمر من بناء ثان على أول ورد تال إلى سابق . قال الشيخ : وهل شىء أحلى من الفكرة إذا استمرت وصادفت نهجاً قويماً ، وطريقة تنقاد وتبينت لها الغاية فيما ترتاد . قال الجاحظ فى أثناء فصل يذكر فيه مافى الفكر من الفضيلة : وأين تقع لذة البهيمة بالعلوفة ، ولذة السبع بلطع الدم ، وأكل اللحم من سرور الظفر بالأعداء ، ومن انفتاح باب العلم بعد إدمان قرعه . وبعد ، فإذا أعدت الحلبات لجرى الجياد ، ونصبت الأهداف ليعرف فضل الرماة فى الأبعاد والسداد ، فرهان العقول التى تستبق ونضالها التى تمتحن قواها فى تعاطيه هو الفكر والروية والاستنباط (ولأن نيل الشىء بعد طلبه ألذ) ولذلك ضرب المثل لكل ما لطف موقعه ببرد الماء على الظمأ كما قال القطامى :

وَهُنَّ يَنْبِذْنَ مِنْ قَوْلٍ يُصِبْنَ بِهِ مَوَاقِعَ الْمَاءِ مِنْ ذِى الْغُلَّةِ الصَّادِى

(وقد يتصرف فى القريب بما يجعله غريباً) وهذا على وجوه ، منها أن

لَمْ تَلْقَ هٰذَا الْوَجْهَ شَمْسُ نَهَارِنَا   إِلاَّ بِوَجْهٍ لَيْسَ فِيهِ حَيَاءُ

وقوله :

عَزَمَاتُهُ مِثْلُ النُّجُومِ ثَوَاقِباً   لو لم يَكُنْ لِلثَّاقِبَاتِ أُفُولُ

وَيُسَمَّى هٰذَا التَّشْبِيهَ الْمَشْرُوطَ : وَبِاعْتِبَارِ أَدَاتِهِ إِمَّا مُؤَكَّدٌ ، وَهُوَ

يكون كقول أبي الطيب من قصيدة يمدح بها هرون بن عبد العزيز .

لم تلق هذا الوجه شمس نهارنا   إلا بوجه ليس به حياء

وقول الآخر :

فَرُدَّتْ عَلَيْنَا الشَّمْسُ وَاللَّيْلُ رَاغِمٌ   بِشَمْسٍ لَهُمْ مِنْ جَانِبِ الْخِدْرِ تَطْلُعُ

فَوَاللهِ مَا أَدْرِي أَأَحْلَامُ نَائِمٍ   أَلَمَّتْ بِنَا أَمْ كَانَ فِي الرَّكْبِ يُوشَعُ

فإن تشبيه وجوه الحسان بالشمس مبتذل ، لكن كل واحد من حديث الحياء فى الأول ، والتشكيك مع ذكر يوشع عليه السلام فى الثانى ، أخرجه من الابتذال إلى الغرابة ، وشبيه بالأول قول الآخر :

إِنَّ السَّحَابَ لَتَسْتَحْيِي إِذَا نَظَرَتْ   إِلَى نَدَاكَ فَقَاسَتْهُ بِمَا فِيهَا

ومنها أن يكون كقول الوطواط :

عزماته مثل النجوم ثواقباً   لو لم يكن للثاقبات أفول

وقوله :

مها الْوَحْشِ إِلاَّ أَنَّ هَاتَا أَوَانِسٌ   قَنَا الْخَطِّ إِلاَّ أَنَّ تِلْكَ ذَوَابِلُ[1] .

---

(١) يصف النساء بسعة العيون وطول القدود .

مَاحُذِفَتْ أَدَاتُهُ ، مِثْلُ : وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ، وَمِنْهُ نحوُ :

وَالرِّيحُ تَعْبَثُ بِالْغُصُونِ وَقَدْ جَرَى * ذَهَبُ الْأَصِيلِ عَلَى لُجَيْنِ الْمَاءِ

وقوله :

يَكَادُ يَحْكِيكَ صَوْبُ الْغَيْثِ مُنْسَكِباً   لَوْ كَانَ طَلْقَ الْمُحَيَّا يُمْطِرُ الذَّهَبَا
وَالْبَدْرُ لَمْ يَغِبْ وَالشَّمْسُ لَوْ نَطَقَتْ   وَالْأُسْدُ لو لم تَصِدْ وَالْبَحْرُ لَوْ عَذُبَا

وهذا يسمى التشبيه المشروط ، ومنها أن يكون كقوله :

فِي طَلْعَةِ الْبَدْرِ شَيْءٌ مِنْ مَحَاسِنِهَا   وَلِلْقَضِيبِ نَصِيبٌ مِنْ تَثَنِّيهَا

وقول ابن بابك :

أَلاَ يَارِيَاضَ الْحَزْنِ مِنْ أَبْرَقِ الْحِمَى   نَسِيمُكِ مَسْرُوقٌ وَوَصْفُكَ مُنْتَحَلْ
حَكَيْتِ أَبَا سَعْدٍ فَنَشْرُكِ نَشْرُهُ   وَلَـكِنْ لَهُ صِدْقُ الْهَوَى وَلَكِ الْمَلَلْ

وقد يخرج من الابتذال بالجمع بين عدة تشبيهات كقوله :

كأنما يبسم عن لؤلؤ منضد   أو برد   أو أقاح

كما يزداد بذلك لطفاً وغرابة ، كقول امرىء القيس :

لَهُ أَيْطَلاَ ظَبْيٍ وَسَاقَا نَعَـامَةٍ   وَإِرْخَاءُ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيبُ تَتْفُلِ[1]

(والريح تعبث بالغصون) البيت لابن خفاجة الأندلسي وعبث الريح بالغصون

---

(١) شبه خاصرتي هذا الفرس بخاصرتي الظبي في الضمور ، وشبه ساقيه بساق النعامة في الانتصاب والطول ، وعدوه بإرخاء الذئب ، وتقريبه بتقريب ولد الثعلب ، فجمع بين أربعة تشبيهات كما ترى ، والإرخاء : ضرب من عدو الذئب ، والتقريب : وضع الرجلين موضع اليدين في العدو .

أَوْ مُرْسَلٌ وَهُوَ بِخِلَافِهِ ، كَمَا مَرَّ . وَبِاعْتِبَارِ الْغَرَضِ إِمَّا مَقْبُولٌ وَهُوَ الْوَافِي بِإِفَادَتِهِ ، كَأَنْ يَكُونَ الْمُشَبَّهُ بِهِ أَعْرَفَ بِوَجْهِ الشَّبَهِ فِي بَيَانِ الْحَالِ ، أَوْ أَتَمَّ شَيْءٍ فِيهِ فِي إِلْحَاقِ النَّاقِصِ بِالْكَامِلِ ، أَوْ مُسَلَّمَ الْحُكْمِ فِيهِ ، مَعْرُوفَهُ عِنْدَ الْمُخَاطَبِ فِي بَيَانِ الْإِمْكَانِ ، أَوْ مَرْدُودٌ وَهُوَ بِخِلَافِهِ

عبارة عن إمالتها إياها . والأصيل : هو الوقت بعد العصر إلى الغروب ، يوصف بالصفرة ويعد من أطيب الأوقات كالسحر قال :

وَرُبَّ نَهَارٍ لِلْفِرَاقِ أَصِيلُهُ ... وَوَجْهِي كِلاَ لَوْنَيْهِمَا مُتَنَاسِبُ

قال الأبيوردى :

لَيَالِيهِ أَسْحَارٌ وَفِيهِ هَوَاجِرٌ ... كَمَا خَضَلَتْ وَالشَّمْسُ تَنْعَسُ آصَالُ

فذهب الأصيل : صفرته وشعاع الشمس فيه ، وقوله على لجين الماء ، فاللجين الفضة : أى على ماء كالفضة فى البياض والصفاء ومثل البيت قول الشاعر يصف القمر لآخر الشهر قبل السرار :

كَأَنَّمَا أَدْهَمُ الْإِظْلَامِ حِينَ نَجَا ... مِنْ أَشْهَبِ الصُّبْحِ أَلْقَى نَعْلَ حَافِرِهِ

وقول الشريف الرضى :

أَرْسَى النَّسِيمُ بِوَادِيكُمْ وَلاَ بَرِحَتْ ... حَوَامِلُ الْمُزْنِ فِي أَجْدَاثِكُمْ تَضَعُ

وَلاَ يَزَالُ جَنِينُ النَّبْتِ تُرْضِعُهُ ... عَلَى قُبُورِكُمُ الْعَرَّاضَةُ الْهَمِعُ(١)

(وهو بخلافه) أى ما ذكر أداته وصار مرسلا من التأكيد المستفاد من حذف الأداة المشعر بحسب الظاهر أن المشبه هو المشبه به (كما مر) من الأمثلة المذكور فيها أداة التشبيه (وهو بخلافه) أى القاصر عن إفادة

---

(١) الأجداث : القبور ، والعراضة : السحاب ذو الرعد والبرق والهمع الماطرة .

﴿ خاتمة ﴾ أعلى مراتب التشبيه في قوة المبالغة باعتبار ذكر

الغرض . ﴿ تكملة ﴾ ذهب بعض الناس إلى أنه لافرق بين نحو قولك : رأيت أسداً يرمى ، وبين قولك : زيد أسد ، وأن الثانى استعارة كالأول وليس بتشبيه والصواب بمعزل عن ذلك . قال الإمام عبد القاهر ما فحواه : إنه إذا جرى فى الكلام لفظ دلت القرينة على تشبيه شيء بمعناه ، كان ذلك على وجهين : أحدهما أن يسقط ذكر المشبه من البين حتى لا يعلم من ظاهر الحال أنك أردته ، كقولك : عنت لنا ظبية وأنت تريد امرأة ، ووردنا بحراً وأنت تريد الممدوح وهذا تقول فيه إنه استعارة لاتحاشى بتة . والثانى : أن يكون المشبه مذكوراً مقدراً وحينئذ فالمشبه به إن كان خبراً أو منزلا منزلته ، يعنى أن يكون خبر كان وإن ومفعولا ثانياً لباب علمت وحالا ، فالوجه أن هذا يسمى تشبيهاً ولا تطلق عليه الاستعارة ، لأن المشبه به إذا وقع هذه المواقع كان الكلام موضوعاً لإثبات معناه لما يعتمد عليه أو نفيه عنه ، فإذا قلت زيد أسد ، فقد وضعت كلامك فى الظاهر لإثبات معنى الأسد لزيد . وإذا امتنع إثبات ذلك له على الحقيقة كان لإثبات شبه من الإسد له فيكون اجتلابه لإثبات التشبيه ، فيكون خليقاً بأن يسمى تشبيهاً إذ كان إنما جاء ليفيده ، بخلاف الحالة الأولى فإن المشبه به فيها لم يجتلب لإثبات معناه للشيء ، كما إذا قلت جاءنى أسد ورأيت أسداً ، فإن الكلام فى ذلك موضوع لإثبات المجيء واقعاً من الأسد والرؤية واقعة منك عليه ، لا لإثبات معنى الأسد لشيء ، فلم يكن ذكر المشبه به لإثبات التشبيه ، وكان قصد التشبيه أمراً مطوياً فى النفس مكنوناً فى الضمير لايعلم إلا بعد الرجوع إلى شيء من النظر والتأمل ، وإذا افترقت الصورتان هذا الافتراق ، ناسب أن يفرق بينهما فى الاصطلاح والعبارة بأن تسمى إحداهما

أَرْكَانِهِ كُلِّهَا أَوْ بَعْضِهَا حَذْفُ وَجْهِهِ وَأَدَاتِهِ ، فَقَطْ ، أَوْ مَعَ حَذْفِ الْمُشَبَّهِ

تشبيهاً والأخرى استعارة . ثم قال : فإن أبيت إلا أن تطلق الاستعارة على هذا القسم ، فإن حسن دخول أدوات التشبيه لايحسن إطلاقه ، وذلك كأن يكون اسم المشبه به معرفة كقولك : زيد الأسد وهو شمس النهار ، وإنه يحسن أن يقال : زيد كالأسد وخلته شمس النهار ، وإن حسن دخول بعضها دون بعض هان الخطب فى إطلاقه ، وذلك كأن يكون نكرة غير موصوفة ، كقولك زيد أسد ، فإنه لا يحسن أن يقال زيد كأسد ، ويحسن أن يقال : كأن زيداً أسد ، ووجدته أسداً ، وإن لم يحسن دخول شىء منها إلا بتغيير لصورة الكلام كان إطلاقه أقرب لغموض تقدير أداة التشبيه فيه ، وذلك بأن يكون نكرة موصوفة بما لا يلائم المشبه به ، كقولك فلان بدر يسكن الأرض ، وهو شمس لاتغيب ، وكقوله :

شَمْسٌ تَأَلَّقَ وَالْفِرَاقُ غُرُوبُهَا   عَنَّا وَبَدْرٌ وَالصُّدُودُ كُسُوفُهُ

فإنه لا يحسن دخول الكاف ونحوه فى شىء من هذه الأمثلة ونحوها ، إلا بتغيير صورته ، كقولك هو كالبدر إلا أنه يسكن الأرض ، وكالشمس إلا أنها لاتغيب وكالشمس المتألقة إلا أن الفراق غروبها ، وكالبدر إلا أن الصدود كسوفه . وقد يكون فى الصفات التى تجىء فى هذا النحو ، والصلات التى توصل بها ما يحيل تقدير أداة التشبيه فيه ، فيقرب حينئذ من القبيل الذى تطلق عليه الاستعارة من بعض الوجوه ، وذلك مثل قول أبى الطيب :

أَسَدٌ دَمُ الْأَسَدِ الْهِزَبْرِ خِضَابُهُ   مَوْتٌ فَرِيصُ الْمَوْتِ مِنْهُ تَرْعَدُ[1]

فإنه لا سبيل إلى أن يقال المعنى هو كالأسد وكالموت ، لما فى ذلك من

---

(١) الفريص جمع فريصة : وهى لحمة بين الثدى والكتف ، ترعد من الفزع

ثُمَّ حَذْفُ أَحَدِهِا كَذَلِكَ ، وَلاَ قُوَّةَ لِغَيْرِهِا .

النـاقص . لأن تشبيهه بجنس السبع المعروف دليل أنه دونه أو مثله ، وجعل دم الهزبر الذى هو أقوى الجنس خضاب يده دليل أنه فوقه ، وكذلك لا يضح أن يشبه بالموت المعروف ثم يجعل الموت يخاف منه وكذا قول البحترى :

وَبَدْرٌ أَضَاءَ الأَرْضَ شَرْقًا وَمَغْرِبًا   وَمَوْضِعَ رِجْلِي مِنْهُ أَسْوَدُ مُظْلِمُ

إن رجع فيه إلى التشبيه الساذج حتى يكون المعنى هو كالبدر لزم أن يكون قد جعل البدر المعروف موصوفاً بما ليس فيه ، فظهر أنه إنما أراد أن يثبت من الممدوح بدراً له هذه الصفة العجيبة التى لم تعرف للبدر ، فهو مبنى على تخييل أنه زاد فى جنس البدر واحداً له تلك الصفة ، فالـكلام موضوع لا لإثبات الشبه بينهما ولـكن لإثبات تلك الصفة ، فهو كقولك زيد رجل كيت وكيت لم تقصد إثبات كونه رجلا لـكن إثبات كونه متصفاً بما ذكرت ، فإذا لم يكن اسم المشبه به فى البيت مجتلباً لإثبات الشبه ، تبين أنه خارج عن الأصل الذى تقدم من كون الاسم مجتلباً لإثبات الشبه ، فالـكلام فيه مبنى على أن كون الممدوح بدراً أمر قد استقر وثبت وإنما العمل فى إثبات الصفة الغريبة ، وكما يمتنع دخول الـكاف فى هذا ونحوه يمتنع دخول كأن وحسبت لاقتضائهما أن يكون الخبر والمفعول الثانى أمراً ثابتاً فى الجملة إلا أن كونه متعلقاً بالاسم والمفعول الأول مشكوك فيه كقولنا : كأن زيداً منطلق ، أو خلاف الظاهر كقولنا كأن زيداً أسد ، والنـكرة فيما نحن فيه غير ثابتة ، فدخول كأن وحسبت عليها كالقياس على المجهول ، وأيضاً هذا النحو إذا فليت عن سره وجدت محصوله أنك تدعى حدوث شىء هو من الجنس المذكور ، إلا أنه اختص بصفة عجيبة لم يتوهم جوازها على ذلك الجنس فلم يكن لتقدير التشبيه فيه معنى

وَقَدْ يُقَيَّدَانِ بِاللُّغَوِيَّيْنِ * الْحَقِيقَةُ الْكَلِمَةُ الْمُسْتَعْمَلَةُ فِيمَا وُضِعَتْ

هذا إذا كان المشبه به خبراً عن المشبه أو منزلا منزلته كما علمت ، أما إن لم يكن كذلك نحو قولهم : رأيت به أسداً ولقيني منه أسد ، فلا يسمى استعارة[1] لأنه إنما يتصور الحكم على الاسم بالاستعارة ، إذا جرى على ما يدعى أنه مستعار ، له إما باستعماله فيه أو بإثبات معناه له ، والإسم فى مثل هذا غير جار على المشبه بوجه ، ولأنه يجيء على هذه الطريقة ما لا يتصور فيه التشبيه فيظن أنه استعارة كقوله تعالى : لهم فيها دار الخلد . إذ ليس المعنى على تشبيه جهنم بدار الخلد إذ هى نفسها دار الخلد وكقول الشاعر :

يَاخَيْرَ مَنْ يَرْكَبُ الْمَطِيَّ وَلاَ ... يَشْرَبُ كَأْساً بِكَفِّ مَنْ بَخِلاَ

فإنه لا يتصور فيه التشبيه ، وإنما المعنى أنه ليس ببخيل . ولا يسمى تشبيهاً أيضاً لأن المشبه به لم يجتلب فيه لإثبات التشبيه كما سبق : وقد عد هذا صاحب المفتاح تشبيهاً .

﴿الحقيقة والمجاز﴾ الحقيقة إما فعيل بمعنى مفعول من قولك حققت الشيء إذ أثبته أو فعيل بمعنى فاعل من قولك حق الشيء يحق إذا ثبت ، أى المثبتة أو الثابتة فى موضوعها الأصلى ، والمجاز مفعل من جاز المكان يجوزه إذا تعداه ، وإذا عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة وصف بأنه مجاز على معنى أنهم جازوا به موضعه الأصلى أو جاز هو مكانه الذى وضع فيه أولا (وقد يقيدان باللغويين) ليتميزا عن الحقيقة والمجاز العقليين والأكثر ترك هذا التقييد لئلا يتوهم خروج الشرعى والعرفى

---

(١) سيأتى أن هذا النوع يسمى تجريداً .

لَهُ فِي اصْطِلاَحِ التَّخَاطُبِ ، وَالْوَضْعُ تَعْيِينُ اللَّفْظِ لِلدَّلاَلَةِ عَلَى مَعْنًى بِنَفْسِهِ ، فَخَرَجَ الْمَجَازُ ، لِأَنَّ دَلاَلَتَهُ بِقَرِينَةٍ ، دُونَ الْمُشْتَرَكِ ، وَالْقَوْلُ بِدَلاَلَةِ اللَّفْظِ لِذَاتِهِ ظَاهِرُهُ فَاسِدٌ ، وَقَدْ تَأَوَّلَهُ السكاكىُّ . وَالْمَجَازُ مُفْرَدٌ وَمُرَكَّبٌ

(فى اصطلاح التخاطب) احترزوا بذلك عن المجاز الذى استعمل فيما وضع له لا فى اصطلاح به التخاطب كلفظ الصلاة يستعمله المخاطب بعرف الشرع فى الدعاء مجازاً (لأن دلالته بقرينة) وحينئذ لا يسمى التعيين فيه وضعاً (دون المشترك) وهو ما وضع لمعنيين أو أكثر وضعاً متعدداً ، وإنما لم يخرج عن الحد لأنه قد عين للدلالة على كل من المعنيين بنفسه ، وعدم الدلالة على أحد المعنيين بالتعيين لعارض الاشتراك لا ينافى ذلك ، فالقرء مثلا عين مرة ليدل بالاستقلال على الطهر ، ومرة أخرى ليدل كذلك على الحيض ، فإذا استعمل فى أحدهما واحتيج إلى القرينة المعينة للمراد لم يضر ذلك فى كونه حقيقة (والقول الخ) رأى عباد بن سليمان الصيمرى أن دلالة الألفاظ على معانيها لا تحتاج إلى الوضع بل بين اللفظ والمعنى مناسبة طبيعية تقتضى دلالة كل لفظ على معناه لذاته ، فذهب المصنف وكثير من العلماء إلى فساد هذا الرأى لاقتضائه أن يمتنع نقله إلى المجاز ، وجعله علماً ووضعه للمتضادين ، كالجون للأسود والأبيض ، والناهل للعطشان والريان ، فإن ما بالذات لا يزول بالغير ، ولاختلاف اللغات باختلاف الأمم . أما السكاكى فإنه تأول هذا القول وقال إنه تنبيه على ما عليه أئمة علم الاشتقاق والتصريف من أن للحروف فى أنفسها خواص بها تختلف ، كالجهر والهمس والشدة والرخاوة والتوسط بينهما وغير ذلك ، مستدعية أن العالم بها إذا أخذ فى تعيين شىء منها لمعنى لا يهمل التناسب بينهما قضاء لحق الحكمة ، كالفصم بالفاء الذى هو

أَمَّا الْمُفْرَدُ فَهُوَ الْكَلِمَةُ الْمُسْتَعْمَلَةُ فِى غَيْرِ مَا وُضِعَتْ لَهُ فِى اصْطِلاَحِ التَّخَاطُبِ عَلَى وَجْهٍ يَصِحُّ مَعَ قَرِينَةِ عَدَمِ إِرَادَتِهِ ، فَلاَ بُدَّ مِنَ الْعَلاَقَةِ لِيَخْرُجَ الْغَلَطُ وَالْكِنَايَةُ ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا لُغَوِىٌّ وَشَرْعِيٌّ وَعُرْفِيٌّ خَاصٌّ

حرف رخو لكسر الشيء من غير أن يبين ، والقصم بالقاف الذى هو حرف شديد لكسر الشيء حتى يبين ، وكالثلم بالميم الذى هو حرف خفيف للخلل فى الجدار ، والثلب بالباء الذى هو حرف شديد للخلل فى العرض ، وكالزفير بالفاء لصوت الحمار ، والزئير بالهمز الذى هو شديد لصوت الأسد وماشاكل ذلك ، وأن للتركيبات كالفعلان والفعلى بالتحريك كالنزوان والحيدى وفعل مثل شرف وغير ذلك خواص أيضاً فيلزم فيها ما يلزم فى الحروف ، وفى ذلك نوع تأثير لا نفس الكلم فى اختصاصها بالمعانى . وبعد ، فهذا التأويل خلاف المصحح نقله عن عباد ، فإن المنقول عنه أن المناسبة كافية فى دلالة اللفظ على المعنى فلا يحتاج إلى الوضع ، يدرك ذلك من خصه الله تعالى به كما فى القافة ويعرفه غيره منه . وهذا كما ترى بعيد عن تأويل السكاكى (فى اصطلاح التخاطب) زاد هذا القيد ليدخل فيه نحو لفظ الصلاة إذا استعمله المخاطب بعرف الشرع فى الدعاء مجازاً ، فإنه وإن كان مستعملا فيما وضع له فى الجملة فليس بمستعمل فيما وضع له فى الاصطلاح الذى به وقع التخاطب (فلا بد من العلاقة) ليتحقق الاستعمال على وجه يصح (ليخرج الغلط والكناية) يقول إن قولنا على وجه يصح ليخرج الغلط كما تقول : خذ هذا الفرس ، مشيراً إلى كتاب ، وقولنا مع قرينة عدم إرادته لتخرج الكناية لأنها مستعملة فى غير ما وضع له مع جواز إرادة ما وضع له (وكل منهما لغوى) أما الحقيقة فلأن واضعها إن كان واضع اللغة فلغوية ، وإن كان

أَوْ عَامٌّ ، كَأَسَدٍ لِلسَّبُعِ وَالرَّجُلِ الشُّجَاعِ ، وَصَلَاةٍ لِلْعِبَادَةِ الْمَخْصُوصَةِ وَالدُّعَاءِ ، وَفِعْلٍ لِلَّفْظِ وَالْحَدَثِ ، وَدَابَّةٍ لِذِى الْأَرْبَعِ وَالْإِنْسَانِ ، وَالْمَجَازُ مُرْسَلٌ ، إِنْ كَانَتِ الْعَلَاقَةُ غَيْرَ الْمُشَابَهَةِ وَإِلَّا فَاسْتِعَارَةٌ ، وَكَثِيرًا مَا تُطْلَقُ

الشارع فشرعية وإلا فعرفية ، والعرفية إن تعين صاحبها نسبت إليه كقولنا فقهية ونحوية وإلا بقيت مطلقة ، وأما المجاز فلأن الاصطلاح الذى به وقع التخاطب وكان اللفظ مستعملا فى غير ما وضع له فى ذلك الاصطلاح إن كان هو اصطلاح اللغة فالمجاز لغوى وإن كان اصطلاح الشرع فشرعى وإلا فعرفى عام أو خاص : الحقيقة اللغوية كأسد إذا استعمله المخاطب بعرف اللغـــة فى السبع المخصوص ، أما فى الرجل الشجاع فمجاز لغوى والحقيقة الشرعية كصلاة إذا استعملها المخاطب بعرف الشرع فى العبادة المخصوصة . أما فى الدعاء فمجاز شرعى ، والحقيقة العرفية الخاصة كفعل إذا استعمله المخـاطب بعرف النحو فى الكلمة المخصوصة ، أما فى الحدث فمجـاز عرفى خاص ، والعرفية العامة كدابة إذا استعملها المخاطب بالعرف العام فى ذى الأربع . أما فى الإنسان فمجاز عرفى عام (مرسل) سموه كذلك لإرساله عن التقييد بعلاقة المشابهة (وإلا فاستعارة) فالاستعارة على هذا هى اللفظ المستعمل فيما شبه بمعنـاه الأصلى لعلاقة المشابهة كظبية فى قولك : عنت لنـا ظبية ، وأنت تريد امرأة . وكثيراً ما تطلق على فعل المتكلم أى استعمال اسم المشبه به فى المشبه ، وحينئذ تكون بمعنى المصدر ويصح منه الاشتقاق فيسمى المشبه به مستعاراً منه والمشبه مستعاراً له ، واللفظ مستعاراً . ثم قال المصنف : والمرسل هو ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسة غير التشبيه كاليد إذا استعملت فى النعمة لأن من شأنها أن تصدر عن الجارحة ومنها تصل إلى المقصود بها

الاسْتِعَارَةُ عَلَى اسْتِعْمَالِ اسْمِ الْمُشَبَّهِ بِهِ فِى الْمُشَبَّهِ ، فَهُمَا مُسْتَعَارٌ مِنْهُ وَمُسْتَعَارٌ لَهُ وَاللَّفْظُ مُسْتَعَارٌ ، وَالْمُرْسَلُ كَالْيَدِ فِى النِّعْمَةِ وَالْقُدْرَةِ وَالرَّاوِيَةِ

قال الإمام عبد القاهر : ويشترط أن يكون فى الكلام إشارة الى مصدر تلك النعمة وإلى المولى لها . فلا يقال اتسعت اليد فى البلد أو اقتنيت يداً ، كما يقال اتسعت النعمة فى البلد أو اقتنيت نعمة ، وإنما يقال جلت يده عندي وكثرت أياديه لدى ونحو ذلك ، ونظير هذا قولهم فى صفة راعى الإبل إن له عليها أصبعاً أرادوا أن يقولوا له عليها أثر حذق فدلوا عليه بالأصبع ، لأنه ما من حذق فى عمل يد إلا وهو مستفاد من حسن تصريف الأصابع ، واللطف فى رفعها ووضعها كما فى الخط والنقش ، وعلى ذلك قيل فى تفسير قوله تعالى : بلى قادرين على أن نسوى بنانه ، أى نجعلها كخف البعير فلا يتمكن من الأعمال اللطيفه فأرادوا بالأصبع الأثر الحسن حيث يقصد الإشارة إلى حذق فى الصنعة لا مطلقاً ، حتى يقال رأيت أصابع الدار ، وله أصبع حسنة وأصبع قبيحة ، على معنى أثر حسن وأثر قبيح ونحو ذلك ، وينظر إلى هذا قولهم : ضربته سوطاً لأنهم عبروا عن الضربة الواقعة بالسوط باسم السوط ، فجعلوا أثر السوط سوطاً وتفسيرهم له بقولهم المعنى ضربته ضربة بالسوط بيان لما كان الكلام عليه فى أصله (والقدرة) أى وكاليد فى القدرة ، لأن أكثر مايظهر سلطان القدرة فى اليد وبها يكون البطش والضرب والقطع والأخذ والدفع والوضع والرفع إلى سائر الأفعال التى تنبىء عن وجوه القدرة ومكانها : وقد تكون اليد للقدرة على سبيل التمثيل كما فى قوله تعالى : والسموات مطويات بيمينه . فليس ذلك من باب المجاز المرسل كما ظنه بعضهم ، ولذلك قال الزمخشرى رحمه الله : إن الغرض من الآية إذا أخذ بجملته ومجموعه هو تصوير عظمته تعالى

فِي الْمَزَادَةِ ، وَمِنْهُ تَسْمِيَةُ الشَّيْءِ بِاسْمِ جُزْئِهِ ، كَالْعَيْنِ فِي الرَّبِيئَةِ ، وَعَكْسُهُ

والتوقيف على كنه جلاله لا غير ، من غير ذهاب بالقبضة ، ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز (١) ، فإن السامع لذلك إذا كان له فهم يقع على الزبدة والخلاصة التى هى الدلالة على القدرة الباهرة ، وأن الأفعال العظيمة التى تتحير فيها الأذهان هينة عليه هواناً لا يوصل السامع إلى الوقوف عليه إلا إجراء العبارة فى مثل هذه الطريقة من التخييل . قال : ولا ترى باباً فى علم البيان أدق ولا ألطف من هذا الباب ، ولا أنفع وأعون على تعاطى تأويل المشتبهات من كلام الله ، فإن أكثره وعليته تخييلات قد زلت فيها الأقدام ، وما أتى من زل إلا من قلة عنايتهم بالبحث والتنقيب ، حتى يعلموا أن فى عداد العلوم الدقيقة علماً لو قدروه حق قدره لما خفى عنهم أن العلوم كلها مفتقره إليه وعيال عليه ، إذ لا يحل عقدة من عقدها المؤربة ، ولا يفك قيودها المكربة ، إلا هو ، وكم من آية أو حديث قد ضيم وسيم الخسف بالتأويلات البعيدة والوجوه الرثة ، لأن من تأول ليس من هذا العلم فى عير ولا نفير ، ولا يعرف قبيلا منه من دبير ، هذا وأما اليد فى قوله عليه السلام : المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم . فمن باب التشبيه أى هم مع كثرتهم فى وجوب الاتفاق بينهم مثل اليد الواحدة ، فكما لا يتصور أن يخذل بعض أجزاء اليد بعضاً وأن تختلف بها الجهة فى التصرف ، كذلك سبيل المؤمنين فى تعاضدهم على المشركين ، لأن كلمة التوحيد جامعة لهم (وكالراوية فى المزادة) الراوية : البعير الذى يستقى عليه ، والمزادة : سقاء الماء ، فاستعمال الأول فى الثانى ضرب من المجاز المرسل للعلاقة الموجودة بين البعير ، والمزادة بسبب حمله إياها . ومثل ذلك إطلاق الخفض متاع البيت على البعير الذى يحمله (كالعين فى الربيئة)

---

(١) يعنى المجاز المرسل .

كالأَصَابِعِ فِي الأَنَامِلِ ، وَتَسْمِيَتُهُ بِاسْمِ سَبَبِهِ ، نَحْوُ : رَعَيْنَا الْغَيْثَ ، أَوْ مُسَبَّبِهِ ، نَحْوُ : أَمْطَرَتِ السَّمَاءُ نَبَاتاً ، أَوْ مَا كَانَ عَلَيْهِ ، نَحْوُ : وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ ، أَوْ مَا يَؤُولُ إِلَيْهِ ، نَحْوُ : إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً ، أَوْ مَحَلِّهِ نَحْوُ : فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ، أَوْ حَالِّهِ نَحْوُ ، وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ ،

الربيئة الشخص يطلع على عورات العدو فى مكان عال ، فإطلاق العين عليه ؛ لأن العين هى المقصود فى كون الرجل ربيئة ، إذ ما عداها لا يغنى شيئاً مع فقدها ، فصارت كأنها الشخص كله فلا بد فى الجزء المطلق على الكل من أن يكون له مزيد اختصاص بالمعنى الذى قصد بالكل ، مثلا لا يجوز إطلاق اليد أو الأصبع على الربيئة وإن كان كل منهما جزءاً منه . ونظير إطلاق العين على الربيئة إطلاق الرقبة على الإنسان فى نحو قوله تعالى : فتحرير رقبة (وعكسه) يعنى تسمية الشيء باسم كله (كالأصابع فى الأنامل) فى قوله تعالى : يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق . والأنملة جزء من الأصبع ، والغرض منه المبالغة كأنه جعل جميع الأصبع فى الأذن لئلا يسمع شيء من الصاعقة (نحو رعينا الغيث) أى النبات الذى سببه الغيث (نحو وآتوا اليتامى أموالهم) أى الذين كانوا يتامى ، إذ لا يتم بعد البلوغ (فليدع ناديه) أى أهل ناديه (والاستعارة) وهى كما علمت ما كانت علاقته المشابهة ، أى قصد أن الإطلاق بسبب المشابهة ، فإذا أطلق نحو المشفر على شفة الإنسان ، فإن أريد تشبيهها بمشفر الإبل فى الغلظ فهو استعارة كما قال الفرزدق :

فَلَوْ كُنْتَ ضَبِّياً عَرَفْتَ قَرَابَتِي وَلَكِنَّ زِنْجِيٌّ غَلِيظُ الْمَشَافِرِ

أى ولكنك زنجى ، كأنه بعير لا يهتدى لشرفى ، وكذا قول الحطيئة يخاطب الزبرقان :

أى فى، الجَنَّة أوْ آنيته نحوُ : وَاجْعَلْ لِى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الآخِرِينَ . أىْ ذِكْرًا

قَرَوا جَارَكَ العَيْمانَ لَمَّا جَفَوْتَه ... وَقَلَّصَ عَنْ بَرْدِ الشَّرَابِ مَشافِرُهْ (١)

. فإنه وإن عنى نفسه بالجار جاز أن يقصد إلى وصف نفسه بنوع من سوء الحال ليزيد فى التهكم بالزبرقان ، ويؤكد ماقصده من رميه بإضاعة الضيف وإسلامه للضر والبؤس . وإن أريد أنه من إطلاق المقيد على المطلق ، فهو مجاز مرسل كإطلاق المرسن على الأنف فى قول العجاج : وفاحماً ومرسناً مسرجاً . « واعلم » أن صميم هذا العلم فى الحقيقة هو هذا الضرب من البيان ، أعنى الاستعارة التى تتضمن التشبيه ، فهى أمد ميداناً وأشداقتناناً وأعجب حسناً وإحساناً ، وأوسع سعة وأبعد غوراً ، وأذهب نجداً فى الصناعة وغوراً من أن تجمع شعبها وشعوبها ، وتحصر فنونها وضروبها ، نعم وأسحر سحراً وأملأ بكل ما يملأ صدراً ، وأهدى إلى أن تهدى إليك عذارى قد تخير لها الجمال ، وعنى بها الكمال ، وأن تخرج لك من بحرها جواهر إن باهتها الجواهر مدت فى الشرف والفضيلة باعاً لايقصر ، وأبدت من الأوصاف الجليلة محاسن لاتنكر ، وأن تثير من معدنها تبراً لم تر مثله ، ثم تصوغ فيها صياغات تعطل الحلى وتريك الحلى الحقيقى ، وأن تأتيك على الجملة بعقائل يأنس لها الدين والدنيا ، وشرائف لها من الشرف الرتبة العليا ، وهى أجل من أن تأتى الصفة على حقيقة حالها ، وتستوفى جملة حالها ، ومن الفضيلة الجامعة فيها أنها تبرز هذا البيان أبداً فى صورة مستجدة تزيد قدره نبلا ، وتوجب له بعد الفضل فضلا ، وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد ، حتى تراها مكررة فى مواضع ، ولها فى كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد وشرف منفرد وفضيلة مرموقة

---

(١) العيمان : العطشان إلى اللبن أشد العطش ، ومشافره : فاعل قلص .

حَسَناً ، وَالاسْتِعَارَةُ قَدْ تُقَيَّدُ بِالتَّحْقِيقِيَّةِ لِتَحَقُّقِ مَعْنَاهَا حِسّاً أَوْ عَقْلاً ، كَقَوْلِهِ :

وخلابة مومومقة . ومن خصائصها التى تذكر بها وهى عنوان مناقبها ، أنها تعطيك الكثير من المعانى باليسير من اللفظ ، حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر ، وتجنى من الغصن الواحد أنواعاً من الثمر ، وإذا تأملت أقسام الصنعة التى بها يكون الكلام فى حد البلاغة ، ومعها يستحق وصف البراعة ، وجدتها تفتقر إلى أن تعيرها حلاها . وتقصر عن أن تنازعها مداها ، وصادفتها نجوماً هى بدرها ، وروضاً هى زهرها ، وعرائس مالم تعرها حليها فهى عواطل ، وكواعب مالم تحسنها فليس لها فى الحسن حظ كامل ، فإنك لترى بها الجماد حياً ناطقاً والأعجم فصيحاً ، والأجسام الخرس مبينة ، والمعانى الخفية بادية جلية ، وإذا نظرت فى أمر المقاييس وجدتها ولا ناصر لها أعز منها ، ولا رونق لها مالم تزنها ، وتجد التشبيهات على الجملة غير معجبة مالم تكنها إن شئت أرتك المعانى اللطيفة التى هى من خبايا العقل كأنها قد جسمت حتى رأتها العيون ، وإن شئت لطفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لاتنالها إلا الظنون .

« وبعد » فقد يدور بخلدك أن فى وسع الناس جميعاً أن يجيدوا فى هذا الباب ويأتوا فيه بالإبداع والإحسان ، وهو وربك أكبر من أن يظن به مثل هذا الظن ، ولقد كبا فيه وقاك الله كثير من فرسان البلاغة وأئمة البيان ، فمنهم أبو نواس حيث يقول :

رَسْمُ الْكَرَى بَيْنَ الْجُفُونِ مُحِيلُ ‏ ‏ عُفِّيَ عَلَيْهِ بُكاً عليكَ طَوِيلُ

سئل مسلم بن الوليد عن هذا البيت ، فقال إن كان قول أبى العذافر :

* بَاضَ الْهَوَى فى فُؤَادِى وَفَرَّخَ التَّذْكَارُ *

حسناً كان هذا حسناً .

ومنهم أبو تمام حيث يقول :

يَا دَهْرُ قَوِّمْ مِنْ أَخْدَعَيْكَ فَقَدْ أَضْجَجْتَ هٰذَا الْأَنَامَ مِنْ خُرُقِكْ (١)

ولقد أسرف أبو تمام فى هذا فنبى عائبه وأطلق لسان عائبه ، وأكد له الحجة على نفسه ، فمن ذلك قوله :

وَكَمْ أَحْرَزَتْ مِنْكُمْ عَلَى قُبْحِ قَدِّهَا صُرُوفُ الرَّدَى مِنْ مُرْهَفٍ حَسَنِ الْقَدِّ

وقوله يرثى غلاماً :

أَنْزَلَتْهُ الْأَيَّامُ عَنْ ظَهْرِهَا مِنْ بَعْدِ إِثْبَاتِ رِجْلِهِ فِى الرِّكَابِ

ولا وجه لاستيعاب ذلك ، لأن قليله دال على كثيره ، ولكن انظر إلى قول الحماسى :

قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِذَيْهِ لَهُمْ طَارُوا إِلَيْهِ زَرَافَاتٍ وَوُحْدَانَا

أو قول مسلم :

تَجْرِى الرِّيَاحُ بِهَا حَسْرَى مُوَلَّهَةً حَيْرَى تَلُوذُ بِأَطْرَافِ الْجَلَامِيدِ

أو قول أبى العتاهية :

أَتَتْهُ الْخِلَافَةُ مُنْقَادَةً إِلَيْهِ تُجَرِّرُ أَذْيَالَهَا

أو قول الحجاج من خطبة له : إن أمير المؤمنين نثر كنانته بين يديه ، فعجم عيدانها فوجدنى أمرها عوداً وأصلبها مكسراً ، فرماكم بى لأنكم طالما أوضعتم فى الفتنة ، واضطجعتم فى مراقد الضلال . فأنت إذا نظرت إلى مثل

---

(١) الخرق بالضم : العنف ، وكذلك الحمق والجهل ، وضم الراء للشعر ، ويريدون بتقويم الأخدعين : وهما عرقان فى صفحتى العنق (كالليتين) إزالة الكبر والعنف ، لأنهم يقولون فى المتكبر العاتى : شديد الأخدعين .

* لَدَى أَسَدٍ شَاكِي السِّلَاحِ مُقَذَّفِ * أَيْ رَجُلٍ شُجَاعٍ ، وقوله تعالى ::

هذا كلام وجدت هناك استعارة قد أصابت المحز وطبقت المفصل ، فإن أدركت من نفسك تلك المنة وإلا أطلقت عليك لسان العائبين (قد تقيد بالتحقيقة) وبهذا التقييد تتميز عن التخييلية ، والمكنى عنها . قال وإنما تسمى تحقيقية لتحقق معناها ، أى ما عنى بها واستعملت هى فيه حسياً أو عقلا بأن يكون ذلك المعنى أمراً معلوماً يمكن أن ينص عليه ، ويشار إليه إشارة حسية أو عقلية ، فيقال إن اللفظ قد نقل عن مسماه الأصلى فجعل اسما لهذا المعنى ، على سبيل الإعارة للمبالغة فى التشبيه . أما الحسى فكقول زهير بن أبى سلمى :

لَدَى أَسَدٍ شَاكِي السِّلَاحِ مُقَذَّفٍ   لَهُ لِبَدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلَّمِ (١)

أى لدى رجل شجاع ، ومن لطيف ذلك ما يقع التشبيه فيه فى الحركات ، كقول أبى دلامة يصف بغلته :

أَرَى الشَّهْبَاءَ تَعْجِنُ إِذْ غَدَوْنَا   بِرِجْلَيْهَا وَتَخْبِزُ بِالْيَدَيْنِ

شبه حركة رجليها حيث لم تثبتا على موضع تعتمد بهما عليه ، وهوتا ذاهبتين نحو يديها بحركة يدى العاجن ، فإنهما لا تثبتان فى موضع بل تزلان إلى قدام لرخاوة العجين ، وشبه حركة يديها بحركة يدى الخابز ، فإنه يثنى يده نحو بطنه ويحدث فيهما ضرباً من التقويس ، كما تجد فى يد الدابة إذا اضطربت

---

(١) شاكى السلاح وشائك السلاح وشاك السلاح : أى تام السلاح كله من الشوكة ، وهى العدة والقوة . مقذف : أى يقذف به كثيراً إلى الوقائع . واللبد جمع لبدة : وهى ما تلبد من شعر الأسد على منكبيه .

اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ، أَىْ الدِّينَ الْحَقَّ ؛ وَدَلِيلُ أَنَّهَا مَجَازٌ لُغَوِىٌّ كَوْنُهَا

فى سيرها ولم تقو على ضبط يديها ، وأن ترمى بها إلى قدام وأن تشد اعتمادها حتى تثبت فى الموضع الذى تقع عليه ، فلا تزول عنه ولا تنثنى ، وأما العقلى فكقوله تعالى : اهدنا الصراط المستقيم ، أى الدين الحق (ودليل أنها مجاز لغوى) اختلاف العلماء فى الاستعارة هل هى مجاز لغوى أو عقلى ؛ فذهب الكثير إلى أنها مجاز لغوى نظراً إلى استعمال الأسد فى غير ماهو له عند التحقيق ، فإنا وإن ادعينا للشجاع الأسدية ، فلا نتجاوز فى هذه الدعوى حديث الشجاعة حتى ندعى للرجل صورة الأسد وهيئته وعبالة عنقه ومخالبه وسائر أوصافه الظاهرة البادية للعيون ، ولئن كانت الشجاعة من أخص أوصاف الأسد وأمكنها ، فإن اللغة لم تضع الاسم لها وحدها ، بل لها فى مثل تلك الجثة ، وهاتيك الصورة والهيئة وتلك الأنياب والمخالب إلى سائر ما يعلم من الصور الخاصة فى جوارحه كلها ، ولو كانت وضعته لتلك الشجاعة التى تعرفها وحدها لكان صفة لا إسماً ولكان كل شىء يفضى فى شجاعته إلى ذلك الحد ، مستحقاً للاسم استحقاقاً حقيقياً لا على طريق التشبيه والتأويل ، وذهب آخرون إلى أنها مجاز عقلى بمعنى أن التصرف فى أمر عقلى لا لغوى ، لأنها لا تطلق على المشبه إلا بعد ادعاء دخوله فى جنس المشبه به ، لأن نقل الاسم وحده لو كان استعارة لكانت الأعلام المنقولة كزيد ويشكر استعارة ، ولما كانت الاستعارة أبلغ من الحقيقة لأنه لا بلاغة فى إطلاق الاسم المجرد عارياً عن معناه ، ولما صح أن يقال لمن قال رأيت أسداً يعنى زيداً أنه جعله أسداً ، كما لا يقال لمن سمى ولده أسداً أنه جعله أسداً ، لأن جعل إذا تعدى إلى مفعولين كان بمعنى صير ، فأفاد إثبات صفة للشىء ، فلا تقول جعلته أميراً إلا على معنى أنك أثبت له صفة الإمارة ، وعليه قوله تعالى : وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، المعنى أنهم أثبتوا

مَوْضُوعَةً لِلْمُشَبَّهِ وَلاَ لِلأَعَمِّ مِنْهُمَا ، وَقِيلَ إِنَّهَا مَجَازٌ عَقْلِيٌّ ، بِمَعْنَى أَنَّ التَّصَرُّفَ فِى أَمْرٍ عَقْلِيٍّ لاَ لُغَوِيٍّ ، لِأَنَّهَا لَمَّا لَمْ تُطْلَقْ عَلَى الْمُشَبَّهِ إِلاَّ بَعْدَ ادِّعَاءِ دُخُولِهِ فِى جِنْسِ الْمُشَبَّهِ بِهِ كَانَ اسْتِعْمَالُهَا فِيمَا وُضِعَتْ لَهُ ، وَلِهَذَا صَحَّ التَّعَجُّبُ فِى قوله :

قَامَتْ تُظَلِّلُنِى مِنَ الشَّمْسِ ... نَفْسٌ أَعَزُّ عَلَىَّ مِنْ نَفْسِى

قَامَتْ تُظَلِّلُنِى وَمِنْ عَجَبٍ ... شَمْسٌ تُظَلِّلُنِى مِنَ الشَّمْسِ

للملائكة صفة الأنوثة واعتقدوا وجودها فيهم ، وعن هذا الاعتقاد صدر عنهم إطلاق اسم الإناث عليهم ، لا أنهم أطلقوا من غير اعتقاد ثبوت معناه لهم بدليل قوله : أشهدوا خلقهم ، وإذا كان نقل الاسم تبعاً لنقل المعنى كان الاسم مستعملا فيما وضع له ، وقالوا ، لذلك صح التعجب فى قول ابن العميد :

قامت تظللنى من الشمس ... نفس أعز على من نفسى

قامت تظللنى ومن عجب ... شمس تظللنى من الشمس

والنهى عن التعجب فى قول أبى الحسن بن طباطبا :

يَا مَنْ حَكَى الْمَاءَ فَرْطُ رِقَّتِهِ ... وَقَلْبُهُ مِنْ قَسَاوَةِ الْحَجَرِ

يَالَيْتَ حَظِّى كَحَظِّ ثَوْبِكَ مِنْ ... جِسْمِكَ يَا وَاحِداً مِنَ الْبَشَرِ

لاَ تَعْجَبُوا مِنْ بِلَى غِلاَلَتِهِ ... قَدْ زَرَّ أَزْرَارَهُ عَلَى الْقَمَرِ (١)

وقول الآخر :

تَرَى الثِّيَابَ مِنَ الْكَتَّانِ يَلْمَحُهَا ... نُورٌ مِنَ الْبَدْرِ أَحْيَاناً فَيُبْلِيهَا

---

(١) البلى من بلى الثوب : خلق ، والغلالة : شعار يلبس تحت الثوب وتحت الدرع .

وَالنَّهْيُ عَنْهُ فى قوله :

لاَ تَعْجَبُوا مِنْ بِلَى غِلاَلَتِهِ قَدْ زَرَّ أَزْرَارَهُ عَلَى الْقَمَرِ

وَرُدَّ بِأَنَّ الِادِّعَاءَ لاَ يَقْتَضِى كَوْنَهَا مُسْتَعْمَلَةً فِيمَا وُضِعَتْ لَهُ ، وَأَمَّا

فَكَيْفَ تُنْكِرُ أَنْ تَبْلَى مَعَاجِرُهَا وَالْبَدْرُ فِى كُلِّ وَقْتٍ طَالِعٌ فِيهَا[1]

فلولا أن ابن العميد ادعى لغلامه معنى الشمس الحقيقى لما كان لهذا التعجب معنى ، فليس ببدع ولا منكر أن يظلل إنسان حسن الوجه إنساناً ويقيه وهجاً بشخصه ، ولولا أن أبا الحسن جعل صاحبه قمراً حقيقياً لما كان للنهى عن التعجب معنى ، لأن الكتان إنما يسرع إليه البلى حين يلابس القمر الحقيقى لا إنساناً بلغ فى الحسن غايته ، وكذلك القول فى شعر ثالث الشعراء . أجاب الفريق الأول عن هذا بأن ادعاء دخول المشبه فى جنس المشبه به لا يخرجه عن كونه مستعملا فى غير ما وضع له ، وأما التعجب والنهى عنه فيما ذكر فابناء الاستعارة على تناسى التشبيه قضاء لحق المبالغة ، فإن قيل إصرار المتكلم على ادعاء الأسدية للرجل ينافى نصبه قرينة مانعة من أن يراد به السبع المخصوص ، فإنا نقول لامنافاة هناك . قال صاحب المفتاح : وجه التوفيق وهو أن تبنى دعوى الأسدية للرجل ينافى نصبه قرينة مانعة من أن يراد به السبع المخصوص ، فإنا نقول الذى له غاية جراءة المقدم ونهاية قوة البطش مع الصورة المخصوصة ، وغير متعارف وهو الذى له تلك الجراءة وتلك القوة لا مع تلك الصورة ، بل مع صورة أخرى على نحو ما ارتكب المتنبى هذا الادعاء فى عد نفسه وجماعته من جنس الجن وعد جماله من جنس الطير حين قال :

---

(١) المعاجر جمع معجر ، كمنبر : ثوب تعتجر به المرأة ، أى تشده على رأسها .

التَّعَجُّبُ وَالنَّهْىُ عَنْهُ فَالْبِنَاءُ عَلَى تَنَاسِى التَّشْبِيهِ ، قَضَاءً لِحَقِّ الْمُبَالَغَةِ . وَالِاسْتِعَارَةُ تُفَارِقُ الْكَذِبَ بِالْبِنَاءِ عَلَى التَّأْوِيلِ وَنَصْبِ الْقَرِينَةِ عَلَى إِرَادَةِ خِلَافِ الظَّاهِرِ ، وَلَا تَكُونُ عَلَماً ، لِمُنَافَاتِهِ الْجِنْسِيَّةَ ، إِلَّا إِذَا تَضَمَّنَ

نَحْنُ قَوْمٌ مِلْجِنِّ فى زِىِّ نَاسٍ . فَوْقَ طَيْرٍ لَهَا شُخُوصُ الْجِمَالِ

مستشهداً لدعواك هاتيك بالمخيلات العرفية والتأويلات المناسبة من نحو حكمهم إذا رأوا أسداً هرب عن ذئب إنه ليس بأسد ، وإذا رأوا إنساناً ، لا يقاومه أحد أنه ليس بإنسان وإنما هو أسد أو هو أسد فى صورة إنسان ، وأن تخصص القرينة بنفيها المتعارف الذى يسبق إلى الفهم ليتعين ما أنت تستعمل الأسد فيه ومن البناء على هذا التنويع قوله :

* تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ *(1)

وقولهم : عتابك السيف . وقوله عز وجل : يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، ومنه قوله :

وَبَلْدَةٍ لَيْسَ بِهَا أَنِيسُ إِلَّا الْيَعَافِيرُ وَإِلَّا الْعِيسُ(2)

(بالبناء على التأويل) فى دعوى دخول المشبه فى جنس المشبه به بجعل أفراد المشبه به قسمين كما مر ، والكاذب يتبرأ من التأويل (ونصب القرينة على إرادة خلاف الظاهر) والكاذب لا ينصب دليلا على خلاف زعمه وأنى ينصب، وهو لترويج ما يقول راكب كل صعب وذلول (ولا تكون علماً) لأنها تعتمد إدخال المشبه فى جنس المشبه به بجعل أفراده قسمين كما

---

(1) صدره * وخيل قد دلفت لها بخيل * والبيت لعمرو بن معد يكرب .

(2) اليعفور : ولد البقرة الوحشية ، والعيس : الإبل البيضاء .

نَوْعَ وَصْفِيَّةٍ كَحَاتِمٍ ، وَقَرِينَتُهَا إِمَّا أَمْرٌ وَاحِدٌ ، كما فى قوله : رَأَيْتُ أَسَداً يَرْمِي ، أَوْ أَكْثَرُ ، كقوله :

فَإِنْ تَعَافُوا الْعَدْلَ وَالْإِيمَانَا   فَإِنَّ فِى إِيمَانِنَا نِيرَانَا

أَوْ مَعَانٍ مُلْتَئِمَةٌ ، كقوله :

سبق ، وذلك غير ممكن فى العلم لمنافاته الجنسية ، لأنه يقتضى التشخص ومنع الاشتراك ، والجنسية تقتضى العموم وتناول الأفراد ، واستدل فى الإيضاح على أنها لاتكون علماً بأن العلم لايدل إلا على تعين شىء من غير إشعار بأنه إنسان أو فرس أو غيرهما ، فلا اشتراك بين معناه وغيره إلا فى مجرد التعين ونحوه من العوارض العامة التى لايكفى شىء منها جامعاً فى الاستعارة (إلا إذا تضمن نوع وصفية) بسبب اشتهاره بوصف من الأوصاف كحاتم ، فإنه يتضمن الاتصاف بالجود ، وحينئذ يجوز أن يشبه شخص بحاتم فى الجود ويتأول فى حاتم فيجعل كأنه موضوع للجود ، سواء كان ذلك الرجل المعهود من طى أو غيره ، كما جعل أسد كأنه موضوع للشجاع ، سواء كان متعارفاً أو غيره ، فبهذا التأويل يكون حاتم متناولا للفرد المتعارف المعهود والفرد الغير المتعارف وهو من يتصف بالجود ، لكن استعماله فى غير المتعارف يكون استعمالا فى غير الموضوع له فيكون استعارة نحو رأيت اليوم حاتماً (كقوله فإن تعافوا) فتعلق قوله تعافوا بكل من العدل والإيمان قرينة على أن المراد بالنيران آلة الحرب التى تشبهها فى الزمان ، لدلالته على أن جوابه أنهم يحاربون ويقسرون على الطاعة بالسيف (أو معان ملتئمة) أى مربوط بعضها ببعض يريد أن تكون القرينة أمراً مركباً (كقوله) أى البحترى : فانظر ماذا صنع حين أراد استعارة السحائب لأنامل يمين الممدوح تفريعاً على ما جرت

وَصَاعِقَةٍ مِنْ نَصْلِهِ تَنْكَفِى بِهَا ❊ عَلَى أَرْؤُسِ الْأَقْرَانِ خَمْسُ سَحَائِبِ

وَهِىَ بِاعْتِبَارِ الطَّرَفَيْنِ قِسْمَانِ ، لِأَنَّ اجْتِمَاعَهُمَا فِى شَيْءٍ إِمَّا مُمْكِنٌ نَحْوُ أَحْيَيْنَاهُ فِى قوله تعالى : أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ ، أَىْ ضَالاً فَهَدَيْنَاهُ وَلْتُسَمَّ وِفَاقِيَّةً ، وَإِمَّا مُمْتَنِعٌ ، كَاسْتِعَارَةِ اسْمِ الْمَعْدُومِ لِلْمَوْجُودِ ، لِعَدَمِ

به العادة من تشبيه الجواد بالبحر الفياض تارة ، وبالسحاب الهطال أخرى ، ذكر أن هناك صاعقة ، ثم قال من نصله فبين أن تلك الصاعقة من نصل سيفه ثم قال على أرؤس الأقران ، ثم قال خمس ، فذكر العدد الذى هو عدد جميع أنامل اليد فجعل ذلك كله قرينة لما أراد من استعارة السحائب للأنامل . وتنكفى من انكفأ : أى انقلب (نحو أحييناه) والإحياء والهداية لاشك فى جواز اجتماعهما فى شىء ، وإنما قال نحو أحييناه . لأن الطرفين فى استعارة الميت للضال مما لم يمكن اجتماعهما فى شىء إذ الميت لا يوصف بالضلال (وفاقية) لما بين الطرفين من الوفاق (وإما ممتنع) والمراد به ما كان وضع التشبيه فيه على ترك الاعتداد بالصفة وإن كانت موجودة لخلوها عما هو ثمرتها والمقصود بها وما إذا خلت منه لم تستحق الشرف (كاستعارة اسم المعدوم للموجود لعدم غنائه) أى لانتفاء نفعه كما فى المعدوم ، وكذلك استعارة اسم الموجود للمعدوم إذا كانت الآثار المطلوبة من مثله موجودة حال عدمه فيكون مشاركاً للموجود فى ذلك أو اسم الميت للحى الجاهل لأنه عدم فائدة الحياة ، والمقصود بها أعنى العلم فيكون مشاركاً للميت فى ذلك ، ولذلك جعل النوم موتاً لأن النائم لايشعر بما بحضرته كما لايشعر الميت ، أو للحى العاجز لأن العجز كالجهل

عِنَادِيَّةٍ ، وَالْقِسْمُ عِنَادِيَّةٌ . وَمِنْهَا التَّهَكُّمِيَّةُ وَالتَّمْلِيحِيَّةُ ، وَهُمَا مَا اسْتُعْمِلَ فِي ضِدِّهِ أَوْ نَقِيضِهِ ، لِمَا مَرَّ نَحْوُ : فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ؛ وَاعْتِبَارُ الْجَامِعِ قِسْمَانِ ، لِأَنَّهُ إِمَّا دَاخِلٌ فِي مَفْهُومِ الطَّرَفَيْنِ ، نَحْوُ : كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً طَارَ

يحط من قدر الحى (والقسم عنادية) امتناع اجتماع طرفيها في الاستعارة (لما مر) في التشبيه من أن التضاد أو التناقض كلاهما ينزل منزلة التناسب بواسطة تمليح أو تهكم (نحو فبشرهم بعذاب أليم) أى أنذرهم استعيرت البشارة التى هى الأخبار بما يظهر سرور المخبر به للإنذار الذى هو ضدها بإدخاله فى جنسها على سبيل التمليح والاستهزاء (نحو كلما) نحوه قول امرأة من بنى الحرث ترثى قتيلا :

لَوْ يَشَا طَارَ بِهِ ذُو مَيْعَةٍ لَاحِقُ الْآطَالِ نَهْدٌ ذُو خُصَلْ[1]

وقول بعض العرب :

وَطِرْتُ بِمُنْصُلِي فِي يَعْمَلَاتٍ دَوَامِي الْأَيْدِ يَخْبِطْنَ السَّرِيحَا

يقول : إنه قام بسيفه مسرعاً إلى نوق فعقرهن ودميت أيديهن ، فخبطن السيور المشدودة على أرجلن . ومن هذا القسم استعارة التقطيع لتفريق الجماعة وإبعاد بعضهم عن بعض فى قوله تعالى : وقطعناهم فى الأرض أمما ، فإن القطع موضوع لإزالة الاتصال بين الأجسام التى بعضها ملتزق ببعض فالجامع بينهما إزالة الاجتماع التى هى داخلة فى مفهوم ما وهى فى القطع أشد واستعارة الخياطة لزرد الدرع فى قول القطامى :

---

(١) الميعة : أول جرى الفرس وأنشطه ، والآطال جمع إطل بكسر فسكون وبكسرتين : وهى الخاصرة ، والمراد ضامر الجنبين ، والنهد بالفتح : الفرس العظيم المشرف ، وخصل الشعر : معروفة .

إِلَيهاَ ، فإِنَّ الْجَامعَ بَيْنَ الْعَدْوِ وَالطَّيَرَانِ هوَ قَطْعُ الْمَسَافَةِ بِسُرْعَةٍ ، وَهُوَ دَاخِلٌ فِيهِماَ ، وَ إِمَّا غَيْرُ دَاخِلٍ كما مَرَّ ؛ وَأَيْضاً إِمَّا عَامِّيَّةٌ ، وَهِيَ الْمُبْتَذَلَةُ

لَمْ تَلْقَ قَوْماً هُمُ شَرٌّ لِإِخْوَتِهِمْ مِنَّا عَشِيَّةَ يَجْرِى بِالدَّمِ الْوَادِى

نَقْرِيهِمُ لَهْذَمِيَّاتٍ نَقُدُّ بِهاَ ماَ كاَنَ خَاطَ عَلَيْهِمْ كُلُّ زَرَّادِ (١)

فإن الخياطة تضم خرق القميص . والزرد يضم حلق الدرع ، فالجامع بينهما الضم الذى هو داخل فى مفهومهما وهو فى الأول أشد . واستعارة النثر لإسقاط المنهزمين وتفريقهم فى قول أبى الطيب :

نَثَرْتَهُمْ فَوْقَ الْأُحَيْدِبِ نَثْرَةً كَماَ نُثِرَتْ فَوْقَ الْعَرُوسِ الدَّرَاهِمُ (٢)

لأن النثر أن تجتمع أشياء فى كف أو وعاء ثم يقع فعل تتفرق معه دفعة من غير ترتيب ونظام ، وقد استعاره لما يتضمن التفرق على الوجه المخصوص وهو ما اتفق من تساقط المنهزمين فى الحرب دفعة من غير ترتيب ونظام ، ونسبه إلى الممدوح لأنه سببه /هذا وأما قوله كلما سمع هيعة طار إليها فهو جزء حديث ولفظه : خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة طار إليها ، أو رجل فى شعفة فى غنيمة له يعبد الله تعالى حتى يأتيه الموت . قال الزمخشرى : الهيعة الصيحة التى يفزع منها ، وأصلها من هاع يهيع إذا جبن . والشعفة رأس الجبل ، والمعنى خير الناس رجل أخذ بعنان فرسه واستعد للجهاد فى سبيل الله ، أو رجل اعتزل الناس وسكن فى رؤس بعض الجبال فى غنم له قليل يرعاها ويكتفى بها فى أمر معاشه ويعبد الله حتى يأتيه الموت (كامر) من استعارة

---

(١) نقريهم : نضيفهم ، واللهذم من السنان : الحاد ، والقد : الشق ، والزراد : صانع الدرع (٢) الأحيدب : اسم جبل ، ونثرتهم : فرقتهم .

بِظُهُورِ الْجَامِعِ فِيهَا ، نَحْوُ : رَأَيْتُ أَسَداً يَرْمِي ، أَوْ خَاصِّيَّةٌ ، وَهِيَ الْغَرِيبَةُ وَالْغَرَابَةُ قَدْ تَكُونَ فِي نَفْسِ الشَّبَهِ ، كَقَوْلِهِ :

وَإِذَا احْتَبَى قَرَبُوسُهُ بِعِنَانِهِ   عَلَكَ الشَّكِيمَ إِلَى انْصِرَافِ الزَّائِرِ

وَقَدْ تَحْصُلُ بِتَصَرُّفٍ فِي الْعَامِّيَّةِ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ :

* وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحُ *

الأسد للرجل الشجاع ، والشمس للوجه المتهلل ونحو ذلك (وهى الغريبة) التى لا يظفر بها إلا من ارتفع عن طبقة العامة (كما فى قوله) أى قول يزيد ابن مسلمة بن عبد الملك يصف فرساً له بأنه مؤدب ، وأنه إذا نزل عنه وألقى عنانه فى قربوس سرجه وقف مكانه إلى أن يعود إليه . القربوس : مقدم السرج ، والشكيم : الحديدة المعترضة فى فم الفرس . شبه هيئة العنان فى موقعه من قربوس السرج بهيئة الثوب فى موقعه من ركبة المحتبي ، فكانت الاستعارة غريبة لغرابة الشبه . قال : وقد تحصل الغرابة بتصرف فى العامية بأن يكون التشبيه مشهوراً ولكنه يذكر على وجه بديع كما فى قول كثير عزة :

ولما قضينا من منى كل حاجة   ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على دهم المطايا رحالنا   ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا   وسالت بأعناق المطى الأباطح

المقصود وسالت ، فإنه أراد أن الإبل سارت سيراً حثيثاً فى غاية السرعة وكانت سرعة فى لين وسلامة ، حتى كأنها كانت سيولا وقعت فى تلك الأباطح فجرت بها ، ومثلها فى الحسن وعلو الطبقة فى هذه اللفظة بعينها قول ابن المعتز :

إِذْ أَسْنَدَ الْفِعْلَ إِلَى الْأَبَاطِحِ دُونَ الْمَطِيِّ وَأَعْنَاقِهَا ، وَأَدْخَلَ الْأَعْنَاقَ فِي السَّيْرِ . وَبِاعْتِبَارِ الثَّلَاثَةِ سِتَّةُ أَقْسَامٍ ، لِأَنَّ الطَّرَفَيْنِ إِنْ كَانَا حِسِّيَّيْنِ فَالْجَامِعُ إِمَّا حِسِّيٌّ نحو : فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ ، فَإِنَّ الْمُسْتَعَارَ مِنْهُ وَلَدُ الْبَقَرَةِ ، وَالْمُسْتَعَارَ لَهُ الْحَيَوَانُ الَّذِي خَلَقَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ حُلِيِّ الْقِبْطِ ، وَالْجَامِعُ الشَّكْلُ ، وَالْجَمِيعُ حِسِّيٌّ ؛ وَإِمَّا عَقْلِيٌّ نحو : وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ، فَإِنَّ الْمُسْتَعَارَ مِنْهُ كَشْطُ الْجِلْدِ عَنْ

سَالَتْ عَلَيْهِ شِعَابُ الْحَيِّ حِينَ دَعَا أَنْصَارَهُ بِوُجُوهٍ كَالدَّنَانِيرِ

أراد أنه مطاع في الحي وأنهم يسرعون إلى نصرته ، وأنه لا يدعوهم لخطب إلا أتوه وكثروا عليه وازدحموا حواليه ، حتى تجدهم كالسيول تجيء من ههنا وههنا ، وتنصب من هذا المسيل وذاك حتى يغص بها الوادي ويطفح منها ، وهذا شبه معروف ظاهر ، ولكن حسن التصرف فيه أفاد اللطف والغرابة ، وذلك إن أسند الفعل إلى الأباطح والشعاب دون المطي أو أعناقها والأنصار أو وجوههم ، حتى أفاد أنه امتلأت الأباطح من الإبل والشعاب من الرجال كما في قوله تعالى : واشتعل الرأس شيباً ، وفي كل واحد منهما شيء غير الذي في الآخر يؤكد أمر الدقة والغرابة ، أما الذي في الأول فهو أنه أدخل الأعناق في السير فإن السرعة والبطء في سير الإبل يظهران غالباً في أعناقها ، وأما الذي في الثاني فهو أنه قال عليه ، فعدى الفعل إلى ضمير الممدوح بعلى ، فأكد مقصوده من كونه مطاعاً في الحي . هذا وقد تحصل الغرابة بالجمع بين عدة استعارات لإلحاق الشكل بالشكل كقول امرىء القيس :

نحوِ الشاةِ ، وَالْمُسْتَعَارَ لَهُ كَشْفُ الضَّوْءِ عَنْ مَكَانِ اللَّيْلِ ، وَهُما حِسِّيَّانِ وَالْجَامِعُ مَا يُعْقَلُ مِنْ تَرَتُّبِ أَمْرٍ عَلَى آخَرَ ؛ وَإِمَّا مُخْتَلِفٌ ، كَقَوْلِكَ : رَأَيْتُ شَمْساً وَأَنْتَ تُرِيدُ إِنْسَاناً كَالشَّمْسِ فِي حُسْنِ الطَّلْعَةِ وَنَبَاهَةِ الشَّأْنِ ، وَإِلاَّ فَهُمَا إِمَّا عَقْلِيَّانِ : نحوُ : مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ، فَإِنَّ الْمُسْتَعَارَ مِنْهُ الرُّقَادُ ، وَالْمُسْتَعَارَ لَهُ الْمَوْتُ ، وَالْجَامِعُ عَدَمُ ظُهُورِ الْفِعْلِ وَالْجَمِيعُ عَقْلِيٌّ ، وَإِمَّا مُخْتَلِفَانِ ، وَالْحِسِّيُّ هُوَ الْمُسْتَعَارُ مِنْهُ نحوُ : فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ، فَإِنَّ الْمُسْتَعَارَ مِنْهُ كَسْرُ

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَازاً وَنَاءَ بِكَلْكَلِ

أراد وصف الليل بالطول ، فاستعار له صلباً يتمطى به إذ كان كل ذى صلب يزيد شىء فى طوله عند تمطيه وبالغ فى ذلك بأن جعل له أعجازاً يردف بعضها بعضاً ، ثم أراد أن يصفه بالثقل على قلب ساهره والضغط لمكابده ، فاستعار له كلكلا ينوء به . وقال الشيخ عبد القاهر : لما جعل الليل صلباً قد تمطى به ثنى ذلك فجعل له أعجازاً قد أردف بها الصلب ، وثلث فجعل له كلكلا قد ناء به ، فاستوفى له جملة أركان الشخص ، وراعى ما يراه الناظر من سواده إذا نظر قدامه وإذا نظر خلفه ، وإذا رفع البصر ومده فى عرض الجو (مكان الليل) باقى ظاله (والجامع ما يعقل من ترتب أمر على آخر) كترتيب ظهور اللحم على كشط الجلد ، وترتب الظلمة على كشف الضوء عن مكان الليل . هذا ، وقد وقع فى عبارة الشيخ عبد القاهر والسكاكى ، أن المستعار له ظهور النهار من ظلمة الليل . وظاهر أن المراد بالظهور فى كلامهما التميز ، أى تميز النهار عن ظلمة الليل (نحو فاصدع بما تؤمر) فكأنه قيل أبن الأمر إبانة لا تنمحى كما لا يلتئم صدع الزجاجة ونظير الآية قوله تعالى : ضربت عليهم

فِى : زَيْدٌ فِى نِعمةٍ ، فَيُقَدَّرُ فِى نَطَقَتْ الْحَالُ ، وَالْحَالُ نَاطِقَةٌ بِكَذَا لِلدَّلَالَةِ بِالنُّطْقِ ، وَفِى لَامِ التَّعْلِيلِ نَحْوُ : فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا

ابتداء الغاية وإلى معناها انتهاء الغاية ، وكى معناها الغرض ، فهذه ليست معانى الحروف ، وإلا لما كانت حروفاً بل أسماء ، لأن الاسمية والحرفية إنما هى باعتبار المعنى وإنما هى متعلقات لمعانيها ، أى إذا أفادت هذه الحروف معانى رجعت تلك المعانى إلى هذه بنوع استلزام . وهذا الذى ذكره السكاكى هو ماجرى عليه علماء هذا الفن (فيقدر) أى حيث كان التشبيه لمعنى المصدر ولمتعلقات معنى الحروف فيقدر فى قولنا : نطقت الحال بكذا والحال ناطقة بكذا ، لدلالة الحال بنطق الناطق فى اتضاح المعنى للذهن ، ثم تدخل الدلالة فى جنس النطق فيستعار لها لفظ النطق ، ثم يشتق منه الفعل والصفة فتكون الاستعارة فى المصدر أصلية وفى الفعل والصفة تبعية ويقدر فى لام التعليل(١) نحو : فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً للعداوة والحزن الحاصلين بعد الالتقاط بالعلة الغائية للالتقاط ، كالمحبة والتبنى فى الترتب على الالتقاط والحصول بعده ، ثم استعمل فى العداوة والحزن ماكان حقه أن يستعمل فى العلة الغائية . وهذا الذى ذكره المصنف مأخوذ من كلام صاحب الكشاف حيث قال معنى التعليل فى اللام وارد على طريق المجاز لأنه لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدواً وحزناً ولكن المحبة والتبنى ، غير أن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم وثمرته شبه بالداعى الذى يفعل الفاعل الفعل لأجله ، ثم قال : وهذه اللام حكمها حكم الأسد حيث استعيرت لما يشبه التعليل كما يستعار

---

(١) ويقدر فى قوله تعالى : ولأصلبنكم فى جذوع النخل ، للجذوع الأوعية ثم المصلوب بالموعى ، فاستعيرت فى تبعاً لذلك وقس على هذا مثله .

الزُّجَاجَةِ وَهُوَ حِسِّيٌّ ، وَالْمُسْتَعَارُ لَهُ التَّبْلِيغُ ، وَالْجَامِعُ التَّأْثِيرُ ، وَهُمَا عَقْلِيَّانِ وَإِمَّا عَكْسُ ذَلِكَ نَحْوُ : إِنَّا لَمَّا طَغَى المَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ، فَإِنَّ الْمُسْتَعَارَ لَهُ كَثْرَةُ المَاءِ وَهُوَ حِسِّيٌّ ، وَالْمُسْتَعَارُ مِنْهُ التَّكَبُّرُ ، وَالْجَامِعُ الاسْتِعْلاءُ الْمُفْرِطُ ، وَهُمَا عَقْلِيَّانِ . وَبِاعْتِبَارِ اللَّفْظِ قِسْمَانِ ، لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ اسْمَ جِنْسٍ فَأَصْلِيَّةٌ ، كَأَسَدٍ وَقَتْلٍ ، وَإِلاَّ فَتَبَعِيَّةٌ ، كَالْفِعْلِ وَمَا يَشْتَقُّ مِنْهُ وَالْحَرْفُ فَالتَّشْبِيهُ فِي الأَوَّلَيْنِ لِمَعْنَى الْمَصْدَرِ ، وَفِي الثَّالِثِ لِمُتَعَلَّقِ مَعْنَاهُ كَالْمَجْرُورِ

الذلة ، أى جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم ، فهم فيها كما يكون فى القبة من ضربت عليه أو جعلت ملصقة بهم حتى لزمتهم ضربة لازب ، كما يضرب الطين على الحائط فيلزمه ، فالمستعار منه ، إما ضرب القبة على الشخص ، وإما ضرب الطين على الحائط وكلاهما حسى والمستعار له حالهم مع الذلة والجامع الإحاطة أو اللزوم وهما عقليان (اسم جنس) هو مادل على ذات صالحة لأن تصدق على كثيرين ولو تأويلا من غير اعتبار وصف من الأوصاف ، فدخل نحو أسد ونحو قتل الأول اسم عين والثانى اسم معنى ونحو حاتم من قولك : رأيت اليوم حاتماً وخرج بقولنا الصالحة لأن تصدق على كثيرين الأعلام التى لم تتضمن وصفية والمضمرات وأسماء الإشارة ، وقولنا من غير اعتبار وصف من الأوصاف خرج به المشتقات كضارب ، فإنه اسم وضع لذات متصفة بالضرب (وما يشتق منه) : كاسم الفاعل ، واسم المفعول ، والصفة ، المشبهة وأفعل التفضيل ، وأسماء الزمان والمكان ، والآلة (الأولين) أى الفعل وما يشتق منه (الثالث) أى الحرف (كالمجرور فى زيد فى نعمة) أما السكاكى فإنه قال وأعنى بمتعلقات معانى الحروف ما يعبر به عنها عند تفسيرها مثل قولنا من معناها

وَحَزَنًا ، لِلْعَدَاوَةِ وَالْحُزْنِ بَعْدَ الِالْتِقَاطِ بِعِلَّتِهِ الْغَائِيَّةِ : وَمَدَارُ قَرِينَتِهَا فِي الْأَوَّلَيْنِ عَلَى الْفَاعِلِ ، نَحْوُ : نَطَقَتِ الْحَالُ ، أَوِ الْمَفْعُولِ نَحْوُ :

* قَتَلَ الْبُخْلَ وَأَحْيَا السَّمَاحَا *

ونحوُ : * نَقْرِيهِمُ لَهْذَمِيَّاتٍ نَقُدُّ بِهَا *

أَوِ الْمَجْرُورِ نَحْوُ : فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ، وَبِاعْتِبَارٍ آخَرَ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ

الأسد لمن يشبه الأسد . « وبعد » فللقوم فى هذا المقام كلام طويل عريض ليس من سنتنا فى هذا الشرح التعرض لمثله فراجعه هناك إن شئت « قال المصنف : ومدار قرينة الاستعارة التبعية فى الأفعال والصفات المشتقة منها على نسبتها إلى الفاعل ، كقولك نطقت الحال بكذا : الحال ليس ممن ينطق حقيقة ، فدل ذلك على أن المراد بالنطق الدلالة أو إلى المفعول كقول ابن المعتز :

جُمِعَ الْحَقُّ لَنَا فِى إِمَامٍ قَتَلَ الْبُخْلَ وَأَحْيَا السَّمَاحَا

فالذى دل على أن قتل وأحيى مستعاران إنما هو إسنادهما إلى البخل والسماح ولو قال قتل الأعداء وأحيى الأحياء لم يكن قتل استعارة بوجه وكذلك أحيى أو المفعول الثانى كقول القطامى :

لم تلق قوماً هم شر لإخوتهم منا عشية يجرى بالدم الوادى
نقريهم لهذميات نقد بها ما كان خاط عليهم كل زراد

اللهذم من الأسنة : القاطع ، وأراد باللهذميات طعنات منسوبة إلى الأسنة القاطعة ، أو أراد نفس الأسنة ، والنسبة للمبالغة كأحمرى ، والقد : القطع ، وزرد الدرع وسردها: نسجها . فإسناد القرى إلى اللهذميات قرينة على أن نقريهم استعارة .

مُطْلَقَةٌ وَهِيَ مَا لَمْ تَقْتَرِنْ بِصِفَةٍ وَلاَ تَفْرِيعٍ ، وَالْمُرَادُ الْمَعْنَوِيَّةُ لاَ النَّعْتُ وَمُجَرَّدَةٌ ، وَهِيَ مَا قُرِنَ بِمَا يُلاَئِمُ الْمُسْتَعَارَ لَهُ ، كَقَوْلِهِ :

* غَمْرُ الرِّدَاءِ إِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكاً *

أو إلى المجرور نحو : فبشرهم بعذاب أليم ، فذكر العذاب قرينة على أن بشر استعارة (بصفة ولا تفريع) أى صفة تلائم أحد الطرفين أو تفريع كلام ، كذلك اعلم أن الملائم إذا كان من تتمة الكلام الذى فيه الاستعارة فهو صفة وإن كان كلاماً مستقلا جىء به بعد ذلك الكلام فهو تفريع ، سواء كان بحرف التفريع أو لا (كقوله غمر الرداء) فقد استعار الرداء للمعروف لأنه يصون عرض صاحبه كما يصون الرداء ما يلقى عليه ووصفه بالغمر الذى هو وصف المعروف لا الرداء فنظر إلى المستعار له ، والبيت لكثير عزة وتمامه * غلقت لضحكته رقاب المال * أى إذا تبسم غلقت رقاب أمواله فى أيدى السائلين ، يقال غلق الرهن فى يد المرتهن : إذا لم يقدر على انفكاكه ، ونظير البيت قوله تعالى : فأذاقها الله لباس الجوع والخوف ، حيث قال أذاقها ولم يقل كساها ، فإن المراد بالإذاقة إصابتهم بما استعير له اللباس ، كأنه قال فأصابها الله بلباس الجوع والخوف : قال الزمخشرى : الإذاقة جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها فى البلايا والشدائد وما يمس الناس منها ، فيقولون ذاق فلان البؤس والضر وأذاقه العذاب شبه مايدرك من أثر الضر والألم بما يدرك من طعم المر والبشع ، فإن قيل الترشيح أبلغ من التجريد فهلا قيل فكساها الله لباس الجوع والخوف ، قلنا لأن الإدراك بالذوق يستلزم الإدراك باللمس من غير عكس فكان فى الإذاقة إشعار بشدة الإصابة بخلاف الكسوة ، فإن قيل لم لم يقل فأذاقها الله طعم الجوع والخوف ، قلنا لأن الطعم وإن لاءم الإذاقة فهو مفوت

وَمُرَشَّحَةٌ ، وَهِيَ مَا قُرِنَ بِمَا يُلَائِمُ الْمُسْتَعَارَ مِنْهُ ، نَحْوُ : أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ ، وَقَدْ يَجْتَمِعَانِ ، كَقَوْلِهِ :

لَدَى أَسَدٍ شَاكِي السِّلَاحِ مُقَذَّفٍ * لَهُ لِبَدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلَّمِ

وَالتَّرْشِيحُ أَبْلَغُ ، لِاشْتِمَالِهِ عَلَى تَحْقِيقِ الْمُبَالَغَةِ ، وَمَبْنَاهُ عَلَى تَنَاسِي

لما يفيده لفظ اللباس من بيان أن الجوع والخوف عم أثرهما جميع البدن عموم الملابس (نحو أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) فإنه استعار الاشتراء للاختيار وقفاه بالربح والتجارة اللذين هما من متعلقات الاشتراء فنظر إلى المستعار منه ومن هذا الباب قول الشاعر :

يُنَازِعُنِي رِدَائِي عَبْدُ عَمْرٍو ... رُوَيْدَكَ يَا أَخَا عَمْرِو بْنِ بَكْرِ

لِيَ الشَّطْرُ الَّذِي مَلَكَتْ يَمِينِي ... وَدُونَكَ فَاعْتَجِرْ مِنْهُ بِشَطْرِ

فإنه استعار الرداء للسيف لنحو ما سبق ووصفه بالاعتجار الذي هو وصف الرداء فنظر إلى المستعار له (كقوله لدى أسد) فقوله شاكى السلاح مقذف تجريد لأنه وصف يلائم المستعار له ، وقوله له لبد أظفاره لم تقلم ترشيح لأنه وصف يلائم المستعار منه . والبيت لزهير بن أبي سلمى ، وشاكى السلاح : تامه ، ومقذف : مرمى به فى الوقائع والحروب . واللبد جمع لبدة : ما تلبد من شعر الأسد على منكبيه (والترشيح أبلغ) الترشيح الذي هو ذكر ملائم المستعار منه أبلغ من الإطلاق والتجريد لاشتماله على تحقيق المبالغة فى التشبيه ولهذا كان مبناه على تناسى التشبيه وصرف النفس عن توهمه حتى إنه يوضع الكلام فى علو القدر وسمو المنزلة وضعه فى علو المكان ، كما قال أبو تمام يمدح يزيد الشيباني :

التَّشْبِيهِ ، حَتَّى إِنَّهُ يُبْنَى عَلَى عُلُوِّ الْقَدْرِ مَا يُبْنَى عَلَى عُلُوِّ الْمَكَانِ ، كَقَوْلِهِ :

ويصعد حتى يظن الجهـــو ل بأن له حاجة فى الســـماء

فلولا أن قصده أن ينسى التشبيه ويدفعه بجهده ، ويصمم على إنكاره وجحده ، فيجعله صاعداً فى السماء من حيث المسافة المكانية ، لما كان لهذا الكلام وجه ومن أبلغ ما يكون فى هذا المعنى قول ابن الرومى :

أَعْلَمُ النَّاسِ بِالنُّجُومِ بَنُو نُو بَخْتَ عِلْماً لَمْ يَأْتِهِمْ بِالْحِسَابِ
بَلْ بِأَنْ شَاهَدُوا السَّمَاءَ سُمُوًّا بِتَرَقٍّ فِى الْمَكْرُمَاتِ الصِّعَابِ
مَبْلَغاً لَمْ يَكُنْ لِيَبْلُغَهُ الطَّا لِبُ إِلَّا بِتِلْكُمُ الْأَسْبَابِ

وأعاده فى موضع آخر فزاد الدعوى قوة ، ومر فيها مرور من يقول صدقاً ويذكر حقاً :

يَا آلَ نُوبَخْتَ لَا عَدِمْتُكُمُ وَلَا تَبَدَّلْتُ بَعْدَكُمْ بَدَلَا
إِنْ صَحَّ عِلْمُ النُّجُومِ كَانَ لَكُمْ حَقًّا إِذَا مَا سِوَاكُمُ انْتَحَلَا
كَمْ عَالِمٍ فِيكُمُ وَلَيْسَ بِأَنْ قَاسَ وَلَكِنْ بِأَنْ رَقِى فَعَلَا
أَعْلَاكُمُ فِى السَّمَاءِ مَجْدُكُمُ فَلَسْتُمُ تَجْهَلُونَ مَا جُهِلَا
شَافَهْتُمُ الْبَدْرَ بِالسُّؤَالِ عَنِ الْأَمْ رِ إِلَى أَنْ بَلَغْتُمُ زُحَلَا

ومنه قول بشار :

أَتَتْنِي الشَّمْسُ زَائِرَةً وَلَمْ تَكُ تَبْرَحُ الْفَلَكَا

وَيَصْعَدُ حَتَّى يَظُنَّ الجهو ... لُ بِأَنَّ لهُ حَاجَةً فِي السَّمَاء

وقول المتنبي :

كَبَّرَتْ نَحْوَ دِيَارِهِمْ لَمَّا بَدَتْ ... مِنْهَا الشُّمُوسُ وَلَيْسَ فِيهَا المَشْرِقُ

وقوله :

وَلَمْ أَرَ قَبْلِي مَنْ مَشَى البَدْرُ نَحْوَهُ ... وَلاَ رَجُلاً قَامَتْ تُعَانِقُهُ الأُسْدُ

ومنه مامر من التعجب فى قوله :

قَامَتْ تُظَلِّلُنِي وَمِنْ عَجَبٍ ... شَمْسٌ تُظَلِّلُنِي مِنَ الشَّمْسِ

والنهى عن التعجب فى قوله :

لاَ تَعْجَبُوا مِنْ بِلَى غِلاَلَتِهِ ... قَدْ زَرَّ أَزْرَارَهُ عَلَى القَمَرِ

أو ماترى هؤلاء فيما فعلوا كيف نبذوا أمر التشبيه وراء ظهورهم ، وكيف نسوا حديث الاستعارة ، كأن لم يجر منهم على بال ، ولم يروه ولا طيف خيال . وإذا كانوا مع التشبيه والاعتراف بالأصل يسوغون أن لايبنوا إلا على الفرع ويقولون :

هِيَ الشَّمْسُ مَسْكَنُهَا فِي السَّمَاءِ ... فَعَزِّ الفُؤَادَ عَزَاءً جَمِيلاَ

فَلَنْ تَسْتَطِيعَ إِلَيْهَا الصُّعُودَ ... وَلَنْ تَسْتَطِيعَ إِلَيْكَ النُّزُولاَ(١)

أو يقولوا :

وَعَدَ البَدْرُ بِالزِّيَارَةِ لَيْلاً ... فَإِذَا مَا وَفَى قَضَيْتُ نُذُورِي

قُلْتُ يَا سَيِّدِي وَلِمْ تُؤْثِرُ اللَّيْـ ... ـلَ عَلَى طَلْعَةِ الصَّبَاحِ المُنِيرِ

---

(١) البيتان للعباس بن الأحنف .

وَنَحْوُهُ مَا مَرَّ مِنَ التَّعَجُّبِ وَالنَّهْيِ عَنْهُ ، وَإِذَا جَازَ الْبِنَاءُ عَلَى الْفَرْعِ مَعَ الِاعْتِرَافِ بِالْأَصْلِ كَمَا فِي قَوْلِهِ :

هِيَ الشَّمْسُ مَسْكَنُهَا فِي السَّمَاءِ   فَعَزِّ الْفُؤَادَ عَزَاءً جَمِيلَا
فَلَنْ تَسْتَطِيعَ إِلَيْهَا الصُّعُودَ   وَلَنْ تَسْتَطِيعَ إِلَيْكَ النُّزُولَا

قَالَ لَا أُحِبُّ تَغْيِيرَ رَسْمِي   هَكَذَا الرَّسْمُ فِي طُلُوعِ الْبُدُورِ (1)

أو يقولوا :

قُلْتُ زُورِي فَأَرْسَلَتْ   أَنَا آتِيكَ سُحْرَهْ
قُلْتُ فَاللَّيْلُ كَانَ أَخْـ   ـفَى وَأَدْنَى مَسَرَّهْ
فَأَجَابَتْ بِحُجَّـةٍ   زَادَتِ الْقَلْبَ حَسْرَهْ
أَنَا شَمْسٌ وَإِنَّمَا   تَطْلُعُ الشَّمْسُ بُكْرَهْ

فهم إن تسويغ ذلك مع جحد الأصل فى الاستعارة أقرب ، ومماله طبقة عالية فى هذا القبيل وشكل يدل على شدة الشكيمة وعلو المأخذ قول الفرزدق :

أَبِي أَحْمَدُ الْغَيْثَيْنِ صَعْصَعَةُ الَّذِي   مَتَى تُخْلِفِ الْجَوْزَاءُ وَالدَّلْوُ يُمْطِرِ
أَجَارَ بَنَاتِ الْوَائِدِينَ وَمَنْ يُجِرْ   عَلَى الْمَوْتِ تَعْلَمْ أَنَّهُ غَيْرُ مُخْفِرِ

ادعى لأبيه اسم الغيث ادعاء من سلم له ذلك ، ومن لايخطر بباله أنه متناول له من طريق التشبيه وكذلك قول عدى بن الرقاع يصف حمارين وحشيين .

---

(1) الأبيات لسعيد بن حميد وكذلك التى بعدها .

فَمَعَ جَحْدِهِ أَوْلَى . وَأَمَّا الْمُرَكَّبُ فَهُوَ اللَّفْظُ الْمُسْتَعْمَلُ فِيمَا شُبِّهَ بِمَعْنَاهُ الْأَصْلِيِّ تَشْبِيهَ التَّمْثِيلِ لِلْمُبَالَغَةِ ، كَمَا يُقَالُ لِلْمُتَرَدِّدِ فِي أَمْرٍ : إِنِّي

يَتَعَاوَرَانِ مِنَ الْغُبَارِ مُلَاءَةً بَيْضَاءَ مُحْكَمَةً هُمَا نَسَجَاهَا
تُطْوَى إِذَا وَرَدَا مَكَانًا مُحْزِنًا وَإِذَا السَّنَابِكُ أَسْهَلَتْ نَشَرَاهَا

﴿وأما المركب﴾ كل ما مر عليك من ضروب المجاز وأمثلته إنما هو في المجاز المفرد ، وهذا هو القول في المجاز المركب المعروف بالتمثيل . المجاز المركب هو اللفظ المركب المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي تشبيه التمثيل للمبالغة ، أي تشبيه إحدى صورتين منتزعتين من أمرين أو أمور بالأخرى ثم تدخل المشبهة في جنس المشبه بها مبالغة في التشبيه ، فتذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه ، كما كتب الوليد بن يزيد لما بويع إلى مروان بن محمد وقد بلغه أنه متوقف في البيعة له : أما بعد فإني أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى . فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت والسلام . شبه صورة تردده في المبالغة بصورة تردد من قام ليذهب في أمر ، فتارة يريد الذهاب فيقدم رجلا ، وتارة لا يريد فيؤخر أخرى . وكما يقال لمن يعمل في غير معمل : أراك تنفخ في غير فحم وتخط على الماء ، والمعنى أنك في فعلك كمن يفعل ذلك . وكما يقال لمن يعمل الحيلة حتى يميل صاحبه إلى ما كان يمتنع منه : ما زال يفتل منه في الذروة والغارب ، حتى بلغ منه ما أراد ، والمعنى أنه لم يزل يرفق بصاحبه رفقاً يشبه حاله فيه حال من يجيء إلى البعير الصعب فيحكه ، ويفتل الشعر في ذروته وغاربه ، حتى يسكن ويستأنس ، وهذا في المعنى نظير قولهم فلان يقرد فلاناً ، أي يتلطف به فعل من ينزع القراد من البعير ليلتذ بذلك فيسكن ويثبت في مكانه حتى يتمكن

أَرَاكَ تُقَدِّمُ رِجْلاً وَتُؤَخِّرُ أُخْرَى ، وَهٰـذَا يُسَمَّى التَّمْثِيلَ عَلَى سَبِيلِ

من أخذه وكذا قوله تعالى : والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والمعنى والله أعلم أن مثل الأرض فى تصرفها تحت أمر الله وقدرته ، وأنه لا يشذ شىء مما فيها عن سلطانه عز وجل ، مثل الشىء يكون فى قبضة الآخذ له منا الجامع يده عليه . وكذا قوله تعالى : والسموات مطويات بيمينه ، أى يخلق فيها صفة الطى حتى ترى كالكتاب المطوى بيمين الواحد منا ، وخص اليمين ليكون أعلى وأفخم للمثل لأنها أشرف اليدين وأقواهما والتى لاغناء للأخرى دونها ، فلا يهش إنسان لشىء إلا بدأ بيمينه فهيأها لنيله ، ومتى قصد جعل الشىء فى جهة العناية جعل فى اليد اليمنى ، ومتى قصد خلاف ذلك جعل فى اليسرى كما قال البحترى :

وَإِنَّ يَدِى وَقَدْ أَسْنَدْتُ أَمْرِى ... إِلَيْهِ الْيَوْمَ فِى يَدِكَ الْيَمِينِ (١)

وقال ابن ميادة :

أَلَمْ أَكُ فِى يُمْنَى يَدَيْكَ جَعَلْتِنِى ... فَلَا تَجْعَلِينِى بَعْدَهَا فِى شِمَالِكِ

أى كنت مكرماً عندك فلا تجعليني مهاناً ، وكنت فى المكان الشريف منك فلا تحطيني فى المنزل الوضيع ، وكذا قوله تعالى : ولما سكت عن موسى الغضب . قال الزمخشرى : كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له قل لقومك كذا وألق الألواح وجر برأس أخيك إليك فترك النطق بذلك وقطع الإغراء ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يستفصحها كل ذى طبع سليم وذوق صحيح إلا لذلك ولأنه من قبيل شعب البلاغة ، وإلا فما لقراءة معاوية بن قرة : ولما سكن عن موسى الغضب . لا تجد النفس عندها شيئاً من تلك الهزة ، وطرفاً من تلك الروعة .

---

(١) إليه : أى إلى يونس بن بغا وكان حظياً عند الممدوح وهو المعتز بالله .

الاِسْتِعَارَةِ ، وَقَدْ يُسَمَّى التَّمْثِيلَ مُطْلَقاً ، وَمَتَى فَشَا اسْتِعْمَالُهُ كَذَلِكَ سُمِّيَ مَثَلاً ، وَلِهَذَا لاَ تُغَيَّرُ الْأَمْثَالُ .

﴿ فَصْلٌ ﴾

قَدْ يُضْمَرُ التَّشْبِيهُ فِي النَّفْسِ ، فَلاَ يُصَرَّحُ بِشَيْءٍ مِنْ أَرْكَانِهِ

وكل هذا يسمى التمثيل على سبيل الاستعارة ، وقد يسمى التمثيل مطلقاً من التقييد بقولنا على سبيل الاستعارة ، ويمتاز عن التشبيه التمثيلي بأن يقال له تشبيه تمثيل أو تشبيه تمثيلي ، والتمثيل متى فشا استعماله كذلك أى على سبيل الاستعارة سمى مثلا ، ولكون الأمثال واردة على سبيل الاستعارة لاتغير ومن هنا لايلتفت فى الأمثال إلى مضاربها تذكيراً وتأنيثاً وإفراداً وتثنية وجمعاً ، بل إنما ينظر إلى مواردها مثلا إذا طلب رجل شيئاً ضيعه قبل ذلك قيل : الصيف ضيعت اللبن ، بكسر التاء لأنه فى الأصل لامرأة ، وأما مايقع فى كلامهم من نحو ضيعت اللبن فى الصيف بتاء المتكلم ، فليس بمثل بل مأخوذ منه وإشارة إليه ، ولكون المثل مما فيه غرابة استعير لفظه للحال أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة ، وهذا فى القرآن كثير ، قال تعالى : مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً ، أى مالهم العجيبة الشأن كحال الذى استوقد ناراً ، وقال جل شأنه : ولله المثل الأعلى ، أى الوصف الذى له شأن من العظمة والجلالة ، وقال : مثلهم فى التوراة ، أى صفتهم وشأنهم المتعجب منه ، وقال : مثل الجنة التى وعد المتقون ، أى فيما قصصنا عليك من العجائب قصة الجنة العجيبة ، ثم أخذ فى بيان عجائبها إلى غير ذلك مما لا يكاد يحصى ﴿فصل﴾ قد تضافرت آراء الناس على أنه إذا شبه أمر بآخر من غير تصريح بشيء من أركان التشبيه سوى المشبه ودل عليه بذكر ما يخص المشبه به كان هناك استعارة بالكناية وتخييلية ، لكن اضطربت أقوالهم فى تعيين المعنيين

الذين يطلق عليهما هذا اللفظان ، ومحصل ذلك يرجع إلى ثلاثة أقوال : أحدها مايفهم من كلام القدماء ، والثاني : ماذهب إليه السكاكي ، والثالث : ما أورده المصنف ههنا . ذهب السلف إلى أن الاستعارة بالكناية لفظ المشبه به المستعار للمشبه المرموز إليه بشيء من لوازمه الدالة عليه ، فالمقصود بقولنا أظفار المنية استعارة السبع للمنية كاستعارة الأسد للرجل الشجاع في قولنا : رأيت أسداً ، لكننا لم نصرح بذكر المستعار أعني السبع ، بل اجتزأنا عنه بذكر لازمه لينتقل منه إلى المقصود كما هو شأن الكناية ، فالمستعار هو لفظ السبع الغير المصرح به والمستعار منه هو الحيوان المفترس والمستعار له هو المنية وبهذا يشعر كلام صاحب الكشاف في قوله تعالى : ينقضون عهد الله ، حيث قال شاع استعمال النقض في إبطال العهد من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة لما فيه من إثبات الوصلة بين المتعاهدين ، وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشيء المستعار ، ثم يرمزوا إليه بذكر شيء من روادفه فينبهوا بتلك الرمزة على مكانه ، ونحوه قولك : شجاع يفترس أقرانه . وعالم يغترف منه الناس ، وإذا تزوجت امرأة فاستوثرها لم تقل هذا إلا وقد نبهت على الشجاع والعالم بأنهما أسد وبحر ، وعلى المرأة بأنها فراش . وسيجيء في الفصل التالي مذهب السكاكي ، وستسمع في هذا الفصل مذهب المصنف ، أما الشيخ الإمام رحمه الله فلم يشعر كلامه بذكر الاستعارة بالكناية ، وإنما دل على أن في قولنا أظفار المنية استعارة بمعنى أنه أثبت للمنية ماليس لها بناء على تشبيهها بما له الأظفار وهو السبع ، وهذا قريب مماذكره المصنف في التخييلية ، قال في أسرار البلاغة : الاستعارة على قسمين : أحدهما أن ينقل الاسم عن مسماه الأصلي إلى شيء آخر ثابت معلوم يمكن أن ينص عليه ، وذلك قولك رأيت أسداً وأنت تعني رجلا شجاعاً ، وعنت لنا ظبية وأنت تعني امرأة ، والثاني أن

سِوَى الْمُشَبَّهِ ، وَيُدَلُّ عَلَيْهِ بِأَنْ يُثْبَتَ لِلْمُشَبَّهِ أَمْرٌ مُخْتَصٌّ بِالْمُشَبَّهِ بِهِ ، فَيُسَمَّى التَّشْبِيهُ اسْتِعَارَةً بِالْكِنَايَةِ ، أَوْ مَكْنِيًّا عَنْهَا ، وَإِثْبَاتُ

يؤخذ الاسم عن حقيقته ويوضع موضعاً لا يبين فيه شيء يشار إليه ، فيقال هذا هو المراد بالاسم والذى استعير له ، ومثاله قول لبيد :

وَغَدَاةِ رِيحٍ قَدْ كَشَفْتُ وَقِرَّةٍ إِذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ الشَّمَالِ زِمَامُهَا

وذلك أنه جعل للشمال يداً ، ومعلوم أنه ليس هناك مشار إليه يمكن أن تجرى اليد عليه كإجراء الأسد على الرجل فى قولك : انبرى لى أسد يزأر ، ولهذا لا يصح أن يقال إذ أصبحت بشىء مثل اليد للشمال ، كما يقال رأيت رجلا مثل الأسد ، وإنما يتأتى لك التشبيه فى هذا بعد أن تغير الطريقة وتخرج عن الحذو الأول ، فتقول : إذ أصبحت الشمال ولها فى قوة تأثيرها فى الغداة شبه المالك تصريف الشىء بيده ، فأنت كما ترى تجد الشبه المنتزع ههنا لا يلقاك من المستعار نفسه بل مما يضاف إليه ، لأنك أردت أن تجعل الشمال كذى اليد من الأحياء ، فتجعل المستعار له أعنى الشمال مثلا ذا شىء ، وغرضك أن تثبت له حكم من يكون له ذلك الشىء ، وقال أيضاً : لا خلاف فى أن لفظ اليد استعارة مع أنه لم ينقل عن شىء إلى شىء ، إذ ليس المعنى على أنه شبه شيئاً باليد ، وإنما المعنى على أنه أراد أن يثبت للشمال يداً (عليه) أى على ذلك التشبيه المضمر فى النفس (بأن يثبت للمشبه أمر مختص بالمشبه به) من غير أن يكون هناك أمر ثابت حساً أو عقلا أجرى عليه اسم

---

(١) الغدوة والقر : البرد . يقول كم غداة تهب فيها الشمال وهى برد الرياح ، وبرد قد ملكت الشمال زمامه قد كشفت عادية البرد عن الناس بنحر الجزر لهم : تحرير المعنى : وكم من برد كشفت غرب عاديته بإطعام الناس .

ذَلِكَ الْأَمْرِ لِلْمُشَبَّهِ اسْتِعَارَةً تَخْيِيلِيَّةً ، كَمَا فِي قَوْلِ الْهُذَلِيِّ :

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا ... أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

شَبَّهَ الْمَنِيَّةَ بِالسَّبُعِ فِي اغْتِيَالِ النُّفُوسِ بِالْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ مِنْ غَيْرِ تَفْرِقَةٍ بَيْنَ نَفَّاعٍ وَضَرَّارٍ ، فَأَثْبَتَ لَهَا الْأَظْفَارَ الَّتِي لَا يَكْمُلُ ذَلِكَ فِيهِ بِدُونِهَا ؛ وَكَمَا فِي قَوْلِ الْآخَرِ :

وَلَئِنْ نَطَقْتُ بِشُكْرِ بِرِّكَ مُفْصِحاً ... فَلِسَانُ حَالِي بِالشِّكَايَةِ أَنْطَقُ

شَبَّهَ الْحَالَ بِإِنْسَانٍ مُتَكَلِّمٍ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَقْصُودِ ، فَأَثْبَتَ لَهَا اللِّسَانَ الَّذِي بِهِ قِوَامُهَا فِيهِ ، وَكَذَا قَوْلُ زُهَيْرٍ :

صَحَا الْقَلْبُ عَنْ سَلْمَى وَأَقْصَرَ بَاطِلُهْ ... وَعُرِّيَ أَفْرَاسُ الصِّبَا وَرَوَاحِلُهْ

ذلك الأمر (كما فى قول الهذلى) يعنى أبا ذؤيب من قصيدة قالها ، وقد هلك له خمس بنين فى عام واحد وكانوا فيمن هاجر إلى مصر . والتميمة هى الخرزة التى تعلق على الصبى لتكون له حجاباً زعموا من العين والجنون . يقول الهذلى : إذا مكن الموت أظفاره من شىء ليذهب به بطلت الوقايات والحيل وأسبابه النجاة . « هذا » وقد مثل المصنف بثلاثة أمثلة ، الأول : ما تكون التخييلية إثبات ما به كمال المشبه به ، والثانى : ما تكون إثبات ما به قوام المشبه به ، والثالث : ما تحتمل الاستعارة فيه أن تكون تخييلية ، وأن تكون تحقيقية فاعرف ذلك (ولئن نطقت) قبله :

لَا تَحْسَبَنَّ بَشَاشَتِي لَكَ عَنْ رِضًى ... فَوَحَقِّ جُودِكَ إِنَّنِي أَتَمَلَّقُ

(صحا) أى سلا مجازا من الصحو خلاف السكر (وأقصر باطله) يقال أقصر عن الشىء : إذا أقلع عنه ، أى تركه وامتنع عنه . « وبعد » فقد ظهر لك

أَرَادَ أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّهُ تَرَكَ مَا كَانَ يَرْتَكِبُهُ زَمَنَ الْمَحَبَّةِ ، مِنَ الْجَهْلِ وَالْغَيِّ ، وَأَعْرَضَ عَنْ مُعَاوَدَتِهِ ، فَبَطَلَتْ آلاَتُهُ ، فَشَبَّهَ الصِّبَا بِجِهَةٍ مِنْ جِهَاتِ الْمَسِيرِ ، كَالْحَجِّ وَالتِّجَارَةِ ، قَضَى مِنْهَا الْوَطَرَ فَأُهْمِلَتْ آلاَتُهَا ، فَأَثْبَتَ لَهُ الْأَفْرَاسَ وَالرَّوَاحِلَ ، فَالصِّبَا مِنَ الصَّبْوَةِ بِمَعْنَى الْمَيْلِ إِلَى الْجَهْلِ وَالْفُتُوَّةِ . وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ أَرَادَ دَوَاعِيَ النُّفُوسِ وَشَهَوَاتِهَا وَالْقُوَى الْحَاصِلَةَ لَهَا فِي اسْتِيفَاءِ اللَّذَّاتِ ، أَوِ الْأَسْبَابَ الَّتِي قَلَّمَا تَتَآخَذُ فِي اتِّبَاعِ الْغَيِّ إِلاَّ أَوَانَ الصِّبَا ، فَتَكُونُ الِاسْتِعَارَةُ تَحْقِيقِيَّةً .

﴿ فَصْلٌ ﴾

عَرَّفَ السَّكَّاكِيُّ الْحَقِيقَةَ اللُّغَوِيَّةَ بِالْكَلِمَةِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِيمَا وُضِعَتْ

من كلام المصنف هذا أن الاستعارة بالكناية هي التشبيه المضمر في النفس . قال الشيخ التفتازاني : وعلى هذا لا وجه لتسميتها استعارة ، بل هي مجرد تسمية خالية عن المناسبة ، قال وهذا التفسير شيء لا مستند له في كلام السلف ، ولا هو يبتنى على مناسبة لغوية وكأنه استنباط منه ، والمعنى الصحيح هو ما ذهب إليه السلف (أراد) أي بالأفراس والرواحل ﴿ فصل ﴾ تعرض فيه المصنف لما ذهب إليه السكاكي ، في الحقيقة والمجاز والاستعارة بالكناية والاستعارة التخييلية ، وبحث معه في ذلك . وبعد ، فلا يذهب على القارىء أن من سنتنا في هذا الشرح الإبعاد به عن كل مالا طائل وراءه ولا غناء فيه ، وليس بطالب البلاغة إليه حاجة ، ومن هنا لا نريد أن نزيد في هذا الفصل على شرح كلام المصنف شيئاً حتى لا نزيد الطين بلة والطنبور نغمة ، ومن تاقت نفسه

لَهُ مِنْ غَيْرِ تَأْوِيلٍ فِى الْوَضْعِ ، وَاحْتَرَزَ بِالْقَيْدِ الْأَخِيرِ عَنِ الِاسْتِعَارَةِ عَلَى أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ ، فَإِنَّهَا مُسْتَعْمَلَةٌ فِيمَا وُضِعَتْ لَهُ بِتَأْوِيلٍ ، وَعَرَّفَ الْمَجَازَ اللُّغَوِىَّ بِالْكَلِمَةِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِى غَيْرِ مَا وُضِعَتْ لَهُ بِالتَّحْقِيقِ فِى اصْطِلَاحٍ بِهِ التَّخَاطُبُ مَعَ قَرِينَةٍ مَانِعَةٍ عَنْ إِرَادَتِهِ ، وَأَتَى بِقَيْدِ التَّحْقِيقِ

إلى الوقوف على شىء وراء هذا فلينظر فى كتب القوم (الأخير) وهو قوله من غير تأويل فى الوضع (على أصح القولين) وهو القول بأن الاستعارة مجاز لغوى فإنها على هذا مستعملة فيما وضعت له وضعاً بالتأويل ، وهو ادعاء دخول المشبه فى جنس المشبه به بجعل أفراد المشبه به قسمين : متعارفاً وغير متعارف ، وأما على القول بأنها مجاز عقلى ، بمعنى أن التصرف فى أمر عقلى وهو جعل غير الأسد أسداً ، وأن اللفظ مستعمل فيما وضع له فيكون حقيقة لغوية فلا يصح الاحتراز عنها (وعرف المجاز اللغوى) بأنه الكلمة المستعملة فى غير ماهى موضوعة له بالتحقيق استعمالا فى الغير ، بالنسبة إلى نوع حقيقتها مع قرينة مانعة من إرادة معناها فى ذلك النوع . هذا لفظ السكاكى عدل عنه المصنف كما ترى لما فيه من الإبهام والخفاء ، وقوله بالنسبة متعلق بالغير واللام فى الغير للعهد ، أى المستعملة فى معنى غير المعنى الذى الكلمة موضوعة له فى اللغة أو الشرع أو العرف ، غيراً بالنسبة إلى نوع حقيقة تلك الكلمة ، حتى لو كان نوع حقيقتها لغوياً ، تكون الكلمة قد استعملت فى غير معناها اللغوى فتكون مجازاً لغوياً وعلى هذا القياس (على ما مر) من أنها مستعملة فيما وضعت له بالتأويل لا بالتحقيق ، فلو لم يقيد الوضع بالتحقيق لم تدخل هى فى التعريف ، لأنها ليست مستعملة فى غير ما وضعت

لِتَدْخُلَ الاسْتِعَارَةُ عَلَى مَا مَرَّ ؛ وَرُدَّ بِأَنَّ الْوَضْعَ إِذَا أُطْلِقَ لاَ يَتَنَاوَلُ الْوَضْعَ بِتَأْوِيلٍ ، وَبِأَنَّ التَّقْيِيدَ بِاصْطِلاَحِ التَّخَاطُبِ لاَبُدَّ مِنْهُ فِى تَعْرِيفِ الْحَقِيقَةِ ، وَقَسَّمَ الْمَجَازَ اللُّغَوِىَّ إِلَى الاسْتِعَارَةِ وَغَيْرِهَا ، وَعَرَّفَ الاسْتِعَارَةَ بِأَنْ تَذْكُرَ أَحَدَ طَرَفَىِ التَّشْبِيهِ وَتُرِيدَ بِهِ الآخَرَ ، مُدَّعِيًا دُخُولَ الْمُشَبَّهِ فِى جِنْسِ الْمُشَبَّهِ بِهِ ، وَقَسَّمَهَا إِلَى الْمُصَرَّحِ بِهَا وَالْمَكْنِىِّ عَنْهَا ؛ وَعَنَى بِالْمُصَرَّحِ بِهَا أَنْ يَكُونَ الْمَذْكُورُ هُوَ الْمُشَبَّهَ بِهِ ، وَجَعَلَ مِنْهَا تَحْقِيقِيَّةً

له بالتأويل (ورد) يقول : إن ماذكره السكاكى مردود لأمرين ، الأول : أن الوضع وما يشتق منه كالموضوعة والموضوع له ، إذا أطلق لايفهم منه الوضع بتأويل ، وإنما يفهم منه الوضع بالتحقيق لما سبق من تفسير الوضع فلا حاجة إلى تقييد الوضع فى تعريف الحقيقة بعدم التأويل . وفى تعريف المجاز بالتحقيق . قال فى الإيضاح : اللهم إلا أن يراد زيادة البيان لا تتميم الحد . الثانى : أن تقييد الوضع باصطلاح التخاطب ونحوه كالذى عبر به[1] السكاكى إذا كان لابد منه فى تعبير المجاز ليدخل فيه نحو لفظ الصلاة إذا استعملها المخاطب بعرف الشرع فى الدعاء مجازاً ، فلا بد منه فى تعريف الحقيقة أيضاً ، ليخرج نحو هذا اللفظ منه كما سبق ، وقد أهمله فى تعريفها (وقسم) مهد المصنف بنقل هذا التقسيم للبحث مع السكاكى فى عد التمثيل الذى هو مجاز مركب من الاستعارة التى جعلها قسماً من المجاز المفرد (وغيرها) كالمجاز المرسل (منها) أى من الاستعارة المصرح

(١) وهو قوله ... لا فى الغير بالنسبة إلى نوع حقيقتها .

وَتَخْيِيلِيَّةٌ ، وَفَسَّرَ التَّحْقِيقِيَّةَ بِمَا مَرَّ ، وَعَدَّ التَّمْثِيلَ مِنْهَا ؛ وَرُدَّ بِأَنَّهُ مُسْتَلْزِمٌ لِلتَّرْكِيبِ الْمُنَافِي لِلْإِفْرَادِ ، وَفَسَّرَ التَّخْيِيلِيَّةَ بِمَا لَا تَحَقُّقَ لِمَعْنَاهُ حِسًّا وَلَا عَقْلًا ، بَلْ هُوَ صُورَةٌ وَهْمِيَّةٌ مَحْضَةٌ ، كَلَفْظِ الْأَظْفَارِ فِي قَوْلِ الْهُذَلِيِّ ، فَإِنَّهُ لَمَّا شَبَّهَ الْمَنِيَّةَ بِالسَّبُعِ فِي الِاغْتِيَالِ أَخَذَ الْوَهْمُ فِي تَصْوِيرِهَا بِصُورَتِهِ وَاخْتِرَاعِ لَوَازِمِهِ لَهَا ، فَاخْتَرَعَ لَهَا مِثْلَ صُورَةِ الْأَظْفَارِ ، ثُمَّ أَطْلَقَ عَلَيْهِ لَفْظَ الْأَظْفَارِ ؛ وَفِيهِ تَعَسُّفٌ ، وَيُخَالِفُ تَفْسِيرَ غَيْرِهِ لَهَا بِجَعْلِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ ، وَيَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ التَّرْشِيحُ تَخْيِيلِيَّةً

بها (بما مر) أى بما يكون المشبه المتروك متحققاً حساً أو عقلا ، (منها) أى من التحقيقية (ورد) يقول إن عد التمثيل من الاستعارة التحقيقية التى هى قسم من المجاز المفرد مردود بأن التمثيل على سبيل الاستعارة لا يكون إلا مركباً كما تقدم فكيف يكون قسما من المجاز المفرد (محضة) لا يشوبها شىء من التحقق العقلى أو الحسى (لوازمه) أى ما يلازم صورته ، ويتم به شكله من الهيئات والجوارح ، وعلى الخصوص ما يكون قوام اغتياله للنفوس به من الأنياب والمخالب (عليه) أى على ذلك المثل يعنى على الصورة التى هى مثل صورة الأظفار (وفيه تعسف) أى أخذ على غير الطريق لما فيه من كثرة الاعتبارات التى لا يدل عليها دليل ولا تمس إليها حاجة (ويخالف تفسير غيره لها بجعل الشىء للشىء) غير السكاكى فسر التخييلية بجعل الشىء للشىء كجعل اليد للشمال فى قول لبيد :

وَغَدَاةَ رِيحٍ قَدْ كَشَفْتُ وَقِرَّةٍ ... إِذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ الشَّمَالِ زِمَامُهَا

لِلزُّومِ مِثْلِ مَا ذَكَرَهُ فِيهِ ، وَعَنَى بِالْمَكْنِيِّ عَنْهَا أَنْ يَكُونَ الْمَذْكُورُ هُوَ الْمُشَبَّهَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمَنِيَّةِ السَّبُعُ بِادِّعَاءِ السَّبُعِيَّةِ لَهَا ، بِقَرِينَةِ

فعلى تفسير السكاكى يجب أن يجعل للشمال صورة متوهمة شبيهة باليد ، ويكون إطلاق اليد عليها استعارة تصريحية تخييلية واستعمالا للفظ فى غير ما وضع له ، وعند غيره الاستعارة هو إثبات اليد للشمال ولفظ اليد حقيقة لغوية مستعملة فى معناه الموضوع له ، ولهذا قال الشيخ عبد القاهر : لا خلاف فى أن اليد استعارة ، ثم إنك لاتستطيع أن تزعم أن لفظ اليد قد نقل عن شىء إلى شىء ، إذ ليس المعنى على أنه شبه شيئاً باليد بل المعنى على أنه أراد أن يثبت للشمال يداً (للزوم مثل ما ذكره فيه) لأن الترشيح فيه إثبات بعض ما يخص المشبه به للمشبه ، إلا أن التعبير عن المشبه فى التخييلية بلفظ الموضوع له ، وفى الترشيح بغير لفظه وهذا لا يفيد فرقاً (وعنى بالمكنى عنها) هذا بحث آخر ، يقول إن السكاكى : أراد بالاستعارة المكنى عنها أن يكون المذكور من طرفى التشبيه هو المشبه ، على أن المراد بالمنية فى قول الهذلى : وإذا المنية أنشبت أظفارها السبع بادعاء السبعية لها وإنكار أن يكون شيئاً غير السبع بقرينة إضافة الأظفار التى هى من خواص السبع إلى المنية ، فقد ذكر المشبه وهو المنية وأريد به المشبه به وهو السبع . قال المصنف : وهذا التفسير مردود بأن لفظ المشبه فى الاستعارة بالكناية مستعمل فيما هو موضوع له على التحقيق للقطع بأن المراد بالمنية فى البيت هو الموت لا الحيوان المفترس ولا شىء من الاستعارة مستعملا فى معناه الموضوع له تحقيقاً ، لأن السكاكى نفسه فسر الاستعارة بأن تذكر أحد طرفى التشبيه وتريد به الطرف الآخر وجعلها قسما من المجاز اللغوى المفسر بالكلمة المستعملة فى غير ما وضعت له ، قال أما إضافة نحو الأظفار فقرينة التشبيه ، قال فى الإيضاح : وأما ما ذكره

إِضَافَةِ الْأَظْفَارِ إِلَيْهَا ، وَرُدَّ بِأَنَّ لَفْظَ الْمُشَبَّهِ فِيهَا مُسْتَعْمَلٌ فِيمَا وُضِعَ لَهُ تَحْقِيقًا ، وَالِاسْتِعَارَةُ لَيْسَتْ كَذَلِكَ ، وَإِضَافَةُ نَحْوِ الْأَظْفَارِ قَرِينَةُ التَّشْبِيهِ ، وَاخْتَارَ رَدَّ التَّبَعِيَّةِ إِلَى الْمَكْنِيِّ عَنْهَا ، بِجَعْلِ قَرِينَتِهَا مَكْنِيًّا عَنْهَا وَالتَّبَعِيَّةِ قَرِينَتَهَا ، عَلَى نَحْوِ قَوْلِهِ فِي الْمَنِيَّةِ وَأَظْفَارِهَا ؛ وَرُدَّ بِأَنَّهُ

السكاكى فى تفسير كلامه ، من أنا ندعى ههنا أن اسم المنية اسم للسبع ، مرادف للفظ السبع بارتكاب تأويل وهو أن تدخل المنية فى جنس السبع للمبالغة فى التشبيه ثم تذهب على سبيل التخيل إلى أن الواضع كيف يصح منه أن يضع اسمين لحقيقة واحدة ، ولا يكونان مترادفين ، فيتهيأ لنا بهذا الطريق دعوى السبعية للمنية مع التصريح بلفظ المنية فلا يفيده لأن ذلك لا يقتضى كون اسم المنية غير مستعمل فيما هو موضوع له على التحقيق من غير تأويل فيدخل فى تعريفه للحقيقة ويخرج من تعريفه للمجاز (واختار رد التبعية إلى المكنى عنها) وإليك ماقاله فى آخر فصل الاستعارة التبعية : هذا ما أمكن من تلخيص كلام الأصحاب فى هذا الفصل ، ولو أنهم جعلوا قسم الاستعارة التبعية من قسم الاستعارة بالكناية بأن قلبوا فجعلوا فى قولهم نطقت الحال بكذا الحال التى ذكرها عندهم قرينة الاستعارة بالتصريح استعارة بالكناية عن المتكلم بوساطة المبالغة فى التشبيه على مقتضى المقام ، وجعلوا نسبة النطق إليه قرينة الاستعارة كما تراهم فى قوله :

* وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا *

يجعلون المنية استعارة بالكناية عن السبع ويجعلون إثبات الأظفار لها قرينة لاستعارة ، وهكذا لو جعلوا البخل استعارة بالكناية عن حي أبطلت حياته بسيف أو غير سيف ، فالتحق بالعدم ، وجعلوا نسبة القتل إليه قرينة

إِنْ قَدَّرَ التَّبَعِيَّةَ حَقِيقَةً لَمْ تَكُنْ تَخْيِيلِيَّةً ، لِأَنَّهَا مَجَازٌ عِنْدَهُ ، فَلَمْ تَكُنْ الْمَكْنِيُّ عَنْهَا مُسْتَلْزِمَةً لِلتَّخْيِيلِيَّةِ ، وَذَلِكَ بَاطِلٌ بِالِاتِّفَاقِ ، وَإِلَّا فَتَكُونُ اسْتِعَارَةً ، فَلَمْ يَكُنْ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ مُغْنِيًا عَمَّا ذَكَرَهُ غَيْرُهُ .

﴿ فصل ﴾

حُسْنُ كُلٍّ مِنَ التَّحْقِيقِيَّةِ وَالتَّمْثِيلِ بِرِعَايَةِ جِهَاتِ حُسْنِ التَّشْبِيهِ

ولو جعلوا أيضاً للهذميات استعارة بالكناية عن المطعومات اللطيفة الشهية على التهكم وجعلوا نسبة لفظ القرى إليها قرينة الاستعارة لكان أقرب إلى الضبط . «قال» المصنف وهذا مردود ، لأن التبعية التي جعلها قرينة لقرينتها التي جعلها استعارة بالكناية كنطقت ، في قولنا نطقت الحال بكذا . لا يجوز أن يقدرها حقيقة حينئذ لأنه لو قدرها حقيقة لم تكن استعارة تخييلية ، لأن الاستعارة التخييلية عنده مجاز ولو لم تكن تخييلية لم تكن الاستعارة بالكناية مستلزمة للتخييلية واللازم باطل بالاتفاق فيتعين أن يقدرها مجازاً وإذا قدرها مجازاً لزمه أن يقدرها من قبل الاستعارة ، لكون العلاقة بين المعنيين هي المشابهة فلا يكون ما ذهب إليه مغنياً عن قسمة الاستعارة إلى أصلية وتبعية . هذا ، ما أحببنا ذكره في هذا الفصل محترزين به عما لا طائل تحته مما تشبث به القوم محكمين أنفسهم بين المصنف والسكاكي ، فإن تشوفت إلى ذلك فحول نظرك عن كتابنا واعمد به إلى أطول العصام ومطول التفتازاني واجمع إليهما حاشيتي عبد الحكيم والجرجاني (برعاية جهات حسن التشبيه) مثل أن يكون التشبيه وافياً بإفادة ما علق به من الغرض ، وأن يكون وجه الشبه غير مبتذل بأن يكون قريباً لطيفاً لكثرة التفصيل أو لندرة حضوره في الذهن ، إلى غير ذلك مما سبق

وَأَنْ لاَ يُشَمَّ رَائِحَتُهُ لَفْظًا ، وَلِذَلِكَ يُوصَى أَنْ يَكُونَ الشَّبَهُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ جَلِيًّا ، لِئَلاَّ تَصِيرَ إِلْغَازاً ، كَما لَوْ قِيلَ رَأَيْتُ أَسَداً وَأُرِيدَ إِنْسَانٌ أَبْخَرُ ، وَرَأَيْتُ إِبِلاً مِائَةً لاَ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً وَأُرِيدَ النَّاسُ ، وَبِهَذَا ظَهَرَ أَنَّ التَّشْبِيهَ أَعَمُّ مَحَلاًّ ؛ وَيَتَّصِلُ بِهِ أَنَّهُ إِذَا قَوِيَ الشَّبَهُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ حَتَّى اتَّحَدَا كَالْعِلْمِ وَالنُّورِ وَالشُّبْهَةِ وَالظُّلْمَةِ لَمْ يَحْسُنِ التَّشْبِيهُ وَتَعَيَّنَتِ الاسْتِعَارَةُ : وَالْمَكْنِيُّ عَنْهَا كَالتَّحْقِيقِيَّةِ ، وَالتَّخْيِيلِيَّةُ حُسْنُهَا بِحَسَبِ حُسْنِ الْمَكْنِيِّ عَنْهَا .

ذكره (وأن لايشم رائحته لفظاً) لأن ذلك يبطل الغرض من الاستعارة ، أعنى ادعاء دخول المشبه فى جنس المشبه به (ورأيت إبلا مائة لاتجد فيها راحلة) هذا مأخوذ من قوله صلى الله عليه وسلم : الناس كإبل مائة لاتجد فيها راحلة ، يعنى أن المختار من الناس فى عزة وجوده كالنجيبة التى لاتوجد فى كثير من الإبل (أعم محلا) أى أن كل ما يتأتى فيه الاستعارة التحقيقية أو التمثيل ، يتأتى فيه التشبيه ، وليس كل مايتأتى فيه التشبيه تتأتى فيه الاستعارة التحقيقية أو التمثيل ، لجواز أن يكون وجه الشبه فيه خفياً فيصير تعمية وألغازاً كالمثالين المذكورين (لم يحسن التشبيه) فإذا فهم الرجل المسألة فإنه يقول حصل فى قلبى نور ، ولا يقول كأن نوراً حصل فى قلبى ، وإذا وقع فى شبهة يقول وقعت فى ظلمة ، ولا يقول كأنى فى ظلمة (كالتحقيقية) فى أن حسنها برعاية جهات حسن التشبيه (بحسب حسن المكنى عنها) لأنها لاتكون إلا تابعة لها عند المصنف . وأما صاحب المفتاح فلما لم يقل بوجوب كونها تابعة للمكنى عنها ، قال إن حسنها بحسب حسن

﴿ فَصْلٌ ﴾

وَقَدْ يُطْلَقُ الْمَجَازُ عَلَى كَلِمَةٍ تَغَيَّرَ حُكْمُ إِعْرَابِهَا بِحَذْفِ لَفْظٍ أَوْ زِيَادَةِ لَفْظٍ ، كَقَوْلِهِ تعالَى : وَجَاءَ رَبُّكَ ، وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ، وقوله تعالى :

المكنى عنها حتى كانت تابعة لها ، وقلما تحسن الحسن البديع غير تابعة لها ، ولذلك استهجنت في قول الطائي :

لَاتَسْقِنِي مَاءَ الْمَلَامِ فَإِنَّنِي ... صَبٌّ قَدِ اسْتَعْذَبْتُ مَاءَ بُكَائِي

﴿ فصل ﴾ اعلم أن الكلمة كما توصف بالمجاز لنقلك لها عن معناها كما مضى كذلك توصف به لنقلها عن حكم كان لها إلى حكم ليس هو بحقيقة فيها لحذف لفظ أو زيادة لفظ ، أما الحذف فكقوله تعالى : واسأل القرية ، الأصل واسأل أهل القرية ، فالحكم الذى يجب للقرية فى الأصل ، وعلى الحقيقة هو الجر فحذف المضاف واكتسى المضاف إليه إعرابه ، واعلم أن الحكم بالحذف ههنا إنما هو لأمر يرجع إلى غرض المتكلم ، حتى لو رأيت سل القرية فى غير التنزيل لم تقطع بأن ههنا محذوفاً ، لجواز أن يكون كلام رجل مر بقرية قد خربت وباد أهلها ، فأراد أن يقول لصاحبه واعظاً ومذكراً أو لنفسه متعظاً ومعتبراً سل القرية عن أهلها وقل لها ماصنعوا ، على حد قولهم : سل الأرض من شق أنهارك . وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك . فإنها إن لم تجبك حواراً ، أجابتك اعتباراً . وأما الزيادة فكقوله تعالى : ليس كمثله شيء ، على القول بزيادة الكاف أى ليس مثله شيء ، فإعراب مثله فى الأصل هو النصب فزيدت الكاف فصار جراً : وعندى أن الكاف ليست بزائدة وأن الآية من باب الكناية . قال فى الكشاف ، قالوا مثلك لايبخل . فنفوا البخل عن مثله وهم يريدون نفيه عن ذاته قصدوا المبالغة فى ذلك فسلكوا به طريق الكناية . لأنهم إذا نفوه عمن

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، أَىْ أَمْرُ رَبِّكَ ، وَأَهْلَ الْقَرْيَةِ ، وَلَيْسَ مِثْلَهُ شَيْءٌ .

﴿ الْكِنَايَةُ ﴾

الْكِنَايَةُ لَفْظٌ أُرِيدَ بِهِ لاَزِمُ مَعْنَاهُ مَعَ جَوَازِ إِرَادَتِهِ مَعَهُ ، فَظَهَرَ أَنَّهَا تُخَالِفُ الْمَجَازَ مِنْ جِهَةِ إِرَادَةِ الْمَعْنَى مَعَ إِرَادَةِ لاَزِمِهِ ، وَفُرِّقَ بِأَنَّ الِانْتِقَالَ

يسد مسدّه وعمن هو على أخص أوصافه فقد نفوه عنه ، ونظيره قولك للعربى العرب لاتخفر الذمم ، كان أبلغ من قولك أنت لاتخفر ، ومنه قولهم قدأيفعت لداته وبلغت أترابه ، يريدون إيفاعه وبلوغه ، فحينئذ لم يقع فرق بين قوله ليس كالله شيء ، وبين قوله ليس كمثله شيء إلا ماتعطيه الكناية من فائدتها ، وكأنهما عبارتان متعقبتان على معنى واحد ، وهو نفى المماثلة عن ذاته ، ونحوه قوله عز وجل : بل يداه مبسوطتان . فإن معناه بل هو جواد من غير تصور يد ولا بسط لها ، لأنها وقعت عبارة عن الجود لا يقصدون شيئاً آخر حتى إنهم استعملوها فيمن لا يد له . فكذلك استعمل هذا فيمن له مثل ومن لا مثل له « هذا » وأما إن كان الحذف أو الزيادة لايوجب تغيير الإعراب كما فى قوله تعالى : أوكصيب من السماء ، إذ أصله أو كمثل ذوى صيب فحذف ذوى لدلالة يجعلون أصابعهم فى آذانهم عليه وحذف مثل لما دل عليه عطفه على قوله : كمثل الذى استوقد ناراً ، إذ لا يخفى أن التشبيه ليس من صفة المنافقين العجيبة الشأن ، وذوات ذوى صيب ، وكقوله : فبما رحمة من الله لنت لهم ، فلا توصف الكلمة بالمجاز كما حقق ذلك الشيخ الإمام رحمه الله .

﴿الكناية﴾ هى فى عرف اللغة أن تتكلم بشيء وتريد به غيره وقد كنيت بكذا عن كذا أو كنوت وأنشد أبو زياد :

فِيهَا مِنَ اللَّازِمِ، وَفِيهِ مِنَ الْمَلْزُومِ، وَرُدَّ بِأَنَّ اللَّازِمَ مَا لَمْ يَكُنْ مَلْزُوماً لَمْ يُنْتَقَلْ مِنْهُ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ الِانْتِقَالُ مِنَ الْمَلْزُومِ. وَهِيَ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:

وَإِنِّي لَأَكْنُو عَنْ قَذُورٍ بِغَيْرِهَا وَأُعْرِبُ أَحْيَاناً بِهَا فَأُصَارِحُ

وفى مصطلح النظار من علماء البيان، قال الشيخ الإمام: أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة، ولكن يجىء إلى معنى هو تاليه وردفه فى الوجود فيومى به إليه ويجعله دليلا عليه. وقال غير الشيخ: الكناية لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ، كقولك فلان طويل النجاد: أى طويل القامة، وفلانة نؤم الضحى، أى مرفهة مخدومة غير محتاجة إلى السعى بنفسها فى إصلاح المهمات، وذلك أن وقت الضحى وقت يسعى فيه نساء العرب وراء المعاش وكفاية أسبابه وتحصيل ما يحتاج إليه فى تهيئة المتناولات وتدبير إصلاحها، فلا تنام فيه من نسائهم إلا من تكون لها خدم ينوبون عنها فى السعى لذلك. ولا يمتنع أن يراد مع ذلك طول النجاد والنوم فى الضحى من غير تأويل، فالفرق بينها وبين المجاز من هذا الوجه أى من جهة جواز إرادة المعنى مع إرادة لازمه، فإن المجاز ينافى ذلك فلا يصح فى نحو قولك: فى الحمام أسد، إن تريد معنى الأسد من غير تأول، لأن المجاز ملزوم قرينة معاندة لإرادة الحقيقة كما تقدم وملزوم معاند الشىء معاند لذلك الشىء، وفرق السكاكى وغيره بينهما بوجه آخر أيضاً، وهو أن مبنى الكناية على الانتقال من اللازم إلى الملزوم، كالانتقال من طول النجاد الذى هو لازم لطول القامة إليه، ومبنى المجاز على الانتقال من الملزوم إلى اللازم كالانتقال من الأسد الذى هو ملزوم الشجاع إلى الشجاع. قال المصنف: وهذا مردود بأن اللازم ما لم يكن ملزوماً يمتنع أن ينتقل منه إلى الملزوم لأن اللازم من

الْأُولَى الْمَطْلُوبُ بِهَا غَيْرُ صِفَةٍ وَلَا نِسْبَةٍ ، فَمِنْهَا مَاهِيَ مَعْنًى وَاحِدٌ كَقوله :

* وَالطَّاعِنِينَ مَجَامِعَ الْأَضْغَانِ *

وَمِنْهَا مَا هِيَ مَجْمُوعُ مَعَانٍ كَقَوْلِنَا — كِنَايَةً عَنِ الْإِنْسَانِ — حَيٌّ مُسْتَوِي الْقَامَةِ عَرِيضُ الْأَظْفَارِ ، وَشَرْطُهُمَا الِاخْتِصَاصُ بِالْمَكْنِيِّ عَنْهُ ؛ وَالثَّانِيَةُ الْمَطْلُوبُ بِهَا صِفَةٌ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ الِانْتِقَالُ بِوَاسِطَةٍ فَقَرِيبَةٌ :

حيث أنه لازم ، يجوز أن يكون أعم من الملزوم ، ولا دلالة للعام على الخاص فيكون الانتقال حينئذ من الملزوم إلى اللازم كما فى المجاز ، فلا يتحقق الفرق (فمنها) أى فمن الأولى (كقوله والطاعنين مجامع الأضغان) فمجامع الأضغان معنى واحد كناية عن القلب وصدر البيت :

* الضَّارِبِينَ بِكُلِّ أَبْيَضَ مِخْذَمٍ *

والمخذم : القاطع ، ونظير البيت قول البحترى فى قصيدته التى يذكر فيها قتله الذئب :

فَأَتْبَعْتُهَا أُخْرَى فَأَضْلَلْتُ نَصْلَهَا بِحَيْثُ يَكُونُ اللُّبُّ وَالرُّعْبُ وَالْحِقْدُ

فقوله بحيث يكون اللب والرعب والحقد ، ثلاث كنايات لا كناية واحدة ، لاستقلال كل واحد منها بإفادة المقصود (وشرطهما الاختصاص بالمكنى عنه) ليحصل الانتقال منهما إليه (والثانية المطلوب بها صفة) يقول : الثانية من أقسام الكناية المطلوب بها صفة من الصفات ، كالجود والكرم والشجاعة وهو ضربان قريبة وبعيدة ، فالقريبة ما ينتقل منها إلى المطلوب بها لا بواسطة

وَاضِحَةٌ ، كَقَوْلِهِمْ - كِنَايَةً عَنْ طُولِ الْقَامَةِ - طَوِيلُ نِجَادِهِ وَطَوِيلُ النِّجَادِ ، وَالْأُولَى سَاذَجَةٌ ، وَفِى الثَّانِيَةِ تَصْرِيحٌ مَّا لِتَضَمُّنِ الصِّفَةِ الضَّمِيرَ أَوْ خَفِيَّةٌ ، كَقَوْلِهِمْ - كِنَايَةً عَنِ الْأَبْلَهِ - عَرِيضُ الْقَفَا ، وَإِنْ كَانَ

وهى إما واضحة كقولهم كناية عن طويل القامة طويل نجاده ، وهذه كناية ساذجة لا يشوبها شىء من التصريح ، وطويل النجاد وهذه كناية مشتملة على تصريح ما لتضمن الصفة فيه وهى طويل ضمير الموصوف ، وإما خفية يتوقف الانتقال منها على تأمل وإعمال روية ، كقولهم كناية عن الأبله عريض القفا ، فإن عرض القفا وعظم الرأس إذا أفرطا فيما يقال دليل الغباوة ، ألا ترى إلى قول طرفة بن العبد :

أَنَا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الَّذِى تَعْرِفُونَهُ ... خَشَاشٌ كَرَأْسِ الْحَيَّـةِ الْمُتَوَقِّدِ (١)

والبعيدة ما ينتقل منها إلى المطلوب بها بواسطه ، كقولهم كثير الرماد ، كناية عن المضياف ، فإنه ينتقل من كثرة الرماد إلى كثرة إحراق الحطب تحت القدور ومنها إلى كثرة الطبائخ ، ومنها إلى كثرة الأكلة ، ومنها إلى كثرة الضيفان ومنها إلى المقصود وكقوله :

وَمَا يَكُ فِىَّ مِنْ عَيْبٍ فَإِنِّى ... جَبَانُ الْكَلْبِ مَهْزُولُ الْفَصِيلِ

فإنه ينتقل من جبن الكلب عن الهرير فى وجه من يدنو من دار من هو بمرصد ، لأن يعس دونها مع كون الهرير فى وجه من لا يعرفه طبيعياً له إلى استمرار تأديبه ، لأن الأمور الطبيعية لا تتغير بموجب لا يقوى ، ومن

---

(١) الضرب : الرجل الخفيف اللحم ، ورجل خشاس : هو الماضى من الرجال ، وشبه تيقظه وذكاء ذهنه بتوقد رأس الحية .

الانْتِقَالُ بِوَاسِطَةٍ فَبَعِيدَةٌ ، كَقَوْلِهِمْ : كَثِيرُ الرَّمَادِ ، كِنَايَةً عَنِ المِضْيَافِ فَإِنَّهُ يُنْتَقَلُ مِنْ كَثْرَةِ الرَّمَادِ إِلَى كَثْرَةِ إِحْرَاقِ الْحَطَبِ تَحْتَ الْقُدُورِ ، وَمِنْهَا إِلَى كَثْرَةِ الطَّبَائِخِ ، وَمِنْهَا إِلَى كَثْرَةِ الْأَكَلَةِ ،

ذلك إلى استمرار موجب نباحه وهو اتصال مشاهدته وجوهاً إثر وجوه ، ومن ذلك إلى كونه مقصد أدان وأقاص ، ومن ذلك إلى أنه مشهور بحسن قرى الأضياف ، وكذلك ينتقل من هزال الفصيل إلى فقد الأم ، ومنه إلى قوة الداعى إلى نحرها لكمال عناية العرب بالنوق لاسيما المثليات (١) ، ومنها إلى صرفها إلى الطبائخ ، ومنها إلى أنه مضياف ومن هذا النوع قول نصيب :

لِعَبْدِ الْعَزِيزِ عَلَى قَوْمِهِ ... وَغَيْرِهِمْ مِنَنٌ ظَاهِرَهْ
فَبَابُكَ أَسْهَلُ أَبْوَابِهِمْ ... وَدَارُكَ مَأْهُولَةٌ عَامِرَهْ
وَكَلْبُكَ آنَسُ بِالزَّائِرِينَ ... مِنَ الْأُمِّ بِالابْنَةِ الزَّائِرَهْ

فإنه ينتقل من وصف كلبه بما ذكر إلى أن الزائرين معارف عنده ، ومن ذلك إلى اتصال مشاهدته إياهم ليلا ونهاراً . ومنه إلى لزومهم سدته ، ومنه إلى تسنى مباغيهم لديه من غير انقطاع ، ومنه إلى وفور إحسانه إلى الخاص والعام وهو المقصود ، ونظيره مع زيادة لطف قول الآخر

يَكَادُ إِذَا مَا أَبْصَرَ الضَّيْفَ مُقْبِلاً ... يُكَلِّمُهُ مِنْ حُبِّهِ وَهْوَ أَعْجَمُ

ومنه قول إبراهيم بن هرمة :

لاَ أُمْتِعُ الْعُوذَ بِالْفِصَالِ وَلاَ ... أَبْتَاعُ إِلَّا قَرِيبَةَ الْأَجَلِ

---

(١) أي التي لها أولاد تتلوها ، من أتلت الناقة : إذا تبعها ولد .

وَمِنْهَا إِلَى كَثْرَةِ الضِّيفَانِ ، وَمِنْهَا إِلَى الْمَقْصُودِ . الثَّالِثَةُ : الْمَطْلُوبُ بِهَا نِسْبَةٌ ، كَقَوْلِهِ :

إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالْمُرُوءَةَ وَالنَّدَى * فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الْحَشْرَجِ

فَإِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُثْبِتَ اخْتِصَاصَ ابْنِ الْحَشْرَجِ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ ، فَتَرَكَ التَّصْرِيحَ بِأَنْ يَقُولَ إِنَّهُ مُخْتَصٌّ بِهَا أَوْ نَحْوَهُ إِلَى الْكِنَايَةِ بِأَنْ جَعَلَهَا

فإنه ينتقل من عدم إمتاعها إلى أنه لا يبقى لها فصالها لتأنس بها ، ويحصل لها الفرح الطبيعى بالنظر إليها ، ومن ذلك إلى نحرها أو لا يبقى العوذ إبقاء على فصالها ، وكذا قرب الأجل ينتقل منه إلى نحرها ومن نحرها إلى أنه مضياف . ومن لطيف هذا القسم قوله تعالى : ولما سقط فى أيديهم ، أى ولما اشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل ، لأن من شأن من اشتد ندمه وحسرته أن يعض يده غماً فتصير يده مسقوطاً فيها ، لأن فاه قد وقع فيها (نسبة) أى إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه ، وهذا معنى قول صاحب المفتاح : إن المطلوب تخصيص الصفة بالموصوف ، ولم يرد بالتخصيص الحصر إذ لا وجه له هنا (كقوله) أى قول زياد الأعجم ، فإنه أراد كما لا يخفى أن يثبت هذه المعانى والأوصاف خلالا للممدوح وضرائب فيه ، فترك أن يصرح فيقول إنها لمجموعة فيه أو مقصورة عليه وماشاكل ذلك مما هو صريح فى إثبات الأوصاف المذكورين بها وعدل إلى ما ترى من الكناية والتلويح فجعل كونها فى القبة المضروبة عليه عبارة عن كونها فيه ، فخرج كلامه بذلك إلى ما خرج إليه من الجزالة وظهر فيه ما أنت ترى من الفخامة ، ولو أنه أسقط هذه الواسطة من البين لما كان إلا كلاماً غفلا وحديثاً ساذجاً . ومما هو لطيف فى هذا المعنى قول أبى نواس

فِي قُبَّةٍ مَضْرُوبَةٍ عَلَيْهِ ، وَنَحْوُهُ قَوْلُهُمْ : الْمَجْدُ بَيْنَ ثَوْبَيْهِ وَالْكَرَمُ بَيْنَ بُرْدَيْهِ ، وَالْمَوْصُوفُ فِي هَذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ قَدْ يَكُونُ غَيْرَ مَذْكُورٍ كَمَا يُقَالُ فِي عَرْضِ مَنْ يُؤْذِي الْمُسْلِمِينَ : الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ . . السَّكَاكِيُّ : الْكِنَايَةُ تَتَفَاوَتُ إِلَى تَعْرِيضٍ وَتَلْوِيحٍ وَرَمْزٍ وَإِشَارَةٍ

فَمَا جَازَهُ جُودٌ وَلَا حَلَّ دُونَهُ وَلَكِنْ يَصِيرُ الْجُودُ حَيْثُ يَصِيرُ

وقول الآخر :

يَصِيرُ أَبَانٌ قَرِينَ السَّمَا حِ وَالْمَكْرُمَاتِ مَعًا حَيْثُ صَارَا

وقول الثالث :

* وَحَيْثُمَا يَكُ أَمْرٌ صَالِحٌ تَكُنِ *

كل ذلك توصل إلى إثبات الصفة فى الممدوح بإثباتها فى المكان الذى يكون فيه . وإلى لزومها له بلزومها الموضع الذى يحله . وهكذا إذا اعتبرت قول الشنفرى الأزدى يصف امرأة بالعفة :

يَبِيتُ بِمَنْجَاةٍ مِنَ اللَّوْمِ بَيْتُهَا إِذَا مَا بُيُوتٌ بِالْمَلَامَةِ حُلَّتِ

وجدته يدخل فى معنى بيت زياد . وذلك أنه توصل إلى نفى اللوم عنها وإبعادها عنه بأن نفاه عن بيتها وباعد بينه وبينه . وكان مذهبه فى ذلك مذهب زياد فى التوصل إلى جعل السماحة والمروءة والندى فى ابن الحشرج ، بأن جعلها فى القبة المضروبة عليه ، وإنما الفرق أن هذا ينفى وذلك يثبته ، وذلك فرق لا فى موضع الجمع ، فهو لا يمنع أن يكونا من نصاب واحد (فى عرض) العرض بضم العين : الناحية والجانب ، يريد كما يقال فى التعريض بمن يؤذى المسلمين إلى اخ (كما يقال المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) فإنه كناية عن

وإيماء ، وَالْمُنَاسِبُ لِلْعُرْضِيَّةِ التَّعْرِيضُ ، وَلِغَيْرِهَا — إِنْ كَثُرَتِ الوَسَائِطُ — التَّلْوِيحُ ، وَإِنْ قَلَّتْ مَعَ خَفَاءِ الرَّمْزُ ، وَبِلاَ خَفَاءِ الْإِيمَاءُ وَالْإِشَارَةُ ، ثُمَّ قَالَ : وَالتَّعْرِ يكُون مجازا ، كَقَوْلِكَ آذَيْتَنِي

نفى الإسلام عن المؤذى (تتفاوت) يريد تتنوع (والمناسب للعرضية التعريض) إليك عبارة السكاكى . متى كانت الكناية عرضية[1] كان إطلاق التعريض عليها مناسباً[2] وإذا لم تكن كذلك ، فإن كان بينها وبين المكنى عنه مسافة متباعدة لكثرة الوسائط كما فى كثير الرماد وأشباهه كان إطلاق اسم التلويح عليها مناسباً ، لأن التلويح هو أن تشير إلى غيرك عن بعد وإن كانت المسافة قريبة مع نوع من الخفاء كعريض القفا وعريض الوسادة كان إطلاق اسم الرمز عليها مناسباً ، لأن الرمز هو أن تشير إلى قريب منك على سبيل الخفية قال :

رَمَزَتْ إِلَيَّ مَخَافَةً مِنْ بَعْلِهَا ... مِنْ غَيْرِ أَنْ تُبْدِي هُنَاكَ كَلاَمَهَا

وإن لم يكن هناك خفاء ، فالمناسب أن تسمى إيماء وإشارة ، كقول أبى تمام يصف إبلا :

أَبَيْنَ فَمَا يَزُرْنَ سِوَى كَرِيمٍ ... وَحَسْبُكَ أَنْ يَزُرْنَ أَبَا سَعِيدِ

فإنه فى إفادة أن أبا سعيد كريم غير خاف ، وكقول البحترى :

(١) أى مسوقة لموصوف غير مذكور .

(٢) لأن التعريض إمالة الكلام إلى عرض أى جانب يدل على المقصود ، يقال عرضت بفلان ولفلان : إذا قلت قولا وأنت تعنيه ، فكأنك أشرت به إلى جانب وأنت تريد جانباً آخر .

فَسَتَعْرِفُ ، وأَنْتَ تُرِيدُ إِنْسَاناً مَعَ الْمُخَاطَبِ دُونَهُ ؛ وَإِنْ أَرَدْتَهُمَا جَمِيعاً كَانَ كِنَايَةً وَلاَ بُدَّ فِيهِمَا مِنْ قَرِينَةٍ .

أَوَ مَا رَأَيْتَ المَجْدَ أَلْقَى رَحْلَهُ ... فِي آلِ طَلْحَةَ ثُمَّ لَمْ يَتَحَوَّلِ

فإنه فى إفادة أن آل طلحة أماجد ظاهر ، وكقول الآخر :

إِذَا اللهُ لَمْ يَسْقِ إِلَّا الْكِرَامَ ... فَسَقَى وُجُوهَ بَنِي حَنْبَلْ

وَسَقَى دِيَارَهُمْ بَاكِراً ... مِنَ الغَيْثِ فِى الزَّمَنِ الْمُمْحِلِ

وكقول الآخر :

مَتَى تَخْلُو تَمِيمٌ مِنْ كَرِيمٍ ... وَمَسْلَمَةُ بْنُ عَمْرٍو مِنْ تَمِيمِ

وأما قوله :

سألت الندى والجود مالى أراكما ... تبدلتمـــا ذلا بعز مؤبد

وما بال ركن المجد أمسى مهدماً ... فقالا أصبنا بابن يحيى محمد

فقلت فهلا متما عنـد موته ... فقد كنتما عبديه فى كل مشهد

فقـالا أقمنا كى نعزى بفقده ... مسافة يوم ثم نتلوه فى غد

فعلى ما ترى من الظهور (دونه) أى دون المخاطب ، أى لا تريد تهديده أى وحيث تريد بهذا الكلام تهديد غير المخاطب دون المخاطب صارت تاء الخطاب غير مراد بها أصلها ، وإذن يكون هذا الكلام مجازاً . تكملة . قال صاحب الكشاف : الكناية أن تذكر الشىء بغير لفظه الموضوع له ، والتعريض أن تذكر شيئاً يدل به على شىء لم تذكره ، كما يقول المحتاج المحتاج إليه . جئتك لأسلم عليك ولأنظر إلى وجهك الكريم ، ولذلك قالوا : حسبك بالتسليم منى تقاضياً . فكأنه إمالة الكلام إلى عرض يدل على المقصود

﴿ فَصْــــلٌ ﴾

أَطْبَقَ الْبُلَغَاءُ عَلَى أَنَّ الْمَجَازَ وَالْكِنَايَةَ أَبْلَغُ مِنَ الْحَقِيقَةِ وَالتَّصْرِيحِ ، لِأَنَّ الِانْتِقَالَ فِيهِمَا مِنَ الْمَلْزُومِ إِلَى اللَّازِمِ ، فَهُوَ كَدَعْوَى الشَّيْءِ بِبَيِّنَةٍ ، وَأَنَّ الِاسْتِعَارَةَ أَبْلَغُ مِنَ التَّشْبِيهِ ، لِأَنَّهَا نَوْعٌ مِنَ الْمَجَازِ .

ويسمى التلويح ، لأنه يلوح منه ما يريده ، وقال ابن الأثير : الكناية ما دل على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز بوصف جامع بينهما ، وتكون في المفرد والمركب ، والتعريض هو اللفظ الدال على معنى لا من جهة الوضع الحقيقي أو المجازي ، بل من جهة التلويح والإشارة ، فيختص باللفظ المركب كقول من يتوقع صلة والله إني لمحتاج ، فإنه تعريض بالطلب مع أنه لم يوضع له حقيقة ولا مجازاً ، وإنما فهم المعنى من عرض اللفظ أي جانبه ، وعرض كل شيء جانبه .

﴿ فصل ﴾ أجمع أرباب البلاغة وأصحاب الصياغة للمعاني ، على أن المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة ، والكناية أبلغ من الإفصاح ، والتعريض أوقع من التصريح ، وأن للاستعارة مزية وفضلا على التصريح بالتشبيه . قال الشيخ الإمام : ليس ذلك لأن الواحد من هذه الأمور يفيد زيادة في المعنى نفسه لا يفيدها خلافه ، بل لأنه يفيد تأكيداً لإثبات المعنى لا يفيده خلافه ، فليست فضيلة قولنا : رأيت أسداً على قولنا رأيت رجلا هو والأسد سواء في الشجاعة ، أن الأول أفاد زيادة في مساواته للأسد في الشجاعة لم يفدها الثاني ، بل هي أن الأول أفاد تأكيداً لإثبات تلك المساواة له لم يفده الثاني . وليست فضيلة قولنا كثيرَ الرماد على قولنا كثير القرى ، أن الأول أفاد زيادة لقراءة لم يفدها الثاني ، بل هي أن الأول أفاد تأكيداً لإثبات كثرة القرى له لم يفده الثاني ، فالسبب في أن للكناية مزية لا تكون للتصريح ، أن كل عاقل

﴿ الْفَنُّ الثَّالِثُ عِلْمُ الْبَدِيعِ ﴾

وَهُوَ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ وُجُوهُ تَحْسِينِ الْكَلَامِ بَعْدَ رِعَايَةِ الْمُطَابَقَةِ وَوُضُوحِ الدَّلَالَةِ ، وَهِيَ ضَرْبَانِ : مَعْنَوِيٌّ وَلَفْظِيٌّ ، أَمَّا الْمَعْنَوِيُّ فَمِنْهُ

يعلم أن إثبات الصفة بإثبات دليلها آكد وأبلغ فى الدعوى من أن تجىء إليها فتثبتها هكذا ساذجاً غفلا ، وذلك أنك لا تدعى دليل الصفة إلا والأمر ظاهر معروف ، وبحيث لا يشك فيه ولا يظن بالمخبر التجوز والغلط ؛ وأما الاستعارة : فسبب ما ترى لها من المزية والفخامة أنك إذا قلت رأيت أسداً ، كنت قد تلطفت لما أردت إثباته له من فرط الشجاعة ، حتى جعلتها كالشىء الذى يجب له الثبوت والحصول وكالأمر الذى نصب له دليل يقطع بوجوده ، وذلك أنه إذا كان أسداً فواجب أن تكون له تلك الشجاعة العظيمة وكالمستحيل أو الممتنع أن يعرف عنها ، وإذا صرحت بالتشبيه فقلت رأيت رجلا كالأسد كنت قد أثبتها إثبات الشىء يترجح بين أن يكون وبين ألا يكون ، ولم يكن من حديث الوجوب فى شىء (وجوه تحسين الكلام) إعلم أنه قد أطبق البلغاء على أن هذه المحسنات البديعية لا سيما اللفظية منها لا تحل محلها من القول ، ولا تقع موقعها من الحسن ، حتى يكون المعنى هو الذى استدعاها وساقها نحوه ، وحتى تجدها لا تبتغى بها بدلا ولا تجد عنها حولا ، ومن هنا ذم الاستكثار منها والولوع بها لأن المعانى لا تدين فى كل موضع لها إذ هى فى الغالب ألفاظ ، والألفاظ خدم المعانى ، مصرفة فى حكمها ، فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشىء عن جهته وأحاله عن طبيعته ، وذلك مظنة الاستكراه ، وفيه فتح أبواب العيب والتعرض للشين ، ولهذه الحالة كان كلام المتقدمين الذين تركوا فضل الاحتفاء بالبديعيات ولزموا سجية الطبع

الْمُطَابَقَةُ ، وَتُسَمَّى الطِّبَاقَ وَالتَّضَادَّ أَيْضًا ، وَهِيَ الْجَمْعُ بَيْنَ مُتَضَادَّيْنِ أَيْ مَعْنَيَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ فِى الْجُمْلَةِ ، وَيَكُونُ بِلَفْظَيْنِ مِنْ نَوْعٍ اسْمَيْنِ

أمكن فى العقول وأوضح للمراد ، وأسلم من التفاوت وأبعد من التعمد الذى هو ضرب من الخداع بالتزويق . وقد تجد فى كلام المتأخرين كلاماً حمل صاحبه فرط شغفه بالبديعيات إلى أن ينسى أنه يتكلم ليفهم ويقول ليبين ، ويخيل أنه إذا جمع بين أقسام البديع فى بيت فلا ضير أن يقع ما عناه فى عمياء ، وأن يوقع السامع من طلبه فى خبط عشواء ، وربما طمس بكثرة ما يتكلفه على المعنى وأفسده كمن أثقل العروس بأصناف الحلى حتى ينالها من ذلك مكروه فى نفسها ، ولعمرى ان تجد أيمن طائرا ، وأحسن أولا وآخرا ، وأهدى إلى الإحسان وأجلب للاستحسان ، من أن ترسل المعانى على سجيتها ، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ ، فإنها إذا تركت وما تريد لم تكتس إلا ما يليق بها ، ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها ، فأما أن تضع فى نفسك أنه لا بد من أن تجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين مثلا فهو الذى أنت منه بعرض الاستكراه وعلى خطر من الخطأ والوقوع فى الذم ، وهو الذى يجعل عبارتك حرية بقول أبى الطيب :

إِذَا لَمْ تُشَاهِدْ غَيْرَ حُسْنِ شِيَاتِهَا ... وَأَعْضَائِهَا فَالْحُسْنُ عَنْكَ مُغَيَّبُ

(أى معنيين متقابلين فى الجملة) يعنى ليس المراد بالمتضادين ههنا الأمرين الموجودين المتواردين على محل واحد بينهما غاية الخلاف ، كالسواد والبياض ، بل أعم من ذلك وهو ما يكون بينهما تقابل وتناف فى الجملة : ولو فى بعض الأحوال سواء كان التقابل حقيقياً أو اعتبارياً وسواء كان تقابل التضاد أو تقابل الإيجاب والسلب ، أو تقابل العدم والملكة ، أو تقابل التضايف

نحوُ : وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ، أَوْ فِعْلَيْنِ نحوُ : يُحْيِي وَيُمِيت ، أَوْ حَرْفَيْنِ ، نحوُ : لَهَا مَا اكْتَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ، أَوْ مِنْ نَوْعَيْنِ نحوُ : أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ، وَهُوَ ضَرْبَانِ : طِبَاقُ الْإِيجَابِ ، كما مرّ ،

وما يشبه شيئاً من ذلك (نحو يحيي ويميت) مثله قوله تعالى . تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء . وقوله صلى الله عليه وسلم للأنصار : إنكم لتكثرون عند الفزع ، وتقلون عند الطمع ، وقول بشارة :

إِذَا أَيْقَظَتْكَ حُرُوبُ الْعِدَا فَنَبِّهْ لهـا عَمْراً ثُمَّ نَمْ

(نحو لها ما كسبت) فإن فى اللام معنى الانتفاع ، وفى على معنى التضرر ، أى لها ما كسبت من خير ، وعليها ما اكتسبت من شر ، لا ينتفع بطاعتها ، ولا يتضرر بمعصيتها غيرها ، وتخصيص الخير بالكسب والشر بالاكتساب ، لأن الاكتساب فيه اعتمال والشر تشتهيه النفس وتنجذب إليه ، فكانت أجد فى تحصيله وأعمل ، ومما كان الطباق فيه بين حرفين قول الشاعر :

عَلَى أَنَّنِي رَاضٍ بِأَنْ أَحْمِلَ الْهَوَى وَأَخْلُصَ مِنْهُ لاَ عَلَيَّ وَلاَ لِيَا

(نحو أو من كان ميتاً فأحييناه) فإن أحدهما اسم والآخر فعل ، ومثله قول طفيل الغنوى يصف فرساً :

بِسَاهِمِ الْوَجْهِ لَمْ تُقْطَعْ أَبَاجِلُهُ يُصَانُ وَهْوَ لِيَوْمِ الرَّوْعِ مَبْذُولُ

هذا ، ومن لطيف الطباق قول أبى تمام :

أَصَمَّ بِكَ النَّاعِي وَإِنْ كَانَ أَسْمَعَا وَأَصْبَحَ مَغْنَى الْجُودِ بَعْدَكَ بَلْقَعَا

وقالوا هذا أحسن ابتداء فى مرثية إسلامية . وقوله أيضاً :

وَطِبَاقُ السَّلْبِ نحوُ : وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ، ونحوُ : فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ، وَمِنَ الطِّبَاقِ نحوُ قوله :

تَرَدَّى ثِيَابَ الْمَوْتِ حُمْراً فَمَا أَتَى ... لَهَا اللَّيْلُ إِلَّا وَهِيَ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرُ

وَضَلَّ بِكَ الْمُرْتَادُ مِنْ حَيْثُ يَهْتَدِي ... وَضَرَّتْ بِكَ الْأَيَّامُ مِنْ حَيْثُ تَنْفَعُ

وَقَدْ كَانَ يُدْعَى لاَبِسُ الصَّبْرِ حَازِماً ... فَأَصْبَحَ يُدْعَى حَازِماً حِينَ يَجْزَعُ

ومنه قول كثير بن هراسة لابنه : يابنى إن من الناس ناساً ينتقصونك إذا زدتهم ، وتهون عليهم إذا أكرمتهم ، ليس لرضاهم موضع فتقصده ، ولا لسخطهم موقع فتحذره ، فإذا عرفت أولئك بأعيانهم ، فأبد لهم وجه المودة ، وامنعهم موضع الخاصة . ليكون ما أبديت لهم من وجه المودة حاجزاً دون شرهم ، وما منعتهم من موضع الخاصة قاطعاً بحرمتهم (وطباق السلب) وهو أن يجمع فى الكلام بين الثبوت والانتفاء . ومنه قول امرىء القيس :

هَضِيمَ الْحَشَى لاَ يَمْلَأُ الْكَفَّ خَصْرُهَا ... وَيَمْلَأُ مِنْهَا كُلَّ حِجْلٍ وَدُمْلُجِ

وقول السموأل :

وَنُنْكِرُ إِنْ شِئْنَا عَلَى النَّاسِ قَوْلَهُمْ ... وَلاَ يُنْكِرُونَ الْقَوْلَ حِينَ نَقُولُ

وقول أبى تمام :

إِلَى سَالِمِ الْأَخْلاَقِ مِنْ كُلِّ عَائِبٍ ... وَلَيْسَ لَهُ مَالٌ عَلَى الْجُودِ سَالِمُ

(ومن الطباق نحو قوله) أى قول أبى تمام من قصيدته التى يرثى بها أبا نهشل حين استشهد وأولها :

كَذَا فَلْيَجِلَّ الْخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ الْأَمْرُ ... وَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَاؤُهَا عُذْرُ

وَيَلْحَقُ بِهِ نحوُ : أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ، فإِنَّ الرَّحْمَةَ مُسَبَّبَةٌ عنِ اللِّينِ ، ونحوُ قَوْلِهِ :

وهى من أعيان المراثى . وهذا النوع من الطباق سماه بعضهم تدبيجاً ، وفسره بأن يذكر فى معنى المدح أو غيره ألوان بقصد الكناية أو التورية ، أما تدبيج الكناية فكبيت أبى تمام فإنه ذكر فيه لون الحمرة والخضرة ، وكنى بالأول عن القتل وبالثانى عن دخول الجنة ، وأما تدبيج التورية فكقول الحريرى . فمذ ازور المحبوب الأصفر . واغبر العيش الأخضر ، اسود يومى الأبيض ، وابيض فودى الأسود ، حتى يرثى لى العدو الأزرق فيا حبذا الموت الأحمر ، فقوله المحبوب الأصفر : تورية عن الذهب ، لأن معناه القريب إنسان له صفرة (هذا) ومن طباق التدريج قول عمرو بن كلثوم فى معلقته :

بِأَنَّا نُورِدُ الرَّايَاتِ بِيضًا ... وَنُصْدِرُهُنَّ حُمْرًا قَدْ رَوِينَا

وقول ابن حيوس :

إِنْ تُرِدْ عِلْمَ حَالِهِمْ عَنْ يَقِينٍ ... فَالْقَهُمْ يَوْمَ نَائِلٍ أَوْ نِزَالِ

تَلْقَ بِيضَ الْوُجُوهِ سُودَ مُثَارِ النَّقْعِ خُضْرَ الأَكْنَافِ حُمْرَ النِّصَالِ

(خضر) : هو مرفوع على أنه خبر بعد خبر لا بالجر صفة لسندس ، لأن القوافى مضمومة الروى (ويلحق به) أى بالطباق شيئان : فأولهما الجمع بين معنيين يتعلق أحدهما بما يقابل الآخر نوع تعلق مثل السببية واللزوم كما فى الآية ، فإن الرحمة وإن لم تكن مقابلة للشدة ، فهى مسببة عن اللين الذى هو ضد الشدة ، وثانيهما الجمع بين معنيين غير متقابلين عبر عنهما بلفظين يتقابل معناهما

لاَ تَعْجَبِي يَا سَلْمُ مِنْ رَجُلٍ * ضَحِكَ الْمَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَى

وَيُسَمَّى الثَّانِي إِيهَامَ التَّضَادِ ، وَدَخَلَ فِيهِ مَا يَخْتَصُّ بِاسْمِ الْمُقَابَلَةِ وَهُوَ أَنْ يُؤْتَى بِمَعْنَيَيْنِ مُتَوَافِقَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ ، ثُمَّ بِمَا يُقَابِلُ ذَلِكَ عَلَى التَّرْتِيبِ . وَالْمُرَادُ بِالتَّوَافُقِ خِلَافُ التَّقَابُلِ ، نَحْوُ : فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا .

الحقيقيان كما فى البيت ، فإنه لا تقابل بين البكاء وظهور المشيب ، لكنه عبر عن ظهور المشيب بالضحك الذى معناه الحقيقى مقابل للبكاء ، وهذا البيت لدعبل وبعده :

قَدْ كَانَ يَضْحَكُ فِي شَبِيبَتِهِ ... وَالآنَ يَحْسُدُ كُلَّ مَنْ ضَحِكَا

لاَ تَأْخُذَا بِظُلاَمَتِي أَحَدًا ... قَلْبِي وَطَرْفِي فِي دَمِي اشْتَرَكَا

ومثله قول أبى تمام :

مَا إِنْ تَرَى الْأَحْسَابَ بِيضًا وُضَّحا ... إِلَّا بِحَيْثُ تَرَى الْمَنَايَا سُودَا

وقوله أيضاً فى الشيب :

لَهُ مَنْظَرٌ فِي الْعَيْنِ أَبْيَضُ نَاصِعٌ ... وَلَكِنَّهُ فِي الْقَلْبِ أَسْوَدُ أَسْفَعُ

(ويسمى الثانى إيهام التضاد) لأن المعنيين قد ذكرا بلفظين يوهمان التضاد نظراً إلى الظاهر (فيه) أى فى الطباق (ما يخص باسم المقابلة) جعله السكاكى وغيره قسما برأسه من المحسنات المعنوية (والمراد بالتوافق خلاف التقابل) فلا يشترط أن يكون المعنيان متناسبين أو متماثلين (نحو فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيراً) مثله قول الذبيانى :

ونحوُ قولِهِ :

مَا أَحْسَنَ الدِّينَ وَالدُّنْيَا إِذَا اجْتَمَعَا ✲ وَأَقْبَحَ الكُفْرَ وَالْإِفْلَاسَ بالرَّجُلِ

وَنحوُ : فأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ، وَالمُرَادُ بِاسْتَغْنَى أَنَّهُ زَهِدَ فِيمَا عِنْدَ اللهِ تَعَالَى كَأَنَّهُ اسْتَغْنَى عَنْهُ فَلَمْ يَتَّقِ ، أَوِ اسْتَغْنَى بِشَهَوَاتِ الدُّنْيَا عَنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ فَلَمْ يَتَّقِ ، وَزَادَ السَّكَّاكِيُّ :

فَتًى تَمَّ فِيهِ مَا يَسُرُّ صَدِيقَهُ ✲ عَلَى أَنَّ فِيهِ مَا يَسُوءُ الأَعَادِيَا

(ونحو قوله) أى قول أبى دلامة ومثله قول أبى الطيب :

فَلَا الْجُودُ يُفْنِي المَالَ وَالْجَدُّ مُقْبِلٌ ✲ وَلَا الْبُخْلُ يُبْقِي المَالَ وَالْجَدُّ مُدْبِرُ

، هذا ، وإنما كرر المصنف كلمة نحو لانه مثل : أولا لما كان فيه مقابلة اثنين باثنين ، وثانياً لمقابلة ثلاثة بثلاثة ، وثالثاً لاربعة بأربعة والمقابلة فى الآية الثانية مركبة من طباق وملحق به كما لايخفى (وزاد السكاكى وإذا شرط) . عبارته : المقابلة أن تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر وضديهما ، ثم إذا شرطت هنا شرطاً شرطت هناك ضده كقوله تعالى : فأما من أعطى الآيتين ، لما جعل التيسير مشتركاً بين الإعطاء والاتقاء والتصديق جعل ضده ، وهو التعسير مشتركاً بين أضداد تلك ، وهى المنع والاستغناء والتكذيب (ومنه) أى ومن المعنوى (وقوله) أى قول البحترى فى وصف الإبل الأنضاء . ومثله قول أسيد فى عنقاء المزارى :

وَإِذَا شُرِطَ هُنَا أَمْرٌ شُرِطَ ثَمَّةَ ضِدُّهُ كَهَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ ، فَإِنَّهُ لَمَّا جُعِلَ التَّيْسِيرُ مُشْتَرَكاً بَيْنَ الإِعْطَاءِ وَالاتِّقَاءِ وَالتَّصْدِيقِ جُعِلَ ضِدُّهُ مُشْتَرَكاً بَيْنَ أَضْدَادِهَا . . . وَمِنْهُ مُرَاعَاةُ النَّظِيرِ ، وَيُسَمَّى التَّنَاسُبَ وَالتَّوْفِيقَ ، وَهُوَ جَمْعُ أَمْرٍ وَمَا يُنَاسِبُهُ لاَ بِالتَّضَادِّ نَحْوُ : الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ، وقوله :

كَالْقِسِيِّ الْمُعَطَّفَاتِ بَلِ الأَسْهُمِ مَبْرِيَّةً بَلِ الأَوْتَارِ

وَمِنْهَا مَا يُسَمِّيهِ بَعْضُهُمْ تَشَابُهَ الأَطْرَافِ ، وَهُوَ أَنْ يُخْتَمَ الْكَلاَمُ بِمَا يُنَاسِبُ ابْتِدَاءَهُ فِي الْمَعْنَى ، نَحْوُ : لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ، وَيَلْحَقُ بِهَا نَحْوُ : الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ

كَأَنَّ الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ فِي جَبِينِهِ وَفِي خَدِّهِ الشِّعْرَى وَفِي وَجْهِهِ الْبَدْرُ

وقول ابن خفاجة يصف فرساً :

مِنْ جُلَّنَارٍ نَاضِرٌ خَدُّهُ وَأُذْنُهُ مِنْ وَرَقِ الآسِ

[(ومنها) من مراعاة النظير (نحو لا تدركه الأبصار) فإن اللطف يناسب ما لا يدرك بالبصر ، والخبرة تناسب من يدرك شيئاً فإن من يدرك شيئاً يكون خبيراً به (بها) أي بمراعاة النظير (نحو الشمس والقمر بحسبان) أي بحساب معلوم وتقدير سوى ، والنجم : النبات الذي ينجم من الأرض لا ساق له كالبقول والشجر الذي له ساق ، وسجودهما : انقيادهما لله فيما خلقا له ، فالنجم بهذا المعنى وإن لم يكن مناسباً للشمس والقمر ، فقد يكون بمعنى الكوكب وهو مناسب لهما

وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ، وَيُسَمَّى إِيهَامَ التَّنَاسُبِ . وَمِنْهُ الْإِرْصَادُ ،

ولهذا سمى إيهام التناسب (ومنه الإرصاد) وهو فى الأصل : نصب الرقيب فى الطريق ، من رصدته أى رقبته ، والرصيد : السبع الذى يرصد ليثب ، والرصد : القوم يرصدون كالحرس ، يستوى فيه الواحد والجمع المؤنث . وهذا النوع قالوا إنه من محمود الصنعة ، فإن خير الكلام مادل بعضه على بعض ، وفى الافتخار به يقول ابن نباتة السعدى :

خُذْهَا إِذَا أُنْشِدَتْ فِى الْقَوْمِ مِنْ طَرَبٍ ... صُدُورُهَا عُرِفَتْ مِنْهَا قَوَافِيهَا

يَنْسَى لَهَا الرَّاكِبُ الْعَجْلَانُ حَاجَتَهُ ... وَيُصْبِحُ الْحَاسِدُ الْغَضْبَانُ يَطْوِيهَا

ومن لطيف هذا النوع قول زهير :

سَئِمْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ... ثَمَانِينَ حَوْلاً لاَ أَبَا لَكَ يَسْأَمِ

وقول الراعى :

وَإِنْ وُزِنَ الْحَصَى فَوَزَنْتُ قَوْمِى ... وَجَدْتُ حَصَى ضَرِيبَتِهِمْ رَزِينَا

وقول البحترى :

أَبْكِيكُمَا دَمْعاً وَلَوْ أَنِّى عَلَى ... قَدْرِ الْجَوَى أَبْكِى بَكَيْتُكُمَا دَمَا

وقوله أيضاً :

أَحَلَّتْ دَمِى مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ وَحَرَّمَتْ ... بِلاَ سَبَبٍ يَوْمَ اللِّقَاءِ كَلاَمِى

فَلَيْسَ الَّذِى حَلَّلْتِهِ بِمُحَلَّلٍ ... وَلَيْسَ الَّذِى حَرَّمْتِهِ بِحَرَامِ

فليس يذهب على السامع ، وقد عرف القافية وصدر البيت الثانى ، أن

وَيُسَمِّيهِ بَعْضُهُمْ التَّسْهِيمَ ، وَهُوَ أَنْ يُجْعَلَ قَبْلَ الْعَجُزِ مِنَ الْفِقْرَةِ أَوِ الْبَيْتِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ إِذَا عُرِفَ الرَّوِيُّ نحوُ : وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ، وقوله :

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئاً فَدَعْهُ   وَجَاوِزْهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيعُ

وَمِنْهُ الْمُشَاكَلَةُ ، وَهِيَ ذِكْرُ الشَّيْءِ بِلَفْظِ غَيْرِهِ لِوُقُوعِهِ فِى صُحْبَتِهِ تَحْقِيقاً أَوْ تَقْدِيراً ، فَالْأَوَّلُ نحوُ قوله .

قَالُوا اقْتَرِحْ شَيْئاً نُجِدْ لَكَ طَبْخَهُ   قُلْتُ اطْبُخُوا لِي جُبَّةً وَقَمِيصاً

ونحوُ : تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ، وَالثَّانِى نحوُ : صِبْغَةَ اللهِ ، وَهُوَ مَصْدَرٌ مُؤَكِّدٌ لِآمَنَّا بِاللهِ ، أَيْ تَطْهِيرَ اللهِ ، لِأَنَّ الْإِيمَانَ

عجزه هو ماقاله البحترى (التسهيم) من البرد ، المسهم : أى المخطط (إذا لم تستطع) هو لعمرو بن معد يكرب (نحو قوله) أى قول ابن الرقعمق فإنه ذكر خياطة الجبة بلفظ الطبخ لوقوعها فى صحبة طبخ الطعام (ونحوه تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك) حيث أطلق النفس على ذات الله تعالى لوقوعه فى صحبة نفسى ، هذا ، ومن لطيف المشاكلة قول عمرو بن كلثوم :

أَلاَ لاَ يَجْهَلَنْ أَحَـدٌ عَلَيْنَا   فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا

(وهو مصدر مؤكد لآمنا بالله) أصل هذا الـكلام لصاحب الـكشاف رحمه الله قال : صبغة الله مصدر مؤكد منتصب عن قوله آمنا بالله ، وهو فعلة من صبغ كالجلسة من جلس ، والمعنى تطهير الله لأن الإيمان يطهر النفوس

يُطَهِّرُ النُّفُوسَ ، وَالْأَصْلُ فِيهِ أَنَّ النَّصَارَى كَانُوا يَغْمِسُونَ أَوْلَادَهُمْ فِى مَاءٍ أَصْفَرَ يُسَمُّونَهُ الْمَعْمُودِيَّةَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ تَطْهِيرٌ لَهُمْ ، فَعُبِّرَ عَنِ الْإِيمَانِ بِاللهِ

والأصل فيه أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم فى ماء أصفر يسمونه المعمودية ، ويقولون هو تطهير لهم ، وإذا فعل الواحد منهم بولده ذلك قال الآن صار نصرانياً حقاً ، فأمر المسلمون بأن يقولوا لهم قولوا آمنا بالله وصبغنا الله بالإيمان صبغة لا مثل صبغتنا وطهرنا به تطهيراً لا مثل تطهيرنا ، أو يقول المسلمون صبغنا الله بالإيمان صبغته ولم نصبغ صبغتكم ، وإنما جيء بالصبغة على طريقة المشاكلة كما تقول لمن يغرس الأشجار : اغرس كما يغرس فلان ، تريد رجلا يصنع الكرم . قال فى الإيضاح بعد هذا النوع : ومنه الاستطراد وهو الانتقال من معنى إلى معنى آخر متصل به لم يقصد بذكر الأول التوصل إلى ذكر الثانى كقول الحماسى :

وَإِنَّا لَقَوْمٌ لَا نَرَى الْقَتْلَ سُبَّةً ... إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولُ

وعليه قوله تعالى : يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون . قال الزمخشرى : هذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر السوآت ، وخصف الورق عليها إظهاراً للمنة فيما خلق الله من اللباس ، ولما فى العرى وكشف العورة من المهانة والفضيحة ، وإشعاراً بأن التستر باب عظيم من أبواب التقوى هذا أصله ، وقد يكون الثانى هو المقصود فيذكر الأول قبله ليتوصل إليه كقول أبى إسحاق الصابى :

إِنْ كُنْتُ خُنْتُكَ فِى الْمَوَدَّةِ سَاعَةً ... فَذَمَمْتُ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الْمَحْمُودَا

بِصِبْغَةِ اللهِ لِلْمُشَارَكَةِ بِهٰذِهِ الْقَرِينَةِ . وَمِنْهُ الْمُزَاوَجَةُ : وَهِيَ أَنْ يُزَاوَجَ بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ فِى الشَّرْطِ وَالْجَزَاءِ ، كقوله :

إِذَا مَا نَهَى النَّاهِي فَلَجَّ بِيَ الْهَوَى أَصَاخَتْ إِلَى الْوَاشِي فَلَجَّ بِهَا الْهَجْرُ

وَمِنْهُ الْعَكْسُ ، وَهُوَ أَنْ يُقَدَّمَ جُزْءٌ مِنَ الْكَلَامِ ثُمَّ يُؤَخَّرَ ، وَيَقَعُ عَلَى وُجُوهٍ ، مِنْهَا أَنْ يَقَعَ بَيْنَ أَحَدِ طَرَفَيْ جُمْلَةٍ وَمَا أُضِيفَ إِلَيْهِ نَحْوُ : عَادَاتُ السَّادَاتِ سَادَاتُ الْعَادَاتِ . وَمِنْهَا أَنْ يَقَعَ بَيْنَ مُتَعَلِّقَيْ فِعْلَيْنِ

وَزَعَمْتَ أَنَّ لَهُ شَرِيكاً فِى الْعُلَا وَجَحَدْتَهُ فِى فَضْلِهِ التَّوْحِيدَا

قَسَماً لَوَ انِّي حَالِفٌ بِغَمُوسِهَا لِغَرِيمِ دَيْنٍ مَا أَرَادَ مَزِيدَا

ولا بأس أن يسمى هذا إيهام الاستطراد (أن يزاوج) أى يجمل معنيان واقعان فى الشرط والجزاء ، مزدوجين فى أن يرتب على كل منهما معنى مرتب على الآخر (كقوله) أى قول البحترى ، فقد زاوج بين نهى الناهى وإصاختها للواشى ، الواقعين فى الشرط والجزاء فى أن رتب عليهما لجاج شىء ، ومن المزاوجة قول البحترى أيضاً :

إِذَا احْتَرَبَتْ يَوْماً فَفَاضَتْ دِمَاؤُهَا تَذَكَّرَتِ الْقُرْبَى فَفَاضَتْ دُمُوعُهَا

فزاوج بين الاحتراب وتذكر القربى الواقعين فى الشرط والجزاء فى ترتب فيضان شىء عليهما (ومنه العكس) قالوا وهو أن تقدم فى الكلام جزأ ثم تعكس فتقدم ما أخرت وتؤخر ماقدمت وهذا أوضح مما قاله المصنف (أضيف)

فى جُمْلَتَيْنِ ، نحوُ : يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، وَمِنْهَا أَنْ يَقَعَ بَيْنَ لَفْظَيْنِ فى طَرَفَىْ جُمْلَتَيْنِ ، نحوُ : لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ * وَمِنْهُ الرُّجُوعُ ، وَهُوَ الْعَوْدُ إِلَى الْكَلَامِ السَّابِقِ بِالنَّقْضِ لِنُكْتَةٍ ، كقوله :

قِفْ بِالدِّيَارِ الَّتِي لَمْ يَعْفُهَا الْقِدَمُ ... بَلَى وَغَيَّرَهَا الْأَرْوَاحُ وَالدِّيَمُ

وَمِنْهُ التَّوْرِيَةُ ، وَيُسَمَّى الْإِيهَامَ أَيْضًا ؛ وَهُوَ : أَنْ يُطْلَقَ لَفْظٌ لَهُ

أى ذلك الطرف (نحو يخرج الحى من الميت) مثله قول الحماسى :

فَرَدَّ شُعُورَهُنَّ السُّودَ بِيضاً ... وَرَدَّ وُجُوهَهُنَّ الْبِيضَ سُودَا

(نحو لا هن حل لهم) مثله قول أبى الطيب :

فَلَا مَجْدَ فى الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ ... وَلَا مَالَ فى الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ

وقول الآخر :

إِنَّ اللَّيَالِيَ لِلْأَنَامِ مَنَاهِلٌ ... تُطْوَى وَتُنْشَرُ دُونَهَا الْأَعْمَارُ

فَقِصَارُهُنَّ مَعَ الْهُمُومِ طَوِيلَةٌ ... وَطِوَالُهُنَّ مَعَ السُّرُورِ قِصَارُ

(قف بالديار) هو لزهير بن أبى سلمى : الأرواح : الرياح ، والديم جمع ديمة : وهى المطر الدائم فى سكون . فقد دل صدر البيت على أن تطاول الزمان وتقادم العهد لم يعف الديار ، ثم عاد إليه ونقضه بأنه قد غيرها الرياح والأمطار لنكتة ، وهو إظهار الكآبة والحزن والحيرة والدهشة ، حتى كأنه أخبر أولا بما لم يتحقق ، ثم ثاب إليه عقله فتدارك كلامه ، فقال بلى ، وغيرها الأرواح والديم ، ومثل هذا بيت الحماسة :

مَعْنَيَانِ قَرِيبٌ وَبَعِيدٌ وَيُرَادَ الْبَعِيدُ ، وَهِيَ ضَرْبَانِ : مُجَرَّدَةٌ ، وَهِيَ الَّتِي لاَ تُجَامِعُ شَيْئاً مِمَّا يُلاَئِمُ الْقَرِيبَ ، نَحْوُ : الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ، وَمُرَشَّحَةٌ نَحْوُ : وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ . وَمِنْهُ الاسْتِخْدَامُ : وَهُوَ أَنْ يُرَادَ بِلَفْظٍ لَهُ مَعْنَيَانِ : أَحَدُهُمَا ثُمَّ يُرَادَ بِضَمِيرِهِ الآخَرُ ، أَوْ يُرَادَ بِأَحَدِ ضَمِيرَيْهِ أَحَدُهُمَا ثُمَّ يُرَادَ بِالآخَرِ الآخَرُ ، فَالأَوَّلُ كَقوله :

أَلَيْسَ قَلِيلاً نَظْرَةٌ إِنْ نَظَرْتُهَا إِلَيْكِ وَكُلاًّ لَيْسَ مِنْكِ قَلِيلُ

وقول الآخر :

فَأُفٍّ لِهٰذَا الدَّهْرِ لاَ بَلْ لِأَهْلِهِ

(نحو الرحمن على العرش استوى) فإنه أريد باستوى معناه البعيد ، وهو استولى ولم يقترن به شيء مما يلائم القريب الذى هو الاستقرار (ومرشحة) وهي التي قرن بها ما يلائم القريب المورى به عن البعيد (نحو والسماء بنيناها بأيد) فإن المراد بالأيدى المعنى البعيد وهو القدرة ، وقد قرن بها ما يلائم القريب الذى هو الجارحة المخصوصة وهو قوله بنيناها ، هذا . والذى ذكره صاحب الكشاف فى قوله تعالى : الرحمن على العرش استوى إنه تمثيل لأنه لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يرادف الملك جعلوه كناية عن الملك ، ولما امتنع ههنا المعنى الحقيقى صار مجازاً كقوله : وقالت اليهود يد الله مغلولة ، أى هو بخيل ، بل يداه مبسوطتان أى جواد من غير تصور يد ولا غل ولا بسط ، والتفسير بالنعمة والتمحل للتشبيه ، من ضيق

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ ☆ رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غِضَابَا

وَالثَّانِي كَقَوْلِهِ :

فَسَقَى الْغَضَى وَالسَّاكِنِيهِ وَإِنْ هُمْ ☆ شَبُّوهُ بَيْنَ جَوَانِحِي وَضُلُوعِي

وَمِنْهُ اللَّفُّ وَالنَّشْرُ : وَهُوَ ذِكْرُ مُتَعَدِّدٍ عَلَى التَّفْصِيلِ ، أَوِ الإِجْمَالِ ، ثُمَّ مَا لِكُلٍّ وَاحِدٍ ، مِنْ غَيْرِ تَعْيِينٍ ، ثِقَةً بِأَنَّ السَّامِعَ يَرُدُّهُ إِلَيْهِ ،

لعطن والمسافرة عن علم البيان مسيرة أعوام ، وكذلك قوله جل شأنه : والسماء بنيناها بأيد ، تمثيل وتصوير لعظمته من غير ذهاب بالأيدى إلى جهة حقيقة أو مجاز (١) ، وقد شدد النكير على تفسير اليد بالنعمة والأيدى بالقدرة والاستوا بالاستيلاء ، وقد ذكر الشيخ فى دلائل الإعجاز ما يؤيد ذلك ، وشنع على من يذهب هذه المذاهب من المفسرين أكبر تشنيع ، حتى لقد قال : ومن عادة قوم ممن يتعاطى التفسير بغير علم أن توهموا أبداً فى الألفاظ الموضوعة على المجاز والتمثيل أنها على ظواهرها ، فيفسدوا المعنى بذلك ويبطلوا الغرض ، ويمنعوا أنفسهم والسامع منهم العلم بموضع البلاغة ، وبمكان الشرف ، وناهيك بهم إذا هم أخذوا فى ذكر الوجوه وجعلوا يكثرون فى غير طائل هناك ترى ما شئت من باب جهل قد فتحوه ، وزند ضلالة قد قدحوا به ، نسأل الله تعالى العصمة والتوفيق (كقوله إذا نزل) فإنه أراد بالسماء الغيث ، وبضميرها النبت ، والبيت قيل لجرير ، وقيل لمود الحكماء (كقوله فسقى الغضا) فإنه أراد بضمير الغضا فى قوله والساكنيه المكان ، وفى قوله شبوه : أى أوقدوا الشجر ، والبيت للبحترى من قصيدة بائية وحقيقته :

فسقى الغضا والساكنيه وإن هم ☆ شبوه بين جوانح وقلوب

---

(١) يعنى المجاز المرسل ، وإلا فهو مجاز بالاستعارة لأنه تمثيل كما قال .

فَالأَوَّلُ ضَرْبَانِ : لِأَنَّ النَّشْرَ إِمَّا عَلَى تَرْتِيبِ اللَّفِّ نَحْوُ : وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَ إِمَّا عَلَى غَيْرِ تَرْتِيبِهِ ، كَقَوْلِهِ :

كَيْفَ أَسْلُو وَأَنْتِ حِقْفٌ وَغُصْنٌ وَغَزَالٌ لَحْظًا وَقَدًّا وَرِدْفًا

والثَّانِي نحوُ قوْلِهِ تعَالَى : وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا

(نحو ومن رحمته) مثله قول ابن حيوس :

فِعْلُ الْمُدَامِ وَلَوْنُهَا وَمَذَاقُهَا فِي مُقْلَتَيْهِ وَوَجْنَتَيْهِ وَرِيقِهِ

وقول ابن الرومى :

آرَاؤُكُمْ وَوُجُوهُكُمْ وَسُيُوفُكُمْ فِي الْحَادِثَاتِ إِذَا دَجَوْنَ نُجُومُ
فِيهَا مَعَالِمُ لِلْهُدَى وَمَصَابِحٌ تَجْلُو الدُّجَى وَالْأُخْرَيَاتُ رُجُومُ

(كقوله) أى قول ابن حيوس . والحقف : الرمل العظيم المستدير يشبه به الكفل فى العظم والاستدارة ، فاللحظ للغزال ، والقد : للغصن ، والردف : للحقف . « هذا » وهناك نوع آخر من اللف لطيف المسلك ، وهو أن يذكر متعدد على التفصيل ثم يذكر ما لكل ويؤتى بعده بذكر ذلك المتعدد على الإجمال ملفوظاً أو مقدراً فيمع النشر بين لفظين : أحدهما مفصل والآخر مجمل ، وعلى هذا جاء قوله تعالى : فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون . قال صاحب الكشاف : الفعل المعلل محذوف مدلول عليه بما سبق تقديره : ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما

أَوْ نَصَارَى ، أَىْ قَالَتِ الْيَهُودُ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا ، وَقَالَتِ النَّصَارَى لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ نَصَارَى ، فَلَفَّ لِعَدَمِ الِالْتِبَاسِ لِلْعِلْمِ بِتَضْلِيلِ كُلِّ فَرِيقٍ صَاحِبَهُ . وَمِنْهُ الْجَمْعُ : وَهُوَ أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَ مُتَعَدِّدٍ فِي حُكْمٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَنَحْوُ قَوْلِهِ :

إِنَّ الشَّبَابَ وَالْفَرَاغَ وَالْجِدَهْ مَفْسَدَةٌ لِلْمَرْءِ أَيُّ مَفْسَدَهْ

وَمِنْهُ التَّفْرِيقُ : وَهُوَ إِيقَاعُ تَبَايُنٍ بَيْنَ أَمْرَيْنِ ، مِنْ نَوْعٍ ، فِي الْمَدْحِ أَوْ غَيْرِهِ ، كَقَوْلِهِ :

مَا نَوَالُ الْغَمَامِ وَقْتَ رَبِيعٍ كَنَوَالِ الْأَمِيرِ وَقْتَ سَخَاءِ

هداكم ولعلكم تشكرون ، شرع ذلك يعنى جملة ماذكر من أمر الشاهد بصوم الشهر ، وأمر المرخص بمراعاة عدة ما أفطر فيه ، ومن الترخيص فى إباحة الفطر ، فقوله لتكملوا : علة الأمر بمراعاة العدة ، ولتكبروا : علة ما علم من كيفية القضاء والخروج من عهدة الفطر ، ولعلكم تشكرون : علة الترخيص والتيسر ، وهذا نوع من اللف لطيف المسلك لايكاد يهتدى إلى تبينه إلاالنقاب المحدث من علماء البيان (إن الشباب) هو لأبى العتاهية ، والجدة : الاستغناء (ما نوال الغمام) هو لرشيد الدين الوطواط . وبدرة العين : جلد ولد الضأن مملوءاً من الدراهم . فقد أوقع التباين بين النوالين مع أنهما من نوع واحد وهو مطلق نوال ، ومن لطيف هذا النوع قوله :

من قاس جدواك بالغمام فما أنصف فى الحكم بين شكلين

فَنَوَالُ الْأَمِيرِ بَدْرَةُ عَيْنٍ * وَنَوَالُ الْغَمَامِ قَطْرَةُ مَاءِ

وَمِنْهُ التَّقْسِيمُ : وَهُوَ ذِكْرُ مُتَعَدِّدٍ ، ثُمَّ إِضَافَةُ مَا لِكُلٍّ إِلَيْهِ عَلَى التَّعْيِينِ ، كَقَوْلِهِ :

وَلَا يُقِيمُ عَلَى ضَيْمٍ يُرَادُ بِهِ   إِلَّا الْأَذَلَّانِ عَيْرُ الْحَيِّ وَالْوَتِدُ

هٰذَا عَلَى الْخَسْفِ مَرْبُوطٌ بِرُمَّتِهِ   وَذَا يُشَجُّ فَلَا يَرْثِي لَهُ أَحَدُ

وَمِنْهُ الْجَمْعُ مَعَ التَّفْرِيقِ : وَهُوَ أَنْ يُدْخَلَ شَيْآنِ فِي مَعْنًى وَيُفَرَّقَ

أَنْتَ إِذَا جُدْتَ ضَاحِكٌ أَبَدًا * وَهْوَ إِذَا جَادَ دَامِعُ الْعَيْنِ

(وهو ذكر متعدد) وقال السكاكي هو أن تذكر شيئاً ذا جزئين أو أكثر، ثم تضيف إلى كل واحد من أجزائه ما هو له عندك كقوله :

أَدِيبَانِ فِي بَلْخٍ لَا يَأْكُلَانِ   إِذَا صَحِبَا الْمَرْءَ غَيْرَ الْكَبِدْ

فَهٰذَا طَوِيلٌ كَظِلِّ الْقَنَاةِ   وَهٰذَا قَصِيرٌ كَظِلِّ الْوَتِدْ

وهذا يقتضي أن يكون التقسيم أعم من اللف والنشر (كقوله ولا يقيم) البيتان للتلمس : الضيم : الظلم ، والعير : الحمار غلب على الوحشي . والمناسب هنا الأهلي ، والخسف : الذل ، والرمة : قطعة من حبل ، والشج : الدق والكسر ، والمعنى ظاهر ، فقد ذكر العير والوتد ، ثم أضاف إلى الأول الربط مع الخسف ، وإلى الثاني الشج على التعيين . ومن جيد التقسيم قول أبي تمام :

فَمَا هُوَ إِلَّا الْوَحْيُ أَوْ حَدُّ مُرْهَفٍ   تُمِيلُ ظُبَاهُ أَخْدَعَيْ كُلِّ مَائِلِ

فَهٰذَا دَوَاءُ الدَّاءِ مِنْ كُلِّ عَالِمٍ   وَهٰذَا دَوَاءُ الدَّاءِ مِنْ كُلِّ جَاهِلِ

بَيْنَ جِهَتَيِ الْإِدْخَالِ ، كقوله :

فَوَجْهُكَ كَالنَّارِ فِى ضَوْئِهَا وَقَلْبِى كَالنَّارِ فِى حَرِّهَا

وَمِنْهُ الْجَمْعُ مَعَ التَّقْسِيمِ : وَهُوَ جَمْعُ مُتَعَدِّدٍ تَحْتَ حُكْمٍ ، ثُمَّ تَقْسِيمُهُ ، أَوِ الْعَكْسُ ، فَالْأَوَّلُ كقوله :

حَتَّى أَقَامَ عَلَى أَرْبَاضِ خَرْشَنَةٍ تَشْقَى بِهِ الرُّومُ وَالصُّلْبَانُ وَالْبِيَعُ

لِلسَّبْيِ مَا نَكَحُوا وَالْقَتْلِ مَا وَلَدُوا وَالنَّهْبِ مَا جَمَعُوا وَالنَّارِ مَا زَرَعُوا

والثانى كقوله :

قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمُ أَوْ حَاوَلُوا النَّفْعَ فِى أَشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا

(كقوله فوجهك) فقد شبه وجه الحبيب وقلب نفسه بالنار ، وفرق بين وجهى المشابهة والبيت للوطواط (أو العكس) أى تقسيم متعدد . ثم جمعه تحت حكم (حتى أقام) البيتان للمتنبي ، والأرباض جمع ربض : وهو ما حول المدينة . وخرشنة : بلد من بلاد الروم والشاهد فى البيتين ظاهر (كقوله قوم) البيتان لحسان بن ثابت ، والبدع جمع بدعة : وهى الحدث فى الدين بعد الكمال ، والمراد بها هنا محدثات الأخلاق . فقد قسم فى البيت الأول صفة الممدوحين إلى ضر الأعداء ونفع الأولياء ، ثم جمعهما فى البيت الثانى حيث قال سجية تلك ، ومن لطيف هذا الضرب قول الآخر :

لَوْ أَنَّ مَا أَنْتُمْ فِيهِ يَدُومُ لَكُمْ ظَنَنْتُ مَا أَنَا فِيهِ دَائِمًا أَبَدَا

لٰكِنْ رَأَيْتُ اللَّيَالِي غَيْرَ تَارِكَةٍ مَا سَرَّ مِنْ حَادِثٍ أَوْ سَاءَ مُطَّرِدَا

سَجِيَّةٌ تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحْدَثَةٍ ❊ إِنَّ الْخَلاَئِقَ فَاعْلَمْ شَرُّهَا الْبِدَعُ

وَمِنْهُ الْجَمْعُ مَعَ التَّفْرِيقِ وَالتَّقْسِيمِ : كقوله تعالى : يَوْمَ يَأْتِي لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ، فَأَمَّا الذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ، وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلاَّ مَاشَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ . وَقَدْ يُطْلَقُ التَّقْسِيمُ عَلَى أَمْرَيْنِ آخَرَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنْ تَذْكُرَ أَحْوَالَ الشَّيْءِ مُضَافًا إِلَى كُلٍّ مَايَلِيقُ بِهِ ، كقوله :

فَقَدْ سَكَنْتُ إِلَى أَنِّي وَأَنَّكُمُ ❊ سَنَسْتَجِدُّ خِلاَفَ الْحَالَتَيْنِ غَدَا

فقوله خلاف الحالتين جمع لما قسم لطيف ، وقد ازداد لطفاً بحسن مابناه عليه من قوله فقد سكنت إلى أنى وأنكم (كقوله تعالى يوم يأتى) أما الجمع ففى قوله : يوم يأتى لا تكلم نفس إلا بإذنه ، فإن قوله نفس متعدد معنى ، وأما التفريق فى قوله : فمنهم شقى وسعيد . وأما التقسيم ففى قوله : فأما الذين شقوا إلى آخر الآية الثانية . يأتى أى الله سبحانه ، أى أمره أو يأتى اليوم أى هوله ، والزفير : إخراج النفس بشدة . والشهيق : رده بشدة ، وغير مجذوذ : غير مقطوع ، ومن هذا النوع قول ابن شرف القيروانى :

لِمُخْتَلِفِي الْحَاجَاتِ جَمْعٌ بِبَابِهِ ❊ فَهٰذَا لَهُ فَنٌّ وَهٰذَا لَهُ فَنُّ

فَلِلْخَامِلِ الْعُلْيَا وَلِلْمُعْدِمِ الْغِنَى ❊ وَلِلْمُذْنِبِ الْعُتْبَى وَلِلْخَائِفِ الْأَمْنُ

سَأَطْلُبُ حَقِي بِالْقَنَا وَمَشَايِخٍ كَأَنَّهُمُ مِنْ طُولِ مَا الْتَثَمُوا مُرْدُ

يُقَالُ إِذَا لَاقَوْا خِفَافٌ إِذَا دُعُوا كَثِيرٌ إِذَا شَدُّوا قَلِيلٌ إِذَا عُدُّوا

وَالثَّانِي: اسْتِيفَاءُ أَقْسَامِ الشَّيْءِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا

(كقوله سأطلب) البيتان للمتنبي ، والقنا : الرماح وأراد بالمشايخ قومه ، والالتثام : وضع اللثام على الفم والأنف ، وكان ذلك من دأب العرب ، نقوله من طول ما التثموا : أى شدوا اللثام حالة الحرب ، يريد كثيراً ما شنوا الغارات ، ثم وصفهم بشدة الوطأة على العدا والثبات على اللقاء ، وأنهم مسرعون إلى الإجابة إذ دعوا إلى كفاية مهم ، ومدافعة خطب مدلهم ، وأن الواحد منهم يقوم مقام جماعة من غيرهم ، فقد ذكر أحوال المشايخ وأضاف إلى كل حال ما يناسبها وهو ظاهر (كقوله يهب لمن يشاء إناثاً) فإن الإنسان إما أن يكون له ولد أو لا يكون . فإن كان فإما أن يكون ذكراً أو أنثى أو ذكراً وأنثى ، وقد استوفى جميع الأقسام وإنما قدم ذكر الإناث لأن سياق الكلام أنه تعالى يفعل مايشاؤه لا مايشاؤه الإنسان ، فكان ذكر الإناث اللاتى هن من جملة مالا يشاؤه الإنسان أهم ، وليلى الجنس الذى كانت العرب تعده بلاء ذكر البلاء ، فلما أخر الذكور لذلك تدارك تأخيرهم وهم أحقاء بالتقديم بتعريفهم ، لأن التعريف تنويه وتشهير ، كأنه قال : ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم ، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير ، وعرف أن تقديمهن لم يكن لتقدمهن ولكن لمقتضى آخر : ومن هذا الضرب ما حكى عن أعرابى وقف على حلقة الحسن فقال : رحم الله من تصدق من فضل أو آسى من كفاف أو آثر من قوت ، فقال الحسن : ما ترك لأحد عذراً ، ومنه قول طريح :

وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا . وَمِنْهُ التَّجْرِيدُ : وَهُوَ أَنْ يُنْتَزَعَ مِنْ أَمْرٍ ذِي صِفَةٍ آخَرُ مِثْلُهُ فِيهَا مُبَالَغَةً لِكَمَالِهَا فِيهِ ، وَهُوَ أَقْسَامٌ : مِنْهَا نَحْوُ قَوْلِهِمْ : مِنْ فُلَانٍ صَدِيقٌ حَمِيمٌ ، أَيْ بَلَغَ فُلَانٌ مِنَ الصَّدَاقَةِ حَدًّا صَحَّ مَعَهُ أَنْ يُسْتَخْلَصَ مِنْهُ آخَرُ مِثْلُهُ فِيهَا ، وَمِنْهَا نَحْوُ قَوْلِهِمْ : لَئِنْ سَأَلْتَ فُلَانًا لَتَسْأَلَنَّ بِهِ الْبَحْرَ ؛ وَمِنْهَا نَحْوُ قَوْلِهِ :

وَشَوْهَاءَ تَعْدُو بِي إِلَى صَارِخِ الْوَغَى ✲ بِمُسْتَلْئِمٍ مِثْلِ الْفَنِيقِ الْمُرَحَّلِ

إِنْ يَعْلَمُوا الْخَيْرَ يُخْفُوهُ وَإِنْ عَلِمُوا ✲ شَرًّا أَذَاعُوهُ وَإِنْ لَمْ يَعْلَمُوا كَذَبُوا

وقول أبي تمام في الأفشين لما أحرق :

صَلَّى لَهَا حَيًّا وَكَانَ وَقُودَهَا ✲ مَيْتًا وَيَدْخُلُهَا مَعَ الْفُجَّارِ

(نحو قولهم الخ) مما يكون حاصلا بمن التجريدية (حميم) في الصحاح (حميمك : قريبك الذي تهتم لأمره (نحو قولهم الخ) مما يكون حاصلا بالباء التجريدية الداخلة على المنتزع منه ، وهذا القول يقال في مقام المبالغة في وصف فلان بالكرم (نحو قوله الخ) مما يكون حاصلا بدخول الباء في المنتزع (وشوهاء) فرس شوهاء صفة محمودة يراد بها سعة أشداقها ، وصارخ الوغى : أي المستغيث في الحرب ، والمستلئم : لابس اللأمة وهي الدرع ، والفنيق : الفحل المكرم عند أهله ، والمرحل : من رحل البعير أشخصه عن مكانه وأرسله ، فقد بالغ في اتصافه بالاستعداد للحرب ، حتى انتزع منه مستعداً آخر

وَمِنْهَا نحوُ قوله تعالى : لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ، أَىْ فى جَهَنَّمَ ، وَهِىَ دَارُ الْخُلْدِ ؛ وَمِنْهَا نحوُ قوله :

فَلَئِنْ بَقِيتُ لَأَرْحَلَنَّ بِغَزْوَةٍ تَحْوِى الْغَنَائِمَ أَوْ يَمُوتَ كَرِيمُ

وَقِيلَ تَقْدِيرُهُ أَوْ يَمُوتَ مِنِّى كَرِيمٌ ؛ وَفِيهِ نَظَرٌ ، ومنها نحو قوله :

يَا خَيْرَ مَنْ يَرْكَبُ الْمَطِىَّ وَلَا يَشْرَبُ كَأْساً بِكَفِّ مَنْ بَخِلَا

وَمِنْهَا مُخَاطَبَةُ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ ، كقوله :

لَا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلَا مَالُ فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إِنْ لَمْ يُسْعِدِ الْحَالُ

لابساً درعاً (ومنها نحو قوله تعالى) مما يكون حاصلا بدخول فى على المنتزع منه ، فإن جهنم أعاذنا الله منها هى دار الخلد ، لكن انتزع منها مثلها ، وجعل معداً فيها للكفار تهويلا لأمرها ومبالغة فى اتصافها بالشدة (ومنها نحو قوله) مما يكون حاصلا بدون توسط حرف ، وعنى بالكريم نفسه . فكأنه انتزع من نفسه كريماً مبالغة فى كرمه ، والبيت لقتادة بن مسلمة الحنفى (وقيل تقديره أو يموت منى كريم) فيكون من قبيل لى من فلان صديق حميم فلا يكون قسما آخر (وفيه نظر) لحصول التجريد وتمام المعنى بدون هذا التقدير (ومنها نحو قوله) أى قول الأعشى : فإن فيه تجريداً بطريق الكناية حيث انتزع من الممدوح جواداً يشرب هو الكأس بكفه على طريق الكناية لأنه إذا نفى عنه الشرب بكف البخيل ، فقد أثبت له الشرب بكف كريم ، ومعلوم أنه يشرب بكفه فهو ذلك الكريم (كقوله لا خيل عندك) هو للمتنبى ومثله قول الأعشى :

وَمِنْهُ الْمُبَالَغَةُ الْمَقْبُولَةُ : وَالْمُبَالَغَةُ أَنْ يُدَّعَى لِوَصْفٍ بُلُوغُهُ فِي الشِّدَّةِ أَوِ الضَّعْفِ حَدًّا مُسْتَحِيلاً أَوْ مُسْتَبْعَداً ، لِئَلاَّ يُظَنَّ أَنَّهُ غَيْرُ مُتَنَاهٍ فِيهِ ،

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ . وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعاً أَيُّهَا الرَّجُلُ

ه هذا ، ومن لطيف التجريد قول المعرى :

مَاجَتْ نُمَيْرٌ فَهَاجَتْ مِنْكَ ذَا لِبَدٍ وَاللَّيْثُ أَفْتَكُ أَفْعَالاً مِنَ النَّمِرِ

وقول الآخر :

إِنْ تَلْقَنِي لاَ تَرَى غَيْرِي بِنَاظِرَةٍ تَنْسَ السِّلاَحَ وَتَعْرِفُ جَبْهَةَ الْأَسَدِ

(المقبولة) يشير بهذا إلى الرد على من زعم أنها مردودة مطلقاً محتجاً بأن خير الكلام ما خرج مخرج الحق ، وكان على منهج الصدق ، كما قال السيد حسان بن ثابت :

وَإِنَّمَا الشِّعْرُ لُبُّ الْمَرْءِ يَعْرِضُهُ عَلَى الْمَجَالِسِ إِنْ كَانَ كَيْساً وَإِنْ حُمُقَا

وَإِنَّ أَشْعَرَ بَيْتٍ أَنْتَ قَائِلُهُ بَيْتٌ يُقَالُ إِذَا أَنْشَدْتَهُ صَدَقَا

وعلى من زعم أنها مقبولة مطلقاً ، وأن الفضل مقصور عليها ، والمحاسن كلها منسوبة إليها ، محتجاً بأن أحسن الشعر أكذبه ، وخير الكلام مابولغ فيه ، ولهذا استدرك النابغة على السيد حسان فى قوله :

لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ بِالضُّحَى وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا

حيث استعمل جمع القلة ، يعنى الجفنات والأسياف ، وقد ذكر وقت الضحوة وهو وقت تناول الطعام ، وقال يقطرن دون يسلن أو يفضن أو نحو ذلك (فيه) أى فى الشدة أو الضعف (كقوله) أى قول امرىء القيس

وَتَنْحَصِرُ فِى التَّبْلِيغِ وَالْإِغْرَاقِ وَالْغُلُوِّ ، لِأَنَّ الْمُدَّعَى إِنْ كَانَ مُمْكِنًا عَقْلاً وَعَادَةً فَتَبْلِيغٌ ، كقوله :

فَعَادَى عِدَاءً بَيْنَ ثَوْرٍ وَنَعْجَةٍ * دِرَاكاً فَلَمْ يَنْضَحْ بِمَاءٍ فَيُغْسَلِ

وَإِنْ كَانَ مُمْكِنًا عَقْلاً لَا عَادَةً فَإِغْرَاقٌ ، كقوله :

حيث وصف هذا الفرس بأنه أدرك ثوراً وبقرة وحشيين فى مضمار واحد ولم يعرق ، وذلك غير ممتنع عقلا ولا عادة . . . ومن الحسن فى باب المبالغة قول الحماسى :

رَهَنْتُ يَدِى بِالْعَجْزِ عَنْ شُكْرِ بِرِّهِ وَمَافَوْقَ شُكْرِى لِلشَّكُورِ مَزِيدُ
وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ اسْتَطَعْتُهُ وَلَـكِنَّ مَا لَا يُسْتَطَاعُ شَدِيدُ

وقول ابن نباتة السعدى فى سيف الدولة :

لَمْ يُبْقِ جُودُكَ لِى شَيْئًا أُؤَمِّلُهُ تَرَكْتَنِى أَصْحَبُ الدُّنْيَا بِلَا أَمَلِ

ومن المبالغة فى البخل قول ابن الرومى :

لَوْ أَنَّ قَصْرَكَ يَا ابْنَ يُوسُفَ مُمْتَلٍ إِبَرًا يَضِيقُ بِهَا فِنَاءُ الْمَنْزِلِ
وَأَتَاكَ يُوسُفُ يَسْتَعِيرُكَ إِبْرَةً لِيَخِيطَ قَدَّ قَمِيصِهِ لَمْ تَفْعَلِ

وقال أيضاً :

فَتًى عَلَى خُبْزِهِ وَنَائِلِهِ أَشْفَقُ مِنْ وَالِدٍ عَلَى وَلَدِهْ
رَغِيفُهُ مِنْهُ حِينَ تَسْأَلُهُ مَكَانَ رُوحِ الْجَبَانِ مِنْ جَسَدِهْ

(كقوله) أى عمرو بن الأيهم التغلبى : ادعى أن جاره لا يميل عنه إلى

وَنُكْرِمُ جَارَنَا مَا دَامَ فِينَا ... وَنُتْبِعُهُ الْكَرَامَةَ حَيْثُ مَالاَ

وَهُمَا مَقْبُولاَنِ ، وَإِلاَّ فَغُلُوٌّ ، كقوله :

وَأَخَفْتَ أَهْلَ الشِّرْكِ حَتَّى إِنَّهُ ... لَتَخَافُكَ النُّطَفُ الَّتِي لَمْ تُخْلَقِ

جهة إلا وهو يتبعه الكرامة . وهذا ممتنع عادة وإن كان غير ممتنع عقلا ، ومن هذا النوع قول امرىء القيس :

تَنَوَّرْتُهَا مِنْ أَذْرُعَاتٍ وَأَهْلُهَا ... بِيَثْرِبَ أَدْنَى دَارِهَا نَظَرٌ عَالِي

وقول القائل :

وَلَوْ أَنَّ مَابِي مِنْ جَوًى وَصَبَابَةٍ ... عَلَى جَمَلٍ لَمْ يَدْخُلِ النَّارَ كَافِرُ

يريد أنه لو كان مابه من الحب بجمل لنحل حتى يدخل فى سم الخياط (كقوله وأخفت) هو لأبى نواس من قصيدة يمدح بها الرشيد ، ومما يتصل بهذا مايحكى أن العتابى الشاعر لقى أبا نواس فقال : أما استحييت من الله بقولك ، وأخفت أهل الشرك . . . البيت ، فقال له أبو نواس وأنت أما استحييت من الله بقولك :

مَازِلْتُ فِى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ مُطَّرَحًا ... يَضِيقُ عَنِّى وَسِيعُ الرَّأْيِ مِنْ حِيَلِي

فَلَمْ تَزَلْ دَائِباً تَسْعَى بِلُطْفِكَ لِي ... حَتَّى اخْتَلَسْتَ حَيَاتِي مِنْ يَدَيْ أَجَلِي

ومن الغلو قول البحترى :

وَلَوَ اَنَّ مُشْتَاقاً تَكَلَّفَ فَوْقَ مَا ... فِى وُسْعِهِ لَسَعَى إِلَيْكَ الْمِنْبَرُ

ومن هنا أخذ المتنبى قوله :

لَوْ تَعْقِلُ الشَّجَرُ الَّتِي قَابَلْتَهَا ... مَدَّتْ مُحَيِّيَةً إِلَيْكَ الأَغْصُنَا

وَالْمَقْبُولُ مِنْهُ أَصْنَافٌ : مِنْهَا مَا أُدْخِلَ عَلَيْهِ مَايُقَرِّبُهُ إِلَى الصِّحَّةِ نَحْوُ : يَكَادُ فِي قوله تعالى : يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، وَمِنْهَا مَاتَضَمَّنَ نَوْعاً حَسَناً مِنَ التَّخْيِيلِ ، كقوله :

عَقَدَتْ سَنَابِكُهَا عَلَيْهَا عِثْيَرًا ... لَوْ تَبْتَغِي عَنَقاً عَلَيْهِ لَأَمْكَنَا

وَقَدِ اجْتَمَعَا فِي قَوْلِهِ :

ومن الغلو الغث قول المتنبي :

فَتًى أَلْفُ جُزْءٍ رَأْيُهُ فِي زَمَانِهِ ... أَقَلُّ جُزَيْءٍ بَعْضُهُ الرَّأْيُ أَجْمَعُ

ومثل هذا من الـكلام مردود ، لايشتغل بالاحتجاج عنه له ، والتحسين لأمره ، وهو بترك التداول أولى ، إلا على وجه التعجب منه ، ومن قائله (والمقبول منه) أى من الغلو (عقدت) هو للمتنبي من قصيدة يمدح بها ابن عمار وقبله :

أَقْبَلْتَ تَبْسِمُ وَالْجِيَادُ عَوَابِسٌ ... يَخْبُبْنَ بِالْحَلَقِ الْمُضَاعَفِ وَالْقَنَا

السنابك جمع سنبك : وهو طرف الحافر ، والعثير : التراب ، والعنق : نوع من السير . ادعى تراكم الغبار المرتفع من سنابك الخيل فوق رؤسها ، بحيث صار أرضاً يمكن سيرها عليه ، وهذا ممتنع عقلا وعادة ، لكنه تخييل حسن (وقد اجتمعا) أى إدخال مايقربه إلى الصحة ، وتضمن التخييل الحسن (فى قوله) أى فى قول القاضى الأرجانى يصف الليل بالطول . يقول يخيل لى أن الشهب محكمة بالمسامير فى الظلام لاتنتقل من مكانها ، وأن أجفان عيني قد شدت بأهدابها إلى الشهب ، لطول سهرى فى ذلك الليل ، وهذا تخييل

يُخَيَّلُ لِي أَنْ سُمِّرَ الشُّهْبُ فِي الدُّجَى ... وَشُدَّتْ بِأَهْدَابِي إِلَيْهِنَّ أَجْفَانِي

وَمِنْهَا مَا أُخْرِجَ مُخْرَجَ الْهَزْلِ وَالْخَلَاعَةِ ، كقوله :

أَسْكَرُ بِالْأَمْسِ إِنْ عَزَمْتُ عَلَى الشُّرْ ... بِ غَداً إِنَّ ذَا مِنَ الْعَجَبِ

وَمِنْهُ الْمَذْهَبُ الْكَلَامِيُّ ، وَهُوَ إِيرَادُ حُجَّةِ الْمَطْلُوبِ عَلَى طَرِيقَةِ أَهْلِ الْكَلَامِ ، نحوُ : لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا ، وقوله :

حسن ، ولفظ يخيل يزيده حسناً ، هذا ، ومن المقبول فى الغلو قول أبى العلاء المعرى :

تَكَادُ قِسِيُّهُ مِنْ غَيْرِ رَامٍ ... تُمَكِّنُ فِي قُلُوبِهِمُ النِّبَالَا

يُذِيبُ الرُّعْبُ مِنْهُ كُلَّ عَضْبٍ ... فَلَوْلَا الْغِمْدُ يُمْسِكُهُ لَسَالَا

وقول ابن المعتز يصف فرساً :

يَكَادُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ إِهَابِهِ ... إِذَا تَدَلَّى السَّوْطُ لَوْلَا اللَّبَبُ

وقال الفرزدق :

يَكَادُ يُمْسِكُهُ عِرْفَانُ رَاحَتِهِ ... رُكْنُ الْحَطِيمِ إِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ

وقال آخر :

يَكَادُ يَخْرُجُ سُرْعَةً عَنْ ظِلِّهِ ... لَوْ كَانَ يَرْغَبُ فِي فِرَاقِ رَفِيقِ

وذم أعرابى رجلا فقال : يكاد يعدى لؤمه من تسمى باسمه ، ومثل هذا النوع فى الكلام كثير (أسكر بالأمس) لا يعلم قائله ، ومعناه ظاهر (ومنه المذهب الكلامى) وأول من ذكره الجاحظ وأنكر وروده فى القرآن (طريقة أهل الكلام) هى أن تكون الحجة بعد تسليم المقدمات مستلزمة للمطلوب (لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا) واللازم وهو فساد السموات

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً ... وَلَيْسَ وَرَاءَ اللهِ لِلْمَرْءِ مَطْلَبُ
لَئِنْ كُنْتَ قَدْ بُلِّغْتَ عَنِّى خِيَانَةً ... لَمُبْلِغُكَ الْوَاشِى أَغَشُّ وَأَكْذَبُ
وَلَكِنَّنِى كُنْتُ امْرَأً لِىَ جَانِبٌ ... مِنَ الْأَرْضِ فِيهِ مُسْتَرَادٌ وَمَذْهَبُ
مُلُوكٌ وَإِخْوَانٌ إِذَا مَا مَدَحْتُهُمْ ... أُحَكَّمُ فِى أَمْوَالِهِمْ وَأُقَرَّبُ
كَفِعْلِكَ فِى قَوْمٍ أَرَاكَ اصْطَفَيْتَهُمْ ... فَلَمْ تَرَهُمْ فِى مَدْحِهِمْ لَكَ أَذْنَبُوا

وَمِنْهُ حُسْنُ التَّعْلِيلِ : وَهُوَ أَنْ يُدَّعَى لِوَصْفٍ عِلَّةٌ مُنَاسِبَةٌ لَهُ بِاعْتِبَارٍ لَطِيفٍ غَيْرِ حَقِيقِىٍّ ، وَهُوَ أَرْبَعَةُ أَضْرُبٍ : لِأَنَّ الصِّفَةَ إِمَّا ثَابِتَةٌ قُصِدَ بَيَانُ عِلَّتِهَا ، أَوْ غَيْرُ ثَابِتَةٍ أُرِيدَ إِثْبَاتُهَا ، وَالْأُولَى إِمَّا أَنْ لَا يَظْهَرَ

والأرض باطل ، لأن المراد به خروجهما عن النظام الذى هما عليه فكذا الملزوم وهو تعدد الآلهة . ومثل الآية قوله تعالى أيضاً : وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ، أى والإعادة أهون عليه من البدء ، والأهون من البدء أدخل فى الإمكان من البدء ، فالإعادة أدخل فى الإمكان من البدء وهو المطلوب . وقوله تعالى: فلم يعذبكم بذنوبكم ، أى أنتم تعذبون والبنون لا يعذبون فلستم ببنين له (وقوله حلفت) الأبيات للنابغة الذبيانى من قصيدة يعتذر فيها إلى النعمان بن المنذر ، وقد كان مدح آل جفنة بالشام ، فتنكر النعمان من ذلك ، والريبة : الشك ، ومستراد : معناه موضع يتردد فيه لطلب الرزق ومنتجع : من راد الكلأ . فهو يقول : أنت أحسنت إلى قوم فمدحوك ، وأنا أحسن إلى قوم فمدحتهم ، فكما أن مدح أولئك لك لا يعد ذنباً ، فكذلك مدحى لمن أحسن إلى لا يعد ذنباً .

لهَا فِي الْعَادَةِ عِلَّةٌ ، كَقَوْلِهِ :

لَمْ يَحْكِ نَائِلَكَ السَّحَابُ وَإِنَّمَا ☆ حُمَّتْ بِهِ فَصَبِيبُهَا الرُّحَضَاءُ

أَوْ يَظْهَرَ لَهَا عِلَّةٌ غَيْرُ الْمَذْكُورَةِ ، كَقَوْلِهِ :

مَا بِهِ قَتْلُ أَعَادِيهِ وَلَكِنْ ☆ يَتَّقِي إِخْلَافَ مَا تَرْجُو الذِّئَابُ

فَإِنَّ قَتْلَ الْأَعْدَاءِ فِي الْعَادَةِ لِدَفْعِ مَضَرَّتِهِمْ ، لَا لِمَا ذَكَرَهُ

(كقوله لم يحك) هو للمتنبي ، والنائل : العطاء ، والرحضاء : العرق أثر الحمى : فنزول المطر من السحاب صفة ثابتة له لا يظهر لها علة فى العادة . وقد علله بأنه عرق حماها الناجمة عن عطاء الممدوح . ومن هذا الضرب قول أبى تمام :

لَا تُنْكِرِي عَطَلَ الْكَرِيمِ مِنَ الْغِنَى   فَالسَّيْلُ حَرْبٌ لِلْمَكَانِ الْعَالِي

علل عدم إصابة الغنى الكريم بالقياس على عدم إصابة السيل المكان العالى كالطود العظيم من جهة أن الكريم لا تصافه بعلو القدر . كالمكان العالى والغنى لحاجة الخلق إليه كالسيل . وقول ابن نباتة فى صفة فرس أدهم محجل القوائم ذى غرة :

وَأَدْهَمَ يَسْتَمِدُّ اللَّيْلُ مِنْهُ   وَتَطْلُعُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ الثُّرَيَّا
سَرَى خَلْفَ الصَّبَاحِ يَطِيرُ مَشْيًا   وَيَطْوِي خَلْفَهُ الْأَفْلَاكَ طَيًّا
فَلَمَّا خَافَ وَشْكَ الْفَوْتِ مِنْهُ   تَشَبَّثَ بِالْقَوَائِمِ وَالْمُحَيَّا

وفى معناه وهو جيد إلى الغاية :

وَكَأَنَّمَا لَطَمَ الصَّبَاحُ جَبِينَهُ   فَاقْتَصَّ مِنْهُ فَخَاضَ فِي أَحْشَائِهِ

(كقوله) أى قول المتنبى من قصيدة يمدح بها بدر بن عمار (لا لما ذكره)

وَالثَّانِيَةُ : إِمَّا مُمْكِنَةٌ ، كَقَوْلِهِ :

يَا وَاشِياً حَسُنَتْ فِينَا إِسَاءَتُهُ نَجَّى حِذَارُكَ إِنْسَانِي مِنَ الْغَرَقِ

من أن طبيعة الكرم قد غلبت عليه ، ومحبته أن يصدق رجاء الراجين بعثته على قتل أعدائه ، لما علم أنه لما غدا للحرب غدت الذئاب تتوقع أن يتسع عليها الرزق من قتلاهم ، وهذا مبالغة فى وصفه بالجود ، ويتضمن المبالغة فى وصفه بالشجاعة على وجه تخييلى ، أى تناهى فى الشجاعة حتى ظهر ذلك للحيوانات العجم ، فإذا غدا للحرب رجت الذئاب أن تنال من لحوم أعدائه . ومن لطيف هذا الضرب قول ابن المعتز :

قَالُوا اشْتَكَتْ عَيْنُهُ فَقُلْتُ لَهُمْ مِنْ كَثْرَةِ الْقَتْلِ نَالَهَا الْوَصَبُ
حُمْرَتُهَا مِنْ دِمَاءِ مَنْ قَتَلَتْ وَالدَّمُ فِي النَّصْلِ شَاهِدٌ عَجَبُ

وقول الآخر :

أَتَتْنِي تُؤَنِّبُنِي بِالْبُكَاء فَأَهْلاً بِهَا وَبِتَأْنِيبِهَا
تَقُولُ وَفِي قَوْلِهَا حِشْمَةٌ أَتَبْكِي بِعَيْنٍ تَرَانِي بِهَا
فَقُلْتُ إِذَا اسْتَحْسَنَتْ غَيْرَكُمْ أَمَرْتُ الدُّمُوعَ بِتَأْدِيبِهَا

وذلك أن العادة فى دمع العين أن يكون السبب فيه إعراض الحبيب أو اعتراض الرقيب ، ونحو ذلك من الأسباب الموجبة للاكتئاب لا ما جعله من التأديب على الإساءة باستحسان غير الحبيب (والثانية) أى الصفة الغير الثابتة التى أريد إثباتها (كقوله) أى قول مسلم بن الوليد (حذارك) أى حذارى إياك (إنسانى) أى إنسان عينى (نجى إنسانه الخ) أى حيث ترك

فَإِنَّ اسْتِحْسَانَ إِسَاءَةِ الْوَاشِي مُمْكِنٌ ، لَكِنْ لَمَّا خَالَفَ النَّاسَ فِيهِ عَقَّبَهُ بِأَنَّ حِذَارَهُ مِنْهُ نَجَّى إِنْسَانَهُ مِنَ الْغَرَقِ فِي الدُّمُوعِ ، أَوْ غَيْرُ مُمْكِنَةٍ ، كَقَوْلِهِ :

لَوْلَمْ تَكُنْ نِيَّةُ الْجَوْزَاءِ خِدْمَتَهُ   لَمَا رَأَيْتَ عَلَيْهَا عِقْدَ مُنْتَطِقِ

وَأُلْحِقَ بِهِ مَا يُبْنَى عَلَى الشَّكِّ ، كَقَوْلِهِ :

كَأَنَّ السَّحَابَ الْغُرَّ غَيَّبْنَ تَحْتَهَا   حَبِيباً فَمَا تَرْقَا لَهُنَّ مَدَامِعُ

البكاء خوفاً منه — من الواشي — (كقوله لو لم تكن) فنية الجوزاء خدمة الممدوح صفة غير ممكنة قصد إثباتها ، والانتطاق : شد المنطقة ، ونطاق الجوزاء : كواكب حولها . وهذا البيت مترجم من الفارسية ومثله قول الآخر :

لَوْلَمْ يَكُنْ أُقْحُوَاناً ثَغْرُ مَبْسِمِهَا   مَا كَانَ يَزْدَادُ طِيباً سَاعَةَ السَّحَرِ

(والحق به مايبنى على الشك) ولكونه مبنياً على الشك لم يجعل من حسن التعليل لأن فيه ادعاء وإصراراً والشك ينافيه (كقوله كان السحاب) البيت لأبى تمام . والغر : جمع الأغر . والسحاب : اسم جنس يطلق على الواحد والجميع . ومن ثم وصفه بالجمع والمراد السحاب الماطرة : الغزيرة الماء . والضمير فى تحتها للربى فى قوله قبل هذا البيت :

رُبًى شَفَعَتْ رِيحُ الصَّبَا لِرِيَاضِهَا   إِلَى الْمُزْنِ حَتَّى جَادَهَا وَهْوَ هَامِعُ

وترقا أصله ترقأ بالهمز . فقد علل على سبيل الشك نزول المطر من السحاب بأنها غيبت حبيباً تحت تلك الربا . فهى تبكى عليه . وهذا البيت يشير إلى قول محمد بن وهيب :

وَمِنْهُ التَّفْرِيعُ : وَهُوَ أَنْ يُثْبَتَ لِمُتَعَلَّقِ أَمْرٍ حُكْمٌ بَعْدَ إِثْبَاتِهِ لِمُتَعَلَّقٍ آخَرَ ، كقوله :

أَحْلَامُكُمْ لِسَقَامِ الْجَهْلِ شَافِيَةٌ * كَمَا دِمَاؤُكُمُ تَشْفِي مِنَ الْكَلَبِ

طَلَلَانِ طَالَ عَلَيْهِمَا الْأَمَدُ   دَرَسَا فَلَا عَلَمٌ وَلَا نَضَدُ

لَبِسَا الْبِلَى فَكَأَنَّمَا وَجَدَا   بَعْدَ الْأَحِبَّةِ مِثْلَ مَا أَجِدُ

ونظيره قول المتنبي :

رَحَلَ الْعَزَاءُ بِرِحْلَتِي فَكَأَنَّنِي   أَتْبَعْتُهُ الْأَنْفَاسَ لِلتَّشْيِيعِ ،

علة تصعيد الأنفاس فى العادة ، هى التحسر والتأسف ، لا ما جوز أن يكون إياه ، والمعنى رحل عنى العزاء بارتحال عنك ، أى معه أى بسببه ، فكأنه لما كان الصدر محل الصبر ، وكانت الأنفاس تتصعد منه أيضاً ، صار العزاء والتنفس الصعداء كأنهما نزيلان ، فلما رحل ذلك كان حقاً على هذا أن يشيعه قضاء لحق الصحبة (كقوله أحلامكم) فقد أثبت لدمائهم أنها تشفى من الكلب بعد أن أثبت لأحلامهم أنها تشفى من سقام الجهل ، والبيت للكميت من قصيدة يمدح بها أهل البيت ، والكلب : ما يحدث فى الإنسان عقيب عض الكلب ولا دواء له ، زعموا أنجع من شرب دم الملوك ، يقول : أنتم أرباب العقول الراجحة كما أنكم أشراف وملوك ، وفى طريقته قول الحماسى :

بُنَاةُ مَكَارِمٍ وَأُسَاةُ كَلْمٍ   دِمَاؤُكُمُ مِنَ الْكَلَبِ الشِّفَاءُ

هذا ومن التفريع قول الشريف الرضى :

إِذَا فَاتَ شَيْءٌ سَمْعَهُ دَلَّ أَنْفُهُ   وَإِنْ فَاتَ عَيْنَيْهِ رَأَى بِالْمَسَامِعِ

وَمِنْهُ تَأْكِيدُ الْمَدْحِ بِمَا يُشْبِهُ الذَّمَّ : وَهُوَ ضَرْبَانِ : أَفْضَلُهُمَا أَنْ يُسْتَثْنَى مِنْ صِفَةِ ذَمٍّ مَنْفِيَّةٍ عَنِ الشَّيْءِ صِفَةُ مَدْحٍ ، بِتَقْدِيرِ دُخُولِهَا فِيهَا ، كقوله :

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ * بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

أَيْ إِنْ كَانَ فُلُولُ السَّيْفِ عَيْباً ، فَأَثْبَتَ شَيْئاً مِنْهُ عَلَى تَقْدِيرِ كَوْنِهِ

وقول ابن المعتز :

كَلاَمُه أَخْدَعُ مِنْ لَحْظِهِ وَوَعْدُهُ أَكْذَبُ مِنْ طَيْفِهِ

فبينا هو يصف خدع كلامه أثبت خدع لحظه ، وبينا هو يصف كذب وعده أثبت كذب طيفه (ومنه تأكيد المدح بما يشبه الذم) النظر فى هذه التسمية إلى الأعم الأغلب ، وإلا فقد يكون ذلك فى غير المدح والذم ويكون من محسنات الكلام كقوله تعالى : ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف ، يعنى إن أمكنكم أن تنكحوا ما قد سلف فانكحوه فلا يحل لكم غيره ، وذلك غير ممكن ، والغرض المبالغة فى تحريمه وسد الطريق إلى إباحته وليسم تأكيد الشيء بما يشبه نقيضه (كقوله) أى قول النابغة الذبيانى ، فلول جمع فل : وهو الثلم يصيب السيف فى حده (قراع الكتائب) مضاربة الجيوش عند اللقاء (فأثبت) أى فقد أثبت الشاعر شيئاً من العيب على تقدير كون فلول السيوف من العيب وهذا محال ، لأنه كناية عن كال الشجاعة فهو فى المعنى تعليق بالمحال كما يقال حتى يبيض القار[1] ، وحتى يلج الجمل فى سم

---

(١) القار : الزفت .

مِنْهُ ، وَهْوَ مُحَالٌ ، فَهُوَ فِي الْمَعْنَى تَعْلِيقٌ بِالْمُحَالِ ، وَالتَّأْكِيدُ فِيهِ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ كَدَعْوَى الشَّيْءِ بِبَيِّنَةٍ ، وأَنَّ الْأَصْلَ فِي الِاسْتِثْنَاءِ الِاتِّصَالُ ، فَذِكْرُ أَدَاتِهِ قَبْلَ ذِكْرِ مَا بَعْدَهَا يُوهِمُ إِخْرَاجَ شَيْءٍ مِمَّا قَبْلَهَا ، فَإِذَا وَلِيَهَا صِفَةُ مَدْحٍ جَاءَ التَّأْكِيدُ ، وَالثَّانِي أَنْ يُثْبَتَ لِشَيْءٍ صِفَةُ مَدْحٍ ، وَتُعَقَّبَ بِأَدَاةِ اسْتِثْنَاءٍ ، يَلِيهَا صِفَةُ مَدْحٍ أُخْرَى لَهُ ، نَحْوُ : أَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ بَيْدَ أَنِّي مِنْ قُرَيْشٍ ، وَأَصْلُ الِاسْتِثْنَاءِ فِيهِ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ مُنْقَطِعاً لَكِنَّهُ لَمْ يُقَدَّرْ مُتَّصِلاً ، فَلَا يُفِيدُ التَّأْكِيدَ إِلَّا مِنَ الْوَجْهِ الثَّانِي ، وَلِهَذَا كَانَ

الخياط ، وتأكيد المدح فى هذا الضرب من وجهين : أحدهما أنه كدعوى الشيء ببينة كأنه استدل على أنه لا عيب فيهم بأن ثبوت عيب فيهم معلق بكون فلول السيوف عيباً وهو محال ، والثانى أن الأصل فى الاستثناء الاتصال أى كون المستثنى منه بحيث يدخل فيه المستثنى على تقدير السكوت عن الاستثناء ، ليكون ذكر المستثنى إخراجاً له عن الحكم الثابت للمستثنى منه ، وذلك لأن الاستثناء المنقطع مجاز على ماتقرر فى أصول الفقه ، وإذا كان الأمر كذلك فإذا نطق المتكلم بإلا أو نحوها توهم السامع قبل أن ينطق بما بعدها أن ما يأتى بعدها مخرج مما قبلها فيكون شيء من صفة الذم ثابتاً ، فإذا وليها صفة مدح جاء التوكيد لكونه مدحاً على مدح ، وإن كان فيه شيء من السحر ونوع من الخلابة (بيد) بيد هنا بمعنى غير وهو أداة استثناء (وأصل الاستثناء فيه) يقول أصل الاستثناء فى هذا الضرب أن يكون منقطعاً كما أن الاستثناء فى الضرب الأول منقطع لعدم دخول المستثنى فى المستثنى منه ، وهذا لا ينافى أن الأصل فى مطلق الاستثناء هو الاتصال (لكنه لم يقدر متصلا) بل بقى

الْأَوَّلُ أَفْضَلَ ، وَمِنْهُ ضَرْبٌ آخَرُ ، نَحْوُ : وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا ، وَالِاسْتِدْرَاكُ فِي هَذَا الْبَابِ كَالِاسْتِثْنَاءِ كَمَا فِي قَوْلِهِ :

هُوَ الْبَدْرُ إِلَّا أَنَّهُ الْبَحْرُ زَاخِرًا ✻ سِوَى أَنَّهُ الضِّرْغَامُ لَكِنَّهُ الْوَبْلُ

وَمِنْهُ تَأْكِيدُ الذَّمِّ بِمَا يُشْبِهُ الْمَدْحَ : وَهُوَ ضَرْبَانِ : أَحَدُهُمَا أَنْ يُسْتَثْنَى مِنْ صِفَةِ مَدْحٍ مَنْفِيَّةٍ عَنِ الشَّيْءِ صِفَةُ ذَمٍّ ، بِتَقْدِيرِ دُخُولِهَا فِيهَا ، كَقَوْلِهِ : فُلَانٌ لَا خَيْرَ فِيهِ إِلَّا أَنَّهُ يُسِيءُ إِلَى مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ ، وَثَانِيهِمَا أَنْ يُثْبَتَ لِلشَّيْءِ صِفَةُ ذَمٍّ ، وَتُعَقَّبَ بِأَدَاةِ اسْتِثْنَاءٍ ، تَلِيهَا صِفَةُ ذَمٍّ أُخْرَى له ، كَقَوْلِكَ : فُلَانٌ فَاسِقٌ إِلَّا أَنَّهُ جَاهِلٌ ، وَتَحْقِيقُهُمَا عَلَى قِيَاسِ مَا مَرَّ

على حاله من الانقطاع ، لأنه ليس فى هذا الضرب صفة ذم منفية عامة يمكن تقدير دخول صفة المدح فيها (فلا يفيد التأكيد إلا من الوجه الثانى) وهو أن الأصل فى مطلق الاستثناء الاتصال ، فذكر أداته قبل ذكر المستثنى يوهم إخراج شىء مما قبلها من حيث أنه استثناء ، فإذا ذكر بعد الأداة صفة مدح أخرى جاء التأكيد ولا يأتى فيه التأكيد من الوجه الأول أعنى دعوى الشىء ببينة لأنه مبنى على التعليق بالمحال المبنى على تقدير الاستثناء متصلا (ومنه) أى ومن تأكيد المدح بما يشبه الذم (نحو وما تنقم منا) أى وما تعيب منا إلا أصل المناقب والمفاخر كلها ، وهو الإيمان بآيات الله (كما فى قوله هو البدر) فالأولان فيه استثنا آن مثل : بيد أنى من قريش ، وقوله لكنه الوبل ، استدراك يفيد من التأكيد ما يفيده هذا الضرب من الاستثناء ، لأنه استثناء منقطع وإلا فيه بمعنى لكن ، والبيت لبديع الزمان الهمذانى يمدح به خلف بن أحمد السجستانى

وَمِنْهُ الِاسْتِتْبَاعُ : وَهُوَ الْمَدْحُ بِشَيْءٍ عَلَى وَجْهٍ يَسْتَتْبِعُ الْمَدْحَ بِشَيْءٍ آخَرَ ، كقوله :

نَهَبْتَ مِنَ الْأَعْمَارِ مَا لَوْ حَوَيْتَهُ   لَهُنِّئَتِ الدُّنْيَا بِأَنَّكَ خَالِدُ

مَدَحَهُ بِالنِّهَايَةِ فِي الشَّجَاعَةِ عَلَى وَجْهٍ اسْتَتْبَعَ مَدْحُهُ بِكَوْنِهِ سَبَبًا لِصَلَاحِ الدُّنْيَا وَنِظَامِهَا ، وَفِيهِ أَنَّهُ نَهَبَ الْأَعْمَارَ دُونَ الْأَمْوَالِ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ ظَالِمًا فِي قَتْلِهِمْ . وَمِنْهُ الْإِدْمَاجُ : وَهُوَ أَنْ يُضَمَّنَ كَلَامٌ سِيقَ لِمَعْنًى مَعْنًى آخَرَ

(نهبت من الأعمار) هو للمتنبي (مدحه للنهاية فى الشجاعة) إذ كثر قتلاه بحيث لو ورث أعمارهم لخلد فى الدنيا (على وجه استتبع مدحه بكونه سبباً لصلاح الدنيا) حيث جعل الدنيا مهنأة بخلوده ، ولا معنى لتهنئة أحد بشيء لا فائدة له فيه ولا ثمرة يجنيها منه (وفيه) يقول إن فى البيت وجهين آخرين من المدح ذكرهما على بن عيسى الربعى ، فأولهما أنه نهب الأعمار دون الأموال وهذا مما يشف عن علو الهمة ، وثانيهما أنه لم يكن ظالماً فى قتل أحد من مقتوليه لأنه لم يقصد بذلك إلا اصلاح الدنيا وأهلها ، فهم مسرورون ببقائه (ومنه الإدماج) يقال أدمج الشيء فى الثوب : إذا لفه فيه (وهو أن يضمن كلام سيق لمعنى معنى آخر) فهذا المعنى الثانى يجب ألا يكون مصرحاً به ولا يكون فى الكلام إشعار بأنه مسوق لأجله ، فمن قال فى قول الشاعر يهنىء بعض الوزراء لما استوزر :

أَبَى دَهْرُنَا إِسْعَافَنَا فِي نُفُوسِنَا   وَأَسْعَفَنَا فِيمَنْ نُحِبُّ وَنُكْرِمُ

فَقُلْتُ لَهُ نُعْمَاكَ فِيهِمْ أَتِمَّهَا   وَدَعْ أَمْرَنَا إِنَّ الْمُهِمَّ الْمُقَدَّمُ

فَهُوَ أَعَمّ مِنَ الِاسْتِتْبَاعِ ، كقوله :

أُقَلِّبُ فِيهِ أَجْفَانِي كَأَنِّي ✿ أَعُدُّ بِهَا عَلَى الدَّهْرِ الذُّنُوبَا

فَإِنَّهُ ضَمَّنَ وَصْفَ اللَّيْلِ بِالطُّولِ ، الشِّكَايَةَ مِنَ الدَّهْرِ . وَمِنْهُ مَنْ قَالَ لِأَعْوَرَ : ✿ لَيْتَ عَيْنَيْهِ سَوَاءٌ ✿

إنه أدمج شكوى الزمان ، وما هو عليه من اختلال الأحوال ، فى التهنئة فقدسها ، لأن الشكاية مصرح بها فكيف تكون مدمجة ولو جعل التهنئة مدمجة لكان أقرب (فهو أعم من الاستتباع) لشموله المدح وغيره ، واختصاص الاستتباع بالمدح (كقوله) أى قول أبى الطبيب يصف طول الليل عليه ، ومثله قول ابن المعتز فى الخيرى :

قَدْ نَفَضَ الْعَاشِقُونَ مَاصَنَعَ الْهَجْرُ بِأَلْوَانِهِمْ عَلَى وَرَقِهْ

فإن الغرض وصف الخيرى بالصفرة ، فأدمج الغزل فى الوصف ، وكذلك قول ابن نباتة :

وَلَابُدَّ لِي مِنْ جَهْلَةٍ فِي وِصَالِهِ فَمَنْ لِي بِخِلٍّ أُودِعُ الْحِلْمَ عِنْدَهُ

فإنه ضمن الغزل الفخر بكونه حليما المكنى عنه بالاستفهام عن وجود خل صالح ، لأن يودعه حلمه ، وضمن الفخر بذلك بإخراج الاستفهام مخرج الإنكار شكوى الزمان لتغير الإخوان حتى لم يبق فيهم من يصلح لهذا الشان ، ونبه بذلك على أنه لم يعزم على مفارقة حلمه جملة أبداً ، ولكن إذا كان مريداً لوصل هذا المحبوب المستلزم للجهل المنافى للحلم . عزم على أنه إن وجد من يصلح لأن يودعه حلمه أودعه إياه ، فإن الودائع تستعاد (كقول من قال لأعور ليت عينيه سواء) فإنه يحتمل تمنى أن تصير العين العوراء صحيحة

السكاكيُّ : وَمِنْهُ مُتَشَابِهَاتُ الْقُرْآنِ باعْتِبَارٍ . وَمِنْهُ الْهَزْلُ الَّذِى يُرَادُ بِهِ الْجِدُّ ، كَقَوْلِهِ :

إِذَا مَا تَمِيمِىٌّ أَتَاكَ مُفَاخِرًا * فَقُلْ عَدِّ عَنْ ذَا كَيْفَ أَكْلُكَ لِلضَّبِّ

وَمِنْهُ تَجَاهُلُ الْعَارِفِ : وَهُوَ كَمَا سَمَّاهُ السكاكيُّ سَوْقُ الْمَعْلُومِ .

فيكون مدحاً أو بالعكس فيكون ذماً . والقائل هو بشار بن برد قاله فى خياط أعور يسمى عمرو وصدره :

* خَاطَ لِى عَمْرٌو قَبَاءْ *

(قال) السكاكى : وللمتشابهات من القرآن مدخل فى هذا النوع ، يعنى التوجيه ، باعتبار وهو احتمالها للوجهين المختلفين . أى وتفارقه باعتبار آخر وهو عدم استواء الاحتمالين لأن أحد المعنيين فى المتشابهات قريب والآخر بعيد لما ذكره السكاكى نفسه من أن أكثر متشابهات القرآن من قبيل التورية والإيهام . ويجوز أن يكون وجه المفارقة هو أن المعنيين فى المتشابهات لا يجب تضادهما ، إذ يجوز اجتماعهما كالقدرة واليد بمعنى الجارحة ، بخلاف التوجيه فإنه يجب فيه تضاد المعنيين . (ومنه الهزل الذى يراد به الجد) وترجمته تغنى عن تفسيره ، ومن أمثلته قول امرىء القيس :

وَقَدْ عَلِمَتْ سَلْمَى وَإِنْ كَانَ بَعْلَهَا بِأَنَّ الْفَتَى يَهْذِى وَلَيْسَ بِفَعَّالِ

فهو الفاتح لهذا الباب (كقوله) أى قول أبى نواس ، فإنه أورده على سبيل الهزل ، والمراد به الجد . قالوا لأن تميما كانت تكثر أكل الضب

مَسَاقَ غَيْرِهِ لِنُكْتَةٍ ، كَالتَّوْبِيخِ فى قَوْلِ الْخَارِجِيَّةِ :

أَيَا شَجَرَ الْخَابُورِ مَا لَكَ مُورِقًا كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفِ

وَالْمُبَالَغَةِ فى الْمَدْحِ ، كَقَوْلِهِ :

أَلَمْعُ بَرْقٍ سَرَى أَمْ ضَوْءُ مِصْبَاحِ أَمِ ابْتِسَامَتُهَا بِالْمَنْظَرِ الضَّاحِي

أَوْ فى الذَّمِّ كَقَوْلِهِ :

وَمَا أَدْرِي، وَسَوْفَ إِخَالُ أَدْرِي أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

وَالتَّدَلُّهِ فى الْحُبِّ فى قَوْلِهِ :

بِاللهِ يَا ظَبَيَاتِ الْقَاعِ قُلْنَ لَنَا لَيْلَايَ مِنْكُنَّ أَمْ لَيْلَى مِنَ الْبَشَرِ

وَمِنْهُ الْقَوْلُ بِالْمُوجِبِ ، وَهُوَ ضَرْبَانِ : أَحَدُهُمَا أَنْ تَقَعَ صِفَةٌ فى كَلَامِ الْغَيْرِ كِنَايَةً عَنْ شَىْءٍ أُثْبِتَ لَهُ حُكْمٌ فَتُثْبِتَهَا لِغَيْرِهِ مِنْ

وتعبير به (فى قول الخارجية) هى ليلى بنت طريف ، ترثى أخاها حين قتل وبعد البيت :

فَتًى لَا يُرِيدُ الْعِزَّ إِلَّا مِنَ التُّقَى وَلَا الرِّزْقَ إِلَّا مِنْ قَنًا وَسُيُوفِ

(الخابور) نهر من ديار بكر تنبت على حافتيه أشجار (ألمع برق) هو للبحترى ، والمنظر أراد به الوجه ، والضاحى : الظاهر المشرق (وما أدرى) هو لزهير (بالله ياظبيات) هو للحسين بن عبد الله الغريبى ، ومثله قول ذى الرمة :

أَيَا ظَبْيَةَ الْوَعْسَاءِ بَيْنَ جُلَاجِلٍ وَبَيْنَ النَّقَا آ أَنْتِ أَمْ أُمُّ سَالِمِ

غَيْرِ تَعَرُّضٍ لِثُبُوتِهِ ، أَوْ نَفْيِهِ عَنْهُ ، نحوُ : يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، وَالثَّانِي حَمْلُ لَفْظٍ وَقَعَ فِي كَلَامِ الْغَيْرِ عَلَى خِلَافِ مُرَادِهِ مِمَّا يَحْتَمِلُهُ بِذِكْرِ مُتَعَلَّقِهِ ، كقوله :

قُلْتُ ثَقَّلْتُ إِذْ أَتَيْتُ مِرَاراً * قَالَ ثَقَّلْتَ كَاهِلِي بِالْأَيَادِي

وَمِنْهُ الِاطِّرَادُ : وَهُوَ أَنْ تَأْتِيَ بِأَسْمَاءِ الْمَمْدُوحِ أَوْ غَيْرِهِ وَآبَائِهِ عَلَى

والقاع : هو المستوى من الأرض (القول بالموجب) ويسمى أسلوب الحكيم (نحو يقولون) فإنهم كنوا بالأعز عن فريقهم ، وبالأذل عن فريق المؤمنين ، وأثبتوا للأعز الإخراج ، فأثبت الله تعالى فى الرد عليهم صفة العزة لله ولرسوله وللمؤمنين من غير تعرض لثبوت حكم الإخراج الموصوفين بصفة العزة ولا لنفيه عنهم (كقوله قلت ثقلت) فلفظ ثقلت وقع فى كلام الغير بمعنى حملتك المؤنة ، وثقلتك بالإتيان مرة بعد أخرى ، وقد حمله على تثقيل عاتقه بالأيادى والمنن وبعد البيت :

قُلْتُ طَوَّلْتُ قَالَ لَا بَلْ تَطَوَّلْتَ وَأَبْرَمْتُ قَالَ حَبْلَ وِدَادِي

أى طولت الإقامة والإتيان ، وأبرمتك : أى أمللت ، وأبرم أيضاً : أحكم ، والتطول : الإنعام ، فقوله أبرمت أيضاً من هذا القبيل ، ومن هذا الباب قول القاضى الأرجانى :

غَالَطَتْنِي إِذْ كَسَتْ جِسْمِيَ الضَّنَا كِسْوَةً عَرَّتْ مِنَ اللَّحْمِ الْعِظَامَا

ثُمَّ قَالَتْ أَنْتَ عِنْدِي فِي الْهَوَى مِثْلُ عَيْنِي صَدَقَتْ لَكِنْ سَقَامَا

(ومنه الاطراد) لأن تلك الأسماء فى تحدرها كالماء الجارى فى اطراده

تَرْتِيبِ الْوِلَادَةِ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ ، كقوله :

إِنْ يَقْتُلُوكَ فَقَدْ ثَلَلْتَ عُرُوشَهُمْ ۞ بِعُتَيْبَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ شِهَابِ

وَأَمَّا اللَّفْظِيُّ : فَمِنْهُ الْجِنَاسُ بَيْنَ اللَّفْظَيْنِ ، وَهُوَ تَشَابُهُهُمَا فِي اللَّفْظِ ، وَالتَّامُّ مِنْهُ أَنْ يَتَّفِقَا فِي أَنْوَاعِ الْحُرُوفِ وَأَعْدَادِهَا وَهَيْآتِهَا وَتَرْتِيبِهَا ، فَإِنْ كَانَا مِنْ نَوْعٍ وَاحِدٍ كَاسْمَيْنِ سُمِّيَ مُمَاثِلاً ، نحو : وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَالَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ، وَإِنْ كَانَا مِنْ نَوْعَيْنِ سُمِّيَ مُسْتَوْفًى ، كقوله :

مَامَاتَ مِنْ كَرَمِ الزَّمَانِ فَإِنَّهُ ۞ يَحْيَا لَدَى يَحْيَى بْنِ عَبْدِ اللهِ

وسهولة انسجامه (أن يقتلوك) أى إن تبجحوا بقتلك وفرحوا به ، فقد أثرت فى عزهم وهدمت أساس مجدهم بقتل رئيسهم . هذا آخر المحسنات المعنوية وقد أخذ المصنف فى بيان المحسنات اللفظية وذكر منها فى هذا الكتاب سبعة أنواع : (أن يتفقا فى أنواع الحروف وأعدادها وهيآتها وترتيبها) فخرج نحو يفرح ويمرح ، ونحو الساق والمساق ، ونحو البرد والبرد ، ونحو الفتح والحتف (نحو ويوم تقوم الساعة) ومثل قول أبى تمام :

إِذَا الْخَيْلُ جَابَتْ قَسْطَلَ الْحَرْبِ صَدَّعُوا ۞ صُدُورَ الْعَوَالِي فِي صُدُورِ الْكَتَائِبِ

وقول الشاعر :

حَدَقُ الْآجَالِ آجَالُ ۞ وَالْهَوَى لِلْمَرْءِ قَتَّالُ

الأول جمع إجل بالكسر : وهو القطيع من بقر الوحش ، والثانى جمع أجل : والمراد به منتهى الأعمار (مامات) هو لأبى تمام :

وَأَيْضاً إِنْ كَانَ أَحَدُ لَفظَيْهِ مُرَكَّباً سُمِّيَ جِنَاسَ التَّرْكِيبِ ، فَإِنِ اتَّفقَا فِي الْخَطِّ خُصَّ بِاسْمِ الْمُتَشَابِهِ ، كَقَوْلِهِ :

إِذَا مَلِكٌ لَمْ يَكُنْ ذَا هِبَهْ * فَدَعْهُ فَدَوْلَتُهُ ذَاهِبَهْ

وَ إِلاَّ خُصَّ بِاسْمِ الْمَفْرُوقِ ، كَقَوْلِهِ :

كُلُّكُمْ قَدْ أَخَذَ الْجَا مَ وَلاَ جَامَ لَنَا

مَا الَّذِى ضَرَّ مُدِيرَ الْجَـــامِ لَوْ جَامَلَنَا

وَ إِنِ اخْتَلَفَا فِي هَيآتِ الْحُرُوفِ فَقَطْ سُمِّيَ مُحَرَّفاً ، كَقَوْلِهِمْ : جُبَّةُ الْبُرْدِ جُنَّةُ الْبَرْدِ وَنَحْوُهُ : الْجَاهِلُ إِمَّا مُفْرِطٌ أَوْ مُفَرِّطٌ ، وَالْحَرْفُ الْمُشَدَّدُ فِي حُكْمِ الْمُخَفَّفِ ، وَكَقَوْلِهِمْ : الْبِدْعَةُ شَرَكُ الشِّرْكِ ، وَ إِنِ اخْتَلَفَا فِي

(خص باسم المتشابه) لتشابه اللفظين فى الكتابة (إذا ملك) هو لأبى الفتح البستى ، وقوله لم يكن ذاهبة : أى صاحب هبة وعطاء ، وقوله فدولته ذاهبة : أى غير باقية (كلكم قد أخذ الجام) هو لأبى الفتح أيضاً ، والجام : إناء يشرب فيه الخمر ، ومديره : يعنى به الساقى ، وقوله لو جاملنا : أى عاملنا بالجميل (خص باسم المفروق) لافتراق اللفظين فى صورة الكتابة (سمى محرفاً) لانحراف هيئة أحد اللفظين عن هيئة الآخر (كقولهم جبة البرد الخ) فقد وقع الاختلاف بين البرد والبرد ، لأن الباء فى الأول ضمه ، وفى الثانى فتحة ، وأما الجبة والجنة فمن التجنيس اللاحق لا المحرف ، والجنة : الوقاية (إما مفرط أو مفرط) الأول من الإفراط وهو تجاوز الحد ، والثانى من التفريط وهو التقصير (كقولهم البدعة) مثله قول أبى العلاء المعرى :

وَالْحُسْنُ يَظْهَرُ فِي بَيْتَيْنِ رَوْنَقُهُ بَيْتٌ مِنَ الشِّعْرِ أَوْ بَيْتٌ مِنَ الشَّعَرِ

أَعْدَادِهَا سُمِّيَ نَاقِصاً ، وَذَلِكَ إِمَّا بِحَرْفٍ فِي الْأَوَّلِ ، مِثْلُ : وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ، أَوْ فِي الْوَسَطِ ، نَحْوُ : جَدِّي جَهْدِي أَوْ فِي الْآخِرِ ، كَقَوْلِهِ :

* يَمُدُّونَ مِنْ أَيْدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمِ *

وَرُبَّمَا سُمِّيَ هَذَا مُطَرَّفاً ، وَإِمَّا بِأَكْثَرَ ، كَقَوْلِهَا :

إِنَّ الْبُكَاءَ هُوَ الشِّفَا ءُ مِنَ الْجَوَى بَيْنَ الْجَوَانِحِ

(سمى ناقصاً) لنقصان أحد اللفظين عن الآخر (جدى جهدى) أى حظى من الدنيا وغناى فيها إنما هو باجتهادى وسعيى (كقوله يمدون) تمامه :

* تَصُولُ بِأَسْيَافٍ قَوَاضٍ قَوَاضِبِ *

والبيت لأبى تمام ، وقوله من أيد : فمن زائدة على مذهب الأخفش أو للتبعيض مثلها فى قولهم هز من عطفه وحرك من نشاطه . وبالجملة هو الواقع موقع مفعول يمدون ، وعواص جمع عاصية من عصاه ضربه بالعصى : أى السيف ، وعواصم : من عصمه حفظه وحماه ، وقواض جمع قاضية : من قضى عليه قتله ، وقواضب جمع قاضب من قضبه جمعه : أى يمدون للضرب يوم الحرب أيدياً ضاربات للأعداء حاميات للأولياء صائلات على الأقران بسيوف قاتلة قاطعة (وربما سمى مطرفاً) يعنى هذا القسم الذى تكون فيه الزيادة فى الآخر لتطرف الزيادة فيه . هذا ، ووجه حسنه أنك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة كالميم من عواصم أنها هى التى مضت ، وإنما أتى بها للتأكيد حتى إذا تمكن آخرها فى نفسك ووعاه سمعك ، انصرف عنك ذلك

وَرُبمَا سُمِّيَ هذا مُذَيَّلاً ، وإن اختلفا فى أنواعِها فَيُشْتَرَطُ أَنْ لا يَقَعَ بِأَكْثَرَ من حَرْفٍ ، ثم الحَرْفان إِنْ كَانَا مُتَقَارِبَيْنِ سُمِّيَ مُضَارِعاً ، وهو إِمَّا فى الأَوَّلِ نحوُ : بَيْنِي وَبَيْنَ كِنِّي لَيْلٌ دَامِسٌ وَطَرِيقٌ طَامِسٌ ، أو فى الْوَسَطِ نحوُ : وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عنه ، أو فى الآخِرِ نحو : الخيلُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الْخَيْرُ ، وَإِلاَّ سُمِّيَ لاَحِقاً ، وهو أيضاً إِمَّا فى الْأَوَّلِ ، نحوُ : وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ، أو فى الْوَسَطِ ، نحوُ : ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ، أَوْ فِى الآخِرِ نحوُ : وَإِذَا جاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ ، وإنْ اختلفا فِى تَرْتِيبِهَا سُمِّيَ تَجْنِيسَ الْقَلْبِ ، نحوُ : حُسَامُهُ فَتْحٌ لِأَوْلِيائِهِ حَتْفٌ لِأَعْدَائِهِ ، وَيُسَمَّى قَلْبَ كُلٍّ ، ونحوُ : اللّهُمَّ

التوهم . وفى ذلك حصول الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها قاله الشيخ الإمام (كقولها) أى الخنساء . والجوى : الحرقة (مذيلا) لأن تلك الزيادة فى آخره كالذيل (سمى مضارعاً) لمضارعة المباين من اللفظين لصاحبه فى المخرج (نحو بينى) هذا كلام للحريرى . والكن : المنزل . والدامس : الشديد الظلمة . والطامس : المطموس العلامات الذى لا يهتدى فيه إلى المراد (ويل لكل همزة لمزة) الهمز : الكسر . واللمز : الطعن . والمراد الكسر من أعراض الناس والغض منهم . وبناء فعلة يدل على أن ذلك عادة منه قد ضرى بها ونحوهما اللعنة والضحكة (سمى تجنيس القلب) لوقوع القلب : أى عكس بعض الحروف فى أحد اللفظين بالنظر للآخر (نحو حسامه) هذا مأخوذ من قول الأحنف ابن قيس :

اسْتُرْ عَوْرَاتِنا وآمِنْ رَوْعَاتِنا ، وَيُسَمَّى قَلْبَ بَعْضٍ وَإِذَا وَقَعَ أَحَدُهُمَا فى أَوَّلِ البيتِ وَالآخَرُ فى آخِرِهِ سُمِّىَ مَقْلُوباً مُجَنَّحاً ، وَإِذَا وَلِىَ أَحَدُ الْمُتَجَانِسَيْنِ الآخَرَ سُمِّىَ مُزْدَوَجاً وَمكرَّراً وَمُرَدَّداً نَحْوُ : وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ . وَيَلْحَقُ بِالْجِنَاسِ شَيْئَانِ ، أَحَدُهُمَا أَنْ يَجْمَعَ اللَّفْظَيْنِ الاشْتِقَاقُ نَحْوُ : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ، والثَّانِى أَنْ يَجْمَعَهُمَا الْمُشَابَهَةُ ، وَهِىَ مَا يُشْبِهُ الاشْتِقَاقَ نَحْوُ : قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ . وَمِنْهُ رَدُّ الْعَجُزِ عَلَى الصَّدْرِ وَهُوَ فى

حُسَامُكَ فِيهِ لِلْأَحْبَابِ فَتْحٌ   وَرُمْحُكَ فِيهِ لِلْأَعداء حَتْفُ

(سمى مقلوباً مجنحاً) لأن اللفظين كأنهما جناحان للبيت . وهذا كقول ابن نباتة :

سَاقٍ يُرِينِى قَلْبُهُ قَسْوَةً   وَكُلُّ سَاقٍ قَلْبُهُ قَاسِ

(نحو وجئتك من سبأ) ونحو قولهم من طلب وجد وجد . وقولهم من قرع باباً ولج ولج . وقولهم النبيذ بغير النغم غم . وبغير الدسم سم (نحو فأقم وجهك) مثله قوله تعالى : فروح وريحان . وقوله عليه السلام : الظلم ظلمات يوم القيامة . وقول الإمام الشافعى وقد سئل عن النبيذ : أجمع أهل الحرمين على تحريمه ، وقول أبى تمام :

* فَيَا دَمْعُ أَنْجِدْنِى عَلَى سَاكِنِى نَجْدِ *

وقول البحترى :

يَعْشَى عَنِ الْمَجْدِ الْغَبِىُّ وَلَنْ تَرَى   فِى سُؤْدُدٍ أَرَباً لِغَيْرِ أَرِيبِ

(نحو قال) وقوله تعالى : وجنى الجنتين دان . وقول البحترى :

النَّثْرِ أَنْ يُجْعَلَ أَحَدُ اللَّفْظَيْنِ الْمُكَرَّرَيْنِ أَوِ الْمُتَجَانِسَيْنِ أَوِ الْمُلْحَقَيْنِ بِهِمَا فِى أَوَّلِ الْفِقْرَةِ ، وَالْآخَرُ فِى آخِرِهَا ، نَحْوُ : وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ، ونحو : سَائِلُ اللَّئِيمِ يَرْجِعُ وَدَمْعُهُ سَائِلٌ ، وَنَحْوُ : اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً وَنَحْوُ : قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ، وَفِى النَّظْمِ أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا فِى آخِرِ الْبَيْتِ وَالْآخَرُ فِى صَدْرِ الْمِصْرَاعِ الْأَوَّلِ أَوْ آخِرِهِ أَوْ صَدْرِ الثَّانِى ، كقوله :

سَرِيعٌ إِلَى ابْنِ الْعَمِّ يَلْطِمُ وَجْهَهُ * وَلَيْسَ إِلَى دَاعِى النَّدَى بِسَرِيعِ

وَإِذَا مَارِيَاحُ جُودِكَ هَبَّتْ * صَارَ قَوْلُ الْعَذُولِ فِيهَا هَبَاءَ

(ومنه) أى ومن اللفظى (المكررين) يعنى المتفقين فى اللفظ والمعنى (أو المتجانسين) أى المتشابهين فى اللفظ دون المعنى (أو الملحقين بهما) أى المتجانسين والمراد بهما اللفظان اللذان يجمعهما الاشتقاق أو شبه الاشتقاق وقد مثل المصنف لهذه الأربعة على الترتيب (أحدهما) أى أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين بهما (والآخر فى صدر المصراع الأول أو حشوه أو آخره أو صدر الثانى) وعلى هذا تصير الأقسام ستة عشر ناجمة عن ضروب أربعة أقسام : المكررين والمتجانسين والملحقين اشتقاقاً والملحقين بشبه الاشتقاق فى أربعة ، وهى كون اللفظ المقابل لما فى عجز البيت واقعاً فى صدر المصراع الأول ، أو حشوه أو آخره ، أو صدر الثانى ، والمصنف أورد ثلاثة عشر مثالا وأهمل ثلاثة اكتفاء لعله بأمثلة الاشتقاق ، وسنذكرها أخرة إن شاء الله (كقوله سريع) فيما يكون المكرر الآخر فى صدر المصراع

وقوله :

تَمَتَّعْ مِنْ شَمِيمِ عَرَارِ نَجْدٍ ... فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَّةِ مِنْ عَرَارِ

وقوله :

وَمَنْ كَانَ بِالْبِيضِ الْكَوَاعِبِ مُغْرَمًا ... فَمَا زِلْتُ بِالْبِيضِ الْقَوَاضِبِ مُغْرَمَا

وقوله :

وَإِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا مُعَرَّجَ سَاعَةٍ ... قَلِيلًا فَإِنِّي نَافِعٌ لِي قَلِيلُهَا

الأول والبيت للأقيشر وتقدم السبب فى قوله له (وقوله تمتع) فيما يكون المكرر الآخر فى حشو المصراع الأول والبيت للصمة بن عبد الله القشيرى ، والعرار : وردة ناعمة صفراء طيبة الرائحة ، وموضع من عرار رفع على أنه اسم ما ومن زائدة ، وتمتع مقول أقول فى قوله :

أَقُولُ لِصَاحِبِي وَالْعِيسُ تَهْوِي ... بِنَا بَيْنَ الْمُنِيفَةِ فَالضِّمَارِ

(وقوله ومن كان) فيما يكون المكرر الآخر فى آخر المصراع الأول ، والبيت لأبى تمام ، والكواعب جمع كاعب : وهى الجارية حين يبدو ثديها للنهوض ، والبيض القواضب : السيوف القواطع (وقوله وإن لم يكن) فيما يكون المكرر الآخر فى صدر المصراع الثانى ، والبيت لذى الرمة وقبله :

أَلِمَّا عَلَى الدَّارِ الَّتِي لَوْ وَجَدْتُهَا ... بِهَا أَهْلُهَا مَا كَانَ وَحْشًا مَقِيلُهَا

الإلمام : النزول القليل ، والتعريج على الشىء : الإقامة عليه ، وانتصب معرج على أنه خبر يكن واسمه ضمير الإلمام ، وقليلا صفة مؤكدة ، لأن القلة تفهم من إضافة التعريج إلى الساعة ، وقليلها فاعل نافع أو هو مبتدأ ونافع خبره ، والضمير فى قليلها للساعة أى قليل التعريج فى الساعة ينفعنى ويبل أوامى ويروى

وقوله :

دَعَانِي مِنْ مَلَامِكُمَا سَفَاهًا ... فَدَاعِي الشَّوْقِ قَبْلَكُمَا دَعَانِي

وقوله :

وَإِذَا الْبَلَابِلُ أَفْصَحَتْ بِلُغَاتِهَا ... فَانْفِ الْبَلَابِلَ بِاحْتِسَاءِ بَلَابِلِ

وقوله :

فَمَشْغُوفٌ بِآيَاتِ الْمَثَانِي ... وَمَفْتُونٌ بِرَنَّاتِ الْمَثَانِي

وقوله :

أَمَّلْتُهُمْ ثُمَّ تَأَمَّلْتُهُمْ ... فَلَاحَ لِي أَنْ لَيْسَ فِيهِمْ فَلَاحْ

غاتى (وقوله دعانى) فيما يكون المتجانس الآخر فى صدر المصراع الأول ، دعانى الأول بمعنى اتركانى ، والثانى من الدعاء بمعنى الطلب ، والسفاه : الطيش ، والبيت للقاضى الأرجانى (وقوله وإذا البلابل) فيما يكون المتجانس الآخر فى حشو المصراع الأول البلابل الأول جمع بلبل وهو الطائر المعروف ، والثانى جمع بلبال وهو الحزن ، والثالث جمع بلبلة وهو إبريق الخمر ، والاحتساء : الشرب ، والمقصود بالتمثيل هو البلابل ، الثالث بالنسبة إلى الأول والبيت للثعالبى (وقوله فمشغوف) فيما يكون المتجانس الآخر فى آخر المصراع الأول ، المثانى الأول القرآن (١) والآخر أوتار المزامير التى ضم طاق منها إلى طاق ، ورناتها : نغماتها ، والبيت للحريرى (وقوله أملتهم) فيما يكون المتجانس الآخر

---

(١) قال الجوهرى : المثانى من القرآن ما كان أقل من المائتين ، وتسمى فاتحة الكتاب مثانى لأنها تثنى فى كل ركعة ، ويسمى جميع القرآن مثانى أيضاً لاقتران آية الرحمة بآية العذاب .

وقوله :

ضَرَائِبُ أَبْدَعْتَهَا فِي السَّماحِ ... فَلَسْنَا نَرَى لَكَ فِيهَا ضَرِيبَا

وقوله :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَخْزُنْ عليه لِسَانَهُ ... فليسَ عَلَى شيءٍ سِواهُ بِخَزَّانِ

وقوله :

لَوِ اخْتَصَرْتُم مِنَ الإِحْسَانِ زُرْتُكُمُ ... وَالْعَذْبُ يُهْجَرُ لِلإِفْرَاطِ فِى الْخَصَرِ

وقوله :

فَدَعِ الْوَعِيدَ فَمَا وَعِيدُكَ ضَائِرِى ... أَطَنِينُ أَجْنِحَةِ الذُّبابِ يَضِيرُ

فى صدر المصراع الثانى ومعناه ظاهر وهو للقاضى الأرجانى (وقوله ضرائب) فيما يكون الملحق الآخر بالمتجانسين اشتقاقاً فى صدر المصراع الأول ، فالضرائب جمع ضريبة : وهى الطبيعة والسجية التى طبع الرجل عليها ، والضريب : المثل وأصله المثل فى ضرب القداح فهما راجعان إلى أصل واحد فى الاشتقاق والبيت للبحترى (وقوله إذا المرء) مما يكون الملحق الآخر اشتقاقاً فى حشو المصراع الأول : أى إذا لم يخزن المرء لسانه على نفسه ولم يحفظه مما يعود ضرره إليه فلا يخزنه على غيره ولا يحفظه مما لا ضرر له فيه فيخزن وخزان مما يجمعهما الاشتقاق ، والبيت لامرىء القيس (وقوله لو اختصرتم) مما وقع أحد الملحقين فى آخر البيت والآخر فى حشو المصراع الأول ويجمعها شبه الاشتقاق والبيت لأبى العلاء المعرى ، قوله والعذب يعنى من الماء والخصر البرودة ، يقول إن بعدى عنكم لكثرة ما أنعمتم على وطوقتمونى من الإحسان (وقوله فدع الوعيد) فيما يكون الملحق الآخر اشتقاقاً فى آخر المصراع الأول

وَقوله :

وَقَدْ كَانَتِ الْبِيضُ الْقَوَاضِبُ فِي الْوَغَى ۞ بَوَاتِرَ فَهِيَ الْآنَ مِنْ بَعْدِهِ بُتْرُ

وَمِنْهُ السَّجْعُ : وَهُوَ تَوَاطُؤُ الْفَاصِلَتَيْنِ مِنَ النَّثْرِ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ السكاكىّ : هُوَ فِي النَّثْرِ كَالقَافِيَةِ فِي الشِّعْرِ ،

فضائر ويضير مما يجمعهما الاشتقاق ، والبيت لابن عيينة المهلبي (وقوله وقد كانت) فيما يكون الملحق الآخر اشتقاقاً فى صدر المصراع الثانى . قوله القواضب أى القواطع من ذاتها ، وقوله بواتر : أى قواطع لحسن استعماله إياها ، وبتر جمع أبتر : مقطوع الفائدة ، فالبواتر والبتر مما يجمعهما الاشتقاق والبيت لأبى تمام من قصيدته التى رثى بها محمد بن نهشل حين استشهد ، هذا ، وأما الأمثلة الثلاثة التى أهملها المصنف ، فمثال مايقع أحد الملحقين الذين يجمعهما شبه الاشتقاق فى آخر البيت ، والآخر فى صدر المصراع الأول قول الحريرى :

وَلَاحَ يَلْحَى عَلَى جَرْيِ الْعِنَانِ إِلَى مَلْهًى فَسُحْقاً لَهُ مِنْ لَائِحٍ لَاحِ

فالأول ماضى يلوح والآخر اسم فاعل من لحاه أبعده ، ومثال ما وقع الآخر فى آخر المصراع الأول قول الحريرى أيضاً :

وَمُضْطَلِعٍ بِتَلْخِيصِ الْمَعَانِي وَمُطَّلِعٍ إِلَى تَخْلِيصِ عَانِي

فالأول من عنى يعنى ، والثانى من عنا يعنو ، ومثال ما وقع الآخر فى صدر المصراع الثانى قول الآخر :

لَعَمْرِي لَقَدْ كَانَ الثُّرَيَّا مَكَانَهُ ثَرَاءً فَأَضْحَى الْآنَ مَثْوَاهُ فِي الثَّرَى

فالثراء : واوى من الثروة ، والثرى : يائى (ومنه السجع) وليس قصاراه

(١) المضطلع بالشيء القوى فيه الناهض به وتخليص العانى فكاك الأسير .

وَهُوَ مُطَرَّفٌ ، إنِ اخْتَلَفَا فِي الْوَزْنِ ، نحوُ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ، وَإِلَّا فَإِنْ كانَ مَا فى إحْدَى القَرِينَتَيْنِ أَوْ أَكْثَرُهُ مِثْلَ مَا يُقَابِلُهُ مِنَ الأُخْرَى فى الْوَزْنِ وَالتَّقْفِيَةِ فَتَرْصِيعٌ نحوُ : فَهُوَ يَطْبَعُ الأَسْجَاعَ بِجَوَاهِرِ لَفْظِهِ ، وَيَقْرَعُ الأَسْمَاعَ بِزَوَاجِرِ وَعْظِهِ ، وَإِلَّا فَمُتَوازٍ ،

أن تقف عند تواطؤ الفواصل على حرف واحد ، بل ينبغى أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حادة ، لاغثة ولا باردة ، وإلا كنت كمن ينقش أثواباً من الكرسف ، أو ينظم عقداً من الخزف الملون ، وكذلك ينبغى أن يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى وإلا كان كظاهر مموه على باطن مشوه ، فإذا توفرت هذه الأمور فإن وراء ذلك مطلوباً آخر وهو أن تكون كل واحدة من الفقرتين دالة على معنى غير المعنى الذى اشتملت عليه الأخرى ، وإلا لكان تطويلا كقول الصابى : الحمد لله الذى لاتدركه الأعين بألحاظها ، ولا تحده الألسن بألفاظها ، ولا تخلقه العصور بمرورها . ولا تهرمه الدهور بكرورها ، ثم انتهى إلى الصلاة على النبى عليه السلام فقال : لم ير للكفر أثراً إلا طمسه ومحاه ، ولا رسماً إلا أزاله وعفاه ، إذ لافرق بين مرور العصور وكرور الدهور ، وكذلك لافرق بين محو الأثر وعفاء الرسم (القرينتين) أى الفقرتين سميت الفقرة كذلك لأنها تقارن أختها (فترصيع) وسمى كذلك تشبيهاً لها بجعل إحدى اللؤلؤتين فى العقد فى مقابلة الأخرى ، وهذا النوع لما فيه من تعمق الصنعة وتعسف الكلفة ، لايوجد إلا فى كلام المتفصحين (نحو فهو يطبع) فإن الحريرى كما ترى قد جعل يطبع بإزاء يقرع ، والأسجاع بإزاء الأسماع ، وجواهر بإزاء زواجر ، ولفظه بإزاء وعظه (وإلا) أى وإن لم يكن ما فى إحدى القرينتين ولا أكثره مثل مايقابله من الأخرى ، فهو السجع

نحو : فيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ . قيل : وَأَحْسَنُ السَّجْعِ مَاتَسَاوَتْ قَرَائِنُهُ ، نحو : فى سِدْرٍ مَخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَنْضودٍ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ، ثم ما طَالَتْ قرينَتُهُ ، الثانيةُ نحو : وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ وما غَوَى ، أو الثالثةُ ، نحو : خُذُوهُ فَغُلُّوه ثم الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ، وَلاَ يَحْسُنُ

المتوازى وذلك بأن يكون ما فى إحدى القرينتين أو أكثره ومايقابله من الأخرى مختلفين فى الوزن والتقفية جميعاً كما فى الآية ، أو فى الوزن فقط نحو : والمرسلات عرفاً فالعاصفات عصفاً ، أو فى التقفية فقط كقولهم حصل الناطق والصامت[1] ، وهلك الحاسد والشامت (قيل) قال ابن الأثير : السجع ثلاثة أقسام ، الأول : أن يكون الفصلان متساويين كقوله تعالى : فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر ، وهذا أشرف السجع منزلة للاعتدال الذى فيه ، الثانى أن يكون الفصل الثانى أطول من الأول لاطولا يخرج به عن الاعتدال كثيراً وإلا كان قبيحاً ، فمن ذلك قوله تعالى : وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إداً تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ، فإن الأول ثمان لفظات والثانى تسع ، وله فى القرآن غير نظير ويستثنى منه ما كان على ثلاث ، فإن الأولين يحسبان فى عدة واحدة واحدة ثم تأتى الثالثة بحيث تزيد عليها طولا ، ويجوز أن تجىء مساوية لها كقوله تعالى : وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين فى سدر مخضوض وطلح منضود وظل ممدود فهذه الثلاث كل منها من لفظتين ولو جعلت الثالثة منها خمس لفظات أو ستاً كان حسناً ، الثالث أن يكون الآخر أقصر من الأول وهو عندى عيب فاحش ، لأن السمع قد استوفى أمده من الفصل الأول بحكم طوله ثم يجىء الفصل الثانى قصيراً عن الأول

---

(١) أى وجد عندى الناطق وهو العبيد ، والصامت نحو الإبل والعقار .

أَنْ يُولَى قَرِينةً أَقْصَرَ منها كثيراً . وَالأَسْجَاعُ مَبْنِيَّةٌ على سكونِ الْأَعجازِ ه كقولِهم : مَا أَبْعدَ مافاتَ وَمَاأَقْرَبَ ما هو آت ، قيلَ : وَلاَ يُقَالُ فى القرآنِ أَسْجَاعٌ بَلْ يقالُ فواصِلُ ، وَقيلَ : السَّجْعُ غَيْرُ مُخْتَصٍ بالنثرِ ه

فيكون كالشيء المبتور فيبقى الإنسان عند سماعه ، كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها «هذا» والسجع إماقصير كقوله تعالى : والمرسلات عرفاً فالعاصفات عصفاً ، أو طويل كقوله تعالى : ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور ، أو متوسط كقوله تعالى : اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر . ومن لطيف السجع قول البديع الهمذانى من كتاب له إلى ابن فريغون : كتابى والبحر وإن لم أره ، فقد سمعت خبره ، والليث وإن لم ألقه ، فقد تصورت خلقه ، والملك العادل وإن لم أكن لقيته ، فقد لقينى صيته ، ومن رأى من السيف أثره ، فقد رأى أكثره (والأسجاع) فواصل الأسجاع ، موضوعة على أن تكون ساكنة الأواخر موقوفاً عليها ، لأن الغرض أن يزاوج بينها ، ولا يتم ذلك فى كل صورة إلا بالوقف ، ألا ترى أنك لو وصلت قولهم : ما أبعد ما فات وما أقرب ما هو آت . لم يكن بد من إجراء كل من الفاصلتين على ما يقتضيه حكم الإعراب ، فيفوت الغرض من السجع ، وإذا رأيتهم يخرجون الكلم من أوضاعها للازدواج فى قولهم إنى لآتيه بالغدايا والعشايا : أى بالغدوات ، فما ظنك بهم فى ذلك (قيل ولا يقال فى القرآن أسجاع) السجع نوع من الكلام يعتمد الصنعة ، وقلما ينجو من التكلف والتعسف ، ومن قصده فى كلامه أجبر على أن يجعل المعنى تابعاً له وهذا نقص

ومثاله من النظم قوله :

فى الكلام كبير ، وعيب يخمش وجه الفصاحة ، فلذلك ذهب العقلاء إلى أن القرآن برىء من السجع ، وهذا الذى يظن به أنه سجع إنما هو فواصل يستريح الكلام إليها . قال الباقلانى : قد يكون الكلام على مثال السجع وإن لم يكن سجعاً ، لأن ما يكون به الكلام سجعاً يختص ببعض الوجوه دون بعض ، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى السجع ، وليس كذلك ما اتفق مما هو فى تقدير السجع من القرآن ، لأن اللفظ يقع فيه تابعاً للمعنى ، وفصل بين أن ينتظم الكلام فى نفسه بألفاظه التى تؤدى المعنى المقصود فيه ، وبين أن يكون المعنى منتظماً دون اللفظ ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع كانت إفادة السجع كإفادة غيره ، ومتى ارتبط المعنى بنفسه دون السجع كان مستجلباً لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى ، ثم قال ولو كان الذى فى القرآن سجعاً لكان مذموماً ، لأن السجع إذا تفاوتت أوزانه واختلفت طرقه كان قبيحاً من الكلام ، والسجع منهج مرتب وطريق مضبوط متى أخل به المتكلم نسب إلى الخروج عن الفصاحة ، وهذا الذى يظن به أنه سجع قد علمنا أن بعضه متقارب الفواصل ، متدانى المقاطع ، وبعضه مما يمتد حتى يتضاعف طوله عليه وترد الفاصلة على ذلك الوزن الأول بعد كلام كثير ، وهذا فى السجع غير محمود (ومثاله من النظم قوله) وقول ذى الرمة :

كَحلاءُ فِي بَرَجٍ صَفْرَاءُ فِي نَعَجٍ ... كَأَنَّهَا فِضَّةٌ قَدْ مَسَّهَا ذَهَبُ

وقول الخنساء :

حَامِي الْحَقِيقَةِ مَحْمُودُ الْخَلِيقَةِ مَهْـــدِى الطَّرِيقَةِ نَفَّاعٌ وَضَرَّارُ

تَجَلَّى بِهِ رُشْدِي وَأَثْرَتْ بِهِ يَدِي ✻ وَفَاضَ بِهِ ثِمْدِي وَأَوْرَى بِهِ زَنْدِي

وَمِنَ السَّجْعِ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ مَا يُسَمَّى التَّشْطِير ، وَهُوَ جَعْلُ كُلّ

جَوَّابُ قَاصِيَةٍ جَزَّارُ نَاصِيَةٍ ✻ عَقَّادُ أَلْوِيَةٍ لِلْخَيْلِ جَرَّارُ

حُلْوٌ حَلَاوَتُهُ فَصْلٌ مَقَالَتُهُ ✻ فَاشٍ حِمَالَتُهُ لِلْعَظْمِ جَبَّارُ

وقول أبى صخر الهذلى :

سُودٌ ذَوَائِبُهَا بِيضٌ تَرَائِبُهَا ✻ مَحْضٌ ضَرَائِبُهَا صِيغَتْ مِنَ الْكَرَمِ

وهذا النوع كثير لا يحصره الاستقصاء (تجلى) هو لأبى تمام ، قوله تجلى به رشدى : يريد ظهر بهذا الممدوح بلوغى المقاصد ، وأثرت : أى صارت ذات ثروة ، والثمد : الماء القليل لا مادة له ، والمراد هنا المال القليل ، ومعنى أورى به زندى : صار ذا ورى ، وهو عبارة عن الظفر بالمطلوب (ومن السجع على هذا القول ما يسمى التشطير) وكذلك منه ما يسمى التصريع ، وهو جعل العروض مقفاة تقفية الضرب ، والعروض هو آخر المصراع الأول من البيت والضرب آخر المصراع الثانى منه . قال ابن الأثير : التصريع ينقسم إلى سبع مراتب ، الأولى : أن يكون كل مصراع مستقلا بنفسه فى فهم معناه ، ويسمى التصريع الكامل كقول امرىء القيس :

أَفَاطِمُ مَهْلاً بَعْضَ هَذَا التَّدَلُّلِ ✻ وَإِنْ كُنْتِ قَدْ أَزْمَعْتِ صَرْمِي فَأَجْمِلِ

الثانية : أن يكون الأول غير محتاج إلى الثانى ، فإذا جاء جاء مرتبطاً به كقوله أيضاً :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ ✻ بِسَقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

الثالثة : أن يكون المصراعان بحيث يصح وضع كل منهما موضع الآخر ، كقول ابن الحجاج البغدادى :

مِنْ شَطرَيِ البَيْتِ سَجْعَةً مُخالِفَةً لأُخْتِهَا ، كقوله :

تَدْبِيرُ مُعْتَصِمٍ بِاللهِ مُنْتَقِمٍ * لِلهِ مُرْتَغِبٍ فِى اللهِ مُرْتَقِبِ

مِنْ شُرُوطِ الصَّبُوحِ فِي المِهْرَجَانِ خِفَّةُ الشُّرْبِ مَعْ خُلُوِّ المَكانِ

الرابعة : ألا يفهم معنى الأول إلا بالثانى ويسمى الصريع الناقص كقول أبى الطيب :

مَغَانِي الشِّعْبِ طِيباً فِي المَغَانِي بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ

الخامسة : أن يكون التصريع بلفظة واحدة فى المصراعين ويسمى التصريع المكرر ، وهو ضربان ، لأن اللفظة أما متحدة المعنى فى المصراعين كقول عبيد ابن الأبرص :

فَكُلُّ ذِي غَيْبَةٍ يَؤُوبُ وَغَائِبُ المَوْتِ لاَ يَؤُوبُ

وهذا أنزل درجة . وأما مختلفة المعنى لكونه مجازاً كقول أبى تمام :

فَتًى كانَ شِرْباً لِلعُفَاةِ وَمَرْتَعاً فَأَصْبَحَ لِلْهِنْدِيَّةِ البِيضِ مَرْتَعاً

السادسة : أن يكون المصراع الأول معلقاً على صفة يأتى ذكرها فى أول الثانى ويسمى التعليق . كقول امرىء القيس :

أَلاَ أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلاَ انْجَلِى بِصُبْحٍ وَمَا الإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ

لأن الأول معلق بصبح وهذا معيب جداً . السابعة : أن يكون التصريع فى البيت مخالفاً لقافيته ويسمى التصريع المشطور . كقول أبى نواس :

أَقِلْنِي قَدْ نَدِمْتُ مِنَ الذُّنُوبِ وَبِالإِقْرَارِ عُذْتُ عَنِ الجُحُودِ

فصرع بالباء ثم قفاه بالدال انتهى . وهذا السابع خارج مما نحن فيه (كقوله تدبير) فالشطر الأول كما ترى سجعة مبنية على الميم والثانية سجعة

وَمنه المُوَازَنَةُ : وَهِيَ تَساوِي الفاصِلَتَيْنِ فِي الوزْنِ دُونَ التَّقْفِيَةِ نحو : وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ، فإنْ كَانَ مَافِي إحْدَى القَرِينَتَيْنِ أَوْ أَكْثَرُهُ مِثْلَ مَا يُقَابِلُهُ مِنَ الأُخْرَى فِي الْوَزْنِ ، خُصَّ بِاسْمِ المُمَاثَلَةِ نحوُ : وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ، وقولِهِ :

مَهَا الْوَحْشِ إلاَّ أَنَّ هَاتَا أَوَانِسٌ ... قَنَا الْخَطِّ إلاَّ أَنَّ تِلْكَ ذَوَابِلُ

وَمِنْهُ الْقَلْبُ ، كقوْلِهِ :

مَوَدَّتُهُ تَدُومُ لِكُلِّ هَوْلٍ ... وَهَلْ كُلٌّ مَوَدَّتُهُ تَدُومُ

مبنية على الباء . والبيت لأبي تمام . والمرتغب في الله : الراغب فيما يقربه من رضوانه . والمرتقب : المنتظر الثواب الخائف العقاب (ومنه) أي ومن اللفظي (نحو ونمارق) فلفظا مصفوفة ومبثوثة متساويان في الوزن لا في التقفية . لأن الأول على الفاء والثاني على الثاء . ولا عبرة بتاء التأنيث لما هو معروف من علم القوافي (مها الوحش) هو لأبي تمام يصف النساء بسعة العيون وطول القدود ، والمها جمع مهاة : البقرة الوحشية . والخط : موضع تنسب إليه الرماح المستقيمة والمثالان — الآية البيت — مما يكون أكثر ما في إحدى القرينتين مثل ما يقابله من الأخرى لعدم تماثل آتيناهما وهديناهما وزناً ، وكذا هاتا وتلك ومثال الجميع قول أبي تمام :

فَأَحْجَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ فِيكَ مَطْمَعاً ... وَأَقْدَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ عَنْكَ مَهْرَبَا

(ومنه القلب) وهو أن يكون الكلام بحيث إذا قلبت حروفه لم تتغير قراءته ، ولا بد مع ذلك أن يكون جيد السبك منسجم المعاني . ويجري هذا

وَفِي التَّنْزِيلِ : كُلٌّ فِي فَلَكٍ ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَمِنْهُ التَّشْرِيع : وَهُوَ بِنَاءُ الْبَيْتِ عَلَى قَافِيَتَيْنِ يَصِحُّ الْمَعْنَى عِنْدَ الْوُقُوفِ عَلَى كُلٍّ مِنْهُمَا ، كَقَوْلِهِ :

يَاخَاطِبَ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ إِنَّهَا ... شَرَكُ الرَّدَى وَقَرَارَةُ الأَكْدَارِ

النوع فى النظم والنثر . أما فى النظم فقد يكون بحيث يكون كل من المصراعين قلباً للآخر كقوله :

* أَرَانَا الْإِلَهُ هِلاَلاً أَنَارَا *

وقد يكون بمجموع البيت قلباً لمجموعه ، كقول القاضى الأرجانى : مودته تدوم البيت ، وأما فى النثر فكما فى قوله تعالى : كل فى فلك . وقول جل شأنه : وربك فكبر . قالوا والحرف المشدد فى هذا الباب فى حكم المخفف . لأن المعتبر هو الحروف المكتوبة (ومنه التشريع) ويسمى التوشيح . قال ابن الأثير : وهو أن يبنى الشاعر أبيات قصيدته على بحرين مختلفين . فإذا وقف من البيت على القافية الأولى كان شعراً مستقيماً من بحر على عروض . وإذا أضاف إلى ذلك ما بنى عليه شعره من القافية الأخرى كان كذلك شعراً مستقيماً من بحر آخر على عروض ، وصار مايضاف إلى القافية الأولى للبيت كالوشاح ، فمن ذلك قول بعضهم :

إِسْلَمْ وَدُمْتَ عَلَى الْحَوَادِثِ مَارَسَا ... رُكْنَا ثَبِيرٍ أَوْ هِضَابُ حِرَاءِ

وَنَلِ الْمُرَادَ مُمَكَّناً مِنْهُ عَلَى ... رَغْمِ الدُّهُورِ وَفُزْ بِطُولِ بَقَاءِ

إذا نظر إلى هذين البيتين وجدوهما يذكران على قافية أخرى وبحر آخر وذاك أن يقال :

وَمِنْهُ لُزُومُ مَالاَ يَلْزَمُ : وَهُوَ أَنْ يَجِيءَ قَبْلَ حَرْفِ الرَّوِيِّ أَوْ مَافِي

إِسْلَمْ وَدُمْتَ عَلَى الْحَوَا دِثِ مَارَسَا رُكْنَا ثَبِيرِ
وَنَلِ الْمُرادَ مُمَكَّنًا مِنْهُ عَلَى رَغْمِ الدُّهُورِ

وقد استعمل ذلك الحريرى فى مقاماته نحو قوله :

يَا خَاطِبَ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ إِنَّهَا شَرَكُ الرَّدَى وَقَرَارَةُ الأَكْدَارِ
دَارٌ مَتَى مَا أَضْحَكَتْ فى يَوْمِهَا أَبْكَتْ غَدًا بُعْدًا لَهَا مِنْ دَارِ
غَارَاتُهَا لاَ تَنْقَضِي وَأَسِيرُهَا لا يُفْتَدَى بِجَلاَئِلِ الأَخْطَارِ

واعلم أن هذا النوع لا يحسن إلا إذا كان يسيراً . كالرقم فى الثوب أو الشية فى الجلد . وحسنه منوط بما فيه من الصناعة . لا بما فيه من البراعة . (ومنه لزوم مالا يلزم) قال ابن الأثير : وهو من أشق هذه الصناعة مذهباً وأبعدها مسلكا . وذلك لأن مؤلفه يلتزم مالا يلزمه . فإن اللازم فى هذا الموضوع وما جرى مجراه إنما هو السجع الذى هو تساوى أجزاء الفواصل من الكلام المنثور فى قوافيها . وهذا فيه زيادة على ذلك وهو أن تكون الحروف التى قبل الفاصلة حرفاً واحداً وهو فى الشعر أن تتساوى الحروف التى قبل روى الأبيات الشعرية ، ومن هذا النوع نثراً ما رواه صاحب الأغانى أن لقيط بن زرارة تزوج بنت قيس بن خالد بن ذى الجدين فحظيت عنده وحظى عندها ثم قتل فآمت بعده وتزوجت زوجاً غيره فكانت كثيراً ما تذكر لقيطاً ، فلامها على ذلك فقالت : إنه قد خرج فى يوم دجن وقد تطيب وشرب فطرد البقر فصرع منها ، ثم أتانى وبه نضج دم ، فضمنى ضمة وشمنى شمة فليتنى مت ثمة ، فلم أر منظراً كان أحسن من لقيط ، فقولها ضمنى ضمة وشمنى

بمعناه من الفاصلة ما ليس بلازم في السجع ، نحو : فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر ، وقوله :

شمة فإيتنى مت شمة : من الكلام الحلو في باب اللزوم ولا كلفة عليه ، وهكذا فليكن ومن ذلك قول الحماسي :

إنَّ التي زَعَمتْ فؤادَكَ ملَّها ... خُلِقَتْ هواكَ كما خُلِقْتَ هوًى لها

بيضاء باكرها النعيمُ فصاغها ... بلباقةٍ فأدقَّها وأجلَّها

حَجَبَتْ تحيَّتَها فقلتُ لصاحبي ... ما كانَ أكثرَها لنا وأقلَّها

وإذا وجدتَ لها وساوسَ سلوةٍ ... شَفَعَ الضميرُ إلى الفؤادِ فسلَّها

وهذا من اللطافة على ما يشهد لنفسه ، وكذلك قول الفرزدق :

منعَ الحياةَ من الرجالِ ونفعَها ... حدَقٌ تقلِّبُها النساءُ مِراضُ

وكأنَّ أفئدةَ الرجالِ إذا رأوا ... حدقَ النساءِ لنبلِها أغراضُ

ومن قصد من العرب قصيده كله على اللزوم كثير عزة ، وهي القصيدة التي أولها :

خليليَّ هذا ربعُ عزَّةَ فاعقِلا ... قلوصيكما ثمَّ احللا حيثُ حلَّتِ

وهذه القصيدة تزيد على عشرين بيتاً ، وهي مع ذلك سهلة لينة تكاد تترقرق من لينها وسهولتها . وبالجملة ما يقع من هذا النوع المتقدم فهو غير مقصود منه ، ولذلك لا يرى عليه من أثر الكلفة شيء ، أما المتأخرون فقصدوا عمله وأكثروا منه ، حتى أن أبا العلاء المعرى عمل من ذلك ديواناً كاملا سماه اللزوم ، فأتى فيه بالجيد الذي يحمد والردىء الذي يذم (وقوله) أي قول

سَأَشْكُرُ عَمْرًا مَا تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي ... أَيَادِيَ لَمْ تُمْنَنْ وَإِنْ هِيَ جَلَّتِ
فَتًى غَيْرُ مَحْجُوبِ الْغِنَى عَنْ صَدِيقِهِ ... وَلَا مُظْهِرُ الشَّكْوَى إِذَا النَّعْلُ زَلَّتِ
رَأَى خَلَّتِي مِنْ حَيْثُ يَخْفَى مَكَانُهَا ... فَكَانَتْ قَذَى عَيْنَيْهِ حَتَّى تَجَلَّتِ

وَأَصْلُ الحسنِ في ذَلِكَ كُلِّهِ أَنْ تَكُونَ الْأَلْفَاظُ تَابِعَةً لِلْمَعَانِي دُونَ الْعَكْسِ .

خاتمة

(في السرقَاتِ الشِّعْرِيَّةِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا وَغَيْرِ ذلِكَ)

اتِّفَاقُ الْقَائِلَيْنِ إِنْ كَانَ فِي الْغَرَضِ عَلَى الْعُمُومِ ، كَالْوَصْفِ بِالشَّجَاعَةِ وَالسَّخَاءِ فَلَا يُعَدُّ سَرِقَةً ، لِتَقَرُّرِهِ فِي الْعُقُولِ وَالْعَادَاتِ ، وَإِنْ كَانَ فِي وَجْهِ الدَّلَالَةِ ، كَالتَّشْبِيهِ وَالْمَجَازِ وَالْكِنَايَةِ ، وَكَذِكْرِ هَيْآتٍ تَدُلُّ عَلَى

عبد الله بن الزبير الأسدي في عمرو بن عثمان بن عفان رضي الله عنهما (لم تمنن) أي لم تقطع ، أو لم تخلط بمنة (إذا النعل زلت) زلة القدم والنعل : كناية عن نزول الشر والمحنة (خلتي) الخلة : الخصاصة والفقر (وأصل الحسن في ذلك) قد أسلفنا أول البديع جملة كافية في هذا المعنى فاجعلها على ذكر منك وعض عليها بالنواجذ تكن من الفائزين (وما يتصل بها) مثل الاقتباس والتضمين والعقد والحل والتلميح (وغير ذلك) مثل القول في الابتداء والتخلص والانتهاء (في الغرض على العموم) أي فيما يشترك فيه الناس عامة من الأغراض والمقاصد (لتقرره) فيشترك فيه الفصيح والأعجم والشاعر والمفحم (وجه الدلالة) أي طريق الدلالة على الغرض .

الصِّفَةِ لِاخْتِصَاصِهَا بِمَنْ هِيَ لَهُ ، كَوَصْفِ الْجَوَادِ بِالتَّهَلُّلِ عِنْدَ وُرُودِ الْعُفَاةِ ، وَالْبَخِيلِ بِالْعُبُوسِ مَعَ سَعَةِ ذَاتِ الْيَدِ ، فَإِنِ اشْتَرَكَ النَّاسُ فِي مَعْرِفَتِهِ ، لِاسْتِقْرَارِهِ فِيهِمَا ، كَتَشْبِيهِ الشُّجَاعِ بِالْأَسَدِ ، وَالْجَوَادِ بِالْبَحْرِ ، فَهُوَ كَالْأَوَّلِ ، وَإِلَّا جَازَ أَنْ يُدَّعَى فِيهِ السَّبْقُ وَالزِّيَادَةُ ، وَهُوَ ضَرْبَانِ : خَاصِّيٌّ فِي نَفْسِهِ غَرِيبٌ ، وَعَامِّيٌّ تُصُرِّفَ فِيهِ بِمَا أَخْرَجَهُ مِنَ الِابْتِذَالِ إِلَى الْغَرَابَةِ ، كَمَا مَرَّ ، فَالْأَخْذُ وَالسَّرِقَةُ نَوْعَانِ : ظَاهِرٌ ، وَغَيْرُ ظَاهِرٍ ، أَمَّا الظَّاهِرُ : فَهُوَ أَنْ يُؤْخَذَ الْمَعْنَى كُلُّهُ مَعَ اللَّفْظِ كُلِّهِ أَوْ بَعْضِهِ ، أَوْ وَحْدَهُ ، فَإِنْ أُخِذَ اللَّفْظُ كُلُّهُ مِنْ غَيْرِ تَغْيِيرٍ لِنَظْمِهِ فَهُوَ مَذْمُومٌ ، لِأَنَّهُ سَرِقَةٌ مَحْضَةٌ ، وَيُسَمَّى نَسْخًا وَانْتِحَالاً ، كَمَا حُكِيَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ بِقَوْلِ مَعْنِ بْنِ أَوْسٍ :

(العفاة) أى السائلين جمع عاف (مع سعة ذات اليد) وأما العبوس مع قلة ذات اليد فمن أوصاف الأسخياء (معرفته) أى معرفة وجه الدلالة (فيهما) أى فى العقول والعادات (فهو كالأول) أى فالاتفاق فى هذا النوع من وجه الدلالة على الغرض كالاتفاق فى الغرض العام فى أنه لا يعد سرقة ولا أخذاً (وإلا) أى وإن لم يشترك الناس فى معرفته بأن كان مما لا ينال إلا بفكر فهذا الذى يجوز أن يدعى فيه الاختصاص والسبق ، وأن يقضى بين القائلين فيه بالتفاضل ، وأن أحدهما فيه أفضل من الآخر ، وأن الثانى زاد على الأول أو نقص عنه (كما مر) فى باب التشبيه والاستعارة (كما حكى) حكى أن عبدالله ابن الزبير الشاعر دخل على معاوية فأنشده البيتين فقال له معاوية لقد شعرت

فإذا أنت لم تُنْصِفْ أَخَاكَ وَجَدْتَهُ عَلَى طَرَفِ الْهِجْرَانِ إِنْ كَانَ يَعْقِلُ
وَيَرْكَبُ حَدَّ السَّيْفِ مِنْ أَنْ تَضِيمَهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَنْ شَفْرَةِ السَّيْفِ مَزْحَلُ

بعدي يا أبا بكر ، ولم يفارق عبد الله المجلس حتى دخل معن بن أوس المزنى ، فأنشده قصيدته التى أولها :

لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِي وَإِنِّي لَأَوْجَلُ عَلَى أَيِّنَا تَعْدُو الْمَنِيَّةُ أَوَّلُ

حتى أتى عليها ، وفيها ما أنشده عبد الله ، فأقبل معاوية على عبد الله ، وقال له ألم تخبرني أنهما لك ، فقال المعنى لى واللفظ له ، وبعد فهو أخي من الرضاعة وأنا أحق بشعره . قوله من أن تضيمه : أى بدلا من أن تظلمه ، وشفرة السيف حده ، ومزحل من زحل عن مكانه زحولا : إذا انتحى وتباعد . يقول إنه لايبالى أن يركب من الأمور ما يؤثر فيه تأثير السيف مخافة أن يدخل عليه ضيم أو يلحقه هضم أو احتقار متى لم يجد عن ركوبه مبعداً ولا معدلا . وهذا، ومما هو من قبيل ذلك ما روى للأبيرد اليربوعى :

فَتًى يَشْتَرِي حُسْنَ الثَّنَاءِ بِمَالِهِ إِذَا السَّنَةُ الشَّهْبَاءُ أَعْوَزَهَا الْقَطْرُ

ولأبى نواس :

فَتًى يَشْتَرِي حُسْنَ الثَّنَاءِ بِمَالِهِ وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّائِرَاتِ تَدُورُ

قال ابن الأثير : ومما كنت أستحسنه من شعر أبى نواس قوله من قصيدته التى أولها :

* دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ *

دَارَتْ عَلَى فِتْيَةٍ ذَلَّ الزَّمَانُ لَهُمْ فَمَا يُصِيبُهُمُ إِلَّا بِمَا شَاءُوا

وَفِي مَعْنَاهُ أَنْ يُبَدَّلَ بِالْكَلِمَاتِ كُلِّهَا أَوْ بَعْضِهَا مَا يُرَادِفُهَا ، وَإِنْ كَانَ مَعَ تَغْيِيرٍ لِنَظْمِهِ ، أَوْ أُخِذَ بَعْضُ اللَّفْظِ ، سُمِّيَ إِغَارَةً وَمَسْخاً ،

وهذا من عالى الشعر ، وقفت فى كتاب الأغانى لأبى الفرج على هذا البيت فى أصوات معبد وهو :

لَهفِي عَلَى فِتْيَةٍ ذَلَّ الزَّمَانُ لَهُمْ فَمَا أَصَابَهُمُ إِلاَّ بِمَا شَاؤُا

وما أعلم كيف هذا ، وقد أكثر الفرزدق وجرير من هذا فى شعرهما ، حتى لقد حكى أن امرأة من عقيل يقال لها ليلى كان يتحدث إليها الشباب ، فدخل الفرزدق إليها وجعل يحادثها ، وأقبل فتى من قومها كانت تألفه ، فدخل إليها فأقبلت عليه وتركت الفرزدق ، فغاظه ذلك ، فقال للفتى أتصارعنى ، فقال ذاك إليك ، فقام إليه فلم يلبث أن أخذ الفرزدق فصرعه وجلس على صدره فضرط ، فوثب الفتى عنه وقال : يا أبا فراس هذا مقام العائذ بك ، والله ما أردت ماجرى ، فقال ويحك والله مابى أنك صرعتنى ، ولكن كأنى بابن الأتان ، يعنى جريراً ، وقد بلغه خبرى فقال يهجونى :

جَلَسْتَ إِلَى لَيْلَى لِتَحْظَى بِقُرْبِهَا فَخَانَكَ دُبْرٌ لاَ يَزَالُ يَخُونُ
فَلَوْ كُنْتَ ذَا حَزْمٍ شَدَدْتَ وِكَاءَهُ كَما شَدَّ جُرْبَانَ الدِّلاَصِ قُيُونُ

قال فوالله مامضى إلا أيام حتى بلغ جريراً الخبر ، فقال فيه هذين البيتين ، وهذا من أغرب ما يكون فى مثل هذا الموضع وأعجبه (أن يبدل) كقول امرىء القيس :

وُقُوفاً بِهَا صَحْبِي عَلَى مَطِيَّهُمْ يَقُولُونَ لاَ تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَمَّلِ

وقول طرفة :

وُقُوفاً بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ يَقُولُونَ لاَ تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَلَّدِ

فَإِنْ كَانَ الثَّانِي أَبْلَغَ لِاخْتِصَاصِهِ بِفَضِيلَةٍ ، فَمَمْدُوحٌ ، كَقَوْلِ بَشَّارٍ :

مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ لَمْ يَظْفَرْ بِحَاجَتِهِ   وَفَازَ بِالطَّيِّبَاتِ الْفَاتِكُ اللَّهِجُ

وَقَوْلِ سَلْمٍ :

مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ مَاتَ هَمًّا   وَفَازَ بِاللَّذَّةِ الْجَسُورُ

وَإِنْ كَانَ دُونَهُ فَمَذْمُومٌ ، كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

وكقول حاتم :

وَمَنْ يَبْتَدِعْ مَا لَيْسَ مِنْ خِيمِ نَفْسِهِ   يَدَعْهُ وَيَغْلِبْهُ عَلَى النَّفْسِ خِيمُهَا

وقول الأعور :

وَمَنْ يَقْتَرِفْ خُلْقاً سِوَى خُلْقِ نَفْسِهِ   يَدَعْهُ وَيَغْلِبْهُ عَلَى النَّفْسِ خِيمُهَا

(لاختصاصه بفضيلة) كحسن السبك أو الاختصار أو الإيضاح أو زيادة معنى (كقول بشار) فبيت سلم قالوا أجود سبكا وأخصر لفظاً ، وقد روى عن أبى معاذ راوية بشار أنه قال أنشدت بشاراً قول سلم فقال : ذهب والله بيتى فهو أخف منه وأعذب ، والله لا أكلت اليوم ولا شربت . « هذا » ومن السرقات الممدوحة قول الشاعر :

خَلَقْنَا لَهُمْ فِي كُلِّ عَيْنٍ وَحَاجِبٍ   بِسُمْرِ الْقَنَا وَالْبِيضِ عَيْناً وَحَاجِبَا

وقول ابن نباتة بعده :

خَلَقْنَا بِأَطْرَافِ الْقَنَا فِي ظُهُورِهِمْ   عُيُوناً لَهَا وَقْعُ السُّيُوفِ حَوَاجِبُ

فبيت ابن نباتة أبلغ لاختصاصه بزيادة معنى ، وهو الإشارة إلى انهزامهم ، ومن الناس من جعلهما متساويين (كقول أبى تمام) فإن مصراعه أحسن

هَيْهَاتَ لَا يَأْتِي الزَّمَانُ بِمِثْلِهِ ... إِنَّ الزَّمَانَ بِمِثْلِهِ لَبَخِيلُ

وَقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :

أَعْدَى الزَّمَانَ سَخَاؤُهُ فَسَخَا بِهِ ... وَلَقَدْ يَكُونُ بِهِ الزَّمَانُ بَخِيلَا

وَإِنْ كَانَ مِثْلَهُ فَأَبْعَدُ مِنَ الذَّمِّ ، وَالْفَضْلُ لِلْأَوَّلِ ، كقولِ أبي تمام :

سبكا من مصراع أبي الطيب ، لأن أبا الطيب أراد أن يقول ولقد كان الزمان به بخيلا فعدل عن الماضي إلى المضارع للوزن . فإن قلت المعنى أن الزمان لا يسمح بهلاكه ، قلنا السخاء بالشيء هو بذاله للغير ، فإذا كان الزمان قد سخا به فقد بذله فلم يبق في تصريفه حتى يسمح بهلاكه أو يبخل به (أعدى الزمان) أي تعلم الزمان منه السخاء فجاد به ، وأخرجه من العدم إلى الوجود ولولا سخاؤه الذي استفاده منه لبخل به على الدنيا واستبقاه لنفسه (فأبعد من الذم) هذا على تقدير ألا يكون في الثاني دلالة على السرقة باتفاق الوزن والقافية ، وإلا فهو بالذم حقيق كقول أبي تمام :

مُقِيمُ الظَّنِّ عِنْدَكَ وَالْأَمَانِي ... وَإِنْ قَلِقَتْ رِكَابِي فِي الْبِلَادِ

وَمَا سَافَرْتُ فِي الْآفَاقِ إِلَّا ... وَمِنْ جَدْوَاكَ رَاحِلَتِي وَزَادِي

وقول أبي الطيب :

وَإِنِّي عَنْكَ بَعْدَ غَدٍ لَغَادِي ... وَقَلْبِي عَنْ فِنَائِكَ غَيْرُ غَادِ

مُحِبُّكَ حَيْثُمَا اتَّجَهَتْ رِكَابِي ... وَضَيْفُكَ حَيْثُ كُنْتُ مِنَ الْبِلَادِ

(كقول أبي تمام) وقول بشار :

يَاقَوْمُ أُذْنِي لِبَعْضِ الْحَيِّ عَاشِقَةٌ ... وَالْأُذْنُ تَعْشَقُ قَبْلَ الْعَيْنِ أَحْيَانَا

وقول ابن الشحنة الموصلي :

لَوْ حَارَ مُرْتَادُ الْمَنِيَّةِ لَمْ يَجِدْ ... إِلاَّ الْفِرَاقَ عَلَى النُّفُوسِ دَلِيلاَ

وَقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :

لَوْلاَ مُفَارَقَةُ الأَحْبَابِ مَاوَجَدَتْ ... لهَا الْمَنَايَا إِلَى أَرْوَاحِنَا سُبُلاَ

وَإِنْ أُخِذَ الْمَعْنَى وَحْدَهُ سُمِّيَ إِلْمَاماً وَسَلْخاً ، وَهُوَ ثَلاَثَةُ أَقْسَامٍ كَذَلِكَ أَوَّلُهَا كَقَوْلِ أَبِي تمام :

وَإِنِّي امْرُؤٌ أَحْبَبْتُكُمْ لِمَكَارِمٍ ... سَمِعْتُ بِهَا وَالأُذْنُ كَالْعَيْنِ تَعْشَقُ

وكذا قول الأرجانى :

لَمْ يُبْكِنِي إِلاَّ حَدِيثُ فِرَاقِكُمْ ... لَمَّا أَسَرَّ بِهِ إِلَيَّ مُوَدِّعِي

هُوَ ذَلِكَ الدُّرُّ الَّذِي أَوْدَعْتُمُ ... فِي مِسْمَعِي أَلْقَيْتُهُ مِنْ مَدْمَعِي

وقول جار الله :

وَقَائِلَةٍ مَا هَـــذِهِ الدُّرَرُ الَّتِي ... تُسَاقِطُهَا عَيْنَاكَ سِمْطَيْنِ سِمْطَيْنِ

فَقُلْتُ هِيَ الدُّرُّ الَّتِي قَدْ حَشَا بِهَا ... أَبُو مُضَرٍ أُذْنِي تَسَاقَطُ مِنْ عَيْنِي

(كقول أبي تمام لو حار) فإن أبا الطيب أخذ المعنى برمته مع بعض الألفاظ كالمنية والفراق والوجدان والبيتان متساويان فى البلاغة ، والارتياد الطلب ، وإضافة المرتاد إلى المنية بيانية والمعنى ظاهر (إلماماً) من ألم بالشىء إذا قصده وأصله من ألم بالمنزل إذا نزل به (وسلخاً) وهو كشط الجلد عن نحو الشاة ، واللفظ للمعنى بمنزلة الجلد ، فكأنه كشط عن المعنى جلداً وألبسه جلداً آخر (كذلك) أى مثل ما يسمى إغارة ومسخاً ، لأن الثانى إما أبلغ من الأول أو دونه أو مثله (كقول أبي تمام) وكقول البحترى

هُوَ الصُّنْعُ إِنْ يَعْجَلْ فَخَيْرٌ وَإِنْ يَرِثْ ... فَلَلرَّيْثُ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ أَنْفَعُ

وَقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :

وَمِنَ الْخَيْرِ بُطْءُ سَيْبِكَ عَنِّي ... أَسْرَعُ السُّحْبِ فِي الْمَسِيرِ الْجَهَامُ

وثانيها كَقَوْلِ الْبُحْتُرِيِّ :

تَصُدُّ حَيَاءً أَنْ تَرَاكَ بِأَوْجُهٍ ... أَتَى الذَّنْبَ عَاصِيهَا فَلِيمَ مُطِيعُهَا

وقول أبي الطيب :

وَجُرْمٍ جَرَّهُ سُفَهَاءُ قَوْمٍ ... وَحَلَّ بِغَيْرِ جَارِمِهِ الْعَذَابُ

فإن بيت أبي الطيب أحسن سبكا ، وكأنه اقتبسه من قوله تعالى : أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ، وكقول الآخر :

وَلَسْتُ بِنَظَّارٍ إِلَى جَانِبِ الْغِنَى ... إِذَا كَانَتِ الْعَلْيَاءُ فِي جَانِبِ الْفَقْرِ

وقول أبي تمام بعده :

يَصُدُّ عَنِ الدُّنْيَا إِذَا عَنَّ سُودَدٌ ... وَلَوْ بَرَزَتْ فِي زِيِّ عَذْرَاءَ نَاهِدِ

فبيت أبي تمام أخصر وأبلغ ، لأن قوله ولو برزت في زي عذراء ناهد : زيادة حسنة (كقول أبي تمام هو الصنع) فبيت المتنبي أبلغ لاشتماله على زيادة بيان . والريث : الإبطاء ، والسيب : العطاء ، والجهام : السحاب الذي لا ماء فيه (كقول البحتري) فإن بيت أبي الطيب دون بيت البحتري ، لأنه قد فاته ما أفاده البحتري بلفظي تألق ، والمصقول من الاستعارة التخييلية حيث أثبت التألق والصقالة للكلام ، كإثبات الأظفار للمنية ، ويلزم من هذا تشبيه كلامه بالسيف وهو الاستعارة بالكناية ، ومعنى تألق : لمع ، والندى : المجلس الغاص بأشراف الناس ، والمصقول : المنقح ، والعضب : السيف القاطع . شبه لسانه بسيفه

وَإِذَا تَأَلَّقَ فِى النَّدِيِّ كَلَامُهُ الْـمَصْقُولُ خِلْتَ لِسَانَهُ مِنْ عَضْبِهِ

وَقَوْلُ أَبِى الطَّيِّبِ :

كَأَنَّ أَلْسُنَهُمْ فِى النُّطْقِ قَدْ جُعِلَتْ عَلَى رِمَاحِهِمْ فِى الطَّعْنِ خُرْصَانَا

وَثَالِثُهَا كَقَوْلِ الْأَعْرَابِى :

وَلَمْ يَكُ أَكْثَرَ الْفِتْيَانِ مَالاً وَلَـكِنْ كَانَ أَرْحَبَهُمْ ذِرَاعَا

وخرصان الرماح : أسنتها أو الحلق ، تطيف بأسافل الأسنة ، وواحدها خرص بالضم والكسر ، وصف فصاحة ألسنة الممدوحين وطلاقتها . يقول إن ألسنتهم فى المضاء والنفاذ تشابه أسنتهم عند الطعن ، فكأن ألسنتهم جعلت أسنة رماحهم . ومن هذا القسم قول بعض الأعراب :

وَرِيحُهَا أَطْيَبُ مِنْ طِيبِهَا وَالطِّيبُ فِيهِ الْمِسْكُ وَالْعَنْبَرُ

وقول بشار :

وَإِذَا أَدْنَيْتَ مِنْهَا بَصَـلاً غَلَبَ الْمِسْكُ عَلَى رِيحِ الْبَصَلْ

وكذلك قول أشجع :

وَعَلَى عَدُوِّكَ يَا ابْنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ رَصَدَانِ ضَوْءُ الصُّبْحِ وَالْإِظْلَامُ

فَإِذَا تَنَبَّهَ رُعْتَهُ وَإِذَا هَـدَا سَلَّتْ عَلَيْهِ سُيُوفَكَ الْأَحْلَامُ

وقول أبى الطيب :

يَرَى فِى النَّوْمِ رُمْحَكَ فِى كُلَاهُ وَيَخْشَى أَنْ يَرَاهُ فِى السُّهَادِ

فقصر بذكر السهاد لأنه أراد اليقظة فأخطأ ، إذ ليس كل يقظة سهاداً وإنما السهاد امتناع الكرى فى الليل ، وأما المستيقظ بالنهار فلا يسمى ساهداً (كقول الأعرابى) وكذا قول أبى بكر بن النطاح :

وَقَوْلِ أَشْجَعَ :

وَلَيْسَ بِأَوْسَعِهِمْ فِي الْغِنَى * وَلَـكِنَّ مَعْرُوفَهُ أَوْسَعَ

* وَأَمَّا غَيْرُ الظَّاهِرِ فَمِنْهُ أَنْ يَتَشَابَهَ الْمَعْنَيَانِ ، كَقَوْلِ جَرِيرٍ :

كَأَنَّكَ عِنْدَ الـكَرِّ فِي حَوْمَةِ الْوَغَى ... تَفِرُّ مِنَ الصَّفِّ الَّذِي مِنْ وَرَائِكَا

وقول أبي الطيب :

فَـكَأَنَّهُ وَالطَّعْنُ مِنْ قُدَّامِهِ ... مُتَخَوِّفٌ مِنْ خَلْفِهِ أَنْ يُطْعَنَا

وكذا قول الآخر يذكر ابناً له مات :

الصَّبْرُ يُحْمَدُ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا ... إِلاَّ عَلَيْكَ فَإِنَّهُ مَذْمُومُ

وقول أبي تمام بعده :

وَقَدْ كَانَ يُدْعَى لاَبِسُ الصَّبْرِ حَازِماً ... فَأَصْبَحَ يُدْعَى حَازِماً حِينَ يَجْزَعُ

وفلان رحب الذراع والباع : سخى (كقول جرير) فإن تعبير لجرير عن الرجل بذى العمامة كتعبير أبي الطيب عنه بمن فى كفه قناة ، وكذا العبارة عن المرأة بذات الخمار ، وبمن فى كفه خضاب : ومن هذا النوع قول الطرماح ابن حكيم الطائى :

لَقَدْ زَادَنِي حُبًّا لِنَفْسِيَ أَنَّنِي ... بَغِيضٌ إِلَى كُلِّ امْرِىءٍ غَيْرِ طَائِلِ

وقول أبي الطيب :

وَإِذَا أَتَتْكَ مَذَمَّتِي مِنْ نَاقِصٍ ... فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّيَ كَامِلُ

فَلَا يَمْنَعْكَ مِنْ أَرَبٍ لِحَاهُمْ سَوَاءٌ ذُو الْعِمَامَةِ وَالْخِمَارِ

وقولِ أبي الطيب :

وَمَنْ فِي كَفِّهِ مِنْهُمْ قَنَاةٌ كَمَنْ فِي كَفِّهِ مِنْهُمْ خِضَابُ

وَمِنْهُ أَنْ يُنْقَلَ الْمَعْنَى إِلَى مَعْنًى آخَرَ ، كقولِ الْبُحْتُرِيِّ :

سُلِبُوا وَأَشْرَقَتِ الدِّمَاءُ عَلَيْهِمِ مُحْمَرَّةً فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يُسْلَبُوا

وقولِ أبي الطيِّب :

فإن ذم الناقص أبا الطيب كبغض من هو غير طائل ذلك الرجل ، وشهادة ذم الناقص أبا الطيب بفضله كزيادة حب الطرماح لنفسه ، وكذا قول أبي العلاء المعرى فى مرثية :

وَمَا كُلْفَةُ الْبَدْرِ الْمُنِيرِ قَدِيمَةٌ وَلَكِنَّهَا فِي وَجْهِهِ أَثَرُ اللَّطْمِ

وقول القيسرانى :

وَأَهْوَى الَّذِي أَهْوَى لَهُ الْبَدْرُ سَاجِداً أَلَسْتَ تَرَى فِي وَجْهِهِ أَثَرَ التُّرْبِ

ولا يغرنك من البيتين المتشابهين أن يكون أحدهما نسيباً والآخر مديحاً أو هجاء أو افتخاراً أو غير ذلك ، فإن الشاعر الحاذق إذا عمد إلى المعنى المختلس لينظمه تحيل فى إخفائه فغير لفظه وعدل به عن نوعه ووزنه وقافيته (كقول البحترى) فإن أبا الطيب كما ترى نقل المعنى من القتلى والجرحى إلى السيف . سلبوا : أى سلبوا ثيابهم ، وأشرقت الدماء عليهم : أى فظهرت الدماء عليهم ملابسة لإشراق شعاع الشمس ، فكأنهم لم يسلبوا لأن الدماء المشرقة كانت بمنزلة ثياب لهم : وأصل هذا المعنى من قول بعض العرب

يَبِسَ النَّجِيعُ عَلَيْهِ وَهْوَ مُجَرَّدٌ مِنْ غِمْدِهِ فَكَأَنَّمَا هُوَ مُغْمَدُ

وَمِنْهُ أَنْ يَكُونَ الثَّانِي أَشْمَلَ : كَقَوْلِ جَرِيرٍ :

إِذَا غَضِبَتْ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ وَجَدْتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَا

وَقَوْلِ أَبِي نُوَاسٍ :

لَيْسَ عَلَى اللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدِ

وَمِنْهُ الْقَلْبُ : وَهُوَ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى الثَّانِي نَقِيضَ مَعْنَى الْأَوَّلِ ،

كـ وِلِ أَبِي الشِّيصِ :

وَ...قْتُ بَيْنَ ابْنَيْ هُشَيْمٍ بِطَعْنَةٍ لَهَا عَانِدٌ يَكْسُو السَّلِيبَ إِزَارَا[1]

(النجيع) النجيع من الدم : ما كان إلى السواد ، وهو دم الجوف (كقول جرير) فإن جريراً جعل الناس كلهم بنى تميم ، وأبا نواس جعل العالم كا فى واحد (كقول أبى الشيص) فإن ما فى بيته مناقض لما فى بيت أ الطيب ، لأنه صرح بحب الملامة ، والمتنبي فى حبها بهمزة الإنكار ، لكن كل منهما باعتبار آخر ، ولهذا قالوا الأحسن فى هذا النوع أن يبين السبب كما فى هذين البيتين[2] إلا أن يكون ظاهراً كما فى قول أبى تمام :

وَنَغْمَةُ مُعْتَفٍ جَدْوَاهُ أَحْلَى عَلَى أُذْنَيْهِ مِنْ نَغَمِ السَّمَاعِ

---

(١) عند العرق سال فلم يكد يرقأ ، وهو عرق عاند .

(٢) فإن الأول علل حب الملامة بحبه لذكره ، والثانى علل كراهيته له بكونها تصدر من الأعداء .

أَجِدُ المَلامَةَ في هَواكِ لَذيذَةً ... حُبًّا لِذِكْرِكِ فَلْيَلُمْنِي اللُّوَّمُ

وَقولِ أبي الطيِّب :

أَأُحِبُّهُ وَأُحِبُّ فيهِ مَلامَةً ... إِنَّ المَلامَةَ فيهِ مِنْ أَعْدائِهِ

وَمِنْهُ أَنْ يُؤْخَذَ بَعْضُ المَعْنَى وَيُضافَ إِلَيْهِ ما يُحَسِّنُهُ كَقَوْلِ الأَفْوَهِ :

وَتَرَى الطَّيْرَ عَلَى آثارِنا ... رَأْيَ عَيْنٍ ثِقَةً أَنْ سَتُمارْ

وَقول أبي تمام :

وَقَدْ ظُلِّلَتْ عِقْبانُ أَعْلامِهِ ضُحًى ... بِعِقْبانِ طَيْرٍ في الدِّماءِ نَواهِلِ

أَقامَتْ مَعَ الرّاياتِ حَتَّى كَأَنَّها ... مِنَ الجَيْشِ إِلاَّ أَنَّها لَمْ تُقاتِلِ

فَإِنَّ أَبا تَمامٍ لَمْ يَأْتِ بِشَيْءٍ مِنْ مَعْنَى قَوْلِ الأَفْوَهِ رَأْيَ عَيْنٍ

وقول أبي الطيب :

وَالجِراحاتُ عِنْدَهُ نَغَماتٌ ... سَبَقَتْ قَبْلَ سَيْبِهِ بِسُؤالِ

أراد أبو تمام أن الممدوح يستلذ نغمات السائلين لما فيه من غاية الكرم ونهاية الجود ، وأراد أبو الطيب أنه إن سبقت نغمة من سائل عطاء الممدوح بلغ ذلك منه مبلغ الجراحة من المجروح ، لأن عادته أن يعطي بغير سؤال (على آثارنا) وراءنا تابعة لنا (رأي عين) يعني عياناً (ستمار) أي ستطعم من لحوم من نقتلهم من القتلى (وقد ظللت) يقول : إن رايات الممدوح التي هي كالعقبان قد صارت مظللة بالعقبان من الطيور النواهل في دماء القتلى ، لأنه إذا خرج للغزو تسير العقبان فوق راياته ، وثوقاً بأنها ستطعم لحوم القتلى فتلقى ظلالها عليها ، والنواهل جمع ناهلة : من نهل إذا روى (فإن أبا تمام)

وَ ا مِنْ قَوْلِهِ ثِقَةً أَنْ سَتُمَارُ ، لَكِنْ زَادَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ إِلاَّ أَنَّهَا لَمْ تُقَاتِلْ

وَ نَوْلِهِ فِي الدِّمَاءِ نَوَاهِلِ ، وَ بِإِقَامَتِهَا مَعَ الرَّايَاتِ حَتَّى كَأَنَّهَا مِنَ الْجَيْشِ

وَ نَا يَتِمُّ حُسْنُ الأَوَّلِ ، وَأَكْثَرُ هَذِهِ الأَنْوَاعِ وَنَحْوِهَا مَقْبُولَةٌ ، بَلْ

مِ ا مَا يُخْرِجُهُ حُسْنُ التَّصَرُّفِ مِنْ قَبِيلِ الاتِّبَاعِ إِلَى حَيِّزِ الابْتِدَاعِ ،

وَ الَّمَا كَانَ أَشَدَّ خَفَاءً كَانَ أَقْرَبَ إِلَى الْقَبُولِ ، هَذَا كُلُّهُ إِذَا عُلِمَ أَنَّ

ا انِيَ أَخَذَ مِنَ الأَوَّلِ ، لِجَوَازِ أَنْ يَكُونَ الاتِّفَاقُ مِنْ قَبِيلِ تَوَارُدِ

ي أن أبا تمام أخذ بعض معنى بيت الأفوه لا كله ، لأن الأفوه أفاد بقوله
ى عين قرب الطير من الجيش لأنها إذا بعدت تخيلت ولم تر وإنما يكون
بها توقعاً للفريسة ، وهذا يؤكد المعنى المقصود أعنى وصفهم بالشجاعة
لاقتدار على قتل الأعادى ، ثم قال ثقة أن ستمار لجعلها واثقة بالميرة ، وأما
أ تمام فلم يلم بشيء من ذلك ، لكن زاد على الأفوه بقوله إلا أنها لم تقاتل ،
ر قوله فى الدماء نواهل ، ثم بإقامتها مع الرايات حتى كأنها من الجيش ،
بهذا يتم حسن قوله إلا أنها لم تقاتل ، وهذه الزيادات حسنت قوله ،
ن كان قد ترك بعض ما أتى به الأفوه . فقول المصنف وبها أى بهذه
يادة الأخيرة وهى إقامتها مع الرايات حتى كأنها من الجيش ، وقوله الأول
ى قوله إلا أنها لم تقاتل (إذا علم أن الثاني أخذ من الأول) بأن يعلم أنه
ن يحفظ قول الأول حين نظم قوله ، أو بأن يخبر هو عن نفسه أنه أخذ منه
لجواز أن يكون الاتفاق من قبيل توارد الخواطر) كما وقع لى فيما درج من
أيام أيام كنت لا أعرف شعراً ولا شاعراً ، وذلك بيت قلته فى صديق غاب
ى حرساً من الزمن وهو :

الخَواطِرِ ، أيْ مَجيئِهِ عَلَى سَبِيلِ الاتفاقِ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ لِلأَخْذِ ، فإذا لَمْ يُعلَمْ قِيلَ قالَ فُلانٌ كذا وَقدْ سَبَقَهُ إليْهِ فُلانٌ فقالَ كَذا .

ومِمَّا يَتَّصِلُ بِهذا القَوْلُ فى الاقْتِباسِ وَالتَّضْمِينِ وَالعَقْدِ وَالحَلِّ وَالتَّلْمِيحِ .

أمَّا الاقْتِباسُ : فَهُوَ أنْ يُضَمِّنَ الكلامُ شَيْئاً مِنَ القُرآنِ أوِ الحَدِيثِ لا عَلَى أنَّهُ مِنْهُ ، كقوْلِ الحَرِيرِيِّ : فَلَمْ يكُنْ إلاَّ كَلَمْحِ البَصَرِ أوْهُوَ أقْرَبُ ، حتى أنْشَدَ فأغْرَبَ ، وقوْلِ الآخرِ :

إنْ كُنْتِ أزْمَعْتِ عَلَى هَجْرِنَا ... مِنْ غَيْرِ مَا جُرْمٍ فَصَبْرٌ جَمِيلْ

وَإنْ تَبَدَّلْتِ بِنَا غَيْرَنَا ... فَحَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلْ

وَمَا كُنْتُ أدْرِى قَبْلَ بُعْدِكَ مَا الجَوَى ... وَلاَ حَادِثَاتِ الدَّهْرِ كَيفَ تَنُوبُ

فأسمعته صاحباً لى فقال إن مثله لكثير عزة وهو :

وَمَا كُنْتُ أدْرِى قَبْلَ عَزَّةَ مَا البُكا ... وَلاَ مُوجِعَاتِ القَلْبِ حَتَّى تَوَلَّتْ

فما كاد يتمه حتى أخذت منى هزة الطرب ، وكدت أخرج من جلدى فرحاً وقلت الآن أغبط نفسى إذ طبعت على غرار أعيان الشعراء ، وكما يحكى عن ابن ميادة أنه أنشد لنفسه :

مُفِيدٌ وَمِتْلاَفٌ إذَا مَا أتَيْتَهُ ... تَهَلَّلَ وَاهْتَزَّ اهْتِزَازَ المُهَنَّدِ

فقيل له أين يذهب بك هذا للحطيئة ، فقال الآن علمت أنى شاعر ، إذ وافقته على قوله ولم أسمعه (الآخر) هو أبو القاسم بن الحسن الكاتبى (أزمعت) أى عزمت (من غير ما جرم) من غير ذنب صدر منا فازائدة

وَقَوْلِ الْحَرِيرِيِّ : فَلَمَّا شَاهَتِ الْوُجُوهُ ، وَقُبِحَ اللُّكَعُ وَمَنْ يَرْجُوه .

قَوْلِ ابْنِ عَبَّادٍ :.

قَالَ لِي إِنَّ رَقِيبِي سَيِّءُ الْخُلْقِ فَدَارِهْ
قُلْتُ دَعْنِي وَجْهُكَ الْجَنَّـــةُ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهْ

وَهُوَ ضَرْبَانِ : مالَمْ يُنْقَلْ فِيهِ الْمُقْتَبَسُ عَنْ مَعْنَاهُ الْأَصْلِيِّ ، كما تَقَدَّمَ ، وَخِلَافُهُ ، كقوله :

لَئِنْ أَخْطَأْتُ فِي مَدْحِيكَ مَا أَخْطَأْتَ فِي مَنْعِي
لَقَدْ أَنْزَلْتُ حَاجَاتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعِ

وَلَا بَأْسَ بِتَغْيِيرٍ يَسِيرٍ لِلْوَزْنِ أَوْ غَيْرِهِ ، كَقَوْلِهِ :

(فلما شاهت الوجوه) أى قبحت وهو لفظ الحديث ، فإنه روى أنه لما اشتدت الحرب يوم حنين ، أخذ النبى صلى الله عليه وسلم كفاً من الحصباء فرمى به المشركين ، وقال شاهت الوجوه (اللكع) أى اللئيم ، ويقال هو العبد الذليل النفس (فداره) من المداراة ، وهى المجاملة والملاطفة (وجهك الجنة) قد اقتبس من لفظ الحديث حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات : أى أن وجهك جنة فلا بد لى من تحمل مكاره الرقيب ، كما لا بد لطالب الجنة من مشاق التكاليف (كقوله) أى قول ابن الرومى ، فإن بواد غير ذى زرع مقتبس من القرآن الكريم ، لكن معناه فى القرآن واد لا ماء فيه ولا نبات ، وفى البيت جناب لا خير فيه ولا نفع (كقوله) أى قول بعض المغاربة عند وفاة بعض أصحابه ، ومثله قول عمر الخيام

قَدْ كانَ ما خِفْتُ أَنْ يكُونا ☆ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاجِعُونَا

وَأَمَّا التَّضْمِينُ : فَهُوَ أَنْ يُضَمَّنَ الشِّعْرُ شَيْئًا مِنْ شِعْرِ الْغَيْرِ مَعَ التنبيهِ عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ مَشْهُورًا عِنْدَ الْبُلَغاء ، كَقولِهِ :

سَبَقْتُ العَالَمِينَ إِلَى المَعَالِي ... بِصَائِبِ فِكْرَةٍ وَعُلُوِّ هِمَّهْ

وَلاحَ بِحِكْمَتِي نُورُ الْهُدَى فِي ... لَيَالٍ لِلضَّلاَلَةِ مُدْلَهِمَّهْ

يُرِيدُ الجَاهِلُونَ لِيُطْفِئُوهُ ... وَيَأْبَى اللهِ إِلَّا أَنْ يُتِمَّهْ

وكذلك قول القاضى منصور الهروى الازدى :

فَلَوْ كانَتِ الْأَخْلاَقُ تُحْوَى وِرَاثَةً ... وَلَوْ كَانَتِ الآرَاء لاَ تَتَشَعَّبُ

لَأَصْبَحَ كُلُّ النَّاسِ قَدْ ضَمَّهُمْ هَوًى ... كما أَنَّ كُلَّ النَّاسِ قَدْ ضَمَّهُمْ أَبُ

وَلَكِنَّهَا الأَقْدَارُ كُلٌّ مُيَسَّرٌ ... لِمَا هُوَ مَخْلُوقٌ لَهُ وَمُقَرَّبُ

(عليه) أى على أنه من شعر الغير (كقوله) أى قول الحريرى يحكى ماقاله الغلام الذى عرضه أبو زيد للبيع : والمصراع الأخير للعرجى وتمامه :

☆ لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَسِدَادِ ثَغْرِ ☆

ومن هذا النوع قول ابن العميد :

وَصَاحِبٍ كُنْتُ مَغْبُوطًا بِصُحْبَتِهِ ... دَهْرًا فَغَادَرَنِى فَرْدًا بِلاَ سَكَنِ

هَبَّتْ لَهُ رِيحُ إِقْبَالٍ فَطَارَ بِهَا ... نَحْوَ السُّرُورِ وَأَلْجَانِي إِلَى الْحَزَنِ

كَأَنَّهُ كَانَ مَطْوِيًّا عَلَى إِحَنٍ ... وَلَمْ يَكُنْ فِي ضُرُوبِ الشِّعْرِ أَنْشَدَنِي

عَلَى أَنِّى سَأُنْشِدُ عِنْدَ بَيْعِى ... أَضَاعُونِى وَأَىَّ فَتًى أَضَاعُوا

وَأَحْسَنُهُ مَا زَادَ عَلَى الأَصْلِ بِنُكْتَةٍ كَالتَّوْرِيَةِ وَالتَّشْبِيهِ فى قوله :

إِذَا الْوَهْمُ أَبْدَى لِى لَمَاهَا وَثَغْرَهَا ... تَذَكَّرْتُ مَا بَيْنَ الْعُذَيْبِ وَبَارِقِ

وَيُذْكِرُنِى مِنْ قَدِّهَا وَمَدَامِعِى ... مَجَرَّ عَوَالِينَا وَمَجْرَى السَّوَابِقِ

. وَلاَ يَضُرُّ التَّغْيِيرُ الْيَسِيرُ ، وَرُبَّمَا سُمِّىَ تَضْمِينُ الْبَيْتِ ، فَمَا زَادَ

إِنَّ الكِرَامَ إِذَا مَا أَسْهَلُوا ذَكَرُوا ... مَنْ كَانَ يَأْلَفُهُمْ فِى الْمَنْزِلِ الْخَشِنِ

والبيت لأبى تمام (كالتورية والتشبيه فى قوله) أى قول ابن أبى الأصبع ، فالمصراعان الأخيران مطلع قصيدة لأبى الطيب ، والعذيب وبارق : موضعان ، والعوالى : الرماح ، والسوابق : الخيل . يقول إنهم كانوا نزولا بين هذين الموضعين وكانوا يجرون الرماح عند مطاردة الفرسان ويسابقون على الخيل ، فالشاعر الثانى أراد بتضمينه بالعذيب وبارق معنييهما البعيدين ، لأنه جعل العذيب تصغير العذب ، وعنى به شفة الحبيبة ، وببارق ثغرها الشبيه بالبرق ، وبما بينهما ريقها ، وهذا تورية ، وشبه تبختر قدها بتمايل الرمح وجريان دمعه على التتابع بجريان الخيل السوابق ، فزاد على أبى الطيب بهذه التورية والتشبيه (ولا يضر التغيير اليسير) ليدخل فى معنى الكلام كقول بعض المتأخرين فى يهودى[1] به داء الثعلب[2] :

أَقُولُ لِمَعْشَرٍ غَلَطُوا وَغَضُّوا ... عَنِ الشَّيْخِ الرَّشِيدِ وَأَنْكَرُوهُ

---

(١) ذماً له بكونه أقرع .

(٢) هو مرض يسقط الشعر من الرأس .

اسْتِعَانَةً ، وَتَضْمِينُ الْمِصْرَاعِ فَمَا دُونَهُ إِيدَاعاً وَرَفْوًا . وَأَمَّا الْعَقْدُ : فَهُوَ أَنْ يُنْظَمَ نَثْرٌ لاَ عَلَى طَرِيقِ الاقْتِبَاسِ ، كَقَوْلِهِ :

مَابَالُ مَنْ أَوَّلُهُ نُطْفَةٌ ٭ وَجِيفَةٌ آخِرُهُ يَفْخَرُ

عَقَدَ قَوْلَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : وَمَا لِابْنِ آدَمَ وَالفَخْرَ ، وَإِنَّمَا أَوَّلُهُ نُطْفَةٌ وَآخِرُهُ جِيفَةٌ . وَأَمَّا الْحَلُّ : فَهُوَ أَنْ يُنْثَرَ نَظْمٌ كَقَوْلِ بَعْضِ الْمَغَارِبَةِ : فَإِنَّهُ لَمَّا قَبُحَتْ فَعَلاَتُهُ ، وَحَنْظَلَتْ نَخَلاَتُهُ ، لَمْ يَزَلْ سُوءُ الظَّنِّ

هُوَ ابْنُ جَلاَ وَطَلاَّعُ الثَّنَايَا مَتَى يَضَعِ الْعِمَامَةَ تَعْرِفُوهُ

البيت لسحيم بن وثيل وأصله :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفونى

على طريقة التكلم كما ترى . فغيره إلى طريقة الغيبة ليدخل فى المقصود (إيداعاً) لأن الشاعر الثانى قد أودع شعره شيئاً من شعر الأول (ورفواً) لأنه رفا خرق شعره بشعر غيره (كقوله) أى قول أبى العتاهية . ومثله قوله أيضاً :

وَكَانَتْ فِي حَيَاتِكَ لِي عِظَاتٌ وَأَنْتَ الْيَوْمَ أَوْعَظُ مِنْكَ حَيّ

عقد قول بعض الحكماء فى الإسكندر لما مات . كان الملك أمس أنطق منه اليوم ، وهو اليوم أوعظ منه أمس (وأما الحل) وشرط كونه مقبولا شيئان أحدهما : أن يكون سبكه مختاراً لا يتقاصر عن سبك أصله ، والثانى : أن يكون حسن الموقع مستقراً فى محله غير قلق (كقول بعض المغاربة) يصف شخصاً بأنه سيء الظن لقياسه غيره على نفسه والفعلات الأفعال وحنظلت نخلاته .

يَقْتَادُهُ ، وَ يُصَدِّقُ تَوَهُّمَهُ الَّذِى يَعْتَادُهُ . حَلَّ قَوْلَ أَبِى الطيب :

إِذَا سَاءَ فِعْلُ الْمَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ وَصَدَّقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُّمِ

وأَمَّا التَّلْمِيحُ : فَهُوَ أَنْ يُشَارَ إِلَى قِصَّةٍ أَوْ شِعْرٍ مِنْ غَيْرِ ذِكْرِهِ ، كقوله :

فَوَاللهِ مَا أَدْرِى أَأَحْلَامُ نَائِمٍ أَلَمَّتْ بِنَا أَمْ كَانَ فِى الرَّكْبِ يُوشَعُ

صارت ثمار نخلاته كالنخل فى المرارة . ومثل هذا قول صاحب الوشى المرقوم فى حل المنظوم يصف قلم كاتب : فلا تحظى به دولة إلا فخرت على الدول ، وغنيت به عن الخيل والخول ، وقالت أعلى الممالك ما يبنى على الأقلام لا على الأسل حل قول أبى الطيب ..

* أَعْلَى الْمَمَالِكِ مَا يُبْنَى عَلَى الْأَسَلِ *

وكقول بعض الكتاب فى وصف السيف : أورثه عشق الرقاب نحولا ، فبكى والدمع مطر تزيد به الخدود محولا ، حل قول أبى الطيب أيضاً :

فِى الْخَدِّ أَنْ عَزَمَ الْخَلِيطُ رَحِيلاَ مَطَرٌ تَزِيدُ بِهِ الْخُدُودُ مُحُولاَ

وكقولى فى أستاذنا الإمام الشيخ محمد عبده : صار له دوى فى كل قطر كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر ، حللت قول أبى الطيب يخاطب على بن أحمد الأنطاكى :

وَتَرْكُكَ فِى الدُّنْيَا دَوِيّاً كَأَنَّمَا تَدَاوَلُ سَمْعَ الْمَرْءِ أَنْمُلُهُ الْعَشْرُ

(كقوله فوالله) هو لأبى تمام وقبله :

لَحِقْنَا بِأُخْرَاهُمْ وَقَدْ حَوَّمَ الْهَوَى قُلُوباً عَهِدْنَا طَيْرَهَا وَهْيَ وُقَّعُ

أَشَارَ إِلَى قِصَّةِ يُوشَعَ عليه السلاَمُ وَاسْتِيقَافِهِ الشَّمْسَ ، وَكَقَوْلِهِ :

لَعَمْرٌو مَعَ الرَّمْضَاءِ وَالنَّارُ تَلْتَظِى ... أَرَقُّ وَأَحْفَى مِنْكَ فى سَاعَةِ الْكَرْبِ

أشار إلى البيت المشهور :

الْمُسْتَجِيرُ بِعَمْرٍو عِنْدَ كُرْبَتِهِ ... كَالْمُسْتَجِيرِ مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ

فَرُدَّتْ عَلَيْنَا الشَّمْسُ وَاللَّيْلُ رَاغِمٌ ... بِشَمْسٍ لَهُمْ مِنْ جَانِبِ الْخِدْرِ تَطْلُعُ

نَضَا ضَوْؤُهَا صِبْغَ الدُّجُنَّةِ وَانْطَوَى ... لِبَهْجَتِهَا ثَوْبُ السَّمَاءِ الْمُجَزَّعُ

الضمير فى أخرامهم ولهم للأحبة المرتحلين وإن لم يجرلهم ذكر فى اللفظ ، وحام الطير على الماء : دار ، وحومه غيره ، ونضا : ذهب به وأزاله ، الضمير فى ضوئها وبهجتها للشمس الطالعة من الخدر ، والدجنة : الظلمة ، وانطوى : انضم ، والمجزع : ذو لونين ، وقوله أأحلام نائم : استعظام لما رأى واستغرب (أشار إلى قصة يوشع) على ما روى أنه قاتل الجبارين يوم الجمعة ، فلما أدبرت الشمس خاف أن تغيب قبل أن يفرغ منهم ، ويدخل السبت فلا يحل له قتالهم ، فدعا الله فرد له الشمس حتى فرغ من قتالهم (لعمرو) هو لأبى تمام ، والرمضاء : الأرض الشديدة الحر ، وأحفى من حفى بفلان : إذا بالغ فى إكرامه وأظهر السرور والفرح (المستجير بعمرو) لهذا البيت قصة هى أن البسوس زارت أختها الهيلة وهى أم جساس بجار لها من جرم بن زبان له ناقة وكليب قد حمى أرضاً من العالية فلم يكن يرعاها إلا إبل جساس لمصاهرة بينهما ، فخرجت فى إبل جساس ناقة الجرمى ترعى من حمى كليب ، فأنكرها كليب فرماها فاختل ضرعها ، فولت حتى بركت بفناء صاحبها وضرعها يشحب دماً ولبناً وصاحت البسوس واذلاه واغربتاه ، فقال لها جساس أيتها الحرة اهدئى فوالله لأعقرن

﴿ فَصْلٌ ﴾

ينبغي لِلْمُتَكَلِّمِ أَنْ يتأَنَّقَ في ثلاثةِ مَوَاضِعَ مِنْ كلامِهِ ، حتى تكونَ أَعْذَبَ لَفْظًا ، وأَحْسَنَ سَبْكًا ، وَأَصَحَّ مَعْنًى أَحدها : الابتداء كقوله :

* قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ *

لكلا هو أعز على أهله منها فلم يزل جساس يتوقع غرة كليب حتى خرج وتباعد عن الحى ، فبلغ جساساً خروجه ، فخرج على فرسه فأتبعه فرمى صلبه ، ثم وقف عليه فقال ياعمرو أغثنى بشربة ماء ، فأجهز عليه فقضى . وقيل المستجير بعمرو البيت ، ونشب الشر بين تغلب وبكر أربعين سنة كلها لتغلب على بكر ، ولهذا قيل أشأم من البسوس . هذا ومن التلميح ضرب يشبه اللغز ، كما روى أن تميما قال لشريك النميرى : ما فى الجوارح أحب إلى من البازى فقال : إذا كان يصيد القطا . أشار التميمى إلى قول جرير :

أَنا الْبَازِى الْمطلّ عَلَى نُمَيْرٍ   أُتِيحَ مِنَ السَّماء لَهَا انْصِبَابًا

وأشار شريك إلى قول الطرماح :

تَمِيمٌ بِطُرْقِ اللُّؤْمِ أَهْدَى مِنَ الْقَطا   وَلَوْ سَلَكَتْ طُرْقَ الْمَكَارِمِ ضَلَّتِ

(أحدها الابتداء) لأنه أول ما يقرع السمع ، فإن كان عذباً حسن السبك صحيح المعنى أقبل السامع على الكلام . ولهذا المعنى يقول الله عزوجل : الم وحم وطس وطسم وكهيعص . فيقرع أسماعهم بشىء بديع ليس لهم بمثله عهد ليكون ذلك داعية لهم إلى الاستماع لما بعده . ومن هنا جعل أكثر الابتدآت بالحمد لله لأن النفوس تتشوف للثناء على الله ، فهو داعية إلى الاستماع (كقوله قفا نبك) قيل لما سمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال . قاتل الله الملك

وكقوله :

قَصْرٌ عَلَيْهِ تَحِيَّةٌ وَسَلَامُ   خَلَعَتْ عَلَيْهِ جَمَالَهَا الْأَيَّامُ

وَأَنْ يَتَجَنَّبَ فى الْمَدِيحِ مَا يُتَطَيَّرُ به ، كقوله :

* مَوْعِدُ أَحْبَابِكَ بِالْفُرْقَةِ غَدِ *

الضليل . وقف واستوقف وبكى واستبكى . وذكر الحبيب ومنزله فى مصراع واحد ، والبيت مطلع معلقة أمرىء القيس وتمامه :

* بِسَقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ *

ومن الابتدآت الحميدة قول النابغة الجعدى :

كِلِينِى لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبِ   وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِىءِ الْكَوَاكِبِ

وقول المتنبى :

أَتُرَاهَا لِكَثْرَةِ الْعُشَّاقِ   تَحْسَبُ الدَّمْعَ خِلْقَةً فِى الْمَآقِى

(وكقوله) أى قول أشجع السلمى (موعد) مطلع قصيدة لابن مقاتل الضرير أنشدها للداعى العلوى ، فقال له الداعى : موعد أحبابك يا أعمى ولك المثل السوء ، ويروى أيضاً أنه دخل عليه فى يوم مهرجان وأنشد :

لَا تَقُلْ بُشْرَى وَلَكِنْ بُشْرَيَانِ   غُرَّةُ الدَّاعِى وَيَوْمُ الْمِهْرَجَانِ

فتطير به وقال يا أعمى تبتدىء بهذا يوم المهرجان ، وقيل بطحه وضربه خمسين عصاً ، وقال إصلاح أدبه أبلغ من ثوابه . ويروى أنه لما فرغ المعتصم من بناء قصره بالميدان ، جلس فيه وجمع أهله وأصحابه ، وأمرهم أن يخرجوا فى زينتهم ، فما رأى الناس أحسن من ذلك اليوم ، فاستأذن إسحق الموصلى المغنى

وَأَحْسَنُهُ مَا يُنَاسِبُ الْمَقْصُودَ ، وَيُسَمَّى بَرَاعَةَ الاسْتِهْلَالِ ، كَقَوْلِهِ فِي التَّهْنِئَةِ :

* بُشْرَى فَقَدْ أَنْجَزَ الإِقْبَالُ مَا وَعَدَا *

وقوله فى المرثية :

هِيَ الدُّنْيَا تَقُولُ بِمِلْءِ فِيهَا ... حَذَارِ حَذَارِ مِنْ بَطْشِي وَفَتْكِي

شـ ـاً أجاد فيه . إلا أنه ابتدأه بذكر الديار وعفائها فقال :

يَا دَارُ غَيَّرَكِ الْبِلَا وَمَحَاكِ ... يَا لَيْتَ شِعْرِي مَا الَّذِي أَبْلَاكِ

فتطير المعتصم وتغامز الناس ، وعجبوا كيف ذهب على أبى إسحاق مع
فهـ ـه وعلمه وطول خدمته للملوك ، ثم أقاموا يومهم وانصرفوا ، فما عاد منهم
اثـ ـن إلى ذلك المجلس . وخرج المعتصم إلى سر من رأى وخرب القصر
(ـرى) هو لأبى محمد الخازن يهنىء ابن عباد بمولود لبنته . وأحسن منه قول
أبـ ـى تمام يهنىء المعتصم بالله بفتح عمورية . وكان أهل التنجيم زعموا أنها ا
لا تفتح فى ذلك الوقت :

السـ ـيفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءً مِنَ الْكُتُبِ ... فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ

بيـ ـضُ الصَّفَائِحِ لَا سُودُ الصَّحَائِفِ فِي ... مُتُونِهِنَّ جِلَاءُ الشَّكِّ وَالرِّيَبِ

وقول أبى الطيب فى التهنئة بزوال مرض :

الْمَجْـ ـدُ عُوفِيَ إِذْ عُوفِيتَ وَالْكَرَمُ ... وَزَالَ عَنْكَ إِلَى أَعْدَائِكَ السَّقَمُ

(هى الدنيا) لأبى الفرج الساوى يرثى بعض ملوك بنى بويه . وأحسن
مـ ـه قول أوس بن حجر :

وَثانيهَا التَّخَلُّصُ مِمَّا شُبِّبَ الكَلامُ بِهِ ، مِنْ نَسِيبٍ أَوْ غَيْرِهِ ، إِلَى المَقْصُودِ ، مَعَ رِعَايَةِ المُلاءَمَةِ بَيْنَهُمَا ، كَقَوْلِهِ :

يَقُولُ فِى قُومَسٍ قَوْمِى وَقَدْ أَخَذَتْ مِنَّا السُّرَى وَخُطَا المَهْرِيَّةِ القُودِ

أَمَطْلَعَ الشَّمْسِ تَبْغِى أَنْ تَؤُمَّ بِنَا فَقُلْتُ كَلاَّ وَلَكِنْ مَطْلَعَ الجُودِ

أَيَّتُهَا النَّفْسُ أَجْمِلِى جَزَعَا إِنَّ الَّذِى تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا

وقول أبى تمام :

كَذَا فَلْيَجِلَّ الخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ الأَمْرُ وَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَاؤُهَا عُذْرُ

(وثانيها التخلص) لأن السامع يكون مترقباً للانتقال من التشبيب إلى المقصود كيف يكون . فإذا كان حسناً متلائم الطرفين حرك من نشاط السامع . وأعان على إصغاء مابعده . وإن كان بخلاف ذلك كان الأمر بالعكس . هذا وكان الأحسن والأوضح للمصنف أن يقول وثانيها التخلص . وهو الانتقال مما ابتدىء الكلام به من نسيب أو غيره إلى المقصود الخ ، كما لايخفى على الفطن . فقوله مما شبب الكلام به : أراد مطلق الابتداء والافتتاح لاخصوص التشبيب الذى هو ذكر أيام الشباب واللهو والغزل والنسيب أن يصف الشاعر جمال المرأة وحاله معها فى العشق (أو غيره) كالافتخار والهجو والشكاية (بينهما) أى بين ماشبب أى ابتدىء به الكلام وبين المقصود (كقوله يقول) قومس : صقع كبير بين خراسان وبلاد الجبل وأخذت منا السرى : أى أثر فينا السير ليلا ونقصت من قوانا . والمهرية : الإبل المنسوبة إلى مهرة بن حيدان . والقود : الطوال الظهور والأعناق . والبيتان لأبى تمام فى عبد الله بن طاهر هذا ومن بدائع التخلص قول زهير

وَقَدْ يُنْتَقَلُ مِنْهُ إِلَى مَالاَ يُلاَئِمُهُ ، وَيُسَمَّى الِاقْتِضَابَ ، وَهُوَ مَذْهَبُ الْعَرَبِ الأُولَى وَمَنْ يَلِيهِمْ مِنَ الْمُخَضْرَمِينَ ، كقوله :

رَأَى اللهُ أَنَّ فِي الشَّيْبِ خَيْرًا ... جَاوَرَتْهُ الأَبْرَارُ فِي الْخُلْدِ شِيبَا

كُلَّ يَوْمٍ تُبْدِي صُرُوفُ اللَّيَالِي ... خُلُقًا مِنْ أَبِي سَعِيدٍ غَرِيبَا

إِنَّ الْبَخِيلَ مَلُومٌ حَيْثُ كَانَ ... وَلَكِنَّ الْجَوَادَ عَلَى عِلاَّتِهِ هَرِمُ

وقول مسلم بن الوليد :

أَجِدَّكِ مَاتَدْرِينَ أَنْ رُبَّ لَيْلَةٍ ... كَأَنَّ دُجَاهَا مِنْ قُرُونِكِ يُنْشَرُ

سَهِرْتُ بِهَا حَتَّى تَجَلَّتْ بِغُرَّةٍ ... كَغُرَّةِ يَحْيَى حِينَ يُذْكَرُ جَعْفَرُ

وقول المتنبي :

خَلِيلَيَّ مَا لِي لاَ أَرَى غَيْرَ شَاعِرٍ ... فَكَمْ مِنْهُمُ الدَّعْوَى وَمِنِّي الْقَصَائِدُ

لاَ تَعْجَبَا إِنَّ السُّيُوفَ كَثِيرَةٌ ... وَلَكِنَّ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الْيَوْمَ وَاحِدُ

(الأولى) يعني الجاهلية (من المخضرمين) وهم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام مثل لبيد . قال الزمخشرى : ناقة مخضرمة أى جدع نصف أذنها ، ومنه المخضرم الذى أدرك الجاهلية والإسلام كأنما قطع نصفه حيث كان فى الجاهلية (كقوله) أى قول أبى تمام وهو من الإسلاميين ، لأنه كان فى زمن الدولة العباسية . هذا والاقتضاب فى الشعر كثير والتخلص بالنسبة إليه قطرة من بحر ، فمن الاقتضاب قول أبى نواس فى قصيدته النونية التى أولها :

* يَا كَثِيرَ النَّوْحِ فِي الدِّمَنِ *

فَاسْقِنِي كَأْساً عَلَى عَذَلٍ ... كَرِهَتْ مَسْمُوعَهُ أُذُنِي

وَمِنْهُ مَا يَقْرُبُ مِنَ التَّخَلُّصِ ، كَقَوْلِكَ بَعْدَ حَمْدِ اللهِ : أَمَّا بَعْدُ ، قِيلَ وَهُوَ فَصْلُ الْخِطَابِ ، وكقولهِ تعالى : هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآب ، أَيْ الأَمْرُ هَذَا أَوْ هَذَا كَمَا ذُكِرَ ، وقولهِ : هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ، وَمِنْهُ قَوْلُ الْكَاتِبِ : هَذَا بَابٌ * وَثَالِثُهَا الانْتِهَاء ، كقولهِ :

وَإِنِّي جَدِيرٌ إِذْ بَلَغْتُكَ بِالْمُنَى وَأَنْتَ بِمَا أَمَّلْتُ مِنْكَ جَدِيرٌ
فَإِنْ تُولِنِي مِنْكَ الْجَمِيلَ فَأَهْلُهُ وَإِلاَّ فَإِنِّي عَاذِرٌ وَشَكُورُ

مِنْ كُمَيْتِ اللَّوْنِ صَافِيَةٍ خَيْرِ مَاسَلْسَلْتَ فِي بَدَنِي
مَااسْتَقَرَّتْ فِي فُؤَادِ فَتًى فَدَرَى مَا لَوْعَةُ الْحَزَنِ
تَضْحَكُ الدُّنْيَا إِلَى مَلِكٍ قَامَ بِالآثَارِ وَالسُّنَنِ
سَنَّ لِلنَّاسِ النَّدَى فَنَدَوْا فَكَأَنَّ الْبُخْلَ لَمْ يَكُنِ

(قيل وهو فصل الخطاب) قال ابن الأثير : والذى أجمع عليه المحققون من علماء البيان أن فصل الخطاب هو أما بعد لأن ، المتكلم يفتتح كلامه فى كل أمر ذى شأن بذكر الله وتحميده ، فإذا أراد أن يخرج منه إلى الغرض المسوق له فصل بينه وبين ذكر الله تعالى بقوله أما بعد (وثالثها الانتهاء) لأنه آخر ما يعيه السمع ويرتسم فى النفس ، فإن كان مختاراً جبر ما عساه وقع فيما قبله من التقصير ، وإن كان غير مختار كان بخلاف ذلك ، وربما أنسى محاسن ما قبله (كقوله وإنى) أى قول أبى نواس فى الخصيب بن عبد الحميد

وَأَحْسَنُهُ مَا آذَنَ بِانْتِهَاءِ الْكَلَامِ ، كَقَوْلِهِ :

بَقِيتَ بَقَاءَ الدَّهْرِ يَا كَهْفَ أَهْلِهِ * وَهَـذَا دُعَاءٌ لِلْبَرِيَّةِ شَامِلُ

وَجَمِيعُ فَوَاتِحِ السُّوَرِ وَخَوَاتِمِهَا وَارِدَةٌ عَلَى أَحْسَنِ الْوُجُوهِ وَأَكْمَلِهَا يَظْهَرُ ذَلِكَ بِالتَّأَمُّلِ مَعَ التَّذَكُّرِ لِمَا تَقَدَّمَ .

(بقيت) قيل إنه للمعرى (واردة على أحسن الوجوه وأكملها) فإنك إذا نظرت إلى فواتح السور جملها ومفرداتها رأيت من البراعة والتفنن وضروب الإشارة ما قد أصاب المحز وطبق المفصل . وإذا نظرت إلى خواتمها وجدت من الأدعية والوصايا والمواعظ والتحميد والوعد والوعيد ، وغير ذلك من الخواتم مالا يبقى للنفوس بعده مطمع . وما تسجد لحسنه مصاقع البلغاء . هذا آخر ما يسره الله سبحانه مما أردنا وضعه على هذا الكتاب ، فى أوقات كنا نختلسها اختلاساً من بين تشعب الأعمال وتزاحم الأشغال . فإن كنت وفيت بما وعدت فالشكر لله سبحانه على معونته وحسن توفيقه . وإلا فأحق الناس بقبول عذره ، وإقلال عتبه ، من وقف نفسه لصناعة التأليف فى زمن فترت فيه همم طلاب العلوم ، وخارت عزائمهم عن مساعدة المؤلفين وتنشيطهم على الدأب فى عملهم والعناية بصناعتهم . فإن فاتنى إيفاء العمل حقه من الأجر ، فلن يفوتنى إن شاء الله إعطاؤه قسطه من العذر ، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا . ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير .

عبد الرحمن البرقوقي

فهرست التلخيص